المركز القومى للترجمة

المشروع القومى للترجمة

ترحال فى صحراء الجزيرة العربية

الجزء الثانى - المجلد الثانى

الطبعة الثانية

تأليف: تشارلز م. دوتى

ترجمة: صبرى محمد حسن

مراجعة وتقديم: جمال زكريا قاسم

2/ 927





مع أن الجزيرة العربية شهدت العديد من الرحالة والمستكشفين الأوروبيين ، فإنهم لم يبلغوا ما بلغه " تشارلز دوتى " الذى اختلف عن أولئك الرحالة جميعهم، حيث عاش فى صحرائها قرابة عامين بين 1876 و 1878 متنقلاً بين مدائن صالح والعلا وتيماء وحائل وبريدة وعنيزة فى إقليم القصيم، ثم إلى خيبر والطائف وجدة . وقد أتاحت له الفترة التى قضاها فى صحراء الجزيرة العربية أن يأتى بمعلومات وفيرة ومتنوعة فى محتواها شملت آثارها ونقوشها وجيولوجيتها وحياة البادية فيها. وليس من شك فى أن المشاهدة وتنوع الخبرة جعلته يصبغ رحلاته بصبغة يسودها عمق التحليل إلى درجة أنه يخوض فى تفاصيل دقيقة ، بل كثيراً ما يقطع حديثه عن إحدى الظواهر الطبيعية أو الجيولوجية المهمة ويخرج للحديث عن جزئية صغيرة استرعت انتباهه ، كحيوان أو طائر أو حتى حشرة صغيرة ، ثم يعود بعدها لكى يستأنف الحديث عن موضوعه الرئيسى.

ومع أن رحلة " دوتى " سجلت الكثير من الظواهر العلمية والطبيعية فإنها تميزت ، بل غلب عليها طابع الوصف الدقيق للحياة البدوية . وقد تكون حقيقة أن كثيراً من الرحالة الأوروبيين الذين سبقوا " تشارلز دوتى " أو جاءوا من بعده تحدثوا عن أعراب الصحراء وحياة البادية ، لكنهم لم يبلغوا ما بلغه فيما أتى به من تفصيلات حية ودقيقة عن كل ما يتعلق بحياة البدو ومعيشتهم ، وذلك من واقع معايشته لهم خلال رحلته.



ترحال في صحراء الجزيرة العربية

(الجزء الثانى - المجلد الثانى)

المركز القومى للترجمة

إشراف: جابر عصفور

- العدد: ٩٢٧ / ٢
- ترحال فى صحراء الجزيرة العربية (ج٢، مج٢)
- تشارلز م. دوتى
- صبرى محمد حسن
- جمال زكريا قاسم
- الطبعة الثانية ٢٠٠٩

هذه ترجمة كتاب:

Travels in Arabia Deserta

By: Charles Doughty

شارع الجبلاية بالأوبرا – الجزيرة – القاهرة. ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ – ٢٧٣٥٤٥٢٦ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤

El Gabalaya st. Opera House, El Gezira, Cairo.

E-mail: egyptcouncil@yahoo.com Tel: 27354524-2735426 Fax: 27354554

ترحال فى صحراء الجزيرة العربية

(الجزء الثانى - المجلد الثانى)

تأليف: تشارلز م. دوتى

ترجمة: صبرى محمد حسن

مراجعة وتقديم: جمال زكريا قاسم



٢٠٠٩

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

م. دوتي، تشارلز
ترحال في صحراء الجزيرة العربية(ج٢_مـج٢)، تـأليف: تشارلز م. دوتي؛ ترجمة: صبرى محمد حسن؛ مراجعة وتقديم: جمال زكريا قاسم. ط٢ - القاهرة، المركز القومى للترجمة، ٢٠٠٩
٤٥٩ ص؛ ٢٤ سم
١- شبه الجزيرة العربية - وصف ورحلات
٢- الرحلات العلمية
٣- الصحراء الغربية وصف ورحلات
أ- حسن، صبرى محمد (مترجم)
ب- قاسم، جمال زكريا (مراجع ومقدم)
ج- العنوان ٩١٥,٣٠٠١

رقم الإيداع: ٢٠٠٩/٩٢٨٦
الترقيم الدولي: 6 - 192 - 479 - 977 -978
طبع بمطابع صحوة

المحتويات

الفصل الثانى عشر

عنيزة

نفود (القصيم). ممر وادى الرماح. النصرانى الذى تخلى عنه الرفيق، يلقى كرما؛ ويدخل عنيزة. وصف المدينة. الأمير زامل. عمه على. أهل المدينة. عبد الله الكنينى. منزله ودراساته. الإفطار مع زامل. النصرانى يجرى إخراجه من دكان الطبابة بواسطة الأمير على. متشدد. الإفطار مع الكنينى. أمراض العيون. الجدرى فى المدينة. شوارع عنيزة. الحياة الدينية والهادئة لهؤلاء الناس. النساء لا ترى. عبد الله البسام. غداء فى منزله. أقارب البسام. نصير السمرى. النهار فى عنيزة. جنة. مزرعة الكنينى. حامد الصافى، عبد الله البسام، الأصفر، والشيخ بن عايض. شيخ عجوز من عتيبة: التشدد. الضعيف والمهترئ. أصدقاء النصرانى. حكاية عمر، الخليفة الأول. الآثار. الكنينى. شريف المدينة الوغد يصل الى عنيزة. البسام الطيب.

وصلنا إلى نفود واسع شاهدت الرمال فيه على شكل سلسلة من الضفاف الطويلة: والناس هنا يطلقون على رمال النفود الخفيفة المتنقلة اسم عدنات adanat أو كثيب kethib ؛ والجوردة Jurda اسم يطلقه أهل هذه المنطقة على الضفاف الرملية الناتجة عن عملية الطقس، كما يطلقون على الضفاف الرملية التى تكون فى اتجاه الريح اسم لوغراف، بمعنى [لحاف lahaf] . والجوردة Jurda ويصح فيه أيضا جُرْدَة Jorda [وجمعه جراد Jerad بكسر الجيم ، وجيراد Jerad بمد الألف] اسم يطلق على الكثيب أو التل، الذى تكون له حواف من الصلصال، الحجر الرملى، والذى قد تنمو عليه الأدغال الصحراوية. الطريق إلى عنيزة، عبارة عن طريق عميق منجرف فى صحراء النفود غير المستوية؛ ولكنى لاحظت فى الرمل (الذى أثرت الريح والمطر عليه مؤخرا)

عدم وجود أى أثر لأقدام الإنسان أو الحيوان! - وبالتدريج راح حسن يحول ناقتنا عن المسار الطبيعى، لتمشى وتمر خلال الكثبان الرملية: وبذلك قل احتمال مرورنا على البدو المعادين لبريدة. والقبائل الكبيرة (التى فى هذه المنطقة هى المطير، وعتيبة، وهما حليفتان لزامل، أمير عنيزة. - زامل ، هذا الاسم كان له وقع طيب فى أذناى: ولقد بلغنى وذلك على لسان أعداء زامل من قبيلة حرب، أن ذلك الرجل كريم المحتد بحق، كما بلغنى أيضا أن: "ولد مهنا" (الذى انضموا بسببه، قبل عامين، إلى جانب ابن الرشيد فى عدائه لعنيزة) كان فظا مستبداً: وعداء قبيلة حرب هذا ، هو الذى جعلنى لا أبدأ مسيرى إلى عنيزة من منازلهم.

النفود هنا تغطيه نباتات برية يدرجها الأعراب ضمن النباتات غير الصحية؛ مما جعلنى أضرب ناقتى كى أبعدها عن الاقتطاف أو الأكل من تلك الأعشاب السامة، ولكن حسنا قال: " لا؛ إبل الحضر تأكل من هذا العشب، لأنه لا يوجد شىء سواه." شاهدنا أيضا صبيا بدويا مترحلاً كان يرعى الغنم: وسألت رفيقى،' متى ينبغى أن نصل إلى عنيزة ؟' - " عند غروب الشمس." كان ارتفاع الأرض هنا عن مستوى سطح البحر لا يزيد على ٢٥٠٠ قدم. وبعد مسير ثلاث ساعات ، عدنا إلى الطريق المعتاد، ورحنا نسير بجوار بعض أشجار الطرفاء الضخمة. 'قال حسن: نقيل Negil بمعنى سوف ننزل هنا عن راحلتنا ونستريح فى هذا المكان طوال فترة الظهيرة.' شاهدت حفرا تحت هذه الأشجار، قام بحفرها صيادو الجراد. سألت ' " هل عنيزة بعيدة عن هنا؟" - عنيزة لم تعد بعيدة عن هذا المكان." - " قل لى بحق أيها الرفيق: هل تحملنى فعلا إلى عنيزة ؟" - "أنت لاتصدقنى ؛ انتبه!" (ثم أخرج لى حزمة من الرسائل - ومع ذلك كانت تلك الرسائل تبدو قديمة وبالية)." قال: كل هذه رسائل من التجار ومطلوب منى تسليمها لأصحابها اليوم فى عنيزة؛ ثم أحضر البضاعة من هناك. - لم يسبق لى أن رأيته وهو يتسلم رسالة فرانكلين الصغير الموجهة إلى عنيزة! وجد حسن شيئًا ما فى كلامى ، لأنه لم يتوقف ومضى قدما فى طريقه؛ قد تكون المسافة التى بيننا وبين عنيزة قرابة عشرة أميال. هذه هى التربة قد بدأت تبدو أمامنا على شكل رفوف؛ وعثرت تحت أشجار الطرفاء على قليل من الماء الذى ينبعث من الأرض. وسرعان ما نزلنا

إلى قاع وادٍ من الوديان، لم يكن ذلك القاع مغطى بالحجر؛ وأثناء عبورنا قاع ذلك الوادى رحنا نخوض خلال الماء! سألت،" ما هذا الحوض أو المجرى؟" – الإجابة: " الوادى "- بمعنى أننا كنا (فى منتصف) وادى الرماح. وخضنا خلال الماء (مالح المذاق) إلى أن وصلنا إلى غابة غير مسوَّرة من غابات النخيل، وجدنا فيها حفرا تشبه المقابر عمق الواحدة منها قامة واحدة تقريبا، ومحفورة بجانب مجموعات من النخيل الصغير إلى بداية المياه الجوفية. هذا النخيل الصغير يرويه الناس طوال العام أو العامين الأولين، إلى أن يضرب جذوره لتصل إلى الأرض المالحة الرطبة.

هذه الغابة من النخيل طولها ميل، ولا يرى خلالها سوى قلة قليلة من جذوع النخل (كبيرة السن) التى تبرز منعزلة عن بقية النخل الصغير؛ والسبب فى ذلك أن تلك المزارع النائية تكون أول الأشياء التى يجرى تخريبها وتدميرها أثناء العمليات الحربية. شاهدت من خلال أشجار النخيل جدارا فنائيا عاليا، يحتمى به المزارعون فى حالة الخطر؛ كما أرانى حسن جزءاً مفتوحا وسيعا من تلك الأرض، خيم فيه ابن الرشيد ، عندما كان يقف إلى جانب ولد مهنا فى مواجهة قبيلة عنيزة. لم نلتق سوى عاملين زنجيين؛ وخلف النخيل كان الطريق يدخل أيضا ضمن صحراء النفود، وبعد مسافة قصيرة على الجانب الأيمن، كانت توجد بعض الممتلكات المسوَّرة وأوقفنا راحلتنا أمام غدير من الحجر، أو إن شئت فقل: سبيل Sebil ، بناه صاحبه فى السور الصلصالى وربطه بالسوانى (السواقى) عن طريق قناة: كان الغدير جافا نظرا لأن أحدا لم يمر بذلك المكان قادما من بريدة أو ذاهبا إليها. سمعنا الصوت الصادر عن السواقى، كما سمعنا أيضا أصوات عمال الحصاد فى الحقول." قال حسن، وهو يضع أشيائى على الأرض: هذا هو مكان الراحة: استرح فى ظل هذا الجدار، إلى أن أذهب وأسقى الناقة. وأين قربة الماء؟ حتى يمكن لى أن أحضر لك ماءً للشرب؛ فلربما تشعر بالعطش قبل دخول المساء، وذلك عندما يحين موعد دخولنا المدينة، – على حد قول عبد الله؛ وعليك أن تنتبه وتفتح عينيك تحاشيا للبدو وخوفا منهم." تركت الرجل يذهب لما أراد ولكنى جعلته يترك رمحه معى.

بعد أن عاد حسن إليَّ بقربة الماء، أبلغني أنه أطلق الناقة ترعى: "ووالله يا خليل ، لابد أن أتابع الناقة، انتبه! مخافة أن تضل الناقة طريقها. أعطني رمحي وسوف ألاحق الناقة وأعيدها، وإلا فإنها ستضل منا في النفود." – "اذهب لما تريد، ولكن الرمح سيبقى معي." "يا الله أتشك في رفيقك، هل يصح أن أمشي بلا سلاح ؟ أعطني حربتي، وسوف أعود لك خلال فترة وجيزة جدًا ." خطر ببالي أن هذا الرجل لو كان خائنا، واضطررته أنا إلى نقلي إلى عنيزة، فلربما كشف أمري إلى الحضر المتشددين في المدينة: 'هذا النصراني!' – " ستضيع ناقتنا، لا تعطلني." – " ألن تتخلى عني هنا؟" – " لا والله ، وحياة هذه اللحية!" رميت له رمحه على الأرض فوق الرمل، وبعد أن تناول الرمح قال: "أثناء غيابي ،إذا ما احتجت أي شيء ، اذهب إلى نهاية السور من هذه الناحية؛ وعندها سترى أرضا مزروعة بالنخيل، ورجالا يشتغلون. ارتح حاليا في الظل، وصلِّح لنفسك شيئا من المريسي، لأنك صائم؛ وغط هذه الجوالات والخُرْج؛ لا تسمح لأحد برؤية هذه الجوالات. عنيزة تقع على بعد مسافة قصيرة خلف ذلك العدن adan (كثيب)؛ وبوسعك رؤية البلد من ذلك المكان: سوف أجري الآن، وأعود إليك ثانية." تركته يذهب لحال سبيله، وراح حسن يعدو خلف الناقة، ثم اختفى بين كثبان الرمال. خطر ببالي في ذلك الوقت، ذلك الذي يمكن أن يحدث لهذا الرجل، ورميت عني عباءتي (بشتي) ورحت أجري حافي القدمين في النفود؛ ومن فوق واحد من الكثبان الرملية شاهدت حسنا وهو يركب الناقة ويمضي قدما – لأنه تخلى عني بالفعل ! دار دورة حول نخيل الوادي في اتجاهه إلى موطنه. وهنا عرفت أنهم خانوني وتخلوا عني بناء على إيعاز من عبد الله ، وخطر على بالي كلامه عندما قال متسائلا: " من الذي سينقل النصراني إلى الوادي؟"

كان ذلك هو أتعس المواقف وأسوأ حظ لي في الجزيرة العربية !عندما تخلوا عني هنا وتركوني خارج بلدة من البلدان الرئيسية، في وسط نجد شديدة التعصب من الناحية الدينية. لم يكن يتبقى معي سوى ثمانية ريالات، التي ربما نقلتني على أقصى تقدير إلى أقرب السواحل إلى هذه المنطقة. عدت إلى أشيائي وسلحت نفسي؛ وقطعت خرائطي إلى قطع صغيرة، – مخافة أن يقبضوا علي ويسألوني أمام مواطنين متعلمين يعرفون القراءة والكتابة.

جاءني رجل وامرأة زنجية من بين النخيل وكانا يحملان حطبا ويتجهان صوب عنيزة: لقد رأيانا أثناء مرورنا، وسألاني سؤالا ساذجا، "أين رفيقك وأين الناقة؟" - بعد ذلك واصلت مسيرى بجوار الجدار الطينى، فى اتجاه صوت السوانى (السواقى)؛ ورأيت مزارع النخيل وبيت فى بستان . كان الباب مغلقا بإحكام: وعثرت على باب آخر بعد الباب الأول؛ ونظرت من خلال الثقوب وشاهدت صاحب المزرعة وهو يقود الإبل التى تجلب الماء من الآبار. كان وجه ذلك الرجل بشوشا . دفعت بوابة ذلك الرجل ودخلت عليه فجأة، وقلت له: "السلام عليكم؛" وطلبت منه شربة ماء. توقف ذلك الرجل الطيب برهة كيما يتحقق من الغريب! ثم طلب من ابنته الصغيرة إحضار السطل، ثم أوقف إبله كى يتحدث معى." إشرب - إذا ما أردت، ولكننا ليس لدينا ماء عذب." كان مذاق الماء مراً وغير صالح للشرب؛ ولكن مع ذلك سيكون كأس الماء هذا عهدا بيننا أى بينى وبين هذا الرجل الطيب.

طلبت من ذلك الرجل الطيب أن يقرضنى ناقة أو حمارا يحمل أشيائى إلى المدينة، على أن أدفع له أجراً نظير ذلك. حكيت له أيضا كيف وصلت إلى هذا المكان ، - بواسطة جمّال من بريدة؛ والذى تخلى عنى بينما كنت أنال قسطا من الراحة بالقرب من بوابته: وقلت له أيضا: إننى حكيم، وإن كان هناك مرضى فى هذا المكان فإن لدى من الأدوية ما يمكن أن يشفى هؤلاء المرضى. - " حسن، انتظر إلى أن يعود ولدى ومعه الناقة: - (قال لابنته) : سأذهب أنا مع هذا الرجل؛ هذا هو مشعابى! خذيه، ولا تجعلى الإبل تتوقف. - من أنت، غريب، وأين تركت أشياءك؟ لعلك لا تكون تركت تلك الأشياء بعيدا عن مدى رؤيتك وبلا حراسة؛ ماذا لو لم نعثر على هذه الأشياء؟ - الأشياء كانت فى مأمن؛ وحملت الأكياس الكبيرة على كتفى، ورحت أتجه صوب بوابة ذلك الرجل الطيب فى النفود؛ كنت فرحا فى داخلى، لأنى أحمل معى الآن كل ما لى فى هذه الدنيا . طلب الرجل الطيب منى الجلوس (فى الخارج)، فى الوقت الذى ذهب هو فيه لإحضار حمار. - "هل ستدفع لى قرشا ونصف القرش (أى ثلاث بنسات)؟" وهنا توافد علينا ثلاثة أو أربعة رجال كبار كانوا قادمين من المزارع، وكانوا متجهين صوب البوابة المجاورة كى يشربوا قهوة العصر . استوقفهم الرجل الطيب وقال لهم:

" هذا غريب، – ولا يستطيع البقاء هنا، ونحن لا يمكن لنا استقباله فى بيتنا؛ وهو يطلب من ينقله إلى البلدة." وردوا عليه، بأنه ينبغى عليه إحضار الحمار وتوصيلى إلى عنيزة." ومن أنت؟ (قالوا لى): – نحن ذاهبين حاليا لشرب القهوة؛ هل سمع أحدكم الأذان؟" شخص آخر:" لقد أذنوا للصلاة فى البلدة، ولكننا لا نسمع الأذان دوما؛ – ألم تصل الشمس بعد إلى موعد العصر؟ ثم نصلى جميعا هنا مع بعضنا." اتخذوا وضع الصلاة، ودخل مضيفى ضمن الصف؛ ونادونى أنا أيضا "هيا، تعال وصل معنا!" " لقد صليت بالفعل." تعجبوا من كلامى، وبدءوا التلاوة والركوع والسجود. وبعد أن انتهوا من الصلاة جاء إلىَّ مضيفى عابس الوجه: قال : "أنت لم تصل!"، واكتشفت من نظرات هؤلاء الرجال، أنهم مقتنعون بأنى لم أكن مسلما. قال كبيرهم: "حسن، اجعلوه يمضى قدما،" ثم دخلوا من البوابة.

وضعوا جوالاتى على حمار. ومشينا فى طريقنا: وبعد أن تعدينا العدان adan (الكثيب) الأول، ومثلما قال لى حسن من قبل، أصبحنا أمام بداية حقول القمح؛ وظهرت لنا أشجار الفاكهة، كما تراءت أمامنا بعض البيوت من بين البساتين البعيدة. – قال رفيقى [وقد كان خائفا!] : "المسافة بيننا وبين البلدة (عنيزة) طويلة، وأنا لا أستطيع الدخول إلى البلدة هذه الليلة؛ ولكنى سوف أتركك مع رجل هنا، اسمه ابن ibn جواد Juad ، وهو ولد نعمة؛ وفى الصباح سيقوم بإرسالى إلى عنيزة." – اقتربنا من طريق واسع وغير مسوَّر، ومضينا إلى أن استوقف رفيقى الحمار أمام بوابة بدائية؛ هذا بيت من بيوت البساتين، وطرق رفيقى باب ذلك البيت وراح ينادى بصوت عال "إبراهيم !" وجاء إلى البوابة والد كبير السن، وفتحها إلى منتصفها ثم وقف ينتظر – وعندما وجد أن ملابسى قد تمزقت (بفعل اللصوص فى بريدة)! ونظرا لأنه لم يكن يعرف أى شخص غريب يمكن أن أكونه – ولكنه خمَّن أننى ربما كنت جنديا هاربا من الحرمين أو من اليمن، والسبب فى ذلك أن كثيرا من أمثال هؤلاء الجنود سبق أن مروا على عنيزة فى الفترة الأخيره. وهنا تكلم صاحب الحمار نيابة عنى؛ وبعدها استقبلنى رب هذا البيت. أنزلوا جوالاتى إلى بيته المبنى من الطين؛ وأدخلوها فى مخزن من المخازن وأغلقو عليها الباب؛ وعليه وبدون أن يتكلم أشار إبراهيم

لى بيده، واقتادنى بعد ذلك ، خارج البيت، إلى البستان، حيث وصلنا إلى "الديوان" (أى مكان الجلوس النظيف المفروش بالرمل ، فى أى حقل من الحقول) ؛ وتركنى إبراهيم فى ذلك الديوان.

كان منظر الأرض المزروعة يسر الخاطر، إذ كانت جذامة نبات القمح ما تزال فى الأرض، إضافة إلى أحواض البازلاء الخضراء، التى يطلقون عليها هنا اسم 'جت' Jet، والتى تستخدم علفا للإبل؛ كما كانت توجد أيضا بعض نباتات الصُّبغ، الذى تستعمل الحضريات زهوره الصفراء فى تلوين خصل شعرهن. وعندما أوشكت الشمس على الغروب، خطر ببالى وقت صلاتهم التعيس! وهنا دلفت بسرعة إلى الجانب البعيد من منطقة أشجار النخيل؛ ولكن خطوط النخيل المنتظمة لم تسترنى: وعندما عدت إليهم عند الشفق، سألونى،" لماذا لم أصل ؟ ولماذا لم أكن معهم أثناء الصلاة؟" ثم راحوا يكررون علىّ أسماء المذاهب الأربعة فى الإسلام ، ثم سألونى بعد ذلك ،" إلى أى منها أنتمى؛ أم أننى (من عقيدة مارقة) أى 'رفضى' rafuthy على حد تعبيرهم؟" – وكلمة 'رفضى' هذه تجرى على ألسنتهم وهى محمَّلة بالعداء. لم أرد عليهم ، وبقوا مندهشين. وأحضروا لى عشاءً، عبارة عن شىء من القمح المسلوق، ومعه سطلا أو سطلين من ماء الآبار؛ هذه هى أقصى مراحل الكرم فى هذا البيت البسيط. كنت أتخوف من هواء الواحة (الرطب) وسألتهم عن مكان المقهى أو غرفة القهوة إن صح التعبير. الإجابة: "ليست هنا قهوة، ونحن لا نشرب القهوة." جلسوا صامتين، وراحوا يركزون أنظارهم على الغريب، الذى لم يؤدى الصلاة.

كان ذلك الذى أحضر لى السطل (وهو ليس واحداً منهم) رجل شاب صغير ، صاحب سلوك غريب؛ وكان كلامه يكشف عن تفاهمه الممتاز. طلبت منه أن يتناول معى العشاء. – " لقد تعشيت بالفعل." – " كل حتى ولو لقمة واحدة، على سبيل العيش والملح بيننا" ، وفعل الرجل مثلما قلت. بعد ذلك، وبعد انصراف الجميع، حكيت له عن حقيقة أمرى، وسألته عن البلدة."قال: حسن، أنت معنا هنا الليلة؛ والمسافة التى بينك وبين عنيزة قصيرة، وسوف يوصلونك إلى عنيزة فى الصباح؛ وأنا أحسب، أنه لا خطر عليك

من ذلك – لأن الزامل رجل طيب: يضاف إلى ذلك، أنك مجرد عابر لبلدهم. قل للأمير في الصباح، وعلى مرأى ومسمع من الناس، 'أنا جندى من بلاد Beled عسير' el-Asir (عسير هذه منطقة جيدة من مناطق اليمن أحتلها الأتراك مؤخرا) (*) ." – وبينما كنا نتحدث سويا انطلق صوت أذان العشاء قادما إلينا من اتجاه البلدة! ووقفت فى مكانى على وجه السرعة؛ ولكن أبناء إبراهيم الثلاثة أو الأربعة ، جاءوا إلىّ مرة ثانية، وبدءوا يصطفون لأداء الصلاة! ونادوا علينا ، ونادوا علىّ أنا الغريب، بصفة خاصة وبإلحاح ، كى ندخل معهم فى الصلاة. وأجبتهم: "أنا مرهق تماما، وسوف أذهب للنوم." – العيش والملح أيها الصديق: "نعم – نعم، الغريب يقول الحق، إنه قادم من رحلة طويلة؛ دلوه على المكان الموجود فى الخارج ،الذى يمكن أن يرقد ويرتاح فيه." – " سوف أنام فى البيت وليس هنا، خارج البيت." – "لكن فليصلِّ أولا؛ هو! يا أنت، تعال وصلِّ معنا، هيا، تعال!" – الصديق: "اتركوه وشأنه، ودلوه على المكان الذى سينام فيه."، "ليس لدينا سوى بيت الخشب ." – " حسن، إذن ، اذهب إلى بيت الخشب، ودعوه ينام على الفور." اصطحبنى واحد منهم، إلى عتبة باب من الأبواب: كانت أرضية المنزل غائرة مقدار قدم أو اثنتين ، وسقطت داخل مكان مليء بأغصان نبات الطرفاء الحلوة. وبعد أداء الصلاة جاء إلىّ كل الأشقاء: وجلسوا أمام الباب فى ضوء القمر الضعيف الخافت وغمغموا، 'أنا لم أصل! – وهل يمكن أن يكون ذلك مسلمًا؟' ولكنى تظاهرت بالنوم؛ وبعد أن راقبونى مدة نصف ساعة انصرفوا لحال سبيلهم. هذا التدين جديد علينا تماما، من خلال تصرف هؤلاء الشباب الوقحين! ولكن الدين السامى Semitic – شديد البرودة ، ذلك النبات الغريب، على التربة (الوثنية) فى أوروبا، يشبه العاطفة الدافقة، عند أتباع كل من موسى (عليه السلام) ومحمد (صلى الله عليه وسلم) قبل طلوع النهار بساعة، سمعت واحدًا من أولئك الأشقاء يقترب من غرفة الخشب – كان الهدف من مجيئه التجسس على الغريب وهل سيقوم لصلاة الفجر أم لا! وعندما طلع نهار الغد كان الأشقاء الأربعة يقفون أمام الباب؛

(*) الإشارة هنا إلى الحملة العسكرية التى أرسلتها الدولة العثمانية فى عام ١٨٧٢ ونجحت بواسطتها فى السيطرة على اليمن . (المراجع)

وصاحوا فىّ قائلين، ما ma صلّيت Sulleyt ، بمعنى 'أنت لم تُصَلِّ !' - أيها الأصدقاء، لقد صليت.' - 'أين توضأت إذن ؟' - أنا لم أتوضأ، لأنى لم أكن منافقا. جاءنى شقيق آخر من هؤلاء الأشقاء ليستدعينى ؛ وأخذنى معه إلى درج (سلم) المنزل، حيث أوصلنى إلى غرفة صغيرة نظيفة: كان يفرشها بالحصير، ثم وضع أمامى طبقا من التمر الممتاز، معه سطلا من شرش اللبن ؛ وطلب منى أن أتناول طعام الإفطار وهو يقول بلهجتهم المحلية: فُك Fuk الرِّيق er-rig بمعنى 'اجرح صيامك:' (والبدو يقولون rig 'ريج' بدلا من rik (ريق) .' اشرب !' قالها، وهو يرفع إلى يداى سطله الذى يدل على الكرم. - ثم أحضر الحمار بعد ذلك ، وحمّل عليه جوالاتى، لينقلها إلى البلدة (عنيزة) . مشينا فى الطريق المسوَّر نفسه، وتجاوزنا بوابة عتيقة وبدائية من بوابات عنيزة . وهنا بدأت تطالعنا جدران كثيرة من جدران البلدة؛ هذا السور أو إن شئت فقل الجدار ، لم يكن سوى قشرة نحيفة فيها كثير من الشقوق. هذا الجدار المبنى من الصلصال يمكن إصلاحه خلال أيام قلائل، وعنيزة لا يمكن الاستيلاء عليها عن طريق التجويع؛ نظرا لأن أسوار المدينة الواسعة تحيط بحدائق النخيل داخل البلدة: كان أهل عنيزة ينتظرون أو يتوقعون نشوب حرب بينهم وبين بريدة.

مررنا على البيوت الأولى وكانت لأناس فقراء؛ وقال الشاب إنه سيتركنى أمام باب من هذه الأبواب،' حيث يعيش واحد من خدم (الأمير) الزامل.' وطرق الباب عن طريق الحلقة المثبتة فيه [والتى كما هو الحال فى دمشق] ، والتى يستعملها الناس فى طرق أى باب من الأبواب؛ وهنا فتحت الباب لنا زوجة زنجية ؛ كان زوجها ذلك الرجل الطيب (الذى يمتهن الجزارة) فى السوق. كان زوجها حارسا عاما من حراس الزامل: وهذه الأعمال الخشنة لا يختار لها سوى الزنوج (وهم أناس ليسوا من معدن أصيل). وضعوا أمتعتى فى فناء الإبل الصغير، الخاص بكوخهم الصغير المبنى من الطين ولكنه نظيف. جاء على رب البيت الزنجى على الفور بعد وصولنا ؛ وعندما وجد غريبا واقفا فى حوش بيته، أقبل على الضيف وقبله، واقتادنى إلى داخل قهوته الصغيرة؛ وفى الحال تجمع حولنا، على إثر سماع صوت هاون طحن البن، عدد قليل من الجيران السود أيضا. صلح علىّ القهوة، نظرا لأن القهوة تقدم فى البيوت الفقيرة فى عنيزة .

وبعد تناول القهوة أحضر المسكين لنا صينية عليها إفطار طيب: هذا الكرم كان كبيرا قياسا على ضعف موارده وتواضعها؛ ثم جلس ليأكل معي. - هؤلاء الزنوج الذين ولدوا في الجزيرة العربية، يفيدون من عادات الجزيرة العربية! فقد رأيت أمام الكوخ مكانا خربًا يطلقون عليه اسم 'الجد' el-Gd ؛ ورأيت في ذلك المكان الخرب، أو إن شئت فقل 'الجد' خيمة أو خيمتين من خيام البدو البائسين: هذه البقعة أو إن شئت فقل: المكان تركه صاحب المنزل، شاغرا من باب الإحسان ، يضاف إلى ذلك أن ذلك الجد كان يتزود بالماء عن طريق قناة متصلة بالسواني التابعة لمالك الأرض . وعندما تعرفت عليهم بعد ذلك ، وبعد أن راح ولده يستشير النصراني ويطلب نصيحته، 'كيف يمكن الاستفادة من هذه الأرض على أفضل نحو ممكن ؟ - نظرا لأن المخلفات التي في ذلك المكان ، كانت ضاره بالصحة ؛ - 'أجبته ،" حوِّل هذا المكان إلى حديقة عامة؛ "ولكن ذلك كان أمرا لا يرقى إليه فهم هؤلاء الناس.

كنت أخرج وأذهب لمضيفي على طلبا لزيارة الأمير زامل؛ وبالرغم من أن الوقت كان مبكرا جدًا، على حد قول مضيفي الزنجي : إلا أن هذه هي بداية شوارع المدينة ، وقد فتح الناس بعض محلات البيع والشراء ؛ والطرق هنا، في عنيزة، نظيفة. وهذا هو السوق يبعد عنا حوالي ٤٤٠ ياردة تقريبا ، ويكتظ (في هذا الوقت من اليوم) بأهل المدينة الذين يتنقلون وينتشرون هنا وهناك ، في كل أنحاء السوق: الناس في السوق كلهم من الرجال، والسبب في ذلك أن البنات والزوجات لا يخرجن من بيوتهن إلى هذه الأماكن العامة. - وعند مفترق الطرق قابلنا شابين صغيرين ." ها! قال أحدهما لعلي، هل الغريب الذي معك نصراني؛" - واستدار الشابان إليَّ وقالا: "تعال باكر يا خواجة:" رددت عليهما ،" أنا لست خواجة، ولكني إنجليزي ؛ وكيف تعرفتما علي ؟" - " وصلتنا بالأمس أخبار قدومك من بريدة: وأنت يا علي ، إلى أين أنت ذاهب بهذا النصراني؟" هذا الرجل المسكين ،الذي بدت عليه الدهشة، رد عليهما بعد أن سمع أن ضيفه نصراني "أنا ذاهب إلى زامل." - " زامل ليس في المجلس حاليا؛ ولذلك أحضر النصراني ليشرب معنا القهوة في بيتي. قالا: نحن من جدة ومعتادين على رؤية كل أنواع النصارى هناك." اقتادانا إلى الدور العلوي من بيت كبير، يقع بالقرب من ميدان السوق، والناس

هنا يطلقون على ميدان السوق هذا فى القصيم اسم "المجلس" el-Mejlis : وكانت غرفتهما مفروشة بالسجاد الفارسى.

كان هذان الشابان تاجرين عنزيين فى مدينة جدة. أرانى أحدهما بندقية من طراز ونشستر (تتسع لسبعة عشر طلقة) !" (وكذبا) أن هناك خمسين بندقية أخرى من هذا الطراز فى عنيزة: ووجود هذه البنادق فى أيديهم جعلتهم لا يخشون العمليات الحربية [التى كانوا يظنون أنها قد تنشب من جديد] بينهم وبين ابن الرشيد: وقد سبق لهذين الشابين أن انضما إلى صفوف المجاهدين فى جدة بعد إعلان الجهاد." وأضافا قائلين: وإذا ما نشبت الحرب بيننا وبين بريده، ألن تكون أنت قائدا لنا؟"

تركنا هذين الشابين على الفور. واقتادنى عليٌّ بعد ذلك إلى ميدان السوق (المجلس بلغة القصيم): ومن قبيل الحظ السعيد تصادف أن يكون الأمير موجوداً هناك؛ ومجلس الأمير يقع تحت مدخل مسقوف لميدان السوق، وهذا المدخل يقع على ناصية الشارع المؤدى إلى منزل الأمير المبنى من (الصلصال)؛ هذا المجلس يواجه شارع (سوق) القماش. ومجلس الأمير له جانبان مبنيان من الصلصال أيضا؛ أحد هذين الجانبين مفروش بالسجاد الفارسى، وقد جلس عليه زامل وبجانبه سيفه. وزامل رجل صغير الحجم يوحى وجهه بالبشر، كما توحى عيناه بسرعة البديهة والذكاء: وعندما اقتربت منه كان الاعتدال يبدو على وجهه. وعندما وقفت أمامه نهض زامل بعض الشىء من مكانه وأمسك بيدى وقال لى فى شىء من الود: "تفضل بالجلوس، اجلس !" وجعلنى أجلس إلى جواره. قلت: "أنا قادم من بريدة، وأنا حكيم، أنا إنجليزى، ونصرانى ومعى هذه الأوراق؛ وربما توافق على نقلى إلى الساحل." نظر زامل إلى ذلك الذى وضعته فى يده: وبينما كان يقرأ الأوراق ظهر عدم الارتياح على وجهه، واستمر ذلك مدة لحظة واحدة! ولكنه نظر بعد ذلك إلى الأعلى،" ورد على قائلا: حسن؛ فى الوقت نفسه لا تحاول نشر نفسك على الناس هنا." أنا نصرانى؛" قل لهم، أنا ana عسكرى askry ، بمعنى "أنا جندى (عثمانى) هارب. وأنت يا على، عد إلى البيت مع خليل، وأحضره بعد صلاة الظهر إلى القهوة فى بيتى: ولكن حذارى من التمشى فى الأماكن العامة."

مررنا من سوق القمّاشين ونحن فى طريقنا إلى المنزل، كما مررنا أيضا من خلال سوق اللحامين أو إن شئت فقل القصابين. لم يلاحظنا أحد من المواطنين الذين كانوا مشغولين بأعمالهم؛ ولكن رجلا أمسكنى من كم ردائى؛ وعندما استدرت وجدت ذلك الرجل واحداً من أهل الجزيرة العربية الذين يشبهون النساء، وأجسامهم نحيلة، ورأيت أن عينيه كانتا مكحلتان ، وكان يرتدى الزى البغدادى . قال الرجل : أنت، من min أين eyn من أين أنت؟ وهل أنت نصرانى؟" أجبته "إى:" ومع ذلك ، كان كلما سأل أحد عليًا،" من الذى معك يا على؟ كان الزنجى يرد عليه.رداً قاطعا،" غريب، رجل ذاهب إلى الكويت." - كانت عنيزة تبدو بلداً طيبا، وعامرة بكل الأشياء التى يحتاجها الناس هنا فى حياتهم المدنية: مررنا على مسجد جيد البناء ولكن المسجد الكبير كان فى الميدان العام - المبانى كلها هنا من الصلصال (الطين) فى هذه المدينة من مدن الجزيرة العربية.

فى تلك الأيام كان الناس يتحدثون عن الجدل والشقاق الدائر بين عنيزة وبريدة (*) : وبالرغم من أن ولد مهنا كتب لزامل مؤخرا يقول له: أنا ana ولدك weled-ak ، بمعنى' أنا ابنك (أخدمك وأطيعك)؛' وبالرغم من أن زامل كان قد سبق له أن كتب لولد مهنا يقول له :" أنا صديقك." "قال على أثناء الدردشة حول وجار القهوة: والله، إن التنقل بيننا وبين بريدة يكاد يكون متوقفا: ولكن، فى خلال أيام قلائل، سيصل إلينا حلفاء زامل قادمين إلينا من شرقى البلاد، ومن الجنوب، وبالذات من منطقة وادى الدواسر." ثم قالوا لى بعد ذلك: أننى ينبغى أن أنتبه أثناء مرورى خلال هذا الشارع الذى يعج بالرجال المسلحين.

بعد أذان الظهر قصدنا إلى بيت زامل (الجميل)، الذى يقع فى طريق مسدود بالقرب من المجلس . كان مقهى زامل مفروشا بالحصير المصنوع من الأعشاب (فقط)؛

(*) تعد بريدة وعنيزة من أهم بلدان القصيم ، ويرجع سبب الشقاق الذى كان قائما بينهما إلى موالاة بريدة للسعوديين على عكس عنيزة التى امتنع أميرها عن دفع الزكاة لهم . ومن ثم استعان السعوديون ببريدة ضد عنيزة مما كان سبباً فى تأجج الصراع بينهما . (المراجع)

وكان يجلس معه قلة قليلة من البشر. كان ولد زامل الأكبر عبد الله، يجلس خلف وجار القهوة، ليقوم بتصليح القهوة. ووصلت أنباء مفادها أن بعضا من حمير أهل المدينة قد جرى الاستيلاء عليها في النفود بواسطة العتبان (وهم من البدو الرحل الأصدقاء)! - وأرسل زامل في طلب واحد من مسلحيه الراكبين: وسأله، "هل كان جمله في البلدة؟" - " الجمل جاهز تماماً - إذن ، خذ معك رجلا آخرا، وقص أثر هؤلاء العتبان ، لعلك تلحق بهم اليوم!" - ولكن ماذا لو خسرت الناقة - ؟" (واحتمال سقوطه في أيدى الأعداء). رد عليه زامل،" سيكون عليّ نصف الخسائر المترتبة على ذلك؛" وهنا خرج الرجل. كان زامل يتكلم بطريقة ودية، وكان يبدو عليه أنه لا يحب الأوامر؛ ولكن هذا من قبيل اعتدال شيوخ العرب الفطرى. - على ، عم الأمير، دخل علينا مسرعا! كان زامل قد عين علياً قبل سنوات عدة أميرا تنفيذيا فى البلدة؛ وكان من عادة زامل أن يترك عليا نائبا فى عنيزة، عندما يقوم زامل بأعمال حربية أو ميدانية . عليّ أصلا واحد من تجارالإبل ؛ وليس لديه سوى قلة قليلة من الأصدقاء المتشددين. أفسح الجالسون له مكانا، وجلس ذلك الرجل العظيم فى أعلى جزء من المجلس. جلس زامل، الأمير والمضيف فى ذات الوقت، متكئا على مخدة فى مواجهة الجميع؛ فى حين جلس ولده عبد الله وهو يدخن غليونا من التبغ بجوار القهوة! - ولكن التدخين أمر لا يمكن الصفح أو العفو عنه فى الشارع. جهزت القهوة، واتجه ذلك الذى حمل الدلّة والفناجيل، نحو زامل ليصب له الفنجان الأول ؛ ولكن الأمير أشار بتواضع بتقديم الفنجال الأول للأمير على. وبعد أن انتهينا من شرب القهوة، قال زامل لعمه:" هذا الغريب حكيم، وهو رحّال من الشام: وسوف نرسله، حسب طلبه، إلى الكويت ." - هذا العلى، الذى كان مشبعا بالتشدد الوهابى لم يكن متحمسا حتى لمجرد النظر إلى . "قال: أخ! بلغنى أن ذلك الرجل نصرانى: هل توافق على بقاء نصرانى فى عنيزة؟" زامل: "إنه رحّال ؛ قد يبقى معنا أياما قلائل ، ولا ضرر من ذلك!" رد على ،"أخ!" وبعد أن أنتهى من شرب فنجالى القهوة، وقف غاضبا وانصرف لحال سبيله. وكان ولد زامل نفسه من رأى جده الوهابى أيضا، وكان عمر ذلك الولد يقدر بحوالى عشرين عاماً: كان وجه زامل يوحى بالجرأة والشجاعة، وكان محياه يوحى بأنه من نسل الشيوخ، ولكن كلامه، كان يوحى

بأنه ميَّال للزنوج، وهنا وبصوت ضخم يوحى بالعداء سألنى ولد زامل - لأن ذكاءه لم يسعفه بأكثر من ذلك،" ماسمك؟" وعندما انصرف الجميع، أطلعنى زامل على ساعديه الملتهبين والمصابين بمرض الهرش الذى يعانى منه منذ عشرين عاما! - لقد شاهدت هذا المرض فى قلة قليلة من الأفراد فى عنيزة. وقال الرجل، بطريقة العرب: "وأنت إذا ما استطعت شفائى من هذا المرض، فسوف نعطيك فلوسا ! Fulus" .

جاء إلى، على وجه السرعة، بعض الناس الذين كانوا يودون مقابلة الحكيم، وذلك عندما عدت إلى بيت على؛ وعرض علىَّ واحد' منهم دكانا dokan خاليا، أو إن شئت فقل: محلا صغيرا فى شارع جانبى قريب من السوق. - وأحضر على حمارا ينقل عليه زكائبى وجوالاتى: وقبيل الظهر كنت أجلس فى دكان الطبيب: وخطر ببالى، هل سأجد الراحة هنا، فى هذا المكان، من الجزيرة العربية؟ وعندما أذن المؤذن لصلاة العصر؛ سمعنا أقدام قطيع من البشر، والجيران الذين راحوا يتوافدون على المسجد الموجود فى نهاية الشارع . - نعم، هذا اليوم هم يبادرون بالذهاب إلى المسجد كما لو كانوا من أصحاب النبى (ﷺ)! قفلت دكانى مثل بقية الدكاكين الأخرى، وجلست بالقرب منه؛ كنت أحسب أن ذلك الإغلاق يمكن أن يحمينى من تشددهم الدينى. - وانطلق صوت مؤذن البلدة يقول :" الله Ullahu اكبر akhbar (*) ! " الله Ullahu أكبر akhbar ! " .

بعد صلاة العصر تدخل البلدة فى فترة راحة وفراغ؛ وهنا تذهب الشخصيات الرئيسية لشرب قهوة ما بعد العصر مع أصدقائهم. وبعض المواطنين الذين كانوا يمرون من ذلك الشارع توقفوا لرؤية النصرانى، ويسألونه عن أدويته؛ والسبب فى ذلك أن العرب كلهم تقريبا مصابون بالأمراض ، أو يتوهمون أنهم مرضى أو مسحورين. كان سلوك هؤلاء الحضر يتسم بالهدوء، كان الكثيرون منهم من الأطفال ومن الأشخاص العاطلين! ولكن كلام زامل كان يقضى بألا يتعرض أحد للحاج خليل أو يضايقه، - وعليه فإن الكثيرين من الرجال الطيبين الذين سمعوا أننى ذهبت مرات

(*) akhbar لفظها المؤلف "أخبر" بدلا من "أكبر" akbar ، وهذا راجع إلى أن صوت الخاء يصعب لفظه على الإنجليز لعدم وجوده أصلا فى لغتهم . (المترجم)

عدة" القدس،" (أى ، أورشليم) راحوا يستدعونى، لأن ذلك كان يزيد من رصيدى وسلامتى بين الناس. هذا السلوك المتحضر لمواطنى جزء من أجزاء وسط الجزيرة العربية، يختلف عن السلوك (البدوى) لسكان حائل من الحضر، الذين كانوا يرتعدون خوفا من ابن الرشيد: المواطنة هنا حرة فى ظل حكم الأمير الطبيعى، الذى يتحدث كما لو كان رجلا من الشعب، ويحكم مثل شيخ كبير ومهيب، من شيوخ العرب، بين أخوانه من البشر.

زامل ينحدر من السبّاع، الذين يعدون أصحاب المستوطنات البدوية الأولى التى أنشئت فى هذا القاع الغرينى من النفود. وإلى يومنا هذا، فإن عدد هذه الأسر يعد قليلا فى عنيزة؛ وأسر السبيع هنا هى التى فيها الإمارة، ولذلك فهم يقولون: حنا -hen na الأمرا el-umera ، بمعنى" نحن الأمراء". ومن حيث العدد، فإن أسر بنى خالد أكبر من السبيع؛ وبنو خالد هم أولئك الأمة القبلية البدوية القديمة، التى كان اسمها فى نجد هو الاسم الأعظم والأعرق قبل الوهابيين (*) ؛ ولكن أكثر من نصف سكان عنيزة من بنى تميم. وفى عنيزة (كما هو الحال فى أى مكان من الجزيرة العربية) هناك بعض المناطق التى يحكمها بعض الشيوخ عن طريق الوراثة؛ ولكن هؤلاء الشيوخ لا يشكلون أحزابا أو طوائف مناوئة، - وكل هؤلاء الشيوخ يخضعون لزامل عن طيب خاطر. هؤلاء الناس الذين تجمع بينهم الوحدة ويعيشون فى ظلها، لا يخشون العدو الأجنبى .

مر علينا أيضا بعض من الأشخاص المهمين أثناء عودتهم من بيوت أصدقائهم إلى بيوتهم. - اقترب منى واحد من هؤلاء ، وقال:" هل لديك معرفة بالطب؟" شخص هذا المتكلم، وملامح وجهه، جعلتنى أتذكر على الفور محمد على الجزائرى، الذى التقيته فى مدائن صالح! ولكن ذلك الشخص الذى يقف أمامى هنا هو ابن طيب من أبناء

(*) بنو خالد : كان تنظيم بنى خالد من أقوى التنظيمات القبلية فى القسم الشمالى من الخليج العربى حيث سيطروا على الأحساء وامتد نفوذهم إلى نجد . غير أن الصراع بينهم وبين السعوديين أدى إلى الإطاحة بنفوذهم فى عام ١٧٩٥ . وعلى الرغم من المحاولة التى بذلها محمد على بعد قضائه على الدولة العثمانية لإعادتهم إلى الحكم ومحاولة الدولة العثمانية إعادتهم هى الأخرى إلى حكم الأحساء إلا أن تلك المحاولات لم يقدر لها الاستمرار وانتهى الأمر بخضوع الأحساء لعبد العزيز بن سعود فى عام ١٩١٣ . (المراجع)

تميم، الذى سبقنى نجمه الحسن، اعتبارا من ذلك اليوم وحتى نهاية رحلتى ، إلى كل أنحاء الجزيرة العربية! أمسك ذلك الرجل بيدى، وهذا دليل من دلائل حنان العرب وحنوهم، وقال : "هل تتفضل بزيارة أمى المريضة؟"

اصطحبنى ذلك الرجل إلى بيته الذى لم يكن بعيدا عن دكانى؛ ودخل هو من باب جانبى ليجيئ من الداخل ويفتح لى الباب الرئيسى: وداخل المنزل وجدت صالة كبيرة لشرب القهوة، مفروشة بحصير مصنوع من الأعشاب، التى يجرى جلبها من منطقة الأحساء. كانت جدران تلك الصالة مزينة بشبكة من الجبس مثل تلك الشبكة التى سبق أن شاهدتها فى بريدة. وكانت هناك سجادة فارسية مفروشة أمام الوجار، لتكون بمثابة مكان يجلس فيه الضيوف؛ وجلس هو بنفسه إلى الوجار لتصليح القهوة. كان ذلك هو عبد الله الكنينى el-Kenneyny الابن الحظيظ سليل أحد البيوت الفقيرة. لقد خرج من عنيزة شابا صغيرا؛ وبعد أولى مخاطر الحظ، ازدهر حاله ليصبح واحداً من أكبر التجار الأجانب. كان عبد الله الكنينى يتاجر فى القمح فى مدينة البُصرة Bosra ، وكان يحيا حياة هانئة فى الخارج؛ لأن صدره لم يمتلأ فى عنيزة، التى كان يحتقر فيها التشدد والتعصب الوهابى. وهو فى هذه الأيام ترك تجارته فى البصرة فى رعاية شقيقه (صالح، الذى قالوا لى : إنه لا يشبهه تماما)، وأن عبد الله جاء ليقضى إجازة مدتها عام فى موطنه؛ أملا فى تحسن صحته المعتلة بفعل هواء نجد.

عندما نظرت فى وجه ذلك الرجل ابتسم ابتسامة حانية. - "قال: هل أنت إنجليزى؟ ولكن لماذا تقول ذلك للناس، فى هذا البلد المتشدد تشددا وحشيا؟ لقد أمضيت سنوات كثيرة فى بلاد أجنبية، فقد عشت فى بومباى، التى تخضع لحكم الإنجليز: تستطيع أن تقول ذلك الذى تقوله لى أنا، ولكنك لا يمكن لك قوله لهؤلاء الناس الجهلة الأغبياء؛ - يا لها من سذاجة! واستغربها تماما عندما تكون من رجل أوروبى. وهل نحن هنا فى بلد تحكمه حكومة؟ لا، إننا فى بلد من بلاد الأعراب، التى يعد فيها اسم النصارى شيئا مقيتا ومكروها. هم يظنون أن النصرانى ابن من أبناء الشر، و(من ثم) فهو يستحق الموت: ونصف سكان عنيزة وهابيون." - " ألا ينبغى ألا أقول

الحق هنا، كما لو كنت في بلدى تماما ؟" عبد الله: "نحن لدينا أو لنا لسان يخدمنا نحن وأصدقاءنا ويُصْلى أعداءنا؛ ؛ وواقع الأمر أن الكذب أكثر من الصدق فى كثير من الأحيان. - ألا تخاف أن الله سوف يعاقبك إذا ما توافقت معهم من حيث المظهر؟ أليس الخير والشر موجودان فى كل شىء من الأشياء؟" [بما فى ذلك الكذب والنفاق.] - " أنا هنا للعام الثانى، فى هذه البلاد الخطرة، ولا ألاقى نقدا لاذعا أو قاسيا. ألم تسمع المثل الذى يقول: الصدق يمشى فى الدنيا كلها بلا سلاح ." - " ولكن الإنجليز ليسوا على هذا النحو! لا، لقد وجدت الإنجليز مليئين بالسياسة : فى العمليات الحربية الأخيرة التى دارت بين عبد الله وسعود بن سعود أرسل مقيمهم فى الخليج سرا مئات من جوالات الأرز إلى سعود (*) [الجانب المعتدى؛ وبالتالى فإن عبد الله يكره اسم الإنجليز] . - أنا أعرف أنك لن تقتنع بما أقوله! ومع ذلك أتمنى لك الإبقاء على حياتك: ولكنهم لن يطيقوا مقامك بينهم ! سوف تطرد من مكان إلى آخر." - " هذا البلد، عنيزة، بدا لى مكانا مسالما، كما أن أهل هذا البلد متشددون جداً ؟ " - "كما أن الكثيرين، من أهل هذا البلد، الذين سبق لهم السفر، ليبراليون، أى غير متشددين أو متزمتين؛ أما باقى السكان فهم غير ذلك . ألا، يصح الآن أن نذهب إلى أمى؟"

أدخلنى عبد الله فى غرفة من الغرف الداخلية فى البيت، ومن تلك الغرفة صعدنا إلى الطابق العلوى. كان عبد الله قد اشترى هذا المنزل (الصلصالى) الجديد فى العام السابق، نظير مبلغ ألف ريال، ما يقرب من ٢٠٠ جنيه إنجليزى . الأعمال المبنية من الطوب اللبن فى عنيزة جيدة، وجدران البيت المبنى بهذه الطريقة يمكن أن تصمد مدة مائة عام. كان الإيجار الذى يدفعه لبيت من هذا القبيل، قبل عام واحد يقدر بحوالى خمسة عشر ريالا؛ والناس هنا فى الجزيرة العربية ينظرون إلى الممتلكات العقارية باعتبارها نقودا مدخرة، وليست فيها أية شبهة من شبهات الربا، - هى من الممتلكات الشرعية المؤكدة. كانت الفائدة السنوية لكل ١٠٠٠ دولار فى عنيزة تقدر بحوالى ١٢٠ ريال؛

(*) كان للإنجليز دور فى الصراعات التى نشبت فى الأسرة السعودية عقب وفاة الإمام فيصل بن تركى فى عام ١٨٦٥ مما كان سببا فى إضعاف الدولة السعودية الثانية وبداية تصاعد نجم آل رشيد . (المراجع)

ومن ثم فإن الخسارة التى تلحق بعبد الله كل عام كانت تقدر بحوالى ١٠٠ ريال. ولكن إحساس الناس هنا وهم يسكنون فى منازلهم الخاصة، يجعلهم يتمتعون بنوع من الأمان: بالرغم من سرعة تحلل الجدران، وأن ذلك لن يكون فى حياة أبنائهم. كانت هناك غرف جيدة فى الطابق العلوى من منزل عبد الله، ولكن تلك الغرف كانت شبه خالية من الأثاث من وجهة نظرنا، نظرا لأن المنقولات فى تلك الغرف كانت أقل بكثير مما لدى البدو: كل ما كان داخل بيت هذا الرجل يمكن تحميله على ظهور ثلاثة من الإبل! والبلاد العربية لا تعرف مشتملات أثاث غرف النوم؛ والناس هنا ينامون على الأرض؛ والأغنياء منهم، هم وميسورى الحال لا يفرشون تحتهم سوى مرتبة نحيفة، ويتغطون بلحاف ليس إلا: ولم أر سوى القليل من الصناديق التى كانوا يضعون فيها ملابسهم. ومنازل الناس هنا، فى هذه البلاد المشمسة، يدخل الضوء إليها عن طريق ثقوب طويلة يصنعونها فى أعلى جدران المنازل. ولكن عبد الله لم يكن يعيش فى البصرة فى بيت بسيط من هذا القبيل؛ والسبب فى ذلك – أنه فى جانب العالم الكبير العظيم، تكون غرف كبار التجار العرب مزودة بالكراسى: وكان تاجر tajer عنيزة (شأنه شأن بقية التجار) يجلس على تخت takht أو مقعد خشبى مفروش بالسجاد داخل غرفة المحاسبة.

أخذنى إلى غرفة رأيت فيها أمه العجوز، جالسة على الأرض؛ وترتدى – شأنها شأن كل النساء فى الجزيرة العربية، لباسا من القماش مصبوغا باللون النيلى. وغطت العجوز وجهها، عندما دخلنا الغرفة، بقناع! ابتسم لى عبد الله، ونظر ليرى "رجلا من أوروبا" وهو يبتسم. "قال: يا أمى، أنا أحضر لك الحكيم؛ قولى: ما الذى يتعبك، وأسمحى له بالنظر فى عينيك: "وبيد حانية راح يرخى عليها قناعها." قالت: أوه! رأسى يؤلمنى؛ وهذا الجانب كله يؤلمنى بشكل لا أستطيع معه النوم، يا ولدى." عبد الله ربما كان فى الأربعين من العمر؛ وبالرغم من ذلك كانت أمه تشعر بالخجل، من – أن ينظر رجل غريب إلى عينيها. – عدنا إلى غرفة القهوة صديقين حميمين. "قال: أمى امرأة مسنة، ومريضة، أنا أحزن عندما أراها هكذا: وأنت إذا ما استطعت مساعدتنا، فإن ذلك سيكون عونا وعزاء كبيرا لى."

– أردف عبد الله قائلا: " أنا الآن في حيرة! من أنك يتعين عليك أن تعلن في هذا البلد، أنك إنجليزي؛ إذ كيف لك – أن تمضى هنا يوما واحداً فى أمان ! لقد عشت مع البدو؛ نعم، ولكن الأمر هنا مختلف في حياة المدن." – " أنا أزعم ، أن الأخطار التي من هذا القبيل لا تنطوى على شيء أكثر من الحماقة." – " هذا يعنى ، أنك لن تعمل بالنصيحة المفيدة! ولكنك ينبغى أن تثق بى تماما من هذه الناحية: فأنا الذى سوف أحرسك، وأحذرك من أى تغيير قد يطرأ على عنيزة." سألت،" وماذا عن الأمير؟"، – "يمكنك أن تثق بزامل أيضا؛ ولكن زامل نفسه قد يعجز فى بعض الأحيان عن السيطرة على حشود الناس."

– في غرف العرب المبنية من اللبن ، والتى لها نوافذ لا تفتح مطلقا، يكون الهواء حلوا وجافا، تماما مثل هواء الحقول المفتوحة الوسيعة؛ كما يفوح من تلك الغرف عبق حياة إنسانية مضيافة، لا تعرف السطحية الخادعة: ومع ذلك لا تكون الحياة الإنسانية هنا كاملة أو صحيحة، إذ ما بدأنا ندرك بصورة متدرجة غياب المرأة عن هذه الحياة. يضاف إلى ذلك أن الجدران المكشوفة للرياح لا تسر الخاطر: الصور – تلك الصور الجميلة التى تزين أفقر منازلنا، ليست هنا سوى أشياء دنيوية وتافهة من منظور التقشف الإسلامى. هؤلاء العرب، الذين يجلسون على الأرض، يرون العالم رؤية تكاسل أكثر منا: وهم يتعين عليهم الوقوف وهم يتكئون على أجسادهم. – كانت كتب عبد الله موضوعة في طاقة بالقرب من موقد النار. أصبحنا أنا وهو أخوين، ورحت أتصفح تلك الكتب الواحد بعد الآخر: كان هناك مجلد ضخم موضوع أعلى الكتب: قرأت عنوانا عربيا "دائرة معارف البستاني، بيروت – هذا البستاني (الذى ولد فى أسرة مسيحية فى إحدى القرى اللبنانية) كان طباعا، وصحافيا، وناظرا للمدرسة، وأديبا أيضا فى بيروت: وهو فى كل عام يضيف جزءاً جديدا إلى دائرة المعارف، ولكن المشروع الذى من هذا القبيل يستغرق إنهاؤه زمنا طويلا. سقطت نظارة عبد الله على موقع كان يتناول الآبار الارتوازية: كان ينظر إلى ذلك الموضوع كل يوم بحثا عن بعض وسائل رفع الماء عله يستفيد منها فى رى أرضه الزراعية دون اللجوء إلى استعمال الإبل فى رفع الماء.

بعد أن أثرى عبد الله من الخارج، أشترى مؤخرا فى بلده بيارة من بيارات النخيل وحقلا من حقول زراعة القمح؛ ونظرا لعدم رضاه عن البئر القديمة، قام بحفر بئر جديدة يعمل فيها ثمانية من الإبل فى رفع الماء من البئر. قلّبت صفحة أخرى ووجدت "جبل المحرق" وصورة لجبل وبركان أطنة (*) Etna .

وقد سعد عبد الله عندما استمع إلى وأنا أتحدث عن العرب القدامى الذين اغتصبوا أرض صقلية، وأن ذلك الجبل مازال حتى الآن مسمى بلغتهم ، إذ يقال له جبلّو Gibello (وهى مأخوذة من كلمة 'جبل' العربية). قلبت الصفحة بعد ذلك على كلمة "تلغراف"، وتعجب عبد الله،" آه أوروبا بلد الاختراعات! يا لهذه العبقرية العجيبة التى كان عليها ذلك الذى اكتشف التلغراف!" وعندما سألنى طلبا لمعرفة المزيد عن مهنة الطب التى أمارسها؛ قلت له: " أنا تماما مثل حداديكم من الصلُّوُبة – أحسن من لا شىء ، أى لن تجدوا من هو أفضل منى." ومع ذلك عبد الله يؤمن بأن مهارتى أكبر من ذلك بكثير، والسبب فى ذلك أن كل مرضاى المعقولين شفوا من كل ما كانوا يعانون منه؛ ولكن أمه بصفه خاصة.

وبينما كنا نتحدث سويا جاءنا اثنان من مواطنى عنيزة الذين يعيشون فى بلاد أجنبية، هذان الاثنان كانا مواطنا ثريا هو وخادمه، وكانا يرتديان الملابس البغدادية ، أو إن شئت فقل: ملابس بلاد الرافدين، وكانا يضعان على رأسيهما عقالان، يشبه كل واحد منهما العمامة الكبيرة، ومصنوعان من وبر الجمال. كان الرجل جمّالا Jemmal ، أى من العاملين فى مجال النقل بالإبل فى حركة النقل بين العراق وسوريا، – أى على طريق التجارة الطويل الذى يدور حول حلب؛ ولكن بعد ضياع القافلة، التى سبقت الإشارة إليها [فى الجزء الأول] – ونظرا أيضا لعدم قدرته على مواجهة تلك المخاطر، باع الرجل إبله واشترى بثمنها حقولا وأراضى زراعية. وهو اليوم واحد من كبار المزارعين فى مستوطنة زراعة القمح الجديدة، فى منطقة العمارة el-Amara

(*) أطنة : فى إيطاليا وهو يمثل أعلى بركان فى أوروبا وأعلى جبل فى جنوب إيطاليا إذ يصل ارتفاعة إلى ١٠٤٧١ قدما، وهو يقع فى إقليم كتانيا شرقى جزيرة صقلية . (المترجم)

(التى تقع على النهر على مقربة من شمالى البصرة)، فضلا عن كونه أيضا زبونا من زبائن الكنينى - والكنينى هذا واحد من كبار تجار الحبوب فى مدينة النهر. وسرعان مادخلت علينا صينية الغداء الذى قدمه لنا ذلك التاجر. وهنا وقفت كى أرحل عن المكان؛ ولكن عبد الله جعلنى أجلس ثانية كى آكل معهم، بالرغم من أنى كنت معزوما فى مكان آخر. - أمضيت ذلك اليوم الوحيد الطيب فى الجزيرة العربية؛ أما الأيام الأخرى فكانت أياما سيئة والسبب فى ذلك هو تشدد الناس. وفى الليل نمت فى شرفة الكوخ الذى كان يعيش فيه مريض فقير، هو جار من جيران على؛ ولم أفضل الدكان غير المكنوس فى النوم، وبحيث لا أكون بعيدا عن الأصدقاء.

جاءنى علىٌّ مع شروق الشمس، قادما من عند الأمير زامل، ليعزمنى على تناول الإفطار - الخبز والملح المقدم (للمسيحى والفرنجى) الغريب، من الأمير اللطيف الفيلسوف. شربنا قهوة الصباح، ونحن جالسين حول وجار القهوة؛ ثم قدمت لنا بعد ذلك صينية الإفطار، وجلسنا حول تلك الصينية فى وسط أرض الغرفة، وكنا ثلاثة الأمير، والنصرانى، ثم على: لأن المقامات والدرجات لا تراعى عند العرب أثناء تقديم الطعام وذلك من منظور حياتهم المنزلية وحياتهم الدينية أيضا. - طعام الفطور فى عنيزة عبارة عن خبز مخمور حار [وهو مر المذاق إلى حد ما بالنسبه لى، ومع ذلك فهم لا يلحظون هذه المرارة، وربما كان ذلك بسبب طحن قليل من الملح مع القمح، على حد قول عبد الله] : ومع ذلك الخبز كان هناك شىء من التمر، وسطل من زبد (البقر) الحلو. وسطل من لبن خض البقر؛ حتى يتسنى للمفطرين أن يشربوا منه بعد تناول الطعام ، عندما يقومون لغسل أيديهم؛ ولغسيل الأيدى كان هناك إبريق من المعدن ووعاء. ويجرى صب الماء على الأصابع؛ وهنا يستأذن المفطرون ويذهبون لحال سبيلهم: وبذلك يبدأ اليوم.

ذهبت إلى دكانى وجلست فيه، حيث أرسل لى زامل بواسطة على فخذة ضأن أتى بها من سوق القصابين،" كى أتغذى غداءً طيبا." لحم الضأن طيب فى عنيزة: ولحم الإبل يباع للفقراء فى عنيزة. وفخذ الضأن الصحراوى ، الذى يمكن أن يصل وزنه

إلى خمسة أو ستة أرطال يباع بما قيمته ستة بنسات : هذا اللحم، إذا ما أحدثنا فيه بعض الثقوب، وعلقناه فى الشمس الحارقة طيلة يوم واحد، يظل جيدا طوال ثلاثة أيام. والبدو يأتون بحيوانات الغزال حية فى المدينة؛ والتى غالبا ما يشتريها المواطنون لكى يربوها ليلهوا بها أطفالهم: والغزال الصغير يباع بحوالى ثمانية بنسات.

لم أبق فى الدكان فترة طويلة، إذ حضر إلى شخص لكى يخرجنى منه! كان يصيح ووجهه كظيم – أخرج هذه الأشياء !" وهنا صاح الزنجى من جديد،" النصرانى هنا وزامل عنده علم بذلك؛ هل سنتصارع مع زامل!" الآخر (الذى كان عليًا الثانى ، أو إن شئت فقل الأمير التنفيذى) راح يغمغم ويتكلم بكلام غير مفهوم ،" زامل قال: أُخ! – الدكان دكانى، وأنا أقول أخرج منه! أوخ ! أخرج من دكانى، أخرج ، أقول أخرج !" ولكن الزنجى صاح بصوت عال مثل الشخص الآخر، "زامل هو أمير هذا البلد، ومن أنت؟" – "أنا أمير." احترم الأمير علىّ شخصى – ولم يوجه لى كلمة واحدة، وكنت على استعداد لإقناعه؛ قال: إن الدكان دكانه. ولكن أصدقائى لم يتصرفوا بالطريقة الصحيحة كى يجعلونى أستقر فى ذلك الدكان وقد يؤدى عنف الأمير على الوهابى، والذى تجلى فى احتقاره للأمير زامل الليبرالى ، إلى استثارة المتشددين فى البلد على النصرانى. – كانت تلك كوميديا العليين. فقد سارع على الأبيض إلى الباب وأغلقه بالمزلاج ؛ وفى اليوم نفسه الذى أخرجنى فيه من الدكان، أخرجنى أيضا من البلد دون علم زامل بذلك. بقيت مع أشيائى فى الشارع، وجاء المارون فى الشارع ينظرون إلىّ؛ ولكن على الزنجى هدد تهديدا شديدا بأن زامل سوف يفقأ عينى من يضايقنى وسوف يقطع لسانه ايضا!

اقتربنا من وقت الظهيرة؛ وعندما أذن المؤذن لصلاة الظهر كنت مازلت جالسا بجوار أشيائى فى الشارع، على مرأى ومسمع من الناس ، الذين كانوا يتوافدون علىّ وهم فى طريقهم إلى المسجد. – "الله! هذا هو واحد من الذين لا يصلون،" على حد قول كل أولئك الذين كانوا يمرون علىّ. بعد هؤلاء الناس جاءنى صبى صغير من البلدة، وكانت ملامحه تدل على أنه يضمر شرًا! وكان يحمل قضيبًا غليظا طويلا فى يده:

مما يدل على تعصبه الدينى - أى أنه كان يضمر حقدا غير إنسانى وقسوة غير إنسانية أيضا! وكانت مهمته ضرب أولئك الذين يتأخرون عن الذهاب لأداء الصلاة. هاهو قد أمسك ببعض الصبية الذين تسكعوا وراحوا ينظرون إلى النصرانى، ثم صاح،" صلوا! أريككم الله!" وراح يسوق أولئك الصبية أمامه. ثم هدد عليا، الذى بقى واقفا بجانبى؛ وعندما سمع ذلك المسكين اسم الله يتردد ، كان لابد من إطاعة النداء. وفى النهاية وقف ذلك الصبى أمامى مكشرا عن أنيابه، - ورفع القضيب الذى كان يحمله فى يده! والذى لا شك فيه أن ذهنه كان عامراً بفكرة توبيخ الكافر وتعنيفه، إرضاء لله (سبحانه وتعالى): ولكنه سرعان ما أنزل القضيب مرة ثانية، - أليس النصارى مشهورين بأنهم مبارزين كبارا؟ فى ذلك الوقت من أوقات الصلاة، خرج بعض البدو [ربما كانوا من القحطان] من منزل قريب منا وراحوا يحمِّلون إبلهم الباركة. وذهبت للحديث معهم ومعرفة لغتهم: ولكن البدو عندما يكونون فى المدينة يتحولون إلى حضر، ويتحولون إلى أعداء أثناء الرحلات - ؛ ولكنهم طلبوا منى الابتعاد عنهم وهم يقولون: " ما هى العلاقة التى تربطنا بكافر من الكفار؟"

كان علىّ يود منى مفاتحة زامل فى موضوع الدكان. ووجدت زامل فى فترة العصر أمام باب منزله: وقال ، بصوت معتدل: " لن ندخل ، لأن القهوة مليئة بالبدو " [شيوخ المطير، جاءوا للتشاور مع المدينة، حول قيامهم بحملة مشتركة على القحطان] . سرت معه فى حارته، وجلسنا سويا فى ظل جدار على تراب الشارع "هل ضاع منك الدكان؟ قال زامل: حسن، أطلب من على أن يجد لك دكانا آخرا.

- بالأمس جرى السطو على بعض تجار عنيزة وهم فى طريقهم إلى البدو على طريق بريدة وأخذ اللصوص منهم حمولة ثلاثة إبل من السمن - ما يقرب من نصف طن، وهو ما يساوى ٢٠٠ ريال تقريبا: وكان اللصوص الذين سطوا على هؤلاء التجار من القحطان. هؤلاء القحطان المعتدون كانوا من القصيم ويدخلون ضمن تحالف بريدة؛ وأرسل زامل رسالة إلى بريدة يشتكى فيها من ذلك الضرر. ورد عبد الله أمير بريدة، على زامل أمير عنيزة "إن ذلك حدث بواسطة البدو الهمج ولا تجعلنا مسئولين عن

الخطأ الذى ارتكبوه هم." وهنا قام زامل بإرسال ثلاثين رجلا من شبان عنيزة، ومن الأسر الطيبة، التى تمتلك نياقا فى البلدة، أرسلهم للبحث عن اللصوص فى النفود - [وعادوا بعد ستة أيام إلى عنيزة، دون العثور على أى شيء] . لم يتكلم زامل كثيرا عن ذلك الموضوع فى مجالس البلدة: ولكن ذهنه كان مشغولا تماما بذلك الأمر؛ وقيل عنه أنه لم يكن يأكل فى تلك الأيام.

عثر علىّ لى على دكان بائس تماما، إلى حد أن أصدقائى كانوا يتعجبون" هذا بيت للفئران! وليس بيتا للسكنى." ورد عليهم الزنجى ، إنه بحث هنا وهناك، ولكن الجميع كانوا يرفضونه وهم يقولون: " هل سيسكن نصرانى فى بيتى؟" كان صاحب ذلك البيت الخرب رجلا بائسا كبير السن، واحد من المرضى الذين عالجتهم، والذى طلب فى اليوم التالى إيجارا يوميا مبالغا فيه، بالرغم من أنه حصل منى على الدواء بالمجان. وفى صباح اليوم التالى استطاع على إقناع جار زنجى شاب، كانت لديه غرفة علوية صغيرة، خالية؛ بتأجير تلك الغرفة ليقيم فيها الحكيم، ووعده بأن النصرانى سوف يشفى والده الذى يكاد لا يبصر. - ذهبت للإقامة فى تلك الغرفة: وكان الوالد المسن قد حصل على حريته من بيت يحيى (الذين أصبحوا بعد ذلك أصدقاء لى). المضيف الزنجى كان نقاشا؛ إذ كانت مهنته تزيين غرف القهوة وصالاتها بأعمال من الجبس الابيض. ونحن نكاد نرى، حتى فى أحط وأفقر مناطق الجزيرة العربية مدى ولع الناس باللون الأبيض ؛ إنهم يحيطون نوافذهم المبنية من الصلصال بأفاريز من الجبس الأبيض: واللون الأبيض عند أهل الجزيرة العربية معناه الضوء والبهجة، كما أن السواد عندهم يعنى الحزن والكرب. ["نهارك أبيض!" هذه العبارة يرددها الناس فى مناطق الحدود لتحل محل "صباح الخير": يضاف إلى ذلك أن المسلمين السوريين يطلون مقابرهم باللون الأبيض. - وبولس (*) يصيح قائلا: فى هذا المعنى،" أنت بيَّضْت الجدران!"] .

(*) Paul أو بولس ، هو رسول الأمميين (الذين ليسوا من اليهود) يدعوهم إلى رسالة المسيح . (المراجع)

"قال الزنجى الشاب، عندما دخلت مسكنه، الآن ! دعهم يدغدغون ويثرثرون ستين ألف مرة، لأنه وافق على استقبال الكافر من أجل عيون والده المسن. وسرعان ما امتلأ مقهى ذلك الزنجى الشاب بأناس من أهل المدينة؛ وكان البعض منهم من الشخصيات الكبيرة. وكان شرفا لذلك الرجل الفقير أن يقدم لهم القهوة، ومن النوع الممتاز؛ وهذه العملية فى ذلك اليوم تكلف ذلك الشاب الزنجى شلنا واحداً، حرصت على أن أعيده إليه. كل هذه الشخصيات جاءت لتكلمنى عن أمراضها وأوجاعها الغريبة، نظرا لأن هذه الاستشارة لن تكلفهم شيئا؛ كانوا يتمنون أخذ أدويته دون أن يدفعوا لها ثمنا، كما كانوا عاقدين العزم ومصممين على ألا يكونوا حسنى النية مع النصرانى . وأنا بدورى كنت راغبا فى مساعدتهم، بقدر استطاعتى، دونما نظر إلى أية اعتبارات أخرى.

مع شروق شمس اليوم التالى ذهبت لتناول الإفطار مع الكنينى: هذه الساعة الباكرة فى ذلك البلد المشمس والمناخ الحار لا تعد من قبيل التبكير المفرط؛ إذ يكون ضوء النهار فيها مشوبا بشىء من الجمال والوقار؛ يضاف إلى ذلك أن الأشخاص الأثرياء يستيقظون لتجديد مباهج الصلاة اليومية، ومباهج شرب القهوة، ومباهج حديثهم الودى عن حياتهم السهلة الخالية من التعقيد. وقد جرت العادة أن تكون مواعيد تناول الوجبات فى الأوقات التى يمكن خلالها لساكن الجزيرة العربية التخفف من أعباء الضيافة. ولكن ساعات ومواعيد عمال الحقول تخضع لمواعيد ومواقيت الصحراء: فالإفطار يقدم عند الظهر، ويكون من بيت رب الأسرة، وهم يتناولون العشاء عند غروب الشمس. يضاف إلى ذلك أن كل أسرة هنا لديها بقرة حلوب.

فى كل صباح، وعندما كنت أمشى فى السوق، كان بعض الأصدقاء الذين كانوا مرضى من قبل، يقومون بجذبى من عباءتى، ويقتادوا الحكيم إلى بيوتهم؛ حيث كانوا يقدمــون لى صينية الإفطار وعليها خبزا مخمورا ولبنا. وبذلك كنت أفطر بواقع مرتين أو ثلاث مرات يوميا، وكان عجبى يزيد وصحتى تتحسن . أكثر الأمراض انتشارا بين الناس هنا هى أمراض العيون؛ واقع الأمر أنى فحصت المئات من هؤلاء المرضى! وذلك طوال مقامى فى عنيزة. وحدقة العين تغطيها سحابة بسبب المياه البيضاء والمياه

الزرقاء الناتجة عن الإصابة بالجدرى: والكثيرون يفقدون بصرهم فى عين أو العينين معا، وهم أطفال وذلك بسبب هذه الأمراض؛ كما أن هناك نوعا آخرا من العمى يصيب هؤلاء الناس على إثر المعاناة من صداع قد يستمر سنوات عدة بسبب هذه الأمراض؛ كما أن هناك نوعا ثالثا من العمى يصيب هؤلاء الناس على إثر المعاناة من صداع قد يستمر سنوات عدة ويصيب جانبا من جانبى جبهة الرأس - هؤلاء الناس ليس لديهم دافع إلى التجربة والتجريب؛ ولكننا نسمع أيضا عن وخّاز العيون فى الجزيرة العربية: ولكن الناس هنا لا يعلقون على أولئك الوخّازين آمالا كبارا. هذا هو معالج من معالجى العيون بالإبر سمعنا عن قدومه من شجيرة Shuggera (شقراء) (*) فى العام الماضى لعلاج أمراض العيون فى عنيزة. ومن الأمراض الشائعة أيضا بين الناس هنا أمراض الأنف، وحمى الواحات، وكذلك مرض الطحال: وقد وجدت أن هذا المرض منتشر بين الأطفال. - كان الجدرى فى المدينة أيضا: هذا المرض الذى غاب عن الناس فى هذه المدينة طيلة سبعة أعوام عاد لينتشر بين الناس هنا بسبب بعض الأطفال العبيد الذين جرى إحضارهم مع قافلة الحج أثناء العودة من الحج. كان بعض العاملين فى تلك القوافل يشترون بالربح الذى يتحقق لهم فى مكة، أطفالا عبيدا من جدة، ليبيعوهم بعد ذلك فى القصيم، أو (بأسعار أكبر) فى بلاد الرافدين. وبذلك كانوا يحققون مكسبا على شكل ريالات قليلة: ولكن عنيزة خسرت، بسبب ذلك، وأثناء مقامى فيها، وبخاصة فى عملية التطعيم، خسارة كبيرة! - "خسرت خمسمائة طفل" من أطفالها الأحرار! بالرغم من ذلك فإن العدوى لم تنتقل عبر الوادى إلى بريدة ، ولا إلى أية قرية من قرى النفود القريبة من عنيزة. استدعونى إلى بعض البيوت التى كان فيها أطفال مصابين بالجدرى، ووجدت هؤلاء المرضى يرقدون فى الظلام؛ وقد جرت العادة هنا على عدم إعطاء الدواء لهؤلاء المرضى،" مخافة أن يفقدوا نور عيونهم وبصرهم." وبذلك تمكنت من دخول مساكن بعض أولئك المفرطين فى التشدد: أما الأمراض التى كان يصاب بها

(*) شقراء : تقع بلدة شقراء فى ناحية الوشم وكانت مركز الحكومة فى أيام إغارة عبد العزيز بن سعود ١٩٠١ - ١٩٢٥ . (المراجع)

المرضى الآخرين فكانت عبارة عن نزلات البرد. – معظم بيوت هذه المدينة من مدن الجزيرة العربية نظيفة جداً وتشرح الصدر وكلها مبنية من الصلصال (اللبن).

دكاكين التجار مؤثثة تأثيثا جيداً. الطعام العادى رخيص فى بريدة عنه فى عنيزة، وفى عنيزة "البن المكى" [وهو أصلا من اليمن] أرخص من بريدة ، والملابس الخليجية فى عنيزة أرخص من بريدة. والتمر الذى يباع بالوزن فى القصيم، نوعية ممتازة جداً ؛ ويباع بمعدل ثلاثين رطلا بريال واحد.

وملابس الناس الخارجية هنا توحى باليسر – والناس هنا ملامحهم طيبة وودودين. وهم يحيون بعضهم البعض بكلام كثير، شأنهم فى ذلك شأن البدو، وكلامهم فيما بينهم فيه شيء من الرقة واللطف؛ والسبب فى ذلك أن كثيرين ممن يعيشون فى بساتين بعيدة عن البلدة يندر أن يجيئوا إليها . ولكن شوارع المدينة تغص بالزائرين فى أيام الجمع؛ حيث يصل إليها كل أهل البلد، وعمال الزراعة عند الظهر، لأداء الصلاة فى المسجد الكبير، ويستمعون إلى تلاوة القرآن والخطبة: يضاف إلى ذلك أن يوم الجمعة هو أيضا يوم السوق فى المدينة. والفقراء من السكان يذهبون إلى عنيزة وهم يرتدون ملابس تشبه ملابس الأعراب؛ كما أن غترهم يلفون حولها عقالاً مصنوعا من الحبال. هؤلاء المواطنون يقصون شعرهم ويقصروه – ولا تجد لأحد منهم خصل الشعر التى يربيها البدو: والأثرياء من هؤلاء السكان يلبسون على رءوسهم (على حد قول الناس) طربوشا يلفون حوله شالاً فضفاضا من لون مرح؛ وهم لا يلبسون ذلك الطربوش إلا عندما يكونون مسافرين خارج محال إقامتهم. أما فيما يتعلق بالهجو haggu أو إن شئت فقل: حزام الوسط الذى هو عبارة عن شريط رقيق مصنوع من الجلد [والذى يطلق الناس عليه فى القصيم اسم هاجوب hagub أوبريم brim] والذى يلبسه الأمراء فى حائل، كما يلبسه أيضا سكان كل من المدينة المنورة ومكة الذين هم أصلا من الجزيرة العربية، هذا الحزام لا يلبسه هنا فى عنيزة سوى الحريم. والأثرياء من الناس هنا فى عنيزة يسافرون وهم يرتدون عباءات (بشوت) مصنوعة من الصوف العراقى الخفيف أسود اللون: والأعيان الصغار ينفقون بسخاء على ملابسهم وبشوتهم

(عباءاتهم)، تكون لها ياقات مطرزة بخيوط معدنية. والمطرزون يكونون فى الأغلب الأعم من النساء ، اللاتى لهن مهارة تركيب مثل هذه الخيوط الإنسيابية، ولهن مهارة أخرى تتمثل فى انسجام وتناغم أعمال الإبرة - مثل الأعمال التى نراها على السجاد الشرقى. الأشخاص ذوى الحيثيات يمشون فى الشوارع وهم يمسكون فى أيديهم عصى طويلة اشتروها خصيصا من مكة كى يتمايلون بها أثناء سيرهم فى الشوارع.

الحريم هنا مغطيات، وسلوكيات الرجال هنا طيبة ولا تسفر عن متاعب أو اضطرابات: وربما يكون ذلك راجعا إلى أن المجتمع الآسيوى هو مجتمع رجولى بالدرجة الأولى ولكنه أقل فحولة عن المجتمع الأوروبى. الرجال هنا يحيون حياة دينية منضبطة على مدى الأيام: والناس هنا لا يعرفون سوى القليل عن اللدغات التى تكون فى مستحلباتنا المضطربة، والتى فى ديننا الأجنبى . عقيدة محمد خفيفة الدم هى التى أفتدتهم من دراسات العالم السطحية، وهى أيضا التى افتدتهم من النبيذ المكروه؛ وعقيدة محمد هى أيضا التى طهّرت أجسادهم من كل مظاهر الإفراط فى الحياة: وهم يتفوقون هنا فقط، ويتفوقون على الشرق كله فى شرب القهوة. والزواج هنا سهل اعتبارا من بلوغ الفتى سن الشباب؛ والزواج عندهم لا يقوم على روابط عقيمة، تجعل الواحد منهم يتحمل هموما كثيرة. وصدر المسلم وسيع، وهو يجد قلة قليلة من الأغصان البرية التى تنمو فى بستان زوجته، - هذه الأغصان تتمثل فى ذلك العامر بالرواح مثل اللغة العربية. ونبل الفضيلة الدينية يسود هنا بين الناس، وليس هناك ما ينغص الحياة بينهم، ولكن الكراهية تكون للكافر: قلة قليلة من الناس هم الذين يجدون صعوبة فى حيواتهم. - ولكن المرأة هنا مسترقة، وقلبها لا يعرف الترفيه أو التسرية عن النفس. والمرأة لا تشاهد فى الشارع أثناء النهار؛ ولكن فى المساء (عندما يجلس الناس لتناول القهوة) يمكنك أن ترى كثيرا من الأشكال المحجبة وهن متجهات صوب منازل صديقاتهن الثرثارات: وهن سرعان ما يعدن عن طريق السوق الخالى من البشر ، مع دخول صلاة العشاء، وذلك عندما يكون الرجال يؤدون الصلاة فى المسجد.

بعد يوم أو يومين من مقامى فى عنيزة جاءنى شاب من أعيان المدينة يعزمنى على تناول الغداء بناء على طلب من والده؛ وذلك الرجل الطيب يقولون له: عبد الرحمن البسام، وهو تاجر من تجار جدة، وعميد بيت البسام فى عنيزة. كان عبد الله البسام هو وعبد الله الكنينى صديقان وفيان، يفطران ويتناولان طعام الغداء سويا، ويزوران بعضهما بعضا لشرب القهوة يوميا؛ علاوة على أنهما كانا فيلسوفين Filasufs مع زامل. وبالإضافة إلى الكنينى وجدت هناك أيضا الشيخ نصير Nasir السمرى es-Simry ، رجل شديد السمرة ومتقدم فى العمر، وهو واحد من الوهابيين المتشددين فى الدين؛ وكان هو أيضا تاجرا من تجار عنيزة فى جدة. كان نصير السمرى قد عاد مؤخرا - بالرغم من عدم ثرائه ثراء كبيرا، ليعيش فى منزل مستأجر فى محل إقامته ؛ وكان شريكا للكنينى كل عام فى شراء عدد قليل من الخيول من البدو الرحل، وكانا يشحنان هذه الخيول إلى بومباى لبيعها هناك.

أهل البسام - الذين هم حاليا فى مقدمة أثرياء عنيزة، جاءوا إلى هنا قبل ستين عاما، وافدين على عنيزة من قرية العروض el-Aruth [عند بلينى Pliny نجد أن كلمة بسامنا Besasmna عند البدو تعنى البُرود el-Barrud ، وهى قرية تضم ثلاثين بيتا، تقع جنوبى شقراء على الطريق إلى مكة.] بعض من هؤلاء الناس استوطن جدة فى السنوات الأخيرة واستقر فيها ، والتى يعرف فيها أهل شرقى نجد باسم البسام el-Bassam [علاوة أيضا على تسميتهم باسم الشرقيين es- Sherrkyin بمعنى 'أهل الشرق' أو orientals بلغة الإنجليز] ! عبد الله البسام، وهو من بنى تميم واحد من تجار الجزيرة العربية المكرمين الذين يحظون باحترام كبير فى هذه البلاد، بالإضافة إلى أن اسمه يحظى بالشرف والتكريم أيضا فى كل أنحاء نجد؛ وطبيعة هذا الرجل من النوع المرح، وهو متيم بأعمال الخير والأعمال الطيبة. وعندما هاجم ابن الرشيد عنيزة قبل عامين، وقف إلى جانب بريدة، قام زامل وشيوخ عنيزة بإيفاد ذلك الرجل عبد الله البسام صاحب الشخصية الفذة للتفاوض مع ابن الرشيد.

كانت المشكلة على النحو التالي: جاء ابن سعود على رأس غزو كبير وصل إلى عنيزة، ثم نزل ليخيم بين بيارة نخيل رشيد Rasheyd الواقعة خارج البلدة ومدينة عنيزة ذاتها. كان هدف ابن سعود يتمثل في الوقوف في وجه بريدة: وهنا جاء ابن الرشيد من حائل للدفاع عن حلفائه. – وهنا قام عبد الله البسام (ومعه كاتبه ابن ibn عايض Ayith) وعبد الله اليحيى el-yahya ، الشيخ المساعد لزامل بالاتجاه صوب ابن الرشيد ، الذى كان قد أقام مخيمه خلف الوادى. وقال البسام لأمير الشمر: "يا ولد عبد الله! نحن أهل عنيزة نتمنى على الله ألا يحدث بيننا خلاف يستفحل وينتهى إلى نشوب العمليات الحربية بين المسلمين: ونحن نرغب أن نكون واسطة سلام بينكما." محمد بن الرشيد: "وأنا من أجل هذا جئت إلى هنا، على أمل أن يحل السلام." – فى النهاية اتفق الاثنان على أن ينسحب ابن سعود من هذه المناطق؛ ومن ثم يعود ابن الرشيد هو الآخر إلى موطنه. لم يكن حوار الاثنين خلوا من كلام الفخر الذى ورد على لسان حمود العبيد نيابة عن ابن الرشيد ؛ وفى ذلك الصدد كان ذلك الرجل الذى من سلالة الأمراء يتصرف" كما لو كان بدويا من البدو." – بقى هذا البسام الطيب طيلة أيام ثلاثة ضيفا على الأمير الشمرى؛ وقبيل مساء اليوم الذى كان سيرحل فيه أمر الأمير محمد رجلا يدعى مفرج Mufarrij أن يقتاد الفرس الحمراء للشيخ عبد الله!' ولكن المواطن الحصيف والمواطن الحق، لم يكن على استعداد لقبول عطية من ابن الرشيد، من هذا القبيل. قال الأمير: 'إذن أحضر الناقة، أركِب الشيخ عبد الله ! 'أو قبل عبد الله البسام تلك العطية؛ وهنا كسى الأمير ابن الرشيد الرجلين المجيدين والسفيرين من عنيزة وأعطى كل واحد منهما عباءة قرمزية اللون وغترتين حريريتين؛ ووزع ملابس على كل من جاءوا معهما: ثم عاد الرجلان إلى عنيزة: – كانت العائلات البسامية الأخرى فى عنيزة، وبالرغم من اتجارها فترة من الزمن مع الفرنجة فى الموانى (وذلك باستثناء عبد الله آخر صغير، يعد حاليا من بين التجار الأجانب فى البصرة) كانت كل هذه العائلات وهابية بحق وحقيقة. قال الناس عن عبد الله :" إنه رجل طيب، ولكن أولاده عفون afun بمعنى (فسقة)" وربما كان ذلك راجعا إلى الملاريا الأخلاقية التى كانت سائدة فى – مدينة مكة التى تشبه الميناء، أو ربما يكون ذلك

راجعًا إلى الأشياء التى لا يراعيها كثير من الآباء الأمناء، الأمر الذى يجعل سلالتهم النسبيه معيبة من ناحية الأم.

كان الشيخ نصير من عائلات بنى خالد: والبدوانية فى بنى خالد أكثر منها فى بنى تميم. وبالرغم من - آراء الشيخ نصير المتصلبة إلا أنه كان يرد علىَّ أفضل من الآخرين، وكانت ردوده تمتاز بالصراحة التلقائية فى ذات الوقت؛ وبخاصة عندما كنت أسأله عن تاريخ وطبوغرافية هذه البلاد: وقام فى بداية الأمر، وباستخدام القلم، باقتفاء أثر ومواقع الحَّرات الجنوبية، - بنى عبد الله ، كشَّاب Kesshab التُّراعة Turra ، العشيرى Ashiry ، العجيفة Ajefia ، (روضة Rowda ، جهينة Jeheyna ؛) التى جرى وصفها هى والسلسلة البركانية فى هذا الكتاب، هذه الحرَّات لم يسمع الناس عنها أى شىء فى أوروبا قبل الرحلة التى قمت بها أنا إلى الجزيرة العربية. قبل وقت قصير من قيامى برحلتى كان الشيخ نصير قد أفاد كثيرا من سنوات المنفى التى أمضاها فى مناخ البحر الأحمر، ومعه تاجران آخران من تجار جدة، فى شحن البضاعة إلى الهند. ومعروف أن الأخبار يصعب انتقالها خلال أرجاء الجزيرة العربية فى غير موسم القوافل؛ ولكن ذلك الرجل كانت تصله تلك الأخبار ، فى تلك الأيام عن طريق أناس كانوا يأتون بالمصادفة البحتة من مكة، نظرا لأنهم لم يسمعوا أية أخبار عن سفنهم منذ إقلاعها! وأنهم كانوا يخشون أن تكون السفن قد ضاعت. هؤلاء التجار الأجانب لا يمكن أن يغطوا مطلقا أخطار الحريق أو الأخطار البحرية، عن طريق بوالص التأمين، - لأن ذلك فى نظرهم من الأعمال غير الدينية! وفى نفس الوقت كان الشيخ نصير على يقين من أن الله يكون فى عون المسلم الحق.

- كانت تلك أفضل صحبة لى فى المدينة؛ فهذه صينية الغداء قدمت وأعدت وهى موضوعة فوق مقعد مستدير [الطعام يقدم على الأرض فى منازل أمراء حائل - انظر الجزء الأول] ؛ وجلسنا على ركبنا من حول الصينية . وجبة التجار الأجانب فى عنيزة تشبه وجبات الحضر إلى حد كبير وعلى نحو لم أر مثيلا له فى الجزيرة العربية: وبالإضافة إلى الطلى المسلوق الموضوع فوق كومة من الأرز، قدم لنا عبد الله

أطباقا صغيرة من الجزر المحمر فى الزبد، فضلا عن أطباق الكستر أو إن شئت فقل اللبن المطبوخ. ونحن إذا كنا نجلس على راحتنا حول المائدة الأوروبية، ونتكلم أيضا على راحتنا؛ إلا أن مثل هذه الأمور مع الأطباق العربية تعد أمورا غير لائقة وسلوكا غير معقول أيضا! - من يتكلم فى هذه المعركة التى تدور بين الأسنان لا يعد رجلا وإنما قاتلا للغير. وفى أى نوع (وأرجو أن تسامحونى فى ذلك أيها الأصدقاء الأجواد الثلاثة! فى الطقس المقدس الخاص بالعيش والملح .) يمكن أن يتلقف كلب أو قط لحمه، دون أن يلتقط أنفاسه، ويطرد بلا فضول، ثم يجرى بعد ذلك ليشرب؛ والعرب يفعلون ذلك، حتى يتمكنوا من الوصول إلى النهاية على وجه السرعة: إذ من العيب عندهم أن يطيل الإنسان النظر إلى طبق الطعام ؛ فى حين هناك أشخاص آخرون أكثر (تواضعا) يتطلعون إلى تناول الطعام عقب الجماعة الأولى. عبد الله البسام الطيب ، لكى يكشف لذلك الغريب الأوروبى عن المزيد من العطف والحنان، كان يقطع لقيمات من لحم طليه ويضعها فى يدى بالفعل. - يقول كل ضيف من ضيوف الحضر عندما ينهض واقفا بعد أن ينتهى من تناول الطعام، "يرحمك الله Yerhamak Ullah"، ويقولها بحس دينى وفى شىء من التواضع. كان بسام بنفسه هو وأولاده، يمسكون المنشفة للضيوف، ويقفون خارج الغرفة، فى الوقت الذى يقوم الضيوف فيه بغسل أيديهم. وتعود الجماعة إلى الجلوس أمام وجار القهوة؛ وكان ولده الأكبر قد جلس بالفعل أمام الوجار لتصليح القهوة.

عزمنى الكنينى على تناول الإفطار معه فى صباح اليوم التالى؛ وبعدها نقوم بزيارة بستانه (وهم هنا يطلقون على البستان اسم جنينى jeneyny) . "قال الشيخ نصير، عبد الله سوف يطلب منك طريقة لرفع الماء أفضل من الطريقة التى نستخدمها حاليا فى عنيزة، التى يقطع الجمل فيها مسافة خمس عشرة خطوة من أجل دلو واحد من الماء فى كل مرة ! وأنت ، أيها الرجل الأوروبى يمكن أن تساعدنا فى ذلك لأننا نفترض أنك قد تعلمت الهندسة؛ وربما تكون قد قرأت بعض الكتب التى تتناول الماكينات ، العجيبة فى بلادكم." - قد يبذر حقد نصير

الوهابى وغله بذور الشقاق فى أرض صداقتنا، كما أنه جعلنى أتبين حنان الكنينى المتزايد! الذى رد بدوره هو الآخر، إنه كان يود أن يسأل خليلا عن رأيه فى هذا الموضوع. كان الشيخ نصير يتخيل الوصول إلى انسياب الماء بما فيه الكفاية لرى قسم كبير من أرض عنيزة! - كنت قد رأيت فى ذلك اليوم عربة يد على عجلات ، أمام محل حداد من الحدادين! وهذا منظر لا يقل غرابة فى بلد من بلدان الجزيرة العربية، عن وجود الجمل فى أوروبا؛ هذه العربة اليدوية جرى صنعها هنا لحساب الكنينى. كان الصانع قد ثبت أطراف إطاراته بطريقة غير سليمة، مما أدى إلى تداخلها مع بعضها البعض: ولكن بقية المكونات كانت مركبة بطريقة جيدة؛ وفى نجد كلها (وبخاصة فيما يتعلق بسوانى الماء - التى جرت العادة أن تكون كبيرة) هناك كثير من الصناع المهرة الذين يجيدون هذه الصنعة ويتقنوها. كان تمر عبد الله قد جرى نقله إلى منزله بواسطة عربة اليد، فى موسم الحصاد الأخير؛ وكان الناس يتعجبون كيف يستطيع رجلان أن يحملا ذلك الذى يمكن أن ينقله جملان أو ثلاثة من الجمال.

بعد أن ينتهى الضيوف من شرب القهوة ينهضون الواحد بعد الآخر ويرحلون وهم يقولون: ينعم Yunaam الله Ullah عليك aleyk ويرد المضيف قائلا: فى Fi أمان aman الله illah . فى الصيف هناك ساعتان من ساعات النهار؛ وفى هاتين الساعتين يتمشى أصحاب الأرض لاستنشاق الهواء وزيارة بساتينهم.

وفيما يتعلق بتوزيع زمن النهار فى عنيزة: فالناس يشترون مؤنهم من على طاولات العرض، فى السوق وذلك عقب شروق الشمس مباشرة؛ ولكن المحلات تفتح أبوابها بعد ذلك بوقت قليل ، عندما يبدأ التجار (وغالبيتهم من الأشخاص الميسورين ملاك الأرض) يتوافدون على محلاتهم بعد تناول الإفطار . هؤلاء السماسرة والوسطاء يصيحون هنا وهناك فى شارع القماشين، وما إلى ذلك من الشوارع الأخرى، وهم يرفعون الأشياء فى أيديهم بعد أن عهد إليهم أصحابها ببيعها بالنقد ، - بنادق طويلة، رماح ، دلال القهوة، العباءات (البشوت) ، وقامات من القماش، وما إلى ذلك . وهم ينادون على هذه الأشياء بالثمن المحدد لها؛ وإذا ما نادى عليهم أحد من الناس فإنهم يتوقفون

ليعرضوا عليه بضائعهم . قطع الملابس التى يحضرها العاملون مع القوافل، من مدينة بغداد، يجرى فى معظم الأحيان تسليمها لأولئك الدلالين، كى تباع على الفور وبالنقد، هؤلاء التجار تقل حركتهم المالية والتجارية فى الأيام التى لا يأتى البدو فيها إلى عنيزة: وهم يمكثون مدة ساعة واحدة، إلى ما قبل الظهر، ثم يغلقون محلاتهم ، ويتجهون إلى منازلهم؛ وبالتدريج تخلو الشوارع من المارة. - وعند أذان الظهر يتوافد الناس من كل حدب وصوب على المسجد لأداء الصلاة. ولا يعود إلى السوق من المسجد سوى قلة قليلة من البائعين والتجار؛ وغالبية هؤلاء التجار (شأنهم شأن الأعيان) يذهبون لشرب القهوة فى بيوت أصدقائهم: البعض من هؤلاء التجار، لهم جنائن فى عنيزة، ولذلك فهم يفضلون الذهاب إليها ليجلسوا فى ظلال النخيل.

قبيل أذان العصر، ينهض شاربو القهوة من مجالس القهوة المعطرة، ويذهبون للمرة الثالثة لأداء الصلاة فى المساجد. وبعد الانتهاء من الصلاة يعود التجار إلى السوق؛ ليجدوا طاولاتهم مفتوحة، والدلالين واقفين أمامها، ومعهم المتجولون فى السوق. ولكن الأعيان يذهبون إلى منازلهم لتناول الغداء؛ وبعد ذلك بساعة واحدة تغلق الدكاكين أبوابها إيذانا بانتهاء اليوم . - وهنا يبدأ المواطنون فى التمشى خارج أسوار المدينة، ليعودوا إلى بيوتهم مع غروب الشمس، عندما يؤذن المؤذن لصلاة المغرب، التى يؤديها الناس فى المساجد.

اعتبارا من تلك الصلاة الرابعة يعود الناس إلى بيوتهم: وهذا الوقت لا يصح فيه زيارة الأصدقاء؛ لأن السادة يجلسون فى ذلك الوقت لمحاسبة العمال الميدانيين، الذين يجلسون معهم فى منازلهم - والسادة يحضرون لمثل هذه الجلسة وجبة من البرغل يقدمونها لأولئك الدلالين، أو إن شئت فقل : العمال الميدانيين. ولكن الزراع الذين يعملون فى بيارات النخيل الواقعة خارج البلدة يبقون فى بياراتهم طول الليل ؛ ولما كانوا لا يحتاجون إلى سقف ينامون تحته، فهم يستلقون على الأرض ملفوفين فى عباءاتهم (بشوتهم) ليناموا فى العراء. هناك أذان آخر، يرفع بعد غروب الشمس بحوالى ساعتين، يدعو الناس لصلاة الجماعة (أى صلاة sulat الأخير el-akhir)

أو إن شئت فقل صلاة العشاء. وبذلك يكون الليل قد دخل؛ وكثير من الناس المتعبين يبقون ويذهبون لأداء الصلاة أو قد يكونون فى منازلهم. والناس بعد أن يعودوا إلى منازلهم من صلاة العشاء ، يكونون قد أنهوا عبادة اليوم: وهنا تبدأ ساعة من ساعات الصداقة الخاصة (ولكن هذه الساعة لا تصلح للتجمعات العامة) فى مقاهى الأعيان والتجار الأجانب.

– أرسل الكنينى واحدا من أقاربه المساكين، بعد أن تناولت طعام الأفطار، ليصحبنى إلى جنينته، التى تبعد عن هنا مسافة نصف فرسخ؛ وتقع ضمن الدائرة الخارجية لأسوار مدينة عنيزة: ونظرا لأن ذلك الرجل كان ضعيفا فقد راح يتبعنا وهو راكب فوق حمار من الحمير. [وبصحبة هذا الغريب، الذى كان اسمه سليمان Sleyman ، استطعت بعد ذلك عبور الصحراء الكبرى الجنوبية إلى بلاد مكة (المكرمة) مررنا بحارات طويلة من الصلصال ولها جدران من الطين، ومررنا أيضا بين حقول ومزارع، مع نسيم الصباح البارد؛ ولكن (مع هذه الشمس الحارقة) لا تنمو بادرة نباتية واحدة على جانب الطريق (الذى لا يروى بالماء)! كانت حقول القمح فى ذلك الوقت عبارة عن جذاذات ، فى إثر حصاد المحصول؛ وشاهدت المحصول الذى جرى حصاده مكوماً على شكل أكوام كبيرة استعدادا لفصل الحب عن القش.

وفى منتصف الطريق شاهدنا موقعا بمستوطنة قديمة، يطلقون عليها اسم جنَّاح Jannah ، وقد أنشأها فخذ من أفخاذ القبائل، وأطلق عليها ذلك الاسم من أسماء بنى خالد، قبل إنشاء عنيزة [التى يطلق عليها اليوم اسم أم umm نجد Nejd] . – وكان هناك نزاع مستمر وعداء مستمر أيضا بين هاتين القريتين اللتين لا تبعدان عن بعضهما سوى مسافة ميل واحد. مستوطنة جنَّاح هذه جرى التخلى عنها منذ خمسة وتسعين عاما؛ ولكن كثيرا من الأحياء شاهدوا الكثير من أنقاض المبانى القديمة التى ماتزال باقية فى ذلك المكان، منذ أكثر من أربعين عاما: والعمال يستخرجون الجبس من ذلك الموقع القديم – الذى هو حقل من الحقول حاليا. وأعراب بنى خالد [الذين كانوا فى الأحساء قبل ذلك؛ ولكن أيام وجودى فى عنيزة كانوا يتجولون فى الشمال

فى اتجاه الكويت)، معترف بهم بأنهم من سلالة قيس ؛ وهم من اليام Yam ، مع مرّة Murra ، والعجمان، وبنى هجر، والشمر el-Shamir : والعجمان موجودين حاليا فى الشمال بالقرب من الكويت. الجنّاح، فى رأى الشيخ نصير، تأسست منذ أكثر من ستمائة عام مضت [أى فى القرن الثالث عشر]، أى قبل ثلاثة أو أربعة أجيال من بناء عنيزة. كانت جنّاح، مع بداية القوة الوهابية، محكومة بواسطة ثوينى Thueyny المنتفق el-Muntefik، وهو كبير شيوخ بلاد النهر فى الشمال (*) ، ولكن عنيزة كانت متحالفة مع الوهابى. وجرى هزيمة سكان جنّاح من بنى خالد فى الاضطرابات التى تلت ذلك، الأمر الذى اضطرهم إلى التخلى عن المكان: وذهب الكثيرون منهم للعيش فى الشمال، فى حين انسحب من تبقوا منهم إلى عنيزة. (سبق أن قلنا): إن المستوطنين من السّبيع es-Sbeya هم الذين أسسوا عنيزة. [ومازال القبليون الرحل من هؤلاء السبيع فى بلدة العروض el-Aruth ؛ كما أن الحائر Hayer واحدة أيضا من قراهم ، وهم منهم البدو ومنهم أيضا المستقرين. وهناك المزيد من هؤلاء القبليين فى وادى السبيع، وفى حدود كل من نجد والحجاز، على بعد أربع رحْلات بعيدا عن مكة فى اتجاه الشمال؛ وقراهم هى الخُرمة Khorma والرونية Runya] ، وزاد عددهم بعد ذلك بسبب أولئك الذين وفدوا عليهم من بنى تميم، الذين هم مثل قريش من نسل إسماعيل من خلال سلالة إلياس Elyas ، شقيق قيس. - والمزاينة Mozuyna (فى قبيلة حرب) هم أيضا من سلالة إلياس : وإلياس هو ابن Ibn موزور Muthur . وقريش ، بنى أسد Assad (الذين كانوا من قبل فى جبل طى Ty) وتميم، بنى خالد، والمنتفق، والمطير، وعتيبة، وثقيف، والسبيع كلهم من الموزور Muthur . - هذا هو ما قرأه علىّ عبد الله البسام من كتابه عن السلالات والأعراق: وقال أيضا: إن بنى صخر انحدروا عن بنى تميم.

أرض الكنينى المزروعة نخيلا وقمحا تصل مساحتها إلى ما يقرب من ثلاثة أفدنة ونصف الفدّان، وتربتها رملية. والطرف البعيد من سور المدينة الذى كان يحيط بتلك الأرض إنهارت منه أجزاء كبيرة: وكل ما هو خارج ذلك السور عبارة عن بحر رمال النفود.

(*) تقطن قبيلة المنتفق فى منطقة شط العرب . (المراجع)

القسم الأكبر من أرض الكنيني مخصص لزراعة القمح، وقد بدأ الرجل يشتل في تلك الأرض نباتات النخيل الذي جلبه من الوادي؛ وقد دفع ريالا واحداً ثمنا لكل شتلة من تلك الشتلات . لم يكن لدى الكنيني من النخيل سوى أربعين نخلة، كانت بطيئة النمو؛ نظرا لعدم اعتناء المالك السابق بري ذلك النخيل. وهذا هو حال الناس الذين يملكون مساحات صغيرة من الأرض في هذا البلد ؛ والسبب في ذلك أن هؤلاء الملاك الصغار هم ومساحاتهم الصغيرة في هذه البلاد (وهذا لا يقل عما هو متبع في مصر وسوريا) إنما يلتهمهم المرابون الأثرياء الذين يقرضون الناس بالربا. كان عمق بئر عبد الله الجديدة المكونة من فتحتين، حوالي ستة قامات ، وقد وصل الحفر في تلك البئر إلى طبقة الصخر الرملي؛ وكانت البئر مبطنة ببطانة من الحجر الرملي الذي يجري جلبه من منطقة قريبة من عنيزة. وقد وصلت تكاليف تلك البئر الجديدة إلى حوالي ٦٠٠ ريال، أي بواقع ما يزيد على ١٠٠ جنيه إنجليزي لكل فدان، وذلك بخلاف ثمن الماء: وتلك كانت أرضا من الأراضي الرخيصة، التي تقع على بعد مسافة كبيرة من عنيزة: وزراعة القمح هنا كثيفة ولكن السنابل قليلة، وتجري زراعة القمح في المساحة نفسها عاما بعد آخر؛ ومعروف أن القمح شحيح دوما في الجزيرة العربية.

شاهدت هنا أربعاً من النياق – والإبل هنا لونها أسود في عنيزة – وهي تعمل دوما وبلا توقف في السانية (الساقية) لجلب الماء: والناقة الواحدة يمكن أن تروي فدانا واحداً من آبار يصل عمقها إلى ثمانية قامات. افتتح الكنيني تلك البئر الجديدة أملاً في أن يشتري في الوقت المناسب المزيد من الأرض من الجيران. عبد الله، باعتباره واحداً من الأثرياء، لديه نوعين من إبل جلب الماء؛ هذه الحيوانات تعمل طوال شهرين إلى أن يعتريها الوهن، ثم يطلقها بعد ذلك إلى المرعى مدة شهرين في الصحراء. ومع كل صباح كان عبد الله يركب دابته ويذهب لاستنشاق الهواء والإشراف على الزراعة في مزرعته : وكانت تعتمل في ذهنه فكرة بناء بيت له في المزرعة، حتى يتمكن من استنشاق هواء النفود، – وذلك عندما يتحتم عليه العودة إلى عنيزة [ولكن آه! لم يكن ذلك مدرجا في كتاب الحياة] . تساءل عبد الله، كيف لي أنا "وأنا رجل أوروبي" بالعيش في هذا الخلاء، أو بالأحرى في هذه الصحراء؟ وكيف أنني في تجوالي عبر تلك

الصحراوات الشاسعة، لم أصادف مطلقا اللصوص المترحلين ، الذين يطلقون عليهم هنا اسم الهنشولى henshuly ! ففى الصيف الماضى قام عبد الله ، هو وبعض أصدقائه بالخروج ومعهم الخيام، كى يعيشوا حياة البدو الرحل فى جزء من صحراء النفود. وأثرياء المواطنين فى عنيزة لهم خيام تصنع من القماش الذى تصنع منه أشرعة المراكب، وهم يصنعون تلك الخيام مثل خيام البدو، أى على شكل أكواخ، وتكون مفتوحة من الأمام، - وهذه الخيام، من وجهة نظرى، هى الأفضل فى مثل هذا المناخ.

الأرض المنزرعة التى تقع خارج أسوار المدينة ليست مسوّرة؛ ولكن حدودها معلمة بقطع من الحجر ليس إلا. كان عبد الله البسام ينظر بعين ثاقبة إلى تلك الأرض، التى كان يزرعها على أمل أن ترثها بناته: فقد سبق أن اشترى لأبنائه بيارات فى البصرة. لم يكن يود للرجال (الذين سيكونون من صلبه) البقاء فى الجزيرة العربية! وكان يقول وفى صوته نغمة حزينة: " أوه! لعله يعيش إلى أن يتعدى أبناؤه سن الحداثة."

عثرت هنا على بعض أصدقاء عبد الله. كان من بينهم حامد الصافى es-safy البغدادى ، وعبد الله البسام الابن الأصغر (لأخيه الكبير عبد الله البسام ؛ كما عثرت أيضا على رفيق زنجى من رفاقهم، هو الشيخ ابن ibn عايض Ayith ، وهو شيخ كتابى أو إن شئت فقل فقيه فى الدين . وبعد السلام مدوا لى جميعا أذرعهم، - لعل الحكيم يفحص نبضهم! كان حامد وعبد الله، على العكس من قيمتهم الروحية، نحيفى البنية: كان اندفاع دمهما بطيئا، شأنهم شأن والديهما كبار السن، كما أن هواء المدن الكبرى منحهم أيضا شيئا من الحياة . ابن عايض، الذى كان له محيا إفريقى (يشبه الثور)، كان يبدو غارقا فى التفكير بينما كنت أمسك بمصيره فى يدى! - وسألنى بصوت زنجى صغير: " ما رأيى فى صحته؟" هذا العالم المسكين كان يحسب نفسه مريضا دوما! وبالرغم من أن وجهه لم يكن يوحى بالوهن! كما أن عنقه الطويل، وصدره الضيق، ولا بقية أعضاء ذلك الرجل لم تكن توحى بالضعف أو الوهن أيضا - هذا الزنجى الذى يعرف القراءة والكتابة تحول إلى رجل جديد تماما اعتبارا من ذلك اليوم، الذى سمع فيه كلام الحكيم الذى أسعده وشرح صدره؛ وراح يمشى مرفوع الهامة بين

أصدقائه (وبذلك راحوا يضحكون فى وجهى) ، بينما كان الرجل كسير الخاطر قبل ذلك. يضاف إلى ذلك أن ابن عايض هذا لم يكن متشددا بمعنى الكلمة؛ ولكنه بحكم تحاوره اليومى مع التجار الأجانب، أصبح ذهنه عامرا بالليبرالية. هذا المسكين ، لم يسبق له السفر، اللهم باستثناء – وهذا راجع إلى أن كل النجديين المتدينين لا يعملون أثناء النهار – سفره ذات مرة إلى مكة للحج (مع أصدقائه الأثرياء ،الذين رافقوه فى تلك الرحلة)؛ "قال: وأنا إذا ما قدر لى أن أكون برفقتك فسوف أريك كل الأماكن التاريخية." وقد أمضى الرجل شبابه فى التعليم على أيدى بعض الشيوخ المحسنين والخيرين؛ وأن هؤلاء الشيوخ هم الذين كانوا يقومون ، على أمر تعليمه. والرجل الآن يشغل منصب رب العائلة؛ ولكنه لم يكن لديه من متاع الدنيا شىء سوى البيت الذى يعيش فيه. وكانت مائدة عبد الله البسام تتسع دوما لهذا الرجل ؛ وكان فى معظم الأحيان يقوم بدور الكاتب مع عبد الله البسام نظرا لأن الأخير كان يجيد التجارة أكثر من الكتابة؛ وبداية الحكمة العلمية عند هؤلاء الناس تتمثل فى الكتابة وبخط جميل. ولكن ابن عايض لم يكن عبدا لسلوك الخضوع؛ فقد سمعته وهو يقول، بخشونة الرجال: كلمة "لا" وهو يمسك بلحية عبد الله. الحرية المدنية فى عنيزة تسر الخاطر، كما أن نظرات الحكام هنا لا توحى بالاستعلاء أو التكبر؛ ولكن كثيرا من الرجال (فى ساعة الغضب) يعبرون عن اعتراضهم، علانية، وقد يرفعون الأمر إلى الأمير! – وهم يقولون: ما Ma أبغاك (*) bak خير kheyr ، بمعنى " ما أود لك الخير."

عندما عدت، كان الوقت ظهرا، وكانت الشوارع خالية، والدكاكين مغلقة: وكان الأذان يدوى، وخرج الناس يتوافدون على المساجد. ومرّ بى بعد ذلك شيخ مسن من عتيبة، – كان ذلك الرجل فى عنيزة مع بعض رفاقه القبليين الذين جاءوا للتسوق؛ وعندما عرف ذلك الرجل أننى حكيم ، نادانى، وهو يريد دواء للريح rih . ورد عليه واحد ، "قد يكلفك ذلك ريالا واحداً." "وماذا لو أن هذا الدواء يكلف ريالا، أيها الحضرى،

(*) أوردها المؤلف على النحو الوارد فى المتن، والصحيح هو bghak (أبغاك) بمعنى "أريد لك" والسبب فى هذا الخطأ صعوبة لفظ الغين على الإنجليز. (المترجم)

إذا كانت لدى النقود!" ووفد علينا أيضا بعض المتسكعين، الذين وقفوا يبتسمون بفعل تلك اللغة التى كان يتكلمها ذلك البدوى وبصوت عال؛ وهنا قال شخص لطيف من أولئك المتسكعين، وسط هذا الضحك: هل هو على ما يرام مع زوجاته؟" لا، صاح ذلك القلب العجوز، وأنا أود ذلك ، بالله عليك، حتى لا يكون للحريم عذر. - أو هو! اصبر يا أنت!" (لأن بعض المتشددين يحرضونه). - "ألا تسمع الأذان؟ اذهب للصلاة!" - "إى! إى، لقد سمعت الأذان، الله يؤسفك! ألا أتكلم مع مداوى؟ - حسن، أنا ذاهب حالا. - ومرت علينا امرأة متشددة: اقتربت تلك المخلوقة من الشيخ البدوى وجذبته من عباءته (بشتة)." تصيح، إلى الصلاة، أيها الشيطان البدوى العجوز؛ أنت واقف هنا والناس يصلون! - وأنت واقف هنا لتتكلم مع هذا الشخص الكافر؟" - " إخص ! اسحبى يدك يا امرأة ، وأتركينى أذهب لحال سبيلى! - قلت لك أنى صليت." وبالرغم من أنه صاح إخص akhs - إخص akhs إلا أنها ظلت ممسكة بملابسه؛ ولم يقو على مقاومتها: ومع ذلك قال لى: "أنت أيها المداوى ! ما هو علاجك للأنف السائل؟ - فلتحرق النار هذه المرأة! التى منعتنى من الكلام معك." طلبت منه أن يجىء إلىّ بعد الصلاة ؛ وهنا سمع الشيخ بعض الأطفال يتحدونه ويقولون وراك Warak وراك Warak ! لماذا لا تذهب للصلاة؟ قال لى وهو ينصرف: "يا أنت ! لا تقاومهم، ولكن افعل ما يريدون ؛ والمرء عندما يسافر إلى بلد آخر، يجب أن يتبع المألوف ولا يجادل - وسيكون ذلك هو الأفضل لك، وإذا ما أردت أن تعيش فى سلام معهم." وهنا داهمنا الضرب بالعصا! - وكاد المطوع أن يقبض على ذلك الشيخ البدوى القادم من الصحراء." أوه! توقف ، وأنا ذاهب للصلاه"؛ ثم بدأ المطوعون يسوقون ذلك الشيخ أمامهم.

حققت ممارستى للطبابة ربحا معقولا. فقد كان هناك مع طلوع كل يوم قطيع من الأشخاص البائسين الذين كانوا ينتظرون الحكيم فى شقتى الصغيرة (قبل أن يذهبوا لأعمالهم)؛ كانوا يلجُّون على فى مسالة عيونهم الملتهبة؛ وكانوا جميعا يستعملون غسول الأعين الذى كنت أعطيهم إياه. وأثناء قيامى بذلك العمل كنت أستقبل بعض المراسلين الذين كانوا يفدون لدعوتى إلى تناول الإفطار؛ وكنت أترك مرضاى وهم مستلقون على ظهورهم وعيونهم محتقنة. المواطنون الفقراء كثيرو العدد فى ظل تحسن ظروف الحياة

فى عنيزة. وهؤلاء الفقراء يتمثلون فى عمال الزراعة، وعمال جلب الماء من الآبار، وهم يحصلون على أجور شهرية زهيدة لا تكفيهم. والمعوقون وكبار السن لا حول لهم ولا قوة؛ ويتعين عليهم أن يمشوا فى البلدة يستجدون الناس. كنت فى بعض الأحيان أقابل جماعات من هؤلاء الناس وهم يتجولون ويستجدون الناس فى الشوارع الخالية والهادئة قبيل دخول وقت الظهيرة؛ كنت ألتقى أرامل مسنات، ورجالاً مسنين بلا أبناء، ومطلقات معوزات ومعسرات، وأبناء الطبيعة التعساء الأشقياء الذين ليس لهم عائل أو معين. كل هؤلاء يمشون فى العراء كما لو كانوا لعنة سُبَّةً فى الدنيا، ويتعين عليهم أن يطرقوا الأبواب الواحد بعد الآخر ، كى يتبينوا إن كان الله سيعطيهم الخير أم لا؛ وهم يمشون فى الشوارع وينادون فى حزن وغم ويقولون: يا ya أهل ahl الكريم el- ka- rim ! بمعنى "يا أهل الكرم." ولكن لم أكن أرى يد الكرم أو العطاء تمتد لهم أو يفتح الناس لهم أبوابهم، إلا نادرا . ذات يوم عندما ذهبت لزيارة الأمير فى الصباح وجدت هؤلاء المساكين يتدافعون أمام بابه؛ ثم خرج ولد زامل إليهم ومعه شىء ما كى يعطيهم إياه: ولكنى اكتشفت أن تلك الإعانة كانت أقل من حفنة من التمر التى كان يضعها فى يده! كان ولد زامل يقول: "أبعد عن هنا! وأنت خذ هذه لك". وكان يدفع المساكين ويضطرهم إلى أن يعطوه ظهورهم.

كنت أمضى أمسيات حلوة فى مقاهى الأصدقاء الشباب ومع الجارين حامد وعبد الله ؛ وكان حامد وعبد الله يستدعيان ابن عايض الذى كان يسلينى بالحديث عن الآداب العربية. كان حامد يتحفنا بالنراجيل البغدادية، فى حين كان عبد الله يُصلِّح لنا مشروبا مرطبا محلى بالسكر من تمر tamr الهند el-Hind أو إن شئت فقل: التمر هندى. كانت الصحبة المختارة هى التى تتردد على قهوة عبد الله أثناء النهار، - وتلك كانت أخلاقيات البسام الشاب، التى تسر الخاطر. كان هاون طحن البن يدوى فى منزل ذلك الرجل كما لو كان ناقوسا يعلن عن كرمه وحسن ضيافته ، وبخاصة عند تصليح القهوة وإعدادها . وهاون القهوة فى عنيزة يشبه الطبق الصغير المجوف فى كتلة من الرخام: والهاون الذى يكون له صوت مدوٍ يحظى بسمعة طيبة بين الناس. هاونات طحن القهوة الكبيرة يجرى قطعها من مناطق الرخام التى لا تبعد مسافة كبيرة

عن عنيزة وتقع ناحية الشرق (بالقرب من المذنب el-Mithnib ، في اتجاه جبل طويق Tueyk) . ويد الهاون تشبه حرف ا وهي تصنع من الرخام في عنيزة: والناس هنا يدقون في الهاونات دقا إيقاعيا (يتناهى إلى مسامع الناس قادما إليهم من وجارات القهوة الخاصة بالعرب). ورب البيت البائس، الذى لا يكون بحاجة ملحة إلى من يشرب معه القهوة، يتعين عليه التخفيف من إيقاعات ذلك الهاون الذى يطحن فيه البن.

كانت تلك هى الروح الشابة التى كانت سائدة فى منازل التجار (الأجانب) فى عنيزة: هؤلاء التجار كانوا يقرءون فى دائرة المعارف، وكانوا يقرءون لشعراء الجزيرة العربية القدامى. هذا هو عبد الله البسام، بعد أن يرحل عنه آخر صديق من أصدقاء المساء - تراه جالسا إلى مصباحه البترولى، وناسيا زوجة شبابه، ومنكبًا على كتبه لكى يغذى روحه ويشبعها ويستمر على هذا الحال إلى أن يطلع عليه النهار. أما حامد، الذى تربى فى بغداد، فقد كان لا يصدق فيما يتعلق بالقديم والجديد فى هذه الدنيا؛ ولكنه كان ميالا إلى الدراسات الجديدة. هؤلاء التجار الشبان كانوا يطلبون المشورة الطبية، وكانوا يتعلمون منى بعض الكلمات الإفرنجية، كما كانوا يطلبون منى أيضا أبجديتنا، - والسبب فى ذلك أن نقل هؤلاء التجار البحرى، إنما هو فى أيدى الشاحنين الأوربيين. قلة قليلة من هؤلاء الناس الذين هم من الجزيرة العربية، والذين يعيشون فى الموانى التجارية فى الخارج، تعلموا بالفعل كيف يظهرون أسماءهم على الفواتير الإفرنجية التى تصل إلى أيديهم، وكانوا يكتبون أسماءهم بالحروف الرومانية. ولد عبد الله البسام الأكبر - الذى هو حاليا فى الهند، ومعه أيضا قلة قليلة من الناس، سبق له ولهم أن تعلموا القراءة والكلام باللغة الإنجليزية: غير أن ذلك، فى اعتقادى لم يكن كما ينبغى أن يكون. تجار آخرون، مثل الكنينى، الذين يعيشون فى الهند، كانوا يتكلمون اللغة الهندوستانية. وهذا هو حامد، كتب من شفتى (وبحروف عربية) قائمة طويلة من الكلمات الإنجليزية، - وهى من قبيل الكلمات التى قد يفيد منها أو تفيده أثناء تنقله فى الخليج. كان والد حامد، يقيم فى بغداد منذ ثلاثين عاما؛ ولم يزر عنيزة منذ زمن طويل: - الأمر الذى جعل المدينة، من وجهة نظره، تتوسع إلى حد أن من يزورها بعد غياب طويل، قد لا يصدق أنه موجود فيها بالفعل. قال لى الكنينى:

إن حجم عنيزة الحالى يعادل ضعف حجمها قبل خمسة عشر عاما؛ وهو يعتقد أن سكان عنيزة فى الوقت الراهن لابد أن يكونوا ١٥٠٠ نسمة.

كان أصدقائى يرونى من منطلق أنى حكيم حافى القدمين، ممزق الثياب، وقادما من الخلاء (صحراء)، كما كانوا ينظرون إلى باعتبارى هاربا من بريدة. أرسل لى عبد الله البسام الشاب نعلة، أرادوا لى أن أحمل عصا طويلة فى يدى؛ ولكنى قلت لهم: من لا يحتاج لا يكون فقيرا: وفقرى شرف لى ." قال الكنينى لى فى الصباح ، عندما كنا على انفراد (وبمزيد من الحنو والتعاطف تمكن من العثور على كلمة إفرنجية): " مسيو Mussu خليل ، لو كنت بحاجة إلى النقود – ولو وصل ذلك الاحتياج إلى مائة أو مائتى ريال، فإنك ستجد هذه النقود التى أمل أن تقبلها منى. ولكن الكنينى لم يكن يعرف كل احتياجاتى، وكان يتصور أننى كنت أتنقل فى مظهر رجل فقير من باب التنكر ليس إلا. شكرته على كلامه الطيب ؛ والذى راح يتردد فى مسمعى منذ ذلك الوقت فصاعدا، وكأنى لم أستمع إليه مطلقا . سمعت أيضا أن البسام الطيب حمل على عاتقه مسألة سفرى ومُضِىّ قدما إلى الأماكن التى أريد الوصول إليها. كان يعزمنى مرارا على الذهاب إلى منزله، كما كنت أذهب أيضا إلى منزل الكنينى فى بعض الأحيان الذى كان يخشى (باعتباره رجلا عصريا) الكلام الوهابى الجارح الخشن. كان ذلك البسام الطيب، كلما التقانى، يدعو الغريب بكلام بشوش، إلى تناول الإفطار مع حلول الصباح: ومع تناول الإفطار كان يوجه لى الدعوة لتناول الغداء معه فى اليوم نفسه، – وتلك إنسانية كنت أشكر الله عليها فى هذه الظروف بالغة القسوة.

كان عبد الله البسام يعيرنى أذنا صاغية فى تساؤلاتى عن الآثار القديمة فى الجزيرة العربية؛ يضاف إلى ذلك أنه كان يفيض حنانا وعطفا. – 'قال: ألم يزر النصرانى النبى (ﷺ) فى المدينة المنورة، هو وعمر؟' – عمر، الذى نادى بضبط الدين الجديد (من بعض الشرر الذى انطلق فى منطقة جرداء ليتحول إلى حريق كبير على مستوى العالم) ولكن كيف كان عفن وفساد السلطة الرومانية

فى ذلك الوقت؟ هذا فى الوقت الذى لم يستطع جنود الجحافل الرومية القديمة ، الذين كانوا يحتمون بملابس صنعوها من الحديد، الصمود أمام هجوم رجال الجزيرة العربية ضعاف الأجسام غير المسلحين تسليحا جيداً، وهم لا يرتدون سوى قمصان مهلهلة! ولم يكن يربط بين هؤلاء الناس [وهذا هو الرابط الوحيد الذى يمكن أن يربط بين الساميين!] سوى العاطفة الدينية (الجديدة) من ناحية، وجشعهم الذى يشبه جشع اللصوص فيما يتعلق بالغنائم! هذا الشعب الذى سبق لجاليوس Gallus أن قاد جيشا روميا خلال أرضه، بلا معارك، طوال خمسة عصور، ويعود من هذه الحملة وكله احتقار وازدراء لأولئك السكان الذين يتسمون باللصوصية ولا يعرفون كيف يقاتلون! وسرعان ما اجتاح المسلمون مصر، بفعل السلاح المرعب لتلك العقيدة الجديدة: وحكى لى البسام حكاية ذلك القبطى الذى جاء يشكو حزنه لأمير المؤمنين فى المدينة المنورة. هذا القبطى وجد (سيدنا) عمر الشهم الشبيه بالبدو، وهو مشغول ، شأنه شأن أى رجل فقير آخر، فى مزرعة نخيله، إذ كان يسوق الإبل التى تعمل فى جلب الماء من البئر؛ وأوقف (سيدنا) عمر ماشيته كى يستمع إلى شكوى ذلك المسيحى. زعم ذلك القبطى أن قائد المسلمين فى مصر تعسف معه، لأنه يود أن يبنى مسجدهم فى الإسكندرية على قطعة من أرض ذلك القبطى، الأمر الذى يحتم هدم منزل ذلك المسيحى، - بالرغم من أنه - هذا المسيحى - كان يرفض دوما الحصول على الثمن. وراح عمر يبحث فى أرضه إلى أن عثر على قطعة من العظم - فى بلاد العرب، يسهل الحصول على قطع العظم نظرا لأنهم لا يدفنون الحيوانات الأمر الذى يؤدى إلى تبعثر عظامها بعد تحلل أجسادها، ثم طلب (سيدنا) عمر من ذلك القبطى أن يشهد ما يفعله أمير المؤمنين. قام (سيدنا) عمر بقطع رأس العظمة بحد سيفه، ثم سلم تلك الإشارة (العلامة) للقبطى، [ليلفها فى ثيابه] ويسلمها لنائبه فى مصر، وأمره له بالكف والامتناع عن ذلك الأمر. كان كلام (سيدنا) عمر كاف لإزاحة ملوك، بالرغم من أنه لم يكن يعرف سوى قشور ، وأطاع نائبه (العربى) فى الإسكندرية الكلام ونفذه - كان عمر (رضي الله عنه) هو الذى أحرق أدبيات letrers العلم السابق: فقد بدا له حسب فهمه السامى Semetic

أن تلك الأدبيات لم تفد كثيرا فى فهم الإله الحقيقى من ناحية، ومن باب إنقاذه للدين من الناحية الأخرى. (*)

لم يستطع البسام أو علماء عنيزة الرد على سؤالى البسيط،" أين توجد جوردة Jorda؟ – التى ورد ذكرها فى الموروث (الإسلامى) على إنها 'عاصمة القصيم'." لم يكن هذا الاسم معروفا لهم ! فى البداية وجدوا الرد على سؤالى، بعد عدة أيام، من خلال مقارعتى بكثير من الكتب؛ وعن موقع تلك البلدة، فقد سألوا عنه أولئك الذين اعتادوا على التجوال فى النفود. – وهم يزعمون أن موقع هذه البلدة هو الإثيلّى el-ethelly (بعض البيوت الكبيرة البعيدة)، بالقرب من مدينة الرس er-Russ فى وادى الرماح: حيث توجد مساحّة كبيرة من الأنقاض والأساسات ': بل إنهم عدّلوا جوردة Jorda إلى جرادة Jarada . المتعلمون بين هؤلاء الناس يدرسون لكى يتخصصوا فقط فى التعليم القرآنى المتعب الأكثر من ذلك، أنهم قد يستخفون بذلك الذى يشده فضوله إلى أن يكتب تاريخا لشئونهم البسيطة فى الكلام المبتذل. أسماء الأراضى ربما تكون هى الكتابات القديمة الوحيدة لسكان الواحات. كان كتاب البسام عن السلالات (المزعومة) كتابا مهما، وكان له غلاف مذهب مصنوع من الجلد الأحمر اللون: وقد قرأت فى ذلك الكتاب قرابات كل من العمالقة Amalek ومدين Midian ، وغيرها من قبائل الجزيرة العربية الأخرى؛ تلك القبائل التى كانت بدوا ومستوطنين فى الموروث الموسوى والعبرى. وعندما وجدنى ذلك الرجل الطيب مشغولا بتقليب الصفحات، أعطانى كتابه؛ ولكنى رفضت قبول الكتاب، – وهو ما أغضبه بعض الشيء .

قالوا لى : 'إن مندوبا من الحكومة العثمانية، جاء فى العام السابق، إلى هذه المناطق وكان معه فرمان من السلطان؛ وقام ذلك المندوب بتدوين أسماء البلدان والقرى،

(*) يفهم من السياق أن عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) هو الذى أحرق مكتبة الإسكندرية ، وهو خطأ تاريخى فادح ، إذ إن عمر بن الخطاب لم يأت قطعًا إلى مصر أما إذا كان المقصود عمرو بن العاص فهو أمر لم يحدث لأن الذى أحرق مكتبة الإسكندرية هو يوليوس قيصر فى عام ٤٨ ق. م. عند اشتباكه بأسطول بطليموس شقيق كليوباترا وخصمها على عرش مصر . (المراجع)

كما دون أيضا أسماء القبائل التى تتجول فى هذه المنطقة؛ وسلطة السلطان التركى [برغم اغتصابها بحد السيف] معترف بها هنا من كل المسلمين الحقيقيين؛ كما أن بلدية بريدة تدفع مساهمة سنوية للخزانة العثمانية فى الحجاز، - وهذه المساهمة لا تتجاوز الألف جنيه. - أما عنيزة فقد جاء ردها على النحو التالى:" نحن لا ننكر الزكاة أو الفدية: أرسلوا لنا وتسلموا الفدية." ولكن الأتراك فى ذلك الوقت، لم يكونوا على استعداد للمغامرة فى رمال الجزيرة العربية!

كانت أفكار الكنينى كلها تتركز على تربية ولده وتنشئته؛ ذلك الولد الذى سيخوض غمار حياته سابحا فوق أمواج الدنيا ، ومتسلحا بتلك الذخيرة التى سبق له تصورها وتخيلها. كان الكنينى يود لولده أن يتعلم اللغة الفارسية واللغة التركية (اللغتان السائدتان فى منطقة الخليج المجاورة لهم)؛ كما كان يود لولده أن يتعلم أيضا اللغة الفرنسية والإنجليزية. هذا الصبى وهو فى سن العشرين، سوف يبدأ رحلته عبر دول أوروبا، ليرى العالم المتحضر العظيم، ويرى أيضا آلاف الماكينات الجديدة المدهشة، التى أصبحت بمثابة معينات الحياة الإنسانية والبشرية. ذهن عبد الله البسام الواسع ، كان يحتقر الحقد والغيرة الوطنية بكل أشكالها ، كما كان يكره أيضا التزمت والغطرسة الدينية؛ وكان معجبا جداً بالمعرفة الطبيعية، والتمدن والإنسانية، التى هى موجودة حاليا فى الأجزاء الغربية من العالم. كان عبد الله صاحب روح ممتازة أو قريبة من الممتازة: كان الرجل معتدلا، كما كان أيضا متقشفا، ولكن ليس إلى حد الخطأ. سيقوم عبد الله، فى البداية، بإرسال ولده محمد، لمدة عامين، لتلقى العلم فى واحدة من مدارس المسلمين فى بغداد، والسبب فى ذلك أن ولده سوف يتحتم عليه العيش وسط المسلمين. ؛ ثم يوفد ولده بعد ذلك إلى مصر أو إلى بيروت ؛ وسألنى عن المدارس التى فى بيروت [التى كانت فى ذلك الوقت ناظرة مدارس الليفانت] . هذا الولد، الذى كان يشغل بال وفكر عبد الله، كان يبلغ من العمر عشر سنوات، ولم يتعلم بعد القراءة والكتابة. هذا الولد، أنجبه عبد الله، من امرأة هندية، عندما كان فى بومباى: ولقد سمعت عن هذا الموضوع بعد ذلك فى مستوطنة نجد؛ وهم لا يراعون فى تحالفاتهم مسألة الدم الوطنى. كان عبد الله يود لولده أن يذاكر كثيرا حتى يتعلم

الكثير أيضا؛ كان عبد الله يتحرق شوقا لرؤية ولده وهو يتقدم بصورة مستمرة نحو آفاق المعرفة: ولكنى عندما وقفت على ضعف الولد البدنى نصحت والده ألا يلقى عليه كل تلك الأحمال الثقال. – وبعد أن استمع عبد الله إلى كلامى المخلص الخالى من النفاق، والذى لا يعد أمرا شائعا فى عالمهم العامر بالخداع والغش، رد علىّ فى النهاية، وهو يتنهد ويقول: صحيح! Sahhih بمعنى' هذا كلام صادق وصحيح'.

لم يمض عبد الله شبابه فى التعليم المدرسى؛ كما أنه لم يواصل تعليمه فى الجامعة – ذلك المجزر الذى يوقد الفكر والعقول؛ ولكن فهمه وإدراكه الواسع كان على ما يرام، هذا الفهم نضج فى شمس العالم العامر بالمال والأعمال: وعندما دخل عبد الله السباق استطاع فى سن مبكرة الحصول على تاج السرعة الإلهية. كان والد عبد الله يتجر فى الخيول، نظرا لوجود الكثير من الأنواع الجيدة فى البلدة؛ ولكن ذلك الوالد بقى فقير الحال ومات فى سن مبكرة. بعد ذلك بدأ عبد الله مغامراته فى هذه الدنيا، فذهب إلى بغداد التى (وقد سمعته يقول ذلك) لم يستطع فى بداية الأمر، أن يفهم فيها لهجة الشمال الغريبة عليه. بدأ التجارة بعد ذلك؛ وكان اتجاره من نوع [وهو يتكلم مع رجل إنجليزى] قال عنه، ما Ma ينفع yunfa بمعنى' ليس فيه من النفع شيئا.' – كان عبد الله يبيع العبيد ويشتريهم؛ وكان بسبب هذه التجارة يبحر إلى زنزبار Zanzibar ، التى كان سلطانها (من عائلة عمان (*) Aman الأميرية) من بنى تميم ، وبنى تميم هؤلاء هم من قبليى نجد. كان عبد الله يسافر أيضا إلى موريشوس Mauritius لأنه كان يتجر فى السكر! ثم بدأ عبد الله يتجر فى الأرز الذى كان يشحنه من بومباى، إلى الموانى العربية؛ إلى أن ذهب واستقر فى البصرة: التى قال لى عنها وهو يتفاخر فخر التجار: إن لديه فى مخازن الحبوب (المفتوحة) فيها قمحا تصل قيمته إلى حوالى ٥٠٠٠ جنيه إنجليزى! – وأنه كان يحمى تلك الحبوب بالحصير وأغطية من البوص؛ التى يمكن وضعها فوق أكياس الحبوب فى حالة سقوط المطر. وقال لى أيضا:

(*) كانت عمان وزنجبار دولة واحدة على عهد سلطنة البوسعيد ، ثم انفصلت عن عمان فى عام ١٨٦٢ وصار يحكم كل منهما سلطان من نفس الأسرة البوسعيدية (المراجع)

إن إنفاق أسرته السنوى، بالإضافة إلى ما يعطيه لبعض المقربين منه، يصل إلى حوالى ٤٠٠ جنيه إنجليزى.

قيم عبد الله ثروة أغنى تجار عنيزة بحوالى ٢٤٠٠٠ جنيه إنجليزى؛ وإذا ما حسبنا على هذه الثروة نسبة اثنى عشر فى المئة، إذ كان الإيجار السنوى فى حائل عشرة أمثال رأس مال التجارة فى حائل! (هذا يجيز لنا قبول التقييم الذى جاء به حمود). ولكن بالصغر إنفاق أسرة الجزيرة العربية إذا ما قارناه بألفين أو ثلاثة آلاف جنيه إنجليزى تنفقها أسرة واحدة!

كان اسم الكنينى يحظى بالتكريم والاحترام فى القسم الليبرالى من البلدة: "قالوا: الله أعطاه، وهو رجل طيب؛" ولكن الحقد الوهابى كان ينظر إلى أولئك التجار باعتبارهم نحلة فى عشهم. لم يستطع أن يشترى لنفسه حذاءًا "أصبح واحداً من الأثرياء فى العالم؛ كانوا يردون ،" هذه بركة من الله." ومعروف أن أسعار سوق الحبوب فى الشرق ترتفع وتنخفض فجأة: وأن فهم عبد الله الجيد هو الذى مكنه من الإفادة من تلك التقلبات بين الارتفاع، والانخفاض، فى مضاعفة ثروته. فى ذلك الوقت كان عبد الله يتجر فى القمح بالجملة، إذ كان يبيع لتجار التجزئة بناء على الثقة، وقال لى إنه كان يفعل ذلك بلا أدنى خوف ؛ لأنه كان يعتقد أنه (بحكم ملاحظته) كان يعرف الحال الحقيقى لهؤلاء الزبائن. - وأنا عندما كنت مقيما فى دمشق، رأيت بنفسى أن سعر قمح الخبز كان سعره يرتفع فى أواخر فصل الشتاء؛ وتخيلت أنه فى حدود مائة أو مائتى جنيه يمكن افتتاح صومعة غلال صغيرة، تستطيع الأسر الفقيرة أن تشترى منها احتياجاتها طوال العام، بسعر يزيد قليلا على سعر المحصول عند الحصاد . سألت بعض الأشخاص الحريصين والأمناء؛ ولكنهم جميعا ردوا على "إنها تجارة عجيبة وغريبة، أن يتحول فيها تاجر من تجار الجملة إلى مثل هذا الرواج." - " من هنا وجدت أن أحداً منهم لم يكن على استعداد للدخول معى فى مغامرة من هذا القبيل.

عندما تغديت مرة ثانية مع البسام، كان ذلك فى حضرة شريف المدينة المنورة! هذا الثعلب العجوز صاحب العمامة كان قد وصل مؤخرا إلى عنيزة، واتخذ لنفسه

مقاما من المضيفة العامة (التى يقولون لها منزل Menzil الشيوخ es-Sheukh) ؛ ولكنه كان يفطر ويتعشى على مائدة البسام الرجل الطيب، والذى تعهد من باب الإحسان، تسفير ذلك الشحاذ الدينى إلى المدينة المنورة. كانت طيبة عبد الله البسام عامة ، بمعنى إنها كانت تعم الجميع وكان الجنود الهاربون عندما يصلون إلى عنيزة يقوم عبد الله البسام، من باب الشفقة بمساعدتهم . بما يمكنهم من مواصلة الرحلة. هذا الرجل بالرغم من أنه كان عميدا لعائلة ثرية ، كان يسارع إلى أعمال الخير، إلا أن رأسماله لم يكن كبيرا: هذا الرجل سكن فى بيت بالإيجار عندما عاد إلى عنيزة؛ كما أن القسم الأكبر من تجارته كان فى تلك السلعة التى كان الآخرون يرونها من أخص خصائص عبد الله. كان يتمتع بقلب شاب بالرغم من أنه كان فى منتصف العمر، وكانت أخلاقياته وسلوكياته الحلوة ذائعة الصيت؛ لم يكن فى عبد الله هنة من هنات الضعف. كان صاحب وجه يسر الناظر إليه؛ كان يمشى فى الشوارع مرتديا أبهى ثيابه، وهو يمسك فى يده عصا الأعيان الطويلة: وفى كل مكان ترى ذلك الرجل ووجهه مبتسم ، سواء أكان يتكلم أم كان صامتا. كان عبد الله البسام يمامة فى عش غربان التشدد والتزمت : كان يحب إله محمد قبل كل شىء (لأنه ولد على هذا الدين)، ثم من بعد ذلك كل الناس المهمين من أمثاله. وقد رأيت بعيناى مدى كبر كرم ذلك التاجر، الكرم الذى اتخذ من الدين أساسا له؛ وفى كرمه كانت حكمته فوق حكمة الدنيا.

الفصل الثالث عشر

الحياة في عنيزة

شائعات العمليات الحربية. خبر خطير من الشمال. أعراب المطير. العتيبة. القبض على قحطاني في الشارع. جريمة كبرى. محاضرة في مساء الجمعة. المطّوع. بسام والكنيني يتحدثان عن الأمم الغربية. مجلة عربية." محك الحقيقة." الشاذلية. رأي فارسي في الأديان (السامية) الثلاثة. الإنجيليون الأوروبيون في سوريا. آراء عربي في السلوكيات الفرنجية (التي لمسها في الهند). مُطعِّمُ في عنيزة. النصراني بلا مأوى. شخصية مثقفة. محمد. العقائد السامية." الشيخ" محمد. دواء مسحوق اللودانوم. رسالة من بريدة. خطاب الدين. كلمة يهودي. الجدري. عائلة يحيى. الأمراض. شفاء قصير لبعض الأشخاص المشتتين؛ قصة الدير الماروني في لبنان. عمال الحجارة في عنيزة. بيت عند أطراف المدينة. اقتراض النقود بالربا. الزراعة في الواحة. سمسار خيول من عنيزة . غربلة جحور النمل طلبًا للخبز. بيع الخيول في الجزيرة العربية، والخيول الشمالية أو خيول الخليج. العيارية. وادي الرماح شمالاً. خالد بن الوليد. الأورشازية صراع حفاري الآبار المميت. رجل قديم في الجزيرة العربية. النصراني فيما بينهم خارج على القانون. أفكار عن السفر إلى سدوس والرياض. الكلام العربي في القصيم .

ذات صباح جاء خبر إلى المدينة، مفاده أن البدو أغاروا على من كانوا يحصدون في الوادي، وأخذوا منهم حميرهم: في خلال النصف ساعة الذي تلى ذلك رأيت أكثر من مائة من الشباب من أهل المدينة وقد تجمعوا ومعهم أسلحتهم وراحوا يسارعون في الاتجاه صوب بوابة بريدة. أما الفقراء البائسون من أهل المدينة فقد سارعوا سيرا

على الأقدام ومعهم حراب طويلة؛ أما الميسورين فقد راحوا يسيرون خلفهم راكبين نياقهم ومن خلفهم أولئك الذين يركبون على الجزء الخلفى من الإبل. ولكن كانت ساعة كاملة قد مضت على ذيوع الخبر وانتشاره؛ وكان اللصوص المسرعون قد قطعوا مسافة فرسخين أو ثلاثة فراسخ.

كانت هناك شائعات عن حرب مع كل من بريدة والقحطان . لو كان الأمر حربا بين البلدين، لما استطاع حسن وأهل بريدة (وهم أقل سلاحا وعددا) المغامرة بلقاء أهل عنيزة والتصادم معهم فى النفود؛ وكان الأجدر بهم أن يحموا أنفسهم خلف سورهم الذى يبلغ سمكه شبرا، تاركين حقولهم ومزارعهم تحت رحمة العدو، - مثلما حدث لهم قبل ذلك. ولما كان الخصوم جيرانا، فإنهم لن يفعلوا شيئا سوى ابتلاع ثمارهم، فى حين تبقى البساتين بلا رى: الخصوم ليسوا أجانب حتى يدمروا أعراف النخيل، الأمر الذى يحطم أصحاب هذا النخيل على امتداد سنوات طويلة. - هذا هو ما فعله مضيف ابن سعود فى الحرب مع عنيزة؛ فقد قاما بتدمير النخيل الموجود فى الوادى: طعم قلب (جُمَّار) النخيل لذيذ عند أهل الجزيرة العربية، وهم يتشوقون إلى الأكل من ذلك الجُمَّار بنهم شديد.

كان القحطان القبليون يعانون الأمرين عندما يأتون للتسوق من عنيزة، إلى أن تصادف ذات يوم، أن كانت جماعة منهم عائدة ذات مساء ومعها إبلا محملة، فوجدت بعض أطفال المدينة غير بعيدين عن البوابة، فى صحرا النفود، وكان أولئك الأطفال يقتادون حميرهم عائدين إلى بيوتهم، وكان معهم عبد abd ، فاستولى القحطان على الحمير، وتركوا الأطفال يذهبون لحال سبيلهم: كما أخذوا العبد معهم أيضا، - وكان ذلك العبد واحداً من عبيد زامل.

وصل المدينة (عنيزة) خبر مزعج قادما من الشمال؛ واهتزت عنيزة كلها لذلك الخبر، نظرا لأن الأشخاص الذين ورد ذكرهم فى ذلك الخبر كانوا معروفين لأهل عنيزة حق المعرفة. مفاد هذا الخبر أن مخيما كبيرا من مخيمات المُطير، وهم من صدوق Saduk الأعراب أو إن شئت فقل: "الأصدقاء المخلصين للمدينة ولزامل أيضا"،

(إن جاز لنا القول بأن البدو الرحل يمكن أن يكونوا صادقين وأهلا للثقة!) قد أقيم على بعد مسير أربعة أيام من هنا، وأن ذلك المخيم كان عبارة عن غزو كبير من القحطان، - لمراعي القصيم، أعدائهم اللدودين. كان حيزان Hayzan هو قائد ذلك الغزو وحيزان هذا لم يراع طقوس الضيافة، إذ سبق له أن هددني وأنا في حائل. والبدو الرحل (الذين هم خصوم هاربين في أية قضية أخرى) ، على استعداد "للقتال حتى الموت" من أجل المرعى والمياه. كان المطير مندهشين في خيامهم، وكان القحطان القائمون بالغزو أكبر منهم عددا؛ كما قام القحطان بقتل بعض الأفراد من المطير. ولاذت البقية الباقية بالفرار حفاظا على حياواتهم، وكانت معهم حيوانات الحليب المتمثلة في النياق؛ وخلَّف المطير وراءهم الماشية بطيئة الخطى، كما خلفوا وراءهم أيضا خيامهم، ومستلزمات منازلهم، تركوا ذلك كله في أيدي أعداءهم؛ الذين لم يراعوا دين الصحراء وراحوا يطعنون النساء بالحراب، وجردوهن من ملابسهن؛ وأصابوا اثنين أو ثلاثة من الأطفال الصغار! وكان من بين أولئك الذين سقطوا في ذلك العدوان واحد من كبار الشيوخ المشهورين في عنيزة. فقد اخترق حيزان جسد ذلك الشيخ باستعمال الرمح!

انسحب الأعراب عندئذ صوب عنيزة؛ التي اتضح للشيوخ فيها أن أهل المدينة يودون المشاركة معهم في القتال، لتخليص المدينة من ذلك الطاعون والوباء الخطير. ومن الناحية السلالية، هم ينظرون إلى المطير على إنهم من نسل إسماعيل، لأنهم ينحدرون من كل من قيس، ومن أنمار Anmar ومن ربيع Rubia : والمعروف أن رُبيع، وأنمار، وموذور، وإياد كلهم إخوان؛ كما أن رُبيع هو والد وائل، الذي يعد عميد العنيزة. والمطير هم من أهل قبلي Gibly القدامي: وموطنهم في الحرة الكبيرة التي تقع بين الحرمين، ومع ذلك يحتلها القبليون المطيريون. والقرى القديمة في ذلك البلد، على طريق الدرب Derb الشرقي es-Sherky ، أو إن شئت فقل شرقي طريق الحج إلى مكة، هي الفيرية El-fereya ، وحاذي Hathi ، وسفينة Sfeyna ، والسويرجية es-swergieh ، كل ذلك في حرة الكشيب el-Kisshub ؛ وفي الهجير Hajjir : ولكن غالبية القرويين في وادي السويرجية كانوا أشرافا في ذلك التاريخ، أو إن شئت فقل من سلالة النبي (ﷺ). والمطير حاليا يعدون من أهل الشمال: والسبب في ذلك أن هؤلاء البدو الرحل

يتجولون مع حلول فصل الصيف، نحو الأعلى لكى يرعوا ماشيتهم فى الصحراء الشمالية: وحدودهم تمتد إلى كل من الكويت والبصرة على وجه التقريب؛ وهم يجاورون الشمر فى الشمال. والطرفان ليسا أتباعا لابن الرشيد وإنما همْ أعراب أصدقاء له. وبذلك تكون مسيرات الصحراء أو إن شئت فقل: مضارب الصحراء الخاصة بالمطير تصل إلى حوالى ٢٠٠ فرسخ ! [والمطير من حيث العدد (بين قبائل الوسط) يجيئون بعد أمة عتيبة البدوية الكبيرة وربما يصل عددهم إلى ما يقرب من ٥٠٠٠ نسمة.] كانت خيام المطير فى القصيم أكثر من مائتى خيمة، فى ذلك الوقت. والمطير يزورون عنيزة كل عام؛ ويقوم زامل بإهداء شيخهم الكبير حملاً أو حملين من التمر، وذلك حتى يتسنى لقوافل المدينة المرور دون أن يعترض أحد منهم طريقها.

العتبان Ateyban ، هم أيضا من البدو القبليين الذين لجأوا إلى عنيزة (ويقال إن هؤلاء العتبان من سلالة قيس)؛ لم يكن المطير أو عتيبة على وفاق مع بريدة. ومضارب عتيبة عبارة عن تلك الصحراء المرتفعة، بالإضافة إلى مئة فرسخ أخرى؛ وهذه المضارب تقع بين القصيم فى الشمال وبلاد مكة: هذه الديرة الشاسعة، التى تعد من أفضل المراعى الصحراوية، ليس فيها أية مستوطنة من المستوطنات! وقبيلة عتيبة ، التى هى واحدة من أكبر القبائل فى الجزيرة العربية، يصل تعدادها إلى ما يقرب من ٦٠٠٠ نسمة؛ والعتبان يتميزون بعقلية أكثر ثباتا واستقرارا من عقلية السواد الأعظم من البدو الآخرين؛ وكان العتبان حلفاء (كما سبق أن أوضحنا) بمعنى الكلمة، لعبد الله بن سعود. وهم من الناحية الدينية يغلب عليهم التشدد بدلا من الاعتدال: وهم يسكنون بين الوهابى (*) Wahaby والحرم؛ وهم يتفاخرون بأنهم الأصدقاء الوارثين لأشراف مكة. كان زامل، يفضل الهدوء والسلام ، اللذين فيهما رفاهية الحياة الإنسانية، وفيهما أيضا عبادة الله؛ ولكن فى حالة الحرب، فإن أهل عنيزة يعرفون مدى حزم زامل ، كما أن ثقتهم فى قدراته كبيرة جداً. ها هو زامل، قد أوفد مائة من راكبى النياق من بين

(*) الوهابى : من المرجح أن المؤلف يقصد أن العتبان يعيشون بين نجد – مركز دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب – والحرم المكى الشريف . (المراجع)

مواطنى عنيزة، أوفدهم لاستطلاع النفود، وكانوا يسيرون على شكل جماعتين، وجعل يحيى ولد الأمير على رئيسا لهاتين الجماعتين؛ ويحيى شاب صغير تبدو عليه الرجولة، ولكنه مثل والده له أفق وهابى ضيق .

شاهدت قحطانيا ألقوا القبض عليه فى الشارع ؛ كان ذلك الرجل قد جاء إلى عنيزة طلبا للتسوق، ولكن عندما اكتشفوه من كلامه، ألقى الواقفون القبض على ناقته . كان البعض يحاولون جذبه لإنزاله من فوق عدة (سرج) الناقة، والعربى المغلوب على أمره [بحكم طبيعته الماكرة والمتلونة] سوف لا يقاوم ، إذ أن مقاومته يمكن أن تنزل الخطر بحياته . صاحوا ، " تعال معنا لنعرضك على زامل ،" "أجاب، حسن، هيا وأنا معكم." أنزلوا الأشياء من فوق ناقته وبركوها وربطوا قدميها الأماميتين: كان البائعون فى الدكاكين المجاورة غير عابئين بتلك المغامرة. - فى حائل، أو فى بريدة، نرى أن الحالات التى من هذا القبيل الذى يقوم بها هم جماعة الأمير، فى ظل ضجيج وصراخ متقد ؛ ولكن عنيزة بلدة حرة، الحفاظ على الأمن فيها متروك للمواطنين كلهم. - وفيما يتعلق بالقحطان، لم يكن زامل قد أعلن بعد أنهم أعداء لعنيزة؛ وبالتالى لم تكن هناك أية شائبة على ذلك البدوى القحطانى. كانوا قد قيدوه ولكن الأمير العادل أصدر حكما بإطلاق سراحه.

الأشخاص الذين يرتكبون الجرائم فى عنيزة (التى لا يوجد بها سجن) يجرى تقييدهم إلى أن يحين موعد الجلسة التالية من جلسات الأمير. حكى لى الكنينى أنه طوال وجوده: فى عنيزة، لم يشهد سوى حادثة إعدام واحدة، كان ذلك منذ خمسة عشر عاما مضت. كانت المجرمة امرأة، شقيقة مفرّج Mufarrij ذلك الرجل المحترم الذى كان رئيسا لخدم الصالة العامة لأمير حائل: وبعد وقوع ذلك الحادث المؤلم لأسرته، ترك الرجل عنيزة بحثا عن خدمة أخرى فى مكان أجنبى. - كانت تلك المرأة قد أغوت بنتا صغيرة، التى كانت بمثابة الابنة الوحيدة لأسرة من الأسر الثرية المجاورة لتلك المرأة؛ وقتلت تلك الطفلة الصغيرة طمعا فى المصوغات الذهبية التى كانت تعلقها على رأسها، ثم قامت بعد ذلك بدفن جثة تلك الطفلة البريئة. هذا الأب المكلوم لجأ إلى عرّاف، -

الذى يزعمون أنه أثناء قيامه "بالقراءة" ينتفخ بطن المذنب . [انظر ص ٢٠٩] . هذا العرّاف، أو إن شئت فقل : المتكهن اقتاد الحاضرين إلى منزل تلك المرأة؛ وأراهم مكانا وطلب منهم الحفر فيه ! - ومن هذا المكان أخرجوا جثة الطفلة الصغيرة ! وحملوه ليدفنوه فى المقابر.

- وقدمت تلك المرأة للمحاكمة، أمام جلسة من الناس ومن الكبراء (المشايخ) الذين اجتمعوا إلى الأمير الذى يمثل السلطة التنفيذية . - فى البلدان العربية، يقيد حرس الأمير القاتل بالأصفاد، ويقدم لأقارب المقتول ، ليفعلوا به مايشاءون . - طلب عليٌّ من الوالد،" انهض واقتل هذه المرأة الشريرة ، القاتلة التى قتلت ابنته." ولكن الأب الذى كان شيخا متدينا (مطوعًا muttowwa)، ورجلا معتدلا، وفاضلا رد قائلا: "ابنتى الصغيرة ذهبت إلى رحمة الله؛ وأنا بالرغم من أنى سأقتل المرأة فإن ذلك لن يعيد إلى ابنتى!" - يكفى، يا سيدى، لقد عفوت عنها: من ذهبت، ذهبت وانتهت." على : " ولكن جريمتها لا يمكن أن تمر بلا عقاب، لأن هذه سابقة خطيرة فى هذه البلدة! أنا أقول لك! أضرب يا أنت، واقتلها." - وهنا استل المطوع سيفه وقتلها ! واللصوص هم والمذنبين يجرى ضربهم بعصى من جريد النخل ، الذى يتعين أن يكون أخضرا وليس جافا، والذى يقولون عنه: إنه يكسر العظام. وعنيزة لا تقطع اليد؛ ولكن المجرم المحترف يجرى إبعاده عن البلدة.

بعد ذلك أرسل زامل رسالة إلى شيوخ القحطان فى الصحراء، "أنهم إذا ما أعادوا كل ذلك الذى نهبه قبليوهم فإنهم يمكن أن يكونوا أصدقاء لعنيزة: وإذا ما جاءت الإجابة بالنفى، فإنه (زامل) سيناصبهم العداء." بعد أن يكون هؤلاء الناس قد أراحوا ضمائرهم على هذا النحو، فإن هؤلاء الناس (المتحضرون) يوكلون الأمر لحكم الله (سبحانه وتعالى)، وبذلك تكون أيديهم نظيفة من سفك الدماء: وهم (بشكل عام) لا يأخذون غنائم من أعدائهم! وهم يقولون عن ذلك: "إنه ليس من الشرع،" - وبالرغم من ذلك، فقد علمت بكل أسى، أن هناك الكثيرين الذين يقتلون اللصوص فى بيوتهم! ولكن إذا ما قام فقير فى غزوة من الغزوات بإخفاء شىء صغير فى خرج ناقته،

فهو يخفيه على نحو، لا يكون معه ظاهرا للعيان. - من هنا، فإن أهل عنيزة لا يأخذون سوى الأسلحة فقط ليدافعوا بها عن حرياتهم.

ذات يوم كنت فى زيارة لزامل، ووجدت فى مجلسه جمعا كبيرا من الناس الصامتين الذين لا يتكلمون: كان هناك أربعون فردا من أهل المدينة جالسين ومن ورائهم جدران المقهى. ثم دخل علينا رجل مسن كان شيخا من شيوخ الدين؛ وهمس الجالس إلى جوارى، فى أذنى ، بأنهم مجتمعون هنا لحضور محاضرة تلقى بعد عصر يوم الجمعة! وزعت القهوة؛ وشرب الحاضرون من الفناجيل نفسها. والعرب لا يمانعون فى أن يأكلوا ويشربوا من إناء واحد مع أى شخص كائنا من كان. ولم يخطر ببال محمد (ﷺ) فى دين الجزيرة العربية أن يمنع ذلك التواصل الدنيوى فى الحياة الإنسانية: ولكن واقع الأمر أن عادتهم التى تقضى بأن يأكل الجميع من طبق واحد، ويشربون جميعا من فنجال واحد، تحظى بالثناء أكثر مما تحظى بالصحة والعافية.

كان ذهن الإمام منصرفا تماما إلى قراءة القرآن. لم أسمع فى حديث ذلك الإمام كلمة واحدة تحض على الأخلاق! ثم قال فى النهاية، موجها كلامه إلىّ !" والكلام عن عيسى بن مريم، - عيسى بن مريم كان صادقا ورسولا من عند الله: ولكن النصارى لا يسيرون فى الطريق الذى سار عليه عيسى بن مريم، - لقد انحرفوا عن الطريق، فى ضوء ارتباك عقولهم، ودخلوا فى الوثنية." ثم وقف الإمام بعد ذلك، ووقف الحاضرون من بعده؛ واتجه كل واحد منهم يبحث عن نعلته.

اعتبارا من ذلك اليوم بدأ أهل المدينة يتسامحون معى، - لأن تلك كانت إرادة زامل نفسه ورغبته. ولكن المطوع، أو إن شئت فقل رجل الدين، كان على العكس من ذلك منذ البداية؛ كما أن هذا الإمام (تلك الهالة ، وذلك الرجل الكبير الموقر الذى بلغ من العمر سبعين عاما) كان قد حرَّض الناس، فى خطبة الجمعة، فى المسجد الكبير، على النصرانى .' قال: إنه كان مثالا سيئا أن تحبِّذ بعض الشخصيات الرئيسية غريبا كافرا وتشمله برعايتها: ألا يدرون أنهم يغضبون الله عندما يفعلون ذلك؟ ألا يرون أن المطر الموسمى قد مُنع عنا! - الحياة الخالية من القانون تكون باردة؛ وبدأت ألاحظ

بشئ من الضيق الطبيعى أن الوجوه التى كانت تلقانى فى الشارع كانت غريبة علىّ ، كنت أحس يوميا بعزلتى عن الناس أصحاب القلوب الضعيفة وعن أصدقائى المنافقين. سمعتهم وهم يتقولون علىّ، لأنى كنت أُحى الناس بعبارة سلام Salaam عليك aleyk ؛ التى يرون أنها تحية أتباع الله فقط – أو إن شئت فقل: المسلمين. لم يكن الكنينى ، أو البسام أو زامل من أولئك الذين يمكن أن يحركهم كلام إنسان أهطل يقف على المنبر؛ والذى كانت تتجسد فيه الحكمة الوهابية العمياء (المتصلبة والمتشددة) التى مضى عليها خمسون عاما (*) . لاحظت على السمرى شيئا من التغيير؛ كما لاحظت شيئا من التغيير أيضا، بين أصدقائى من صغار السن، لاحظت ذلك التغيير فى عبد الله البسام الصغير، الذى كان أقاربه المقربين من أشياع التزمت والتعصب. كان هناك نوع من الصراعَ داخل ذهن هذا الرجل، بين رفقته الإنسانية الكريمة، وواجبه نحو ربه ودينه: وكان عندما يجدنى وحدى يسألنى،" والله يا خليل، هل النصارى يعتنقون كيت وكيت؟ وهذا على العكس من الإسلام ويتعارض معه!" – أحمد الصافى، ذلك البغدادى الصغير لم يكن كذلك؛ وإنما كان قد ضاق صدره من ذلك الدين النجدى (**) المرهق: فى بعض الأحيان، كان أحمد الصافى يغلق بابه الخارجى قبل أن ينطلق الأذان؛ ولكنى عندما كنت أطرق الباب كانوا يفتحونه (للدكتور "el-docteur")، عندما يسمعون صوتى. هؤلاء الأصدقاء من تجار عنيزة كانوا يصلّحون شايا عندما يصل الإنجليزى: فقد تعلموا شرب الشاى فى الخارج على الطريقة الفارسية.

كان البسام الكبير يسعد عندما يتكلم معى عن العالم الغربى. – وفى مثل هذه الأوقات كان الكنينى يوافق أيضا وفى صمت على ما يجرى بيننا من حديث؛ لم يكن هناك، فى عنيزة، أناس آخرين من هذا القبيل – ولا حتى فى نجد كلها. كنت فى نظر

(*) مضى على الحركة السلفية وقت رحلة دوتى ما يقرب من مائة وثلاثين عامًا وليس خمسين عامًا كما ذكر فى السياق أعلاه . (المراجع)

(**) أطلق المؤلف على الحركة السلفية التى قام بها الشيخ محمد بن عبد الوهاب «الدين النجدى» وهو خطأ فادح . (المراجع)

عبد الله الكنيني شبيها بالعرب؛ وكان هو الآخر عندى شبيها بالأوربيين! كان البسام قد تجاوز منتصف العمر عندما ذهب، قبل خمسة عشر عاما، للتجارة فى جدة. فيما يتعلق بالأمم الأجنبية كان إعجاب البسام ينصب على الإنجليز: وقد كان يعتبر أن الله (سبحانه وتعالى) هو الذى هيأ لحكامنا وشعبنا أن يكونوا حلفاء للسلطان. كان بوسع البسام أيضا أن ينطق أسماء وزرائنا Wazirs العظام ، مثل بالمرستون، ودزرائيلى! - وعندما كان يعبر عن أسفه لفساد وظلم الحكم العثمانى قال: الوزير العظيم لا يبقى - أكثر من ثلاثة أشهر فى منصبه فى اسطمبول! - ولكن ما طول مدة احتفاظ الإنجليز بوزرائهم Wuzera ؟" "أجبته، البعض منهم بقوا فى مناصبهم سنوات كثيرة." "ويصيح، هذا عمل طيب، عفارم affarim ! خيرا فعلتم أيها الإنجليز!" كان الكنينى يشبه الأوروبيين فى كراهيتهم واحتقارهم للأتراك: كان الكنينى يحتقر فكر هؤلاء الأتراك. قلت: " لقد وجدت الأتراك متكلفين فى أحكامهم، بالرغم من أن ذلك التكلف لم يكن يستند إلى العلم: إن خطابهم ينطوى على الحذر، بالرغم من أن هذا الخطاب ملىء بالحكمة الإنسانية." - "لا! ولكنى التقيت عديدا من الحكام الأتراك فى مدينة البصرة Bosra . وآخر هؤلاء الحكام - صدق أولا تصدق؟ لم يكن يعرف أى شىء عن قناة السويس! وأنا ، أقول: كيف يمكن لأناس يعيشون فى مثل هذا الظلام الفكرى، أن ينجحوا فى تطوير البلاد التى أرسلوا لحكمها؟ قلة قليلة من الباشوات هم فقط المثقفون والمتعلمون؛ ولكن إحساسهم بالغربة يجعلهم لا يهتمون بالصالح العام. - ألم يسبق لكل واحد من هؤلاء الباشاوات أن أشترى اللقب الذى يحمله والمنصب الذى يشغله؟ ولماذا العجب إذن عندما يغتصب الباشا المال، ويضعه فى كيسه الخاص؟ ولكن ماذا لو جاء واحد (باشا) من تلك القلة القليلة الجيدة، وقام بتنفيذ عمل عام؛ الأرجح أنه يسعى لتخليد ذكراه من خلال المشروع، - والسبب فى ذلك أن المنصب فرض عليه! كما أن من يجىء بعد مثل هذا الباشا، يرفض استكمال المشروعات التى بدأها ذلك الذى كان يشغل المنصب من قبل."

- كانوا يتكلمون عن عداء كل من فرنسا وبروسيا فى أوروبا؛ وقال الكنينى: كان عقله يخيفه، من أن ما يقوم به بسمارك، وما يقوم به الإسكندر (سيزار الكسندر)

سيغرق العالم فى حمام من الدم! (*) وقال إنه شاهد مؤخرا صورة الإسكندر فى البصرة؛ وإن الصورة كانت لذكر thukr بمعنى أنها تعبر عن الرجولة والفحولة!' وعندئذ سمعت من أفواههم كل أحداث الحرب التركية الروسية، - تلك الحرب التى بدأت وانتهت أثناء تجوالى فى صحراء الجزيرة العربية: وقال لى البسام بسرور بالغ: ' إن الأسطول الإنجليزى عبر المضيق البحرى - وذلك على العكس من كلام السلطان! - كيما يدافع عن اسطمبول.' [الضربات القوية هى وحدها التى تقنع المسلمين؛ طالما أنهم يؤمنون أن العالم ملك لهم، وكذلك العالم الآخر؛ وأن الله (لولا خطاياهم) سيكون معهم وفى عونهم دوما، ضد الكفار. كما أن جهلهم الواضح يغيب عنه تخوفهم من أعدائهم، وذلك منذ أكثر من عشرين عاما] وعند عبور مضيق الدردنيل قام الشيوخ الأصدقاء بدعم الإنجليز فى المدينة المتعصبة.

كنت أعجب من سعة علم هؤلاء السياسيين فى الجزيرة العربية! إلى أن عرفت بعد ذلك أنهم كانوا يحصلون على تلك المعلومات من جريدة عربية (التى تعارض "الباب" العالى فى القسطنطينية). - كان المحرر العجوز فى تلك الجريدة من أصل مسيحى فى جبل لبنان؛ وأن ذلك المحرر عندما كان شابا صغيرا، استخدمه إبراهيم باشا (**) فى نشر مجلة لسوريا. وبعد ذلك ببضع سنوات كان ذلك الشاب يتعلم اللغة العربية فى كلية الليفانت فى مالطة: ولما كان ذلك الرجل قد تعلم لغتنا، فقد راح يتجول خلال فرنسا، وإنجلترا وبعض الدول الأوروبية الأخرى؛

(*) بسمارك هو المستشار الألمانى للقيصر ولهلم الكبير وأدت سياسته إلى إشعال الحرب بين فرنسا وبروسيا لتحقيق الوحدة الألمانية فيما عرف بالحرب السبعينية فى عام ١٨٧٠ . أما عن الإسكندر فهو قيصر روسيا وأدت سياسته بدورها إلى إشعال ما عرف بالحرب الروسية التركية ١٨٧٧ التى كان يستهدف من ورائها وصول روسيا إلى البحر المتوسط عن طريق مضايق الدردنيل والبوسفور التى تتحكم فيها الدولة العثمانية . (المراجع)

(**) إبراهيم باشا : ابن محمد على وقائد الحملة المصرية التى أدت إلى تحطيم الدرعية عاصمة الدولة السعودية الأولى فى عام ١٨١٨ . كما كان حاكمًا لبلاد الشام فى سنوات الوجود المصرى ١٨٣٢-١٨٤٠ . (المراجع)

وطبع بلغة عربية ركيكة مجلداً ضخما عن أسفاره فى الغرب. وفى النهاية استقر ذلك السورى فى إسطمبول؛ التى اعتنق فيها دين الأتراك: وبتأييد وعون من بعض الشخصيات الكبيرة، أسس ذلك السورى تلك الجريدة العربية (الممتازة)، التى واصل العمل فيها [لمصلحة المسلمين] . هذه الجريدة يشيع توزيعها فى سائر أنحاء البلدان التى تتكلم اللغة العربية: ولقد وجدت هذه الصحيفة فى منازل التجار النجديين فى بومباى. وفيما يتعلق ببقية هذا الموضوع، فأنا أرويه مثلما سمعته فى سوريا المسيحية، من أفواه بعض الأشخاص الثقات، – واللوم يوجه لأولئك الرواة إذا ما افتروا على ذلك الرجل! يقول أولئك الذين اعتادوا التجوال من بين السوريين: السوريون دائما كذّابون، وظنانون، ويميلون إلى القدح والذم.

ذاع أن ذلك الشخص نصرانى المولد قد سوّد أصابع الكاتب بعمل آخر، مؤلفوه من علماء الإسلام ، الضليعين فى علمهم (...)(*) وأن ذلك العمل (الكتاب) ملىء بالإهانات والازدراء، وأن ذلك الكتاب جاء رداً على مقال صغير باللغة العربية كتبه واحد من المبشرين المسيحيين فى الهند، وطبع فى لندن تحت عنوان ميزان الحق Mizan el-hak .(...)(**) ولقد سمعت فى سوريا، أن كتاب ميزان الحق إذا ما ضبط بحوزة أى أحد من الناس، فإن المسلمين سوف يحرقون بيته فوق رأسه! ذلك أن هذا الكتاب هو والكتب الأخرى اللعينة، كان يجرى البحث عنها، أثناء قيامى برحلتى، فى المناطق الجمركية كلها. – إن احتقار العلماء وازدراءهم (عندما يردون على) "صغار القساوسة من النصارى"، يكون عالى الصوت وجهورياً. – المسيحية السورية التى تعزى إلى يد ذلك الصحفى العجوز والمسيحى السابق من مسيحيى جبل لبنان Jebel Liban ، وكذلك الآراء الواردة فيها عن رأى بعض فلاسفة القرآن فى الكفر، هذه المسيحية خالية من الخميرة العلمية.

(*) عبارة تم استبعادها لمساسها بالمقدسات الإسلامية . (المراجع)

(**) مقطع من عشرة سطور تم حذفه للسبب نفسه . (المراجع)

المسلمون شأنهم شأن بقية الجنس البشرى كله، يكادون يكونون غير منطقيين في مسألة الإيمان والعقيدة؛ وقد يصعب عليهم التعثر في دين له مثل هذا التوافق مع الطبيعة البشرية؛ ومع ذلك فإن المسلمين في مدنهم (الحرة)، حيث تكون وجوه الناس أقوى وأشد ملاحظة، وحيث يشاهد هؤلاء الناس مسارب ودروب أخرى من حولهم، يوجد من بينهم من يتطرق الشك إلى نفوسهم. - حكى لى الأصدقاء السوريون، 'أن كتاب ميزان الحق، تسبب قبل سنوات قلائل في كثير من المتاعب والاضطرابات العامة في العاصمة التركية؛' التي تراجع فيها عدد كبير من الأشخاص، ومعظمهم من الضباط العسكريين، عن الدين الوطني؛ وأصبحوا نحلة شبه مسيحية وراحوا يجتمعون اجتماعات سرية، ليتعبدوا ويستمعوا إلى تلك النحلة. ووصلت أخبار تلك الشائعة إلى مسمع الحكومة؛ وحدث نوع من الاضطهاد: وجرى إغراق بعض من هؤلاء المجددين ونفيهم إلى سوريا عن طريق السفن. - وتزايد عدد هؤلاء المنفيين في دمشق في الوقت الراهن؛ هؤلاء المنفيون يطلق عليهم في دمشق اسم الشاذلية esh-shazleh(*) : هؤلاء الشاذلية يقولون عن أنفسهم، بأنهم سيكونون في يوم من الأيام سادة لهذه البلاد(...) (**) لقد التقيت بعض العمائم البيضاء في هذه المدرسة الجديدة - وهم مسلمون من حيث المظهر ليس إلا، أما في المخبر فهم يكادون لا يعترفون بالنبى (ﷺ): ولقد رأيت البعض من هؤلاء الشاذلية وهم يدخلون دكان صديق مسيحى، لكى يشربوا وعلى وجه السرعة منْ زير الماء الموجود خلف باب الدكان، وذلك أثناء الظمأ الشديد في شهر رمضان. - كما عثرت أيضا في المدينة السورية الكبيرة على مدرسة ليبرالية أخرى ليست من المسلمين المخلصين. ذات يوم وبينما كنا نتحدث عن الأديان، قام رجل فارسى، ذو مكانة برسم الشكل التالى على الأرض.

(*) ليست هناك ثمة صلة بين من يطلق عليهم في سوريا الشاذلية وبين الطريقة الصوفية الشاذلية التى أسسها أبو الحسن على بن عبد الله الشاذلى (٥٩٣ - ٦٥٦هـ) وكان شيوخها على المذهب السنى. (المراجع)

(**) عبارات في سطرين تم استبعادها لمساسها بالدين المسيحى . (المراجع)

المعرفة الكاملة أو المعرفة السماوية حجاب		
ن الثلاثة (الرؤيا السامية)]	ديا	[الا
الأرض		

"قال ، أدياننا – سواء أكنا يهودًا أم مسيحيين أم مسلمين، تتجه إلى الله: ولكنها كلها تقف عند حجاب ! Hijab ولا تستطيع أن تتجاوز ذلك الحجاب إلى المعرفة الكاملة أو المعرفة السماوية!"

– سوريا، ذلك البلد القاحل، الذى يمكن أن يتحول من جديد إلى بلد مثمر، لا يعد العقيدة الوحيدة فى الإسلام . والنصارى أعدادهم كبيرة فى سوريا، ولكنهم أصحاب قلوب واجفة ضعيفة. والدروز المتحالفين يشكلون أعشابا قوية منبثقة عن السلالة الإسلامية، فى الجبل الأوسط وفى الجزء البركانى من البلاد. وفى بعض القرى القريبة من أنطاكية يوجد بعض المسلمين الوثنيين، ويطلق عليهم اسم النصيرية (*) en-Nuseyrieh . وفى فينيقيا (**) والحدود الفلسطينية المجاورة لها هناك مستوطنات ومستعمرات قروية تدين بالدين الفارسى . [انظر ص ٢٨٤] – والانقسامات الدينية المتأصلة فى هذا الإقليم تضر كثيرا بالحكم الضعيف للحكام الأتراك فى هذه المنطقة.

(*) النصيرية : فرقة شيعية متطرفة نسبت إلى نصير مولى الإمام على بن أبى طالب (ر) ، وقد زعموا أن الله تعالى حل فى على فى بعض الأوقات وأنه حل فيه يوم فتح خيبر ، ويعتقدون فى نظرية الفيض الإلهى الذى حل فى شكل سلم متدرج من الناس على رأسهم كان الإمام على . (المراجع)

(**) إقليم قديم فى شرقى البحر المتوسط يتكون بشكل عام من الأراضى الساحلية لسوريا الحديثة ولبنان ويقع إلى الشمال من جبل الكرمل. وسكانه من الفينقيين الساميين كانوا منظمين على شكل ولايات كان يحكمها ملوك عن طريق الوراثة وفى القرن الثالث عشر قبل الميلاد أصبح أولئك الفينيقيون بحارة بارزين وتجار بارزين فى منطقة البحر المتوسط. (المترجم)

كان الأوربيون المبشرون بالإنجيل بمثابة الملح فى التربة السورية على امتداد خمسين عاما؛ ولكنهم لم يكونوا يتكلمون - خوفا من الموت - إلى أى أحد من المسلمين! ويجب أن نعترف أن أولئك المبشرين لم يحققوا أى نجاح إلا مع خمسة أفراد فقط هم الذين غيروا دينهم. هل يمكن للمسيحيين أن يتحولوا اليوم إلى يهود؟ وكيف يمكن أن يتحول المسلمون إلى مسيحيين؟ هؤلاء المبعوثون أصحاب المعاطف الطويلة والذين يحصلون على رواتب سخية (فى ذلك البلد الصيفى)، والذين يتبعون الكنائس الأوروبية، لا يتكلمون إلا مع المسيحيين فقط، ويحولونهم، من مرارة إلى أخرى، ومن اسم إلى آخر تحت راية المسيح العريضة. وهم ينظرون إلى الشعب العربى على أنه مثل الماشية؛ يضاف إلى ذلك أن أتباع ومريدى هؤلاء المعلمين، هم من جانبهم، أصحاب قلوب جريئة وقساة أيضا ويتفاخرون على الفرنجة، - ذلك التفاخر السامى Semitic الذى يعد خيطا قويا فى التشدد الإسلامى! هؤلاء المبعوثون جديدون فى كل شىء اللهم باستثناء التواضع الجم للمسيح: يضاف إلى ذلك أن مكرهم الوطنى يصطبغ بصبغة إفرنجية (إيطالية)، وفرنسية، وإنجليزية)، وبهذه الصبغة يمكن التعرف على أولئك الريفيين الذين يصدقونهم - أو إن شئت فقل: أولئك البشر الذين لم يعانوا كثيرا زد على ذلك أن أولئك الذين تلقوا تعليما حراً بلا مقابل، يتطلعون دوما إلى الحصول - يقال إن البعض منهم يختلس! - من الثرى نفسه (ويظنون أن ذلك أمر غاية فى البساطة والسهولة) الذى هو أوروبا المُحْسِنَة الخيرة، ذلك المعاش بصورة مستمرة: وهم يحسبون أن ذكاءهم 'أكثر رفعةً raffia من ذكاء الفرنجة [الساذج] البسيط!' - إنهم عبارة عن صور جديدة من تلك السلالة العربية، وهم لا يتحلون بالمعنى الأخلاقى؛ وهم يشبهون مسلمى هذه البلاد (فيما عدا الشجاعة والقيمة الطبيعية). بعض أخر التقيتهم، كانوا مستائين من القسوة (والبخل) الأوروبيين اللذان كانا يتمثلان فى معلميهم الدينيين، كانوا يدعون الله، فى كل يوم، أن يخلصهم من أولئك النظار الفرنجيين، ويعينهم على تربية وإيجاد معلميهم الخاصين بهم: وهم يقولون فى بعض الأحيان:" كل هؤلاء الفرنجة (الذين هم بيننا) جواسيس!" ومع ذلك، فإنهم يجدون رسلهم الذين يقفون معهم، ليتقاسموا معهم صدقات أوروبا. - الفضيلة ليست نادرة جداً، فى هذه البلاد المحيطة سيئة الحكم.

هؤلاء السوريين - الذين يفتقرون إلى الإبداع ، يمكن أن يتحولوا عن طريق المحاكاة إلى وضع أفضل مما هم عليه، فيما يتعلق بالفنون الليبرالية.

- جلسنا حول وجار (قهوة) البسام - ذلك الهيكل الإنسانى بالنسبة للأسر العربية! حضر أناس آخرون؛ وقال أحد الشبان: " إنه من بين عادات الإنجليز وأعرافهم التى بهرته [وهو فى الهند] أن الأزواج كانوا يفسحون المكان للحريم. [احترام الفرنجة للمرأة ليس أمرا لائقا أو من أعمال الرجولة هنا - بين الشرقيين، وذلك بدءا من اليونانيين.] يضاف إلى ذلك أن الإنجليز يرفعون البرنيطة bernetta - وتلك علامة الاحترام والتوقير فيما بينهم ، عندما يلتقون أية امرأة تكون معروفة لهم؛ ولكنهم لا يرفعون هذه البرنيطة (القبعة) للرجال!" كان البسام بكرم المضيف ينتظر ردى على ما يقول. قلت: "حريمنا متعلمات تعليما جيداً: وإنه لمن دماسة خلق الرجال أن يكرِّموا الطرف الأضعف ويخصونه برعايتهم، وهذا يضفى السعادة على حياتنا على نحو أفضل - ، حياتنا هذه ليست سوى النساء والأطفال. أتعرف ما يقال فى الأمثال؟ بلد Beled الإنجليز el-Enqleys جنات Jinnat الحريم el-hareem ، وجهنم Jehennem الخيل el-khail بمعنى 'إنجلترا جنة النساء وجحيم الخيول!' "أحسست بنكوص البسام، من عبارته الأولى؛ ولكن عندما فهم نهاية المثل، التى جاءت عربية، فقد راح يكرر تلك النهاية عشرات المرات فى شىء من المرح والقبول. - فى حضورى كان عبد الله حذراً دوما فى مسألة كياسة المضيف، حتى يتسنى له تحاشى الخطاب الدينى (الذى لا لزوم له). ولكن عبد الله لم يكن رقيقا أبدا مع اليهود؛ والسبب فى ذلك أنه قرأ مؤخرا فى جريدته أن بعض التجار اليهود فى إنجلترا كانوا أغنى من الملكة صاحبة الجلالة، وأن آل روتشيلد Rotchilds (الذين كان يعرف لقبهم لأنهم يرسلون الصدقات كل عام إلى بغداد لكى توزع على الأخوة فقراء الشرق) كانوا دائنين لمصر كلها! وهنا فاض به الكيل ولم يتمالك نفسه وصاح قائلا: "الله يمسحهم!" "قال آخر، يا للغرابة، الإنجليز لهم ملكة، وليس لهم رجل يحكمهم! ما هو اسم الملكة، يا خليل؟" أجبته، منصورة Mansura بمعنى السيد Lady المنتصرة Victorious : هذا الاسم (إذا ما استعمل فى صيغة المفرد) يكون له وقع طيب أيضا فى لغتهم.

بالرغم من عدم وجود أطباء فى نجد، إلا أن هناك بعض الحكماء المتواضعين: وقد جرى استدعائى إلى بيت آخر لأسرة من أسر البسام كيما ألتقى بحكيم كان من أبناء عنيزة. ذلك البسام، الرجل متين البنية، كان أكثر التجار الأجانب تجوالا: فقد استطاع عن طريق الخطوط الحديدية، التجوال فى كل أنحاء الهند؛ لقد عاش فى الهند، كما أنه يتكلم اللغة الهندوستانية الدارجة المبتذلة. ولكن سفره هذا ورؤيته للأمم الأخرى لم يغير من آرائه المتصلبة ورأسه الخشبى؛ وقد عاد إلى الوطن كما لو كان سفينة خشبية طافت الدنيا كلها وعادت إلى موطنها بالحال التى كانت عليه، ولم يطرأ عليها أى تغيير: المعادن التى من هذا القبيل يصعب أو يستحيل مسخها! صحيح أنه كان قليل الألمعية والذكاء؛ وصحيح أيضا أن حاله راج بصورة ضعيفة فى هذا العالم. كان ذلك الحكيم يجلس بالقرب من وجار قهوة البسام؛ ينتظرنى ومحياه يوحى بالاحترام وأنه أيضا ناظر مدرسة القرية. - قال الرجل بتواضع شديد: إنه حصل على مهارته الصغيرة هذه عن طريق القراءة فى الكتب القليلة التى لديه؛ وأنه حصل على تلك الكتب بشق الأنفس. وجه الرجل إلىّ أسئلة سهلة كثيرة؛ وكان يحنى رأسه احتراما لإجابتى عن أسئلته البسيطة؛ وأحس بسعادة بالغة للقائه إياى؛ وقد بدا لى أن ذلك الرجل المسكين كان يتعجب من أن تعليم الأساتذة الأجانب لم يكن تعليما مظلما أو صعب المنال!

فى تلك الأيام الأخيرة، كان ذلك الحكيم البسيط قد قام بتطعيم كل أطفال البلدة: اعترف، 'أن كثيرا من الأطفال يموتون بهذه الطريقة - ولكنه سبق له أن قرأ أن التطعيم بجدرى البقر [العذاب el-athab] الذى يستعمله النصارى لا يتسبب فى وفاة أى طفل من الأطفال!' بعد أن استمع ذلك الرجل إلىّ، قال: سوف يراقب صباحا ومساءً الأبقار وهى ذاهبة إلى المرعى فى الصباح وعائدة منه فى المساء، وسوف يتم ذلك من بوابة من بوابات البلدة؛ ولعله يصادف أو يعثر على ميكروب الجدرى على ضرع واحدة من تلك الأبقار. [وكان العم محمد قد بحث عن ذلك الميكروب من قبل، ودون طائل فى خيبر.] - أشرت على الشيوخ بإيفاد ذلك الرجل المحترم إلى الشمال، كيما يتعلم فن الصالح العالم؛ وبالتالى يتمكن من تطعيم الناس فى هذه الأجزاء من نجد. وبالرغم من إرهاقى الشديد، عرضت عليهم أن أسافر أنا بنفسى إلى بغداد،

إذا ما استطاعوا أن يوفروا لى ناقة، على أن أعود إليهم ثانية ومعى الطعم المطلوب. ولكن الرغبة أو الأمل فى المصلحة العامة لا يمكن أن تحرك أهل الجزيرة العربية أو توحدهم: هؤلاء الناس لا يُقَدِّرون مطلقا الفكر الإنسانى الاحترازى الذى يرون أنه يشكك فى العناية الإلهية. صحيح أن دينهم يحثهم على التداوى، - الذى أوجده الله فى الأرض لخدمة الإنسان ؛ ولكنهم لا يمكن لهم أن ينجوا من الطاعون أو الوباء. بعض التجار الأجانب سبق لهم أن جلبوا معهم ذلك الطعم إلى بلادهم. - وهذا هو ما فعله عبد الله البسام فى العام الماضى ؛ ومع ذلك فإن ذلك الطعم لم يتجاوز جدران منازلهم . - سمعت كلمة جديدة وردت على لسان البسام (وربما جاء بتلك الكلمة من الهند)، قال: ماذا نفعل فى أرض ليس فيها إلا الديانة dianat المحمدية el-Mohammedia بمعنى "الدين الإسلامى"؟ والتى اعتاد الناس فيها على أن يطلقوا على تلك الديانة اسم دين din الإسلام. el-Islam " - صاح الكنينى قائلا: الهند "مشهد عظيم من الأديان!"

قال العم محمد فى خيبر هو وبعض البدو، إن هناك مرضا يصيب الإبل يشبه ذلك المرض الذى عرفوا منى أن اسمه جدرى البقر.، الجدرى سريع الانتشار . ذات يوم وجدت مضيفتى الزنجية الشابة تولول؛ فقد أحضرت طفلها الصغير وقد أصابه إعياء شديد، عندما كان يلعب فى القاع Ga : وبالتالى مرض طفلهم الآخر. - أنا لن أبقى فى ذلك المكان الضيق، حتى لا أتنفس الهواء الموبوء: ولكنى، تركت أشيائى ، وأمضيت الأيام التى تلت ذلك اليوم فى الشوارع: وعندما كان يحل علىّ الليل كنت ما أزال صائما، ولا أعرف أين سأنام. ولكن خطر ببالى، أن مسألة إصابتى بالمرض هنا، يمكن أن تفوق كل الأخطار والمصائب الحالية. لم يكن أحد يعرض علىّ أو يعزمنى على الذهاب إلى بيته ؛ وعندما غلبت على أمرى فى المساء - والناس هنا يطرقون الأبواب بطريقة إيقاعية - فقد قصدت باب مريض من مرضاى، كنت قد سبق لى أن أهديته شيئا من الدواء، وطرقت الباب، وعندما سمعت صوتا قادما من الداخل يقول أجلط ugglot بمعنى "أدخل"! دخلت البيت؛ وطلبت ممن كانوا فيه أن يتركونى أنام على أرض الكوخ [المفروش بكمية كبيرة من رمل النفود] . هذا يعنى أن الناس لن تلاحظ أن الكنينى يأوى نصرانيا: وأنا لم أكن قد شكوت همى للبسام. يضاف إلى ذلك أنى كنت

أتحسب لعطف وحنان أولئك الأصدقاء الذين هم من الجزيرة العربية؛ وذلك حتى يمكنني الاستفادة من ذلك العطف والحنان فى ساعة الضرورة القصوى.

كانت شرفة سطح المسجد المفروشة بطبقة سميكة من الرمال، والمكان الذى ينام فيه الغرباء الذين يفدون على عنيزة، وكان ذلك المسجد يجاور الدكان الذى كنت أمارس فيه الطبابة، ولكن ما هى قدسية المسجد التى يمكن أن تحمينى أثناء النوم؟ والناس هنا أيضا يعبدون الله بقوة السيف. - ولكنى عند هذا الحد توصلت إلى مخرج لم يخطر على بالى من قبل : كان هناك رجل، ممن استعملوا أدويتى ؛ كان ذلك الرجل قليل الكلام ، حاد النظرات، ملون العينين ، ولكنه كان ولد لأم طيبة ، - أرملة ، كان لها دكان تبيع فيه كل الأشياء، وكنت أشترى الخبز منها فى بعض الأحيان . كان ذلك الرجل يعمل بائعا فى سوق القماشين، وكان من تلك القلة، إضافة إلى الأمراء وأبنائهم، الذين كانوا يحملون سيوفا فى عنيزة؛ نظرا لأنه كان من الضباط العاملين مع زامل. قال لى: " أنا آسف لك يا خليل لأنك ليس لك مسكنا تقيم فيه؛ هناك منزل خال قريب منا ، فهل تأتى معى لنتفرج عليه؟" - وبالرغم من أنى وجدت أن ذلك المنزل كان عبارة عن غرفة أو غرفتين غير مكنوستين ومبنيتين من الصلصال ، إلا أنى انتقلت، فى اليوم نفسه إلى البيت لأقيم فيه: وكان ذلك الرجل هو وأمه جارين طيبين. مع مطلع كل صباح كانت والدة الشاب تحضر إلىّ خبزا مخمورًا ، ومعه قليلا من شرش اللبن وشيئا من الزبد، كما كانت تملأ لى قربة مائى: وعند غروب الشمس (وكانت تعرف ذلك تماما - نسيانى الذى لا علاج له - أكون قد نسيت شراء أى شىء من المؤن أو الطعام؛ ويكون السوق قد أغلق أبوابه وانفض)، كنت أجد هذه الأم الطيبة قد أعدت وجهزت للغريب وجبة من القمح فى منزلها ، نظير مبلغ ضئيل جدا! وفى بعض الأحيان لم تكن تقبل أجرا على ذلك! ولابد أن ذلك كان بترتيب سرى من زامل . هذه السيدة المسنة كانت تجلس أمامى كاشفة الوجه، وكانت تعاملنى كما لو كنت ولدها: كان وجه هذه المرأة هو الوحيد الذى شاهدته فى وسط نجد، - والبنات الصغيرات اللاتى فى مرحلة الطفولة غير محجبات هناك.

دعيت إلى منزل آخر لواحد من آل البسام المتشددين. كانوا يطلبون دواء لشخص كان يسكن معهم؛ شخص، قيل إنه، يستعد لأن يكون "عالما؛" وقيل أيضا إنه هارب (من عائلة أمير بريدة السابق). رب الأسرة هذا لم يسمح للحكيم بالجلوس ؛ وصب له فنجالا من حثالة القهوة الأخيرة، – كان يجلس في ذلك المكان، ضيفهم، ذلك الرجل الضخم الذى كان يرتدى رداء بنى تميم، كان ذلك الضيف صامتا لا يتكلم ؛ وأشاروا لى بأنه يريد دواء منى. صحت فى أذنى ذلك الرجل، وذلك من باب احتقارى وازدرائى لأسلوبهم فى التعامل،" هل تسمعنى؟ ما الذى تريده منى؟" أشاح بعينيه ناحية الأرض مخافة أن ينظر إلى الكافر تساءلت ،" هل هذا رجل أصم؟" – الناس هنا يجفلون عندما تفاجئهم بالتحدث إليهم، من منطلق أنهم هنا يعرفون أن الفرنجة يتفوقون عليهم من حيث الحماسة وقوة الروح. نظر ذلك الفلاح إلى الأعلى نظرة فيها المزيد من الاعتدال، ومع ذلك لم يكن على استعداد لاستئناف الحديث أو الكلام مع واحد من الوثنيين؛ ولكنى عندما ملت على علىّ الزنجى الذى أحضرنى إلى هنا، كلفه ذلك الفلاح بصوت خفيض، أن يسأل، هل لدى النصرانى دواء للبواسير؟' – صاح الزنجي معلنا ذلك الكلام على الحاضرين! رد المتحذلق واجم الوجه قائلا: "كفى"؛ وبعد أن عدَّل أحزمته المصنوعة من الجلد، عادت روحه الخبيثة إلى تأملها الطويل، عند بوابات جنة مكّاوى Meccawy . – ونحن فى مثل هذا الهرم والخرف لا نجد أى شكل من أشكال الحقيقة!·تلك الحقيقة التى تلتصق بطبيعتنا إلى حد أننا نعرفها، حتى من خلال الحجاب الممزق؛ مثلما يعرف الطفل أمه.

(...)(*)

العقائد السامية متباينة ومتنوعة. والدين المسيحى – الذى هو تأديب للروح التى تدفئ نفسها بالحب الربّانى – كان يتمنى لو يطوق العالم الإنسانى بذراعيه، رابطا الناس جميعا بأخوة واحدة مع قبلة بكر من قبلات التواضع والإحسان. سلسلة الأشياء

(*) صفحة كاملة بها آراء فيها تهجم واضح على الدعوة الإسلامية ومساس بالمقدسات الإسلامية رأينا استبعادها دون إخلال بالسياق العام . (المراجع)

الإسلامية سريعة التصديق تبهج الروح، وتنشر بينهم تفضيل الله للمسلمين وحدهم؛ وتخرج صواب الرأى(...)(*) لكل الدنيا الموجودة إلى جوارها. - دين الجزيرة العربية القائم على السيف لابد من تخفيفه وتلطيفه بالسيف: ولو قدر لابنة مكة والمدينة أن تقعا فى الأسر فإن المسلمين سوف يتعين عليهم أن يصبحوا مثل اليهود! الإنسان يمكن أن يكون مسلما بحق ، بالرغم من أنه يمضى حياته فى الخلاء (الصحراء) بلا معلمين (علماء). فى البلدان هناك علماء دين - ولكنهم ليسوا قساوسة يتعاملون مع الأسرار : وليس بينهم إكليروس. محمد (ﷺ) مجرد رجل، رب أسرة ، والد عائلة؛ ودينه دين حقيقى : كما أن شعب محمد (ﷺ) يمشون فى طريق كبير، ملىء بعطر اللحم البشرى الطاهر؛ يضاف إلى ذلك أن الجدل الذى يدور بين الطبيعة الحسية وفكرة الربوبية لا يترتب عليه أى خطر أو مضاعفات فى قلوب هؤلاء العلماء المسلمين . - الإنسان نفسه مؤله فى أوروبا الوثنية؛ وكل عمر يفرز أبطالا ربانيين . ما الذى نطلبه أو ننشده نحن من الدين ؟ - أليس هو القانون الكامل للإنسانية؟ - تضميد الجراح، وشفاء أورام والتهابات الحياة الإنسانية؛ وهو المسار الذى نسلكه للوصول إلى السماء (الجنة).

- إذا ألقينا نظرة على الموروث الدينى لبنى إسرائيل، من أرض الصحراء، قد نتصور نشوء ذلك الموروث فى أسرة أيوب، أى من منطلق رؤية البدو الساميين الرُّحل للملوك Meluk . قد نقرأ عن الختان عند كل من هيرودت Herodotus وموسى (عليه السلام) وعن خرافة اللحوم، وعن استغلال القساوسة لظلم الإنسان للحيوان ، وقد نقرأ أيضا عن تنظيم الإكليروس: تلك كلها كانت عادات المصريين. صيحة الأنبياء العبرانيين المريرة انتعشت فى كل جيل من الأجيال، وأدت إلى استمرار الموروث (الموسوى) ،الذى أرسى داود أسسه فى النهاية، ولكن الفضيلة، والعدالة والطهارة تنشأ بطبيعة الحال فى الضمير الإنسانى؛ هذا يعنى أن الفضيلة، والعدالة والطهارة إنما يجرى إقراضها للأديان: التى تكون الربانية والعدالة الإنسانية فيها، فى معظم الأحيان، مفترقة على نحو يجعلنا نفكر بعمق فى عصر حجرى فى سمائهم المزعومة!

(*) عبارة تم حذفها بها تعبير غير لائق عن المسلمين .

تلقيت دعوة لزيارة أسرة وهابية أخرى ؛ استقبلت الحكيم استقبالا كريما . رب هذه الأسرة، وهو من ملاَّك الأرض ، كان لديه أبناء كبار، وسمى نفسه أمامى باسم الشيخ Sheykh محمد: ولكن واقع الأمر أنه لم يكن شيخا ، ولكنه حسبما قال لى الأصدقاء (بحكم غيرتهم من مهابة المشيخة) من min خلق Khulk الله ullah ، بمعنى "من مخلوقات الله" أى إنه كان مجرد فرد عادي من الناس . كان الشيخ محمد، الذى له بيت كبير فى المدينة ، يكاد لا يبصر ؛ إضافة إلى أن أولاده كانوا مرضى . [وعندما طردونى بعد ذلك من عنيزة، أرسل لى الشيخ محمد أربعة بنسات، ثمنا للدواء، ومن باب إراحته لضميره!] كان الشيخ محمد يعطينى كلاما حلوًا وأنا جالس فى صالته : "يا خليل ، أنا أنظر إليك باعتبارك واحداً من أبنائى: ألا تستطيع فى الوقت الذى أنت فيه معنا هنا، أن تجعل نفسك تتوافق مع ديننا، دين الإسلام؟ - أنا أعلم أنكم شعب الإنجيل ، وتعبدون الله، ولكنكم لا تعبدوه مثلما نعبده نحن؛ قل محمد Mohammad رسول Rasul الله، Ullah! وادخل فى زمرة المسلمين . وعندئذ سوف يتمنى لك الخير كل أولئك الذين هم مبتعدين عنك حاليا؛ كما أنك سوف تحصل على ما تطلب، وليتك تبقى معنا هنا وتؤدى فريضة الحج معنا ، أو تواصل رحلتك إلى بلد آخر ." - كانوا يراقبونى بأطراف عيونهم الزائغة؛ عندما كنت أرد عليهم قائلا: "كل مخلوق رسول ra-sul الله Ullah! ".

ذهبت ذات صباح لتناول الإفطار فى ذلك البيت؛ وكان الشيخ محمد قد عزم نديما له اسمه أيضا محمد، وكان واحدا من القماشين فى سوق القماش ؛ وكانت أمه تعانى منذ سنوات من ألم حاد فى أعصاب الوجه. ذهبنا بعد الإفطار لفحص المريضة، وتركت لها بعض الأوراق التى تحتوى كل واحدة منها على شىء من مسحوق اللودانوم. وفى ساعة متأخرة من نهار اليوم مررت على دكان محمد؛ وأبلغنى أن أمه ابتلعت الأوراق كلها دفعه واحدة! - طلبت منه أن يسارع عائدا إلى المنزل على الفور ؛ وإذا ما وجد أمه نائمة يوقظها ويعطيها دلة قهوة كاملة ويحثها على شرب الدلة كاملة! - "يا خليل ، در بالك على الدكان أثناء غيابى !" - وانطلق الرجل إلى منزله. كنت أخشى من حدوث أسوأ العواقب ؛ ولكن سرعان ما عاد إلى ، وهو يقول (مما شرح صدرى وأراحنى) :

إن والدته على ما يرام . وراح الواقفون يهنئون تاجر القماش ، الذى كان صليب الرأى إلى حد ما لإصراره [أن عرب الواحات يتمتعون بخفة ظل نكدة] على أنه كان يمكن أن يكون سببا من أسباب تسمم أمه!

ذات صباح أرسل الشيخ محمد فى طلبى بصورة مفاجئة! - وجدت بدويين جالسين فى مقهاه ؛ قال الرجل: "يا خليل، وردت رسالة تطلب إليك الذهاب إلى بريدة ؛ وهذان هما الرجلان اللذان سوف ينقلانك إلى هناك، وهذه هى الرسالة التى وردت من عبد الله (الأمير). - وليأت واحد منكما بالقرب منى هنا يا أولادى ! ويقرأ هذه الرسالة على خليل. "كتب عبد الله - بعد تحيتهم الرسمية - "سمعوا فى بريدة أن أهل عنيزة وجدوا أن أدوية النصرانى مفيدة؛ وكان يود من الشيخ محمد أن يقنع النصرانى بالعودة إلى بريدة بصحبة المراسلين؛ كى يعالج عينى شقيقته، ويفحص بعض الأشخاص الآخرين." رددت عليه ، "كنت فى بريدة، وهم الذين أبعدونى عنهم؛ كما أن عبد الله ، كان سببا فى التخلى عنى فى الوادى !" [أنا لن آمن على نفسى مرة ثانية، فى بلد يعد الشيوخ المغتصبون فيه هم أسوأ المواطنين.] كان الرجل كبير السن يحرضنى ويحضنى كما لو كان له سلطان علىّ؛ وقال البدويان (بطريقتهم الآسيوية) : "قف وانهض الآن يا خليل ! واركب معنا . أخ! والله سيعطونك نقوداً كثيرة: سيكون عبد الله حانيا وشفوقا عليك." قال الشيخ محمد: إى ، ثق بى يا خليل ! ما عليك إلا أن تذهب معهما." وسوف تحمل معك رسالة من زامل تطلب إليهم أن يعيدونك إلى عنيزة مرة ثانية فى غضون فترة محددة." - "لعل شقيقة عبد الله تأتى إلى هنا ؛ وسوف أعالجها هنا فى عنيزة." - "يا خليل، أنا أضمن لك، أنك سوف تكسب ثلاثين ريالا، فى أضعف الأحوال ، من هذه الرحلة!" - "وأنا لن أعود إلى بريدة، حتى ولو أعطونى ثلاثين فرسا، وإلى اللقاء."

فى صباح أحد الأيام كنت فى بيارة نخيل واحد من الأصدقاء ، وذلك أثناء طلوع الشمس: وكنا جالسين تحت أغصان كثيفة من شجرة من أشجار الرمان. وأدى نسيم الصباح العليل القادم من النفود إلى إعمال العقل فى أفكارنا وتأملها؛ ففى هذا الجزء

من الجزيرة العربية ، هنا في وسط هذه الصحراء الشاسعة، كان يسود الخطاب الأخوى والنزاهة والحيدة، مثلما هما فى أوروبا تماما!" "قال صديقى: يا خليل إنى أتعجب وأدهش، – أنا أشعر بالضيق والاستياء إزاء تشدد الناس وتعصبهم! ما هذا؟ " – " إنهم يعصوننى فى مسألة الدين ! ولكن من الذى يشهد لنا فى هذه الأشياء ؟ الأشياء التى تتعلق بالعقيدة، والأمل والسلطة التى لا تقوم على أرض صلبة وثابتة." – "وأولئك الذين ينشرون الأديان ويدعون لها كانوا مدفوعين إلى ذلك طمعا فى الدنيا (طمع toma الدنيا ed-dinya) ! " – كل دين من الأديان ، حتى وإن كان فى الماضى وليد الضمير الإنسان ، إنما يكون ناتجا عن احتياجات الإنسان ، والتعبير عن هذه الاحتياجات الإنسانية هو الدين الحقيقى ؛ ونحن سواء عبّرنا عن إعجابنا بالوحدة المطلقة، أو الأب الأبدى السرمدى لكل القوى والحياة، أو إله المرئى والخفى أو (بمعارف روحية موجزة من هذا القبيل) إنما نحنى ركبنا للسيادة الربانية المتشعبة فى كل من الأرض والسماوات والأمم تتمسك بأديانها – "وهذا صحيح [فى بلدانهم] الذى يقوله كل إنسان : "وبالرغم مما سبق ذكره فإن حقيقة الأشياء المزعومة لا يمكن توضيحها على هذا الجانب، بوابة الموت. كل إنسان سوف يتمسك بأمله، وسوف يرحل إلى خليج الخلود والسرمدية فى العقيدة المشتركة؛ – وهذا من وجهة نظر الرؤية الأكثر وضوحًا قد لا يكون سوى جدل مظلم يثير الدهشة والاستنكار . ولكن هيا بنا ندخل مبنى معبد العلم الذى لا يدمر، والذى يمكن أن نعثر فيه على الحقيقة." – " إخص ! حقيقة إنهم يمكن أن يضطهدوك: وهل هناك مثل هذا الحقد والكراهية فى الجنس البشرى !" – "ولكن قل لى: ما الذى يجعل هؤلاء الناس الكفرة والمخادعين يرتبطون بالدين على هذا النحو؟" – " أعتقد أنه الخوف من النار (من جهنم) هو الذى يدهش قلوب هؤلاء الناس! على امتداد حياواتهم." – " أليس الموت "نهاية لكل الشرور؟" ولكن طبقا للعقائد التى من هذا القبيل فإن ذلك العزاء المر الأخير يسحب أيضا من البائسين!" – النار هى القسوة الربانية فى الأديان السامية ! Semitic .

عندما عدت إلى البلدة ثانية، تجمع العاطلون من حولى فى الشارع ، ووقف زميل لطيف من الناس كى يحكى لى الحكاية التالية . – "عندما كنت أمارس التجارة

في العراق ، كانت لي معاملات مع واحد من اليهود ؛ والذي كان ينعتني ، كلما كنا نتحدث سويا بكلمة ، أخوي' akhuy بمعنى ، شقيقي!' ولكني في يوم من الأيام صحت قائلا: أعوذ بالله من الشيطان ! هل أنا ، شقيق ليهودي ؟' ورد عليّ اليهودي، ' لهذه الكلمة ، فأنا عندما سأراك في النار (عذاب جهنم) فلن أحضر لك ماءً!.' وهذه هي الثقة، أيها الأصدقاء، التي يعلقها الناس جميعا على الدين الذي ولدوا عليه. أمل ألا نتهور ونلوم أي غريب من الغرباء ! فلهم دينهم ولنا ديننا. وأنا أقول : إنكم لا تتصرفون جيدا عندما تلاحقون النصراني بكلامكم غير المتحضر : أليس خليل موجود هنا على مرأى ومسمع من الشيوخ؟ يضاف إلى ذلك أن تلك الأدوية التي يوزعها مفيدة للمسلمين.

تزايد الجدري وانتشر في البلدة: وبلغ عدد الوفيات ثلاثين طفلا. كان أولياء الأمور الذين كانوا يستدعونني لفحص أطفالهم يعجبون عندما يرون الحكيم يتحاشى تنفس هواء الغرف الموبوء! - والسبب في ذلك أنهم سمعوا مني، أنني سبق تطعيمي ضد الجدري ! ويشيع بين الناس هنا في هذه الأجزاء من نجد، مقولة مفادها،' أن الإنسان إذا ما جرى تحصينه ضد الجدري ، فإنه لا يمكن أن يصاب بالعدوى مطلقا.' وهم يقولون أيضا: ' إن كل تلك المئات التي جرى تطعيمها بواسطة أبو فارس، أي قبل ثلاثين عاما، لم يصب أي أحد منهم بذلك المرض: ' - ومن حسن الحظ أن ذلك الطعم يستمر فترة طويلة في أجسام أهل الجزيرة العربية. أثناء عودتي في إحدى الأمسيات ، التقيت ولداً صغيرا في الشارع، - وقال لي بنغمة حزينة: صلٍّ Sully على ala ها الغرادة halghrada بمعنى 'صل على هذا الميت'. كان ذلك الطفل يحمل لفافة، بين ذراعيه ، ومتجها صوب المدفن! - في ذلك الوقت كان هناك خمسة أو ستة أطفال يموتون كل يوم : وفي النهاية ' لم تنج أسرة واحدة من ذلك الوباء.' كان الناس هنا يرفضون أي دواء في حالة الإصابة بالجدري. ولما كان الابن الوحيد لواحد من أصدقائي، قد أوشك على الموت ، وكان بوسعي أن أعطيه شيئا من الدواء ولكن والده رد عليّ، "قد يرضى الله ، وينقذ هذا الطفل هو وعينيه." وخلال يوم أو يومين توفى ذلك الولد: وعندما التقيت ذلك الوالد المكلوم في الشارع، قلت له : "هدئ من روعك!

سيعطيك الله ولداً آخـرا ؛ وهل مات الطفـل؟" - آه! لقـد دفنتـه بالفعل، - لقد ذهب إلى خالقه!"

اقتادني شاب صغير في عصر أحد الأيام إلى بيت يقع خارج البلدة، لكي أفحص ولد شقيقته المريض؛ كان والد ذلك الطفل من أقارب عبد الله الكنيني . وفي الطريق قال لي ذلك الشاب: "أسكن هنا (في عنيزة) وسوف نوفر البيت اللازم لك ؛ ولتكن والداً لنا." كان ذلك هو حـامد Hamed اليحيي Eel-Yahya - الإبن الثالث للوطني يحيى. وصلنا إلى بيارة من بيارات النخيل وفيـها منزل ريفي؛ في البيت جرى استضافتي بعد ذلك مرات عدة ، وكانت ترحب بي دوما تلك الأسرة التي كانت من أسر أعيان المكان. هذه البيارة التي لم تكن مساحتها تزيد على فدّان وربع الفدان ، كانت هي بمثابة الثروة الكاملة التي تمتلكها تلك الأسرة: هذا الفقـر النبيل كان كافيا لأن يقـوم ذلك الوطني العجوز، بتنشئة تلك الأسرة التي ليست بالصغيرة تنشئة كريمة. رحبت أم ذلك الشاب الصغير بالحكيم عند بوابة البيت، وجاءت وهي تحمل على ذراعيـها حفيدا مريضـا أشقر الوجه. - لم أر سلوكا أموميا مثل هذا السلوك ولا حتى سيدة مثل هذه السيدة، في واحات الجزيرة العربية! كان يحيى قد وصل بزوجته إلى هذا الحال ، لأنه لم يرض أن تكون لأولاده سوى أم واحدة في هذه الأسـرة الواحدة. وراح الكنيني يتـجـول هنا وهناك ويعظم من شأن ذلك الشفاء أمام أصدقائه ومعارفه. أخذني حـامد إلى والده، الذي كان جالسا في التعريشة: هذا السيد - الذي هو حاليا رجل عجوز أحناه الدهر، ويكاد لا يبصر، نهض من مكانه ليحيي النصراني؛ ولكن الأم والابن ابتسما (ابتسـامة مفتعلة بعض الشيء) للغريب ؛ وكأنـهمـا كانا يعتذران عن العـجز الذي أصـاب ذلك الرجل المحترم. كانت سلطة يحيى مـا تزال تُسَيِّر الأسرة: يضـاف إلى ذلك أن أبناءه تشجعوا ، وكانوا ينفذون الكثير من أقوال والدهم.

وجدت في أولئك الأصدقاء الجدد أسرة الجزيرة العربية بحق وحقيقة : لم يسبق لهذه الأسرة السفر خارج مدينتهم أو إن شئت فقل بلدهم ، اللهم باستثناء الحمـلات العربية ، وكذلك الذهاب للحج في مكة (المكرمة)؛ لم يسبق لتلك الأسر أن امتدت يدها

إلى التجارة والاتجار. ولكن يحيى العجوز كان وطنيا بحق، وشيخا أيضا من شيوخ الخريسى Khereysy ، تلك الطائفة (المسالمة) من أهل مدينته [مثلما هو الحال فى الواحات كلها] ؛ هذه الطائفة المسالمة ، أو إن شئت فقل: الخريسى ، تعد واحدا من بين ثلاث مستويات فى معركة الرجال فى عنيزة. وقد وصل ولده الأكبر عبد الله إلى المكانة والاحترام نفسه؛ وعبد الله هذا ابن ليحيى من زوجة سابقة [انظر ص ٣٧٧]، وهى فى هذه الأيام من رفاق زامل؛ وبدون عبد الله اليحيى، لم يستطع زامل فعل أى شىء فى عنيزة .' هذا الشيخ الشاب يعمل تاجرا فى الإبل. - فى أسرة اليحيى لم يكن هناك متسع للتعصب : وكان صوت ذلك الوالد المحترم يعلم أطفاله ويعلم الآخرين أيضا أن، "خليلا من أتباع المسيح وأن كتابهم هو الإنجيل ،الذى هو أيضا كلام الله."

ذاع صيت أدويتى فى عنيزة: أم الكنينى - العزيزة عليه جداً، شأنها شأن أمهات الجزيرة العربية عند أبنائهن - شفيت وكانت سعيدة بشفائها ؛ بل إن ذلك الرجل نفسه أردف قائلا: ' وأن التكلفة لم تكن كبيرة جداً ، بالرغم من أنه اقتسم كل ما كان لديه مع خليل !' - وأهل نجد متيمون بالقهوة، وهم يتفقون فى ذلك على كل سكان الشرق. كان واحد من مُصَلِّحى القهوة صديقا من أصدقائى ، وأن ذلك الرجل من خلال تذوقه للقهوة قبل صبها ، كان يشرب ما يقرب من "ستين" فنجالا فى اليوم؛ يضاف إلى ذلك، أنه كان يزعم أنه كان يدخن" عددا كبيرا "من غلايين التبغ. طلبت من ذلك الصديق أن يقلل شربه للقهوة بمعدل عشرة فناجيل كل يوم من أيام الأسبوع؛ ونفذ ما قلته له وأكثر . " تعجب الرجل، النصارى لديهم حكمة طبيعية بحق ! هذه الحكمة أكبر من حكمة المسلمين . خليل يستطيع العلاج بلا دواء: وأنتم ترون فى هذا علاج سهل ودواء كامل ، وهو لا يكلف الإنسان شيئا!"

أضف إلى ذلك العقاقير والأدوية الإنجليزية يجرى جلبها من الهند إلى مدينة القوافل والعاملين فيها - ضمن تجارة الخليج. وصفت لمريض بالرئة زيت كبد الحوت؛ وعثر فى اليوم نفسه على زجاجة من هذا الزيت نفسه فى السوق! ولكنهم يعتقدون أن شرب ذلك الزيت لا يكون مناسبا فى أشهر الحر. كانت بداية مرض ذلك الرجل عبارة

عن قشعريرة: فقد فاجأه مطر غزير في النفود، وترك ملابسه المبتلة تجف على جسده. ومرض الالتهاب الرئوي يبدأ أو يتولد عن قشعريرة - وبرودة الصباح ، التي تهبط على - أولئك الذين ينامون في العراء؛ ولكن هذا المرض لا يشيع في هواء صحراء نجد. هذا المرض أصاب الكنيني دون أن يصاب بالسعال ولكنه أخفى ذلك عني : فقد أمضى ذلك الرجل بعد أن ضاق صدره، سنينا طويلة منذ بداية شبابه، في مناخ مداري رطب. - التقيت هنا أيضا مريضا مصابا بالصرع؛ ولم أر غير هذا المريض سوى رجل آخر في الجزيرة العربية كلها. كان ذلك الرجل من بين السود الذين في خيبر. صادفت مريضا آخرا ليس لمرضه وصف في كتب الطب الجديدة؛ كان الرجل "مسحوراً!" Fascinated . أعرب عن حزنه وهو يقول : "إنها نفس nefs بمعنى روح تتملكني وتحاصرني؛ " وأضاف، ' أن هذا أمر شائع في هذا الجزء من البلاد - إنه من عمل الحريم عن طريق المشاريب الخرافية اللاتي يحسبن أنها تولد الحب والعشق، وكذلك المشاريب الإجرامية والضارة.' - " هناك، هناك! (يصيح الرجل) ، أنا أرى سحرها وشعوذتها ! وهي دوما على هذه الشاكلة أمام عيناي. هذه المرأة كانت زوجتي، ولكني طلقتها في العام الماضي؛ وأنا أعيش في خوف، فقد أعطتني شيئا أشربه؛ وسوف يسوء حالي يوما بعد يوم، على امتداد بقية حياتي. الشبح دائما في رأسي، حتى عندما أتمشى خارج البلاد، - والله ونحن جالسين هنا أراها وهي تسحر وتشعوذ !" هذا الرجل المسكين، الذي يستحوذ عليه الخيال والتهيؤات ، والذي كان يخدم الكنيني يوم أن كان في البصرة، مصاب بالاكتئاب الشديد: كانت فنتازيا حزن ذلك الرجل مثارا للمرح (السري وليس العلني) من حامد البغدادي والأصدقاء الصغار.

شاهدت بالفعل علاجا جاهزا، في الشرق، للأشخاص المخبولين، ويجري ذلك العلاج في ظل الدين. قبل ذلك بسنوات عدة وعندما كنت أتجول في أعالي لبنان نزلت إلى وادي عميق - اسم ذلك الوادي بلغتهم هو وادي Valley القديسين Saints ؛ وفي ذلك الوادي توجد كنيسة كبيرة من كنائس الدين السوري. الأخوة المساكين في الدين هنا يصل عددهم إلى مائة وعشرين فرداً: منهم خمسة وعشرين قساً؛ والبقية لا تعيش حياة سهولة وفراغ ، مثل الحياة التي تخلى عنها الكادحون؛ كل واحد من هؤلاء البشر

يعمل بيديه إسهاما منه فى الحياة المشتركة التى يحيونها فى هذا المكان ، - الغالبية من هؤلاء البشر هم من المزارعين . إشراقة الشمس ، فى كل صباح، هى التى تدعو هؤلاء الناس إلى الذهاب إلى حقولهم؛ وفى تلك الحقول، يخلو المتدينون إلى أنفسهم ويدخلون فى سنة من التأمل فى قدرة الله (سبحانه وتعالى). الحرفيون من بين هؤلاء الناس هم الذين يبقون فى البيت ، وهؤلاء الحرفيون هم على وجه التحديد صناع الأحذية، وأولئك الذين ينسجون تلك الوشاحات السوداء التى يرتديها الرهبان المتواضعون؛ بعض آخر من هؤلاء الرجال يخدمون فى المطبخ ، حيث يقومون على تحضير الخبز المطلوب للدير، كما أنهم هم أيضا الذين يطبخون الطعام البسيط. أما القساوسة فيبقون ، لأداء طقوس العبادة ، فى الساعات المحددة. وعندما يدق جرس الكنيسة، يتوقف أولئك الذين يكونون فى الوادى الموجود أسفل الدير، يتوقفون برهة قصيرة، عن العمل القائمين به، لأداء الطقوس الكنسية أو إن شئت فقل: الصلاة الكنسية. الدير عبارة عن كهف كبير مسور موجود فى باطن الصخرة. ومن غروب الشمس إلى غروب الشمس، ويواقع ست مرات فى اليوم الطبيعى المعتاد، تدق الأجراس لتنبه الناس إلى مواعيد العبادة: وينهض الأخوة عندما يسمعون صوت الجرس فى جوف الليل، ويتجمعون من أجل أداء الصلاة فى الكنيسة . - وشهور الشتاء تكون قارسة البرد مع هذا الارتفاع الذى يوجد عنده. الدير: والشمس وهى تتحرك خلف قمم ذلك الوادى من هذا الجانب ، لا تسطع عليهم سوى ساعة واحدة. هؤلاء المتدينون لا يأكلون اللحم ؛ والغذاء الذى يعيشون عليه هنا هو الخبز والزيت وأعشاب السلطة، أو إن شئت فقل: الأعشاب التى تؤكل؛ وهم قد يشربون اللبن ويأكلون البيض بواقع مرتين فى الأسبوع . وفى المنخفض الموجود أسفل الدير هناك نهر صغير ماؤه بارد مثل الثلج (هذا النهر ينبع من فوق منطقة أشجار الأرز) وهو الذى يدير الطواحين الخاصة بالدير : البعض من الناس المقيمين هنا فى الدير يمتهنون الطحن؛ كما أن هناك بيتا من الصلصال (اللبن) ، يستخدمه، فى فصل الربيع، بعض من أولئك المتدينين فى تربية دودة القز.

خلايا الدير ليست سوى جدران ليس إلا ، وفى كل واحدة منها نافذة صغيرة مفتوحة ، وأرضية كل خلية من الصلصال وعرضها حوالى اثنى عشر قدما: والذين يعيشون فى هذه الأروقة أناس مساكين، من أصحاب الحواس التى لا تعرف شيئا عما فى هذا المجتمع. هناك ناسكان، يقع مسكنهما بين الصخور فى وادى الحجر الجيرى المعتم: هذان الناسكان يصليان دوما، والذى يحمل إليهما طعامهما عند الظهيرة كل يوم، هو واحد من الرهبان المبتدئين. - وجبال لبنان فيها ثلاثين ديرا من تلك الأديرة؛ ومن بين هذا الجمع الكبير من الأخوة، وعلى حد قول الناس هنا، يوجد رجلين مباركين يقال إنهما من أصحاب المعجزات. وهناك شماس صغير، جرى ترقيته مؤخرا إلى قس، تتمثل مهمته فى دراسة الأغراب والوفاء بما يطلبه (الزائرون) الغرباء؛ هذا الشماس عندما رآنى أعانى من الروماتيزم فى فصل الخريف فى هذه الأماكن المرتفعة، حثنى بشىء من التواضع المشوب بالحب، على زيارة واحد من القديسين،' الذى لا يبعد ديره عن هذا المكان سوى مسير خمس ساعات فقط، وأنه سوف يطلب من رئيس الدير الموافقة له بمرافقتى فى تلك الرحلة.' كان واحد من هؤلاء الناس المتدينين يعالج كل أنواع الأمراض والضعف والوهن؛ قال له، شخص آخر منهم : أنه أعاد الميت إلى الحياة؛ وحكى لى، عن شخص آخر، أنه تسبب فى حمل كثير من النساء العواقر.' قال: إنه تعرف على امرأة عاقر رأت ذلك الرجل المبارك : وأنها، على حد قوله، حملت فى طفل ، قبل نهاية العام؛ ولكن أثناء الرحلة التى حملت الطفل خلالها، إليه لتعميده، مات ذلك الطفل. وفى اليوم الثالث لوفاة الطفل جاءت المرأة إلى ذلك القديس؛ وأعاد لها طفلها الميت إلى الحياة! - ذهب رجلان لزيارة ذلك القديس؛ وكان أحدهما ضريرا : ولكن بينما كانا سائرين فى الطريق أبصر الأعمى! وهنا قال رفيقه: "لماذا نواصل بعدئذ مسيرنا ؟ مالذى نريده من ذلك الرجل المبارك؟" - ولكن بينما كان يتحدثان سويا نزل عليه عمى الرجل الآخر!"

لم يكن مسموحا للنساء بتجاوز بوابة الرواق الذى يعيش فيه هذان الرجلان. "تساءلت، أليس هناك صعوبة، أن ينعزل رجل دخل حديثا فى الدين، عن الزواج؟" "أجابنى، لا فهذا أمر سهل جدا، إنه يكاد لا يشكل أى عائق على الإطلاق: وأنا أنظر

إلى المرأة مثلما أنظر إلى عمود من أعمدة البوابة الموجودة هنا." هذا القس الصغير كان مصابا بالصرع منذ الصغر؛ 'وقال: إنه كان من عادته، أن يخطئ مرة كل يوم، إلى أن ذهب إلى القديس الذى عاش معه طيلة أربعة أشهر؛ وبعدها شفى من المرض.' – ورد علىّ أنه لم يكن يقرأ فى العهد القديم إلا نادرا؛ وسألنى، 'عما إذا كان الأب السورى [المعلق على الأناجيل بذلك اللسان (اللغة)] ، والمدعو أفرايم Ephraim الموقر، قد عاش قبل المسيح أو جاء بعده؟ وسألنى أيضا هل كان المعبد الذى بناه (سيدنا) سليمان – بخشب من أشجار أرز لبنان، قبل المسيح أو بعد عصره؟' بالإضافة إلى أنه لم يكن يقبل الفكرة أو التخمين الذى مفاده أن النبيذ كان موجوداً فى الدنيا قبل مجىء المسيح! وذلك لأنه لديه فكرة مفادها أن المسيح صنع ذلك النبيذ بمعجزة فى عشاء من عشاءات الزواج. وهو لم يسمع عن أبناء نوح، ولم يعرف كم كان عددهم، ولا حتى أسماءهم. ولكنه كان يسأل باهتمام بالغ عن سيناء ؛ كما سألنى أيضا 'عن ذلك المكان من العالم الذى يقع فيه ذلك الجبل المقدس، – فى الوقت الحالى؟'

وفى النهاية أرانى ذلك القديس بئرا عميقة، كانت فى فناء الرواق، وقال : إن هذه البئر 'مفيدة جداً لعلاج أولئك المصابين بخلل فى عقولهم : وأن المريض بعد أن يجرى إخراجه من البئر، يتأكد أنه شفى من ذلك الخلل.' – المخبول المسكين يجرى إنزاله فى بئر مظلمة، ويجرى غمره فى ماء شديد البرودة! والذى لا شك فيه أن الخوف الشديد هو والبرودة الشديدة يعملان عملهما فى رأب الصدع فى ألياف السواد الأعظم من العقول المخبولة.

المرضى، فى عنيزة، لم يدفع فقراؤهم أو أغنياؤهم شيئا للحكيم مقابلاً للخدمات والدواء الذى قدمه لهم! بعض الأشخاص الميسورين ، بالرغم من إنقاذى لحياواتهم، لم يكشفوا عن الجانب الإنسانى تجاه النصرانى، اللهم باستثناء دعوتى لشرب القهوة فى بيوتهم الخالية من العطف. كنت سعيدا بإعطاء الدواء للفقراء: وبالرغم من أنى كنت أواجه المدينين وأطالبهم بما عندهم، إلا أنى كنت راض عنهم جميعا! والسبب فى ذلك أنى من خلال أولئك المدينين استطعت أن أتعلم الكثير عن هذا الجزء من نجد.

كان من بين أولئك المدينين فلاح ممن يعملون خارج أسوار البلدة؛ وبالتالى تهيأت لى فرص الخروج إلى ما بعد أسوار البلدة. - وعلى مقربة من بوابة بريدة، أرانى الجيران جزءًا من سور مبنى من الصلصال يصل سمكه إلى حوالى قامة واحدة، هذا الجزء يمثل البقية الباقية من القلعة التى بنيت أيام الاغتصاب أو إن شئت فقل: الاحتلال الوهابى. عندما وصل إبراهيم باشا على رأس جيش مصرى، إلى عنيزة، قامت مدفعيته بقصف تلك القلعة الطينية طوال الليل؛ ومع طلوع الفجر لم يكن يتبقى من تلك القلعة سوى أكوام من الطين والتراب: وفى اليوم نفسه أجبر إبراهيم باشا حامية بن سعود وقواته على مغادرة المدينة والانسحاب منها.

فى ذلك المكان، توجد قطعة أرض من الحجر الرملى، حولها مالكها إلى بئر للماء؛ وكانت البئر، التى جرى حفرها فى تلك المنطقة، من عمل عمال الأحجار فى عنيزة. والعمل هنا مضن (فى ظل ظروف المناخ الذى لا يطاق) ، إلى حد أن أولئك الذين يكونون فى ريعان شبابهم، ويشدهم الأجر العالى، ويجعلهم يربطون مصيرهم بمصير أولئك الذين يقطعون الحجارة، قد لا يصلون سن الرجولة أو حتى منتصف العمر. والناس هنا يقولون من منطلق الحكمة الدينية: " إن ذلك عقاب من الله؛ وأن الشباب يذنبون بلا اكتراث ، ويسلمون أنفسهم للعمل المفرط." هذا المسحوق الحاد المتطاير عندما يستقر فى الرئتن ، ويروح يقطِّعهما ويستهلكهما مثل الزجاج ، فإن كل قوى الطبيعة تعجز عن طرد ذلك الغبار أو إخراجه من الرئتين مرة ثانية. - جاءنى شاب ممن يعملون فى قطع الأحجار؛ كانت لحيته على وشك الظهور، ولكنه كان مريضا مرض الموت : لم يكن يقوى على المشى مسافة بضع منازل صغيرة، لأن قلبه سرعان ما يلهث فى إثر مجهود من هذا القبيل؛ اشتكى للحكيم قائلا: "صدرى مكسور!" قال الشيخ نصير : "إنهم يموتون هكذا فى سن مبكرة؛ إنهم يموتون فى غضون عامين أو ثلاثة أعوام."

قصدت بيت ذلك الفلاح ، الذى يمتلك مكانا جيدا بالقرب من بستان الكنينى . وترك الرجل منطقة البئر وهمَّ قادما للقائى؛ وأدخلنى إلى مقهاه بعيدا عن الشمس؛

ثم جلس على الأرض لتصليح القهوة! بعد شرب القهوة قلت له: هذا بيت جيد! وأنا أرى في هذا البيت الريفى نخيلا وأرضا لزراعة القمح فضلا عن الإبل ؛ وهذه هى أكوام كبيرة من حصاد القمح والشعير! جاهزة للدرس: خبرنى ما الذى يمنعك من دفع المبلغ الصغير المطلوب ثمنا للدواء الذى أعطيتك إياه؟" - " أخ! يا خليل! أنت لا تعرف طبيعة الحال معنا، أنا أتمنى على الله لو أن كل هذه الأشياء كانت ملكا لى، مثلما هى ملكى من الناحية الشكلية! هل ترى الإبل الواقفة هناك؟ - إن هذه الإبل ملك للبسام؛ كما أن هذا القمح كله تقريبا سيكون لهم وذلك وفاءًا منى بقيمة القرض الذى حصلت عليه منهم؛ ونحن يتعين علينا أن نقترض منهم كل عام: ووالله، ما يتبقى لى بعد أن أسدد كل ما علىّ سيكون أقل من القليل. هذه الأرض كانت ملكى ، ولكنها الآن ملك لغيرى؛ وها أنذا أصبحت كما لو كنت خادما عندهم."

عائلة البسام الثرية تمثل مقرضى المال فى عنيزة. معدل سعر الفائدة هو خمسة عشر فى المئة لمدة عام، اثنى عشر شهرا، وهذه الفائدة تدفع نقدا ؛ ولكن إذا ما قبلت فى شكل عينى ، - فذلك يكون من رجل فقير الحال! هذا يعنى أن هؤلاء الناس يحصلون على ريال ونصف الريال ، عن كل ريال واحد من القرض، ويكون ذلك مقيما بالقمح أو التمر، وبسعر جنى المحصول وحصاده. هذه الثمار، يخزنها أهل البسام، إلى فترة متأخرة من العام ، كى يبيعونها بسعر مرتفع (للبدو الرحل الفقراء). - قال ذلك الرجل، الذى دخل علينا ، وكان من معارفى، وهو يذم الإثم الذى ارتكبه ذلك الفلاح "يارجل ! ألا تخاف الله؟ ادفع للحكيم أجره، أعرف أن الله فوقك. " كان ولد ذلك الفلاح يعمل ضمن قوة العجيل فى سوريا ، - التى خدم فيها ، فى فترة من الفترات، على حد قوله لى، نصرانى ، كان يعمل تاجرا ثريا للحبوب فى الناصرة؛ وقد بالغ فى وصف كرم وسخاء ذلك التاجر.

التحزب والمديونية فيهما دمار البلدان العربية. "وهم يقولون: السلف حلو" [مثلما يقولون عن الكذب]، - إنه يشبه الغنيمة التى يأخذها الناس من الغير، ويوم الرد غير معروف (*) .

(*) هذه ربما كانت ترجمة للمثل العامى" السلف تلف والرد خسارة" (المترجم)

الإقراض بالربا، الذى لا يقره القرآن ويرفضه، يُمَارسُ هنا فى هذه البلدة المتدينة .
وهذا هو ما يقضى على القرويين؛ كما أن غالبية البدو يصبحون خالى الوفاض كل عام، لأنهم ينفقون ثلث دخلهم فى سداد النقود القليلة التى يحصلون عليها. - والمسلمون ، فى سوريا لا يقرضون، وذلك خوفا من ضمائرهم، ولكن هؤلاء الناس تلتهمهم الزواحف الأخرى، المتمثلة فى اليهود ، وأكثر من ذلك - وهو ما يسيئ إلى اسم المسيح! بواسطة النصارى الآثمين الظالمين: فسعر الإقراض السنوى يصل إلى خمسة وعشرين فى المئة ، وهذا من وجهة نظرهم سعر "رحيم" للفائدة على النقود. من هنا تصبح الأرض معرضة للحجز: وعندما يقوم ملاك الأرض (المسلمون) الأمناء برهن أراضيهم نظير مديونياتهم؛ وعندما يصبحون مجرد مستأجرين لتلك الأرض بمحض إرادتهم، عند أولئك المغتصبين [لذلك الذى يطلق عليه الدين اسم "التراب"] - والذى كان ملكا لهم، عندئذ يبدءون فى هجر قراهم والتخلى عنها.

- وطوال الفترة التى عشتها بين أهل سوريا؛ وشاهدت خلالها أساتذة أولئك الأساتذة المتخصصين فى الحقد الإنسانى واكتشفت أنهم كانوا أشخاصا متصلين بالقنصليات الأجنبية، لم أدخر وسعا فى توجيه اللوم إلى المذنب ؛ وهو جعل هؤلاء الناس يحسنون بى الظن ." ردوا علىَّ قائلين : الأرض مثمرة، وتربتها أحسن من تربة بلادنا : هذا يعنى أن فلاحة الأرض وكلفتها تعد صغيرة وبسيطة." [فى ظل هذا المناخ - وحيث نعيش بمثل هذه الكلفة المرتفعة، وفى ظل زيادة الاحتياجات البشرية إلى الضعف - نحن نبذر الحب بجهد بشرى مضاعف على أمل أن نجنى النصف : يضاف إلى ذلك أن الوقت يكون مضاعفا أيضا!] .

الزراعة فى واحات الجزيرة العربية أقل مهارة منها فى غوطة ghruta دمشق. - الواحات فى الجزيرة العربية تربتها رملية صحراوية؛ وهذه التربة تكون خصبة ومثمرة فى ظل ظروف شمس الجزيرة العربية، وبالذات عندما يتوفر لها الرى. وفى كل عام يزرع الناس هنا المساحة نفسها ، بهذا الحب أو ذاك؛ ومع ذلك لا يقل الحصاد أو المحصول . والمساحات التى تزرع بالحبوب يغطيها الطمى، كما يزيد من خصوبتها

أيضـا روث الإبل الذى يطلقـون عليـه اسـم الدمن ed-dimn . والجـذامـة عندمـا يجـرى حرثها تمهيدا لبذر الحبوب فى فصل الخريف، يجرى تكويمـها فى أوعية وفى قنوات الرى - ، التى يحسنون استعمـالها : وعندما يجرى فتح بركة من برك الآبار فإن الماء المندفع يجرف معه تلك الجذامة ويغمر بها الحقل كله دفعة واحدة. وفى مزارع النخيل تجد كل ساق من سيقان النخيل واقفا فى مجرى من المجارى المائية، وبالتالى فإن الأرض من حول جـذور النخل تكون رطبة، بل إن هذه الرطوبة تتجدد مع تجدد مرور الماء فى ذلك المجرى المائى، وذلك بمعدل مرة أو مرتين فى كل يوم من الأيام المعتادة. [الأمر على العكس من ذلك تماما فى قرية العلا - وقد يقتصر ذلك التقليد على كل من مزارع النخيل فى كل من الحجاز أو المدينة المنورة - حيث تكون سيقان النخيل محاطة بضفاف فوق سطح التربة.] .

عندمـا كنت أسـأل أصدقائى عن آثار البـلاد، كانوا يحكون لى عن موقـع يطلقون عليه اسم العيارية el-Eyarieh ، الذى يقع على بعد مسافة قصيرة فى اتجاه الشمال على هذا الجانب من وادى الرماح: قال الكنينى: " نستطيع ركوب الخيل والاتجاه إلى ذلك الموقع ." ذهبت ذات صباح بعد ذلك مع حامد الصافى Assafy لاقتراض حصانين من سمسار للخيول، اسمه عبد الله ، الذى يكنونه [وهذه كنية كل من اسمه عبد الله ، وبالرغم من أنه ليس له ولد] أبـو Abu نجم Nejm : كان أبـو نجم هذا يعمل سـمسـارا أو وسـيطا فى بيـع الخيـول إلى الهنـد ، أو إن شـئت فـقل: فى السـوق الهندية. والخيـول لا تربى ولا تباع فى أى من بريدة أو عنيزة، ولا حتى فى أية مدينة من مدن نجد؛ ولكن سماسرة الخيول يتولون أمر الخيول الصغيرة فى قبائل الأعراب وهذا النوع من الخيـول - مـا لم يكن ممتـازا بصـورة أو بأخرى، تصبح أسـعاره عـادية جداً بين هؤلاء الأعراب كان مفـروضا أن ينطلق الكنينى للقائنا قـادمـا من اسطبل للخيـول ، قريب من مزرعته.

عثرنا على خيول أبى نجم قليلة العدد والمعروضة للبيع، ضمن خيول أخرى كانت تجرى تغذيتها على حساب بعض الأصدقاء ، فى حقل يقع بين أشجار نخيل آخر حقل

من حقول نخيل المدينة فى شمالى عنيزة. وجدنا حصانين يتغذيان جنبا إلى جنب من معلف واحد مربع الشكل مبنى من اللَّبن؛ ووجدنا كل حصان من الحصانين مربوطا من رجله الخلفية إلى وتد جرى دقه فى الأرض. كان العلف الموضوع أمام الخيول من الجلبان الأخضر الذى يقولون له : "جت" jet : وأن هذا الجلبان الأخضر كان هو الغذاء الوحيد الذى كانت تعيش عليه هذه الأفراس منذ أن قام أبو نجم بإحضارها من الصحراء، خلال أسابيع الصيف؛ وذلك إلى أن يبدأ هبوب الرياح الموسمية على البحار الهندية. فى هذا الموعد تقوم شحنة ذلك السمسار من الخيول باجتياز الصحراء الطويلة من ناحية الشمال ، مع الإبل، التى تحمل الماء اللازم لتلك الخيول طوال رحلة تستمر سبعة عشر مسيرة إلى الكويت ؛ حيث يجرى شحن تلك الخيول بالسفن إلى بومباى فى الهند.

ابتسم الأوروبى عندما رأى انطباعا طيبا على وجه ذلك العربى الذى كان يتجر فى الخيول ! أعرب أبو نجم الذى أعارنى حصانا عن رغبته فى أن يرافقنا فى تلك الرحلة إلى ذلك المكان الأثرى. كانت سرجنا عبارة عن برادع بلا رِكَاب والسبب فى ذلك – أنهم مثل البدو هنا، لا يستعملون الرُّكاب: ومع ذلك فإن هؤلاء الحضر يركبون الخيول، المزودة بشكيمة، كما هو الحال فى الخيول فى البلاد المجاورة؛ ولكن البدو يركبون الخيول بلا شكيمة أو لجام، بل إنهم يجلسون فوق أفراسهم مثلما يجلسون فوق الإبل (وهذا يدل على عدم الخبرة إلى حد ما)، ولا يستعملون سوى مجرد حكَمَة ليس إلا. لم أسمع عن امتداح أى خيَّال بين البدو، لركوبه الخيل بالطريقة الصحيحة ، بالرغم من أن هناك بعض الشيوخ الذين يمتدحهم الناس بأنهم رماة رماح مهرة. أبو نجم هذا، لم يسبق له أن ذهب هو بنفسه إلى الهند؛ ولم يكن يعرف أن النصرانى يستطيع ركوب الخيل بالطريقة السليمة: نادانى بعد ذلك، وطلب منى أن أثبت على السرج، وألف يدى الأخرى على عنق الحصان. وبالتدريج بدأ الحصان يعدو، وأطلقت له العنان وتركته ينطلق على رمال صحراء النفود، – تعجب ذلك الرجل المحترم وقال: " الله! هل الحكيم خيَّال Khayyal ؟"

تعجب ذلك الرجل المحترم وقال: مررنا على الدَّرس ؛ وشاهدت مجموعة من إبل الآبار يجرى اقتيادها على شكل صف مع عشر بقرات وحمار (أى كل حيوانات ذلك الريفى) ، حول وتد، وكانت أقدام كل هذه الحيوانات غارقة إلى ركبها فى سيقان القمح المهشمة. على جانب ذلك الجرن شاهدت الكثير من جحور النمل وشددت سُرْع (لجام) الحصان كى ألقى نظرة على العمل الذى كانت الحريم يقمن به بجوار جحور النمل هذه . – شاهدت الارتباك الذى أصاب النمل فى النهاية (ذلك الارتباك الذى انتاب النمل لأنه من اللصوص) ، – شاهدت مستعمرات النمل وهى يجرى تخريبها ، والنساء يمسكن النمل فى المناخل! ومن (باب الحرص على أسباب معيشتهن) رحن يذرين أمة النمل هذه فى الهواء، وهنا اختلط الناس والمشايخ musheyikh فى صراع على الرمل وعلى الحبوب أيضا . – وهذه هى الزوجات الفقيرات المعوزات كل واحدة منهن قد حصلت على بضع قبضات من حبوب القمح اللامعة، ووضعتها على غطاء رأسها المفرود على الأرض.

نحن نرى هنا حلبة طويلة عالية من الصخر الرملى يطلقون عليهما اسم مرقاب Mergab الرَّافة er-Rafa وتقع على هذا الجانب من البلدة. فى هذه المنطقة يجرى قطع الأحجار وتربيعها حتى يمكن استعمالها فى البناء ، كما تستخدم تلك الأحجار أيضا فى بناء البوابات فى عنيزة. – جاء الكنينى راكبا حصانا للقائنا ! وهنا دخلنا فى طريق مجوف قديم يمر عبر النفود ويوصل إلى العيارية والأوشازية el-Owshazieh ؛ وهذا أيضا موقع آخر من المواقع القديمة فى هذه البلدة. كيف يمكن لهذه الآثار أن تبقى فى الرمل المتحرك ؟ – على حد علمى، الريح ضعيفة جدًا فى هذه البلدان.

جلس عبد الله فوق مهر جميل من سلالة أصيلة، كان ينقاد بتفاخر شديد لتوجيهاته: وعندما رأى عبد الله عينى الغريب مثبتتين على المهر،" قال صديقى: إى، هذا المهر جيد من جميع النواحى." الكنينى هو والشيخ نصير اللذان سبق لهما شحن ثلاثة أو أربعة من الخيول العربية صغيرة السن إلى مدينة بومباى فى الهند أخبرانى أنهما يحققان مكسبا من وراء بعض الخيول ، ولكن بعضا آخرا من تلك الخيول قد يُقيَّم فى بومباى تقييما متدنيًا تماما، إلى حد أنهما لا يحصلان على ثمن البيع الذى

يغطى ثمن الشراء ومعه مصاريف الشحن إضافة إلى النثريات الأخرى . أما أبو نجم فقد أخبرنا أن مكسبه وخسارته' كانتا حسب مشيئة الله؛ وأنه كان يحقق مكاسب فى معظم الأحيان ولكنه كان يخسر أيضا فى أحيان قليلة جداً '. وهم هنا يشترون المهور الصغيرة فى فصل الشتاء، حتى يتسنى لتلك الخيول أن تكبر وتزداد قوة ، وتسمن قبل أن يتم شحنها إلى الهند، وحتى يمكن تعويدها أيضا على علف الجلبان الأخضر فى الواحات ، وبذلك يمكن أن تتأقلم فيما بعد مع مناخ الهند الأخضر .

فيما بين الجهل المطبق بين المشترين الأجانب من ناحية ونفاق النجديين الآسيويين أصحاب الاسطبلات العربية فى بومباى من الناحية الأخرى، جرت هناك مفارقة أو إن شئت فقل: تمييز فيما يتعلق بخيول كل من عنيزة ونجد ! - مثلما هو الحال عندما نميز نحن بين الخيول اللندنية وخيول ميدل سكس Middlesex . فقد سبق لنا أن عرفنا أن الخيول المعروضة للبيع إنما يجرى جمعها بواسطة تجار البلدة ، من min الأعراب el-Aarab ، من القبائل البدوية المترحلة ونظرا لقلة وجود الخيول فى المضارب العربية الشاسعة فإن ذلك يعنى أن تلك الخيول يأتى بها أولئك التجار من مسافات بعيدة. ولقد عثرت على خيول "عنيزة" فى اسطبلات بومباى، وكانت تلك الأمهات قد ولدت فى اليمن . - وربما ينصرف فهمنا لخيول عنيزة على إنها الخيول التى يبيعها تجار القصيم [وهم من عنيزة وبريدة]؛ أما الخيول النجدية، فهى - خيول الجبل ، أو تلك الخيول التى يجرى إرسالها من بلاد بن الرشيد إلى بومباى . وقد بلغنى أن مجموعة خيول سمسار بريدة سبق إرسالها إلى بومباى قبل أيام قلائل من وصولى إلى هناك . وبريدة بلدة وولاية صغيرة من ولايات الجزيرة العربية؛ وأمير بريدة يحكم القرى المجاورة، ولكن لا طاعة له على من يعيشون فى الصحراء. ومن ثم فنحن نرجح أن الاتجار فى خيول عنيزة هو الأكبر والأقيم . [وأفضل الخيول فى اسطبلات بومباى هى تلك التى تأتى من شقراء Shuggera فى منطقة الوشم] .

فيما يتعلق بخيول الشمال أو إن شئت فقل: خيول "الخليج"التى يجرى تربيتها فى ديار البدو الرحل فى بلدان النهر - بالرغم من جودة أجسامها و بالرغم أيضا

من سرعتها إلا أنها لا تحظى بمنزلة عالية لدى سكان المنطقة الداخلية من الجزيرة العربية. ولحوم هذه الخيول مكونة "من العلف الأخضر والماء" هذا يعنى أن تلك الخيول لا تتحمل المناطق التى تكون شديدة الحرارة بفعل تأثير الشمس. والخيول الصحراوية المماثلة لتلك الخيول، والتى تقل عن هذه الخيول من حيث الشكل، ولكنها من السلالة نفسها، الحصان الواحد منها يساوى خمسة خيول من خيول بلدان النهر. - يضاف إلى ذلك أن خيول البيع لا تجرى فرجنتها فى ظل ذلك المناخ العربى الخالص: ولكن هذه الخيول يجرى ، فى البداية، تعليمها الوقوف تحت حكاكة جلود الخيل فى الهند . وخيول الجزيرة العربية أعناقها مجوفة مثل أعناق الإبل: والعرب كلهم ينظرون إلى أعناق خيولنا الشامخة على أنها عيوب فى تلك الحيوانات . خيول الصحراء، التى تربت فى الصحراء الجافة فى أراضى السهول الحارة التى تحيط بها الجبال الصغيرة، لا تستطيع القفز، أو إن شئت فقل: ليست من خيول القفز، ولكنها قادرة تماما على تسلق الأراضى الصخرية. هذا يعنى أن تلك الخيول جيدة فى حمل الأثقال: ولقد سمعت أن البدو الرحل يتفاخرون بأن أفراسهم يستطيع الواحد منها حمل أربعة رجال. وأهل الجزيرة العربية يؤمنون إيمانا راسخا بأن الله خلق سلالة الخيول فى أراضيهم: وهم يقولون : إن الأصل el-asl ، أو إن شئت فقل: منشأ الخيول، هو فى بلاد الأعراب. وكان الكنينى يتبنى أيضا هذا الرأى الخرافى، هذا بالرغم من أن الحصان يمكن أن يعيش فقط على ما يعطيه له الإنسان فى الصحراء الجافة. [الروماكى Rummaky ، اسم للفرس، كلمة تتردد كثيرا فى القصيم: ويقول لى صالح الرشيد إنهم يطلقون على الحصان الذكر اسم غروق ghrog ؛ ولكن هذا الاسم قليلا مايردده الناس.] .

قطعنا مسافة ثلاثة أميال ونحن راكبين على ظهور الخيل، إلى أن وصلنا إلى تلة من اللُّهم الجاف، وكانت تلك التلة تطل على وادى الرماح الذى يتسع فى تلك المنطقة إلى ما يزيد عن الميلين. وفى الجانب البعيد من ذلك المكان شاهدت قلة قليلة من مزارع النخيل والبيوت الريفية الخاصة بزراعة القمح: اللهم باستثناء أن الهواء فى هذه المنطقة يتسبب فى الإصابة بالحمى، إضافة إلى أن الماء مالغ الطعم فى هذه المنطقة،

فضلا عن أن الزنوج هم الذين يقومون هنا على أمر فلاحة الأرض. ومناطق الوادى القريبة من هذا المكان كانت كلها بيضاء اللون بفعل السبخة Subbakha : وفى وسط الوادى يوجد نوع من اللهم الجيد، الذى تنمو فيه الأدغال الصحراوية وأشجار الإثل؛ ولكن هذا اللهم لا يمكن زراعته نظرا لأن المياه الجوفية هنا على عمق عشرة أقدام، فضلا عن كونها مالحة الطعم. شاهدت فى الأسفل مسوَّرة من مسوَّرات النخيل فيها مناطق من علف الجلبان الأخضر، وفيها مناطق أخرى عامرة بالجذامة المتخلفة عن حصاد محصول القمح، كما شاهدت أيضا كابينة أو اثنتين مبنيتين من اللَّبِن؛ وكانت تلكما الكبينتان مملوكتين للشيخ نصير. فى هذه المنطقة يصل قاع وادى الرماح :ضحل إلى الشمال الشرقى ويكاد يضم عنيزة أيضا: وعلى بعد مسافة عشر ساعات، أو إن شئت فقل: على بعد رحلة واحدة من رحلات النياق، توجد روضة rautha كبيرة، يطلق الناس عليها اسم الزغريبية Zighreybieh ، وفيها أراضى لزراعة القمح، تغمرها مياه السيل فى فصل الشتاء: وفيها ملاَّحة، يستخرج الناس منها الملح فى عنيزة.

الوادى الذى يهبط نازلا خلال الصحراء الشمالية [التى تمتد مئات الأميال على شكل أرض يباب] مسدود فى مكان يطلق الناس عليه هنا اسم الزويرات eth-thueyrat ، والذى يبعد مسافة رحلة واحدة من رحلات النياق، أو ربما خمسين ميلا عن عنيزة، وهذا السد يتمثل فى الكثبان الرملية الكبيرة، التى كبرت وتضخمت ، على حد قولهم، فى هذا العصر. واعتبارا من هذه المنطقة فإن أرض الوادى الأجوف – التى يقع فيها مسار القوافل الشمالية – يطلق الناس عليها اسم الباطن el-Batin ؛ والمسافرون يمرون على المواقع الأثرية فى اثنتين أو ثلاث من تلك القرى: وهناك قلة قليلة من الآبار على جانب الطريق، ولكن الماء ليس غزيرا فى تلك الآبار. هذه الصحراء الشاسعة كانت فى الماضى تابعة لبنى تعمير Taamir . وضفاف الوادى هى فى أغلب الأحيان عبارة عن قمم من الصلصال والزلط، والمسافة بين القمة والقمة التالية لها قد تستغرق مسير ساعة (أى ما يقرب من ثلاثة أميال) على حد قول عبد الله الكنينى . ومجرى الوادى الكبير فى سهل النفود فى القصيم يصعب على أعين الغرباء تمييزه أو التعرف عليه تعرفا تاماً.

وأية جماعة من الجماعات الصغيرة إذا ما تجولت خلال ذلك الوادى يصعب عليها أن تضل طريقها، أو يضيع منها مسارها: هذا يعنى أن مثل هذه الجماعة، لا تذهب إلى مسافات بعيدة فى الصحراء. وانحناءات وادى الرماح كلها، من المنظور التقديرى، لا تستغرق أكثر من خمسة وأربعين يوما، أو إن شئت فقل: مسيرة من مسيرات الإبل (أى ما يقرب من ألف ميل): وهذا الوادى يقع فى أرض يصل عرضها إلى ما يقرب من خمسمائة ميل، مقاسة من رءوس حرة خيبر إلى المخرج القريب من مدينة البصرة. - ما الذى نعرفه نحن عن هذا الوادى الكبير، الموجود فى أرض لا يسقط عليها المطر؟ هذا الوادى عندما يفيض - وهذا يحدث حوالى مرتين أو ثلاث مرات خلال قرن من الزمان، فإنه ينساب نحو الأسفل كما لو كان نهرا من الأنهار . ويكون المد الناتج عن ذلك الفيضان كبيرا، وفى الأماكن التى لا يكون الوادى فيها مستقيما يستطيع راكب الجمل عبوره، عن طريق الخوض فى الماء، وهذا على حد قول الناس هنا. ولم يتمكن أحد من أولئك الذين عاصروا حياتى من رؤية ذلك السيل؛ ولكن الأجيال الأكبر من جيلنا شاهدت ذلك السيل قبل أربعين عاما، فى موسم هطلت خلاله أمطار غير عادية على كل الأراضى المرتفعة التى فى اتجاه خيبر. أما الفيضان الذى تجاوز عنيزة، فقد توقف بفعل الكثبان الرملية التى فى الزويرات، وارتد إلى الخلف، وأصبح مغسلا، يصل اتساعه هنا فى العيَّارية Eyarieh إلى ما يقرب من الميلين. ثم شاهدنا بعد ذلك فى نجد مشهدا جديدا لبحيرة! - ربما كانت مساحة المياه الراكدة تقدر بما يقرب من مائة ميل؛ والتى بقيت على امتداد عامين وكانت بمثابة إصلاح لكل الجماعات الجائلة من طيور الماء التى لم تكن معروفة من قبل ، أو التى لم يسمع الناس صراخها فى هواء تلك البلدان الصحراوية. والوادى الكبير بعد أن يمتلىء بمياه السيل، يؤدى إلى ارتفاع منسوب المياه فى آبار كل من بريدة وعنيزة؛ وهذا الارتفاع يستمر مدة عام أو أكثر.

عثرنا فى هذه الأرض المرتفعة على بقايا بعض الأوانى والزجاج المكسور - مثلما هو الحال فى سائر الأماكن الخربة أو الأثرية فى الجزيرة العربية، كما عثرنا أيضا على قلة قليلة من أحجار البناء، وصخور البناء أيضا؛ ولكن هذه الأنقاض البون شاسع بينها وبين تلك الفنون التى كانت فى بلدان نجد المستقرة! - هذا هو موقع العيَّارية،

أو إن شئت فقل: منزل Menzil عيَّار Eyar ؛ حيث يشاهدون فيه "موقع ثلاثة أو أربعة قرى قديمة، فضلا عن مساحة من التربة المأهولة أكبر من مساحة عنيزة؛" وهم يقولون : "إن ذلك الموقع أحسن من موقع المدينة (الجديدة)." نزلنا عن خيولنا وبدأ عبد الله يقول: "والله ، عرب (زماننا) منحلين عن القدماء من جميع النواحى ! - نحن نراهم يعيشون عن طريق ميراث العمل" (المتمثل فى الآبار العميقة فى الصحارى، وكذلك المرافق العامة الإخرى)!

يقولون، إن سيف خالد بن الوليد [يشوع (*) الإسلام الجديد، فى عهد عمر (ﷺ) [ابتلع العيارية الوثنية وهى واحدة من بلدان بنى تميم . والشيء نفسه يقال عن بلدة الأوشازية Owshazieh ، التى تقع على بعد مسير ثلاث ساعات فى اتجاه الشرق: وفى تلك المنطقة توجد بعض بيارات النخيل وبعض البيوت البستانية التابعة لعنيزة ومعروف أن عيَّار Eyar هو وأوشاز Owshaz "شقيقان" فى الموروث السامى Semitic . - "والشعر القديم الذى قاله شعراء بنى تميم (على حد قول رفاقى المطّلعين) يذكر أن هؤلاء الناس كانت لديهم مواشى كثيرة؛ وأنهم، فى فصل الربيع، كانوا يتجولون مع قطعانهم وماشيتهم فى النفود، كما كانوا يسكنون خياما من الشَعر مثل خيام البدو الرحل." - وهذا هو ما رأيناه فى كل من إيدوم Edom (**) موآب (***) Moab [انظر الجزء الأول ص٦٣، ٧٨، ٨٢] حيث يتحول القرويون إلى سكنى الخيام فى الصحراء المحيطة بهم اعتبارا من فصل الربيع، - وفيما يخص ماشية هؤلاء الناس فى فصل

(*) يشبه المؤلف خالد بن الوليد بيشوع الذى ورد ذكره فى العهد القديم . ويشوع هذا كان واحداً من الاثنى عشر عيناً الذين أرسلوا لجمع معلومات عن الكنعانيين ، وعمل ممثلاً لموسى عليه السلام وقاد جماعته إلى أرض كنعان وتم فتحها والاستقرار فيها تحت قيادته . (المراجع)

(**) ايدوم ويصح فيه أيضا ايدوميا Idumea : حى فى جنوب فلسطين (إسرئيل) فيما بين البحر الميت وخليج العقبة . (المترجم)

(***) بلد قديم يقع فى منطقة الهضبة شرقى البحر الميت، وهو موجود حاليا فى غربى الأردن. كان سكان ذلك البلد القديم يشبهون العبرانيين، بالرغم من أنهم كانوا يحاربونهم بصورة مستمرة. والحجر الموء ابى الذى - هو من - القرن التاسع قبل الميلاد، جرى اكتشافه فى بلدة ديبون Dibon فى العام ١٨٦٨ الميلادى يسجل نجاح ثورة ميشا Mesha ملك الموابيين ضد إسرئيل (المترجم)

الصيف فقد شاهدت عائلات فقيرة فى جايليد Gilead (*) - التى لم يكن فيها خيام على الإطلاق - وكان هؤلاء الناس يعيشون تحت أشجار البلوط الضخمة! وكانت الأغصان كثيفة الأوراق بمثابة غطاء يحميهم من حرارة الشمس أثناء النهار، ومن الندى أثناء الليل. وكانوا يدفعون قطعانهم إلى مكان المبيت مع غروب الشمس، وينامون من حول تلك القطعان.

ولا يتبقى من بلدة عيَّار سوى تربتها فقط: ترى كيف كانت حياوات تلك الأجيال القديمة أكثر من كونها أوراق مترفرفة أو خفاقة، إن صح التعبير! لقد اندثر تماما ذلك الذى صنعته أيدى هؤلاء الناس واندثرت أيضا أفكارهم وذلك الذى كان يدور فى صدورهم، - حبهم ، كراهيتهم ، حقدهم ! لقد تخلوا عن دينهم؛ كما أن مكانهم لا يزوره أحد شأنه فى ذلك شأن جبانات (مدافن) العصور السابقة: وفى فصل الخريف فقط يوفد ملاك الأرض من أهل عنيزة خدمهم إلى هذه المنطقة، ومعهم الحمير والحفارين، لكى يجلبوا الطمى الذى يستخدمونه سماداً . وأثناء مسيرنا شاهدنا كومتين من خبث الحديد إلى جوار بعضهما؛ وربما كان فى ذلك المكان محل لصانع أو حرفى من الحرفيين القدامى. وعندما تساءلت ، ألم يكتشفوا شيئا هنا؟ حدثنى الكنينى عن بعض حفَّارى الآبار، الذين جرى استئجارهم لحفر بئر فى الأرض الجديدة القريبة من العيارية [والماء هنا قريب من سطح الأرض ومذاقه عذب] - " وأنهم عندما بدءوا حفر البئر قام أحدهم بإشعال وإضاءة وعاء كبير مصنوع من الطين ! - وضعوا ذلك الإناء على الأرض وفتحته متجهة نحو الأسفل [رأس القبر الأثرى] . وهنا راح كل واحد من الحفارين يصيح بأن الكنز كنزه هو! ولم يستمع أحد منهم إلى السبب الذى دفع رفاقه إلى ذلك - وبالتالى أصبح كل واحد منهم له سببه الخاص. أو بسبب التزيد فى الكلام وصل الأمر بهم إلى حد التشابك بالأيدى؛ وراحوا يضربون

(*) جايليد، فى الأردن وهى منطقة جبلية فى فلسطين القديمة، وهى حاليا فى شمال غربى الأردن، شرقى نهر الأردن، ويصل ارتفاعها فى جبل جايليد أو إن شئت فقل جبل يوشع Yusha إلى ٣٦٥٢ قدم. وجبل يوشع هذا يقع على بعد ثلاثة أميال من مدينة السلط الحديثة . (المترجم)

ويتضاربون بالمعاول، ولم يبق منهم على قيد الحياة سوى رجل واحد. قام ذلك الرجل بضرب الإناء ، وقلبه كله شغف وطموح! – ولكن داخل هذا الوعاء المكسور لم يكن هناك سوى قطعة من الطين!" – أردف عبد الله : أن وتدا أو خابورا من الذهب جرى استخراجه من هنا، على ما يذكرون . وأن من عثر على ذلك الوتد أو الخابور، باعه في المدينة بمئتى ريال، إلى رجل، قام ببيعه هو الآخر، في الشمال بما يزيد على ألف من الريالات .

عدنا: وبعد أن مشينا مسافة ميل أو ميلين استقل الكنيني بنفسه واتجه صوب اسطبل أو حظيرة خيوله؛ التى قال: إنه لديه شيء فيها سيرينى إياه فيما بعد فى يوم من الأيام. – شاهدت ذلك الشيء فيما بعد، وكان عبارة عن عرق من الرخام يميل لونه إلى الاسوداد، وكان عمقه يزيد على عمق نخلة كاملة، وعرضه حوالى ثلاث ياردات ، وكان ذلك العرق موجوداً فى الجوانب الصفراء من حفرة من حفر الطمي: وكان واضحا أن ذلك عبارة عن رماد متخلف عن نار قديمة، كما عثروا فى ذلك الوجار القديم على بعض الشقافة؛ وفوق ذلك الرماد كانت هناك طبقة من الصلصال يصل سمكها إلى قامة كاملة؛ ومن فوق كل ذلك توجد طبقة منجرفة من رمال النفود. – كان فى هذا المكان ، قبل تسويره مجرى من مجارى السيول ؛ ولكن بقايا الأوانى الفخارية التى وجدت على عمق قامة من الطمى قد تكون ممعنة فى القدم. ترى ماذا كان الإنسان عندئذ فى وسط الجزيرة العربية؟ بعض أجزاء من بلدة عنيزة فى وشارع القماشين ، مبنية على أرض سيل من السيول القديمة؛ وهذه الأرض دمرت مرتين بفعل الفيضانات الأرضية: وآخر فيضان من تلك الفيضانات حدث منذ تسعين عاما.

عدت إلى المنزل مع حامد وهناك جاءنى عبد الله البسام الصغير. تكلما عن الأقدمين ، وبوصفهما (متعلمين) راحا يزدريان ويستصغران الآراء غير المدروسة عن المردة فى العصور السابقة: وبالرغم من ذلك ، فهما يعلمان من الكتابة القديمة أن الرجال فى زمن شيخوختهم كانوا أقوى مما عليه الناس الآن؛ والسبب فى ذلك أنهم اكتشفوا أن ثقلا معينا كان معترفا به على أنه الحمل الذى يمكن أن يحمله أى رجل

من رجال عنيزة، أولئك الرجال الذين كانت قوتهم أكبر من قوة عامة العمال؛ هناك أيضا كثير من الأشخاص الذين طالت أعمارهم فى عنيزة، كما رأيت أيضا الكثير من اللحى الرمادية فى تلك المدينة أكثر من كل الأجزاء التى زرتها والتى مررت خلالها فى الجزيرة العربية.

ولكن عطلتنا التى أمضيناها على ظهور الخيل ونحن فى طريقنا إلى العيارية، ولَّدت بيننا حديثا طويلا. 'لم يحدث أن ذهبنا إلى العيَّارية، ونحن ثلاثة أو أربعة أشخاص، لمجرد نزهة عابرة؛ فالنصرانى، لديه فى كتب علمه السرى بعض التسجيلات القديمة عن هذه المدينة، أو إن شئت فقل: هذا البلد.' وبالرغم من ذلك، فإن الليبراليين من أهل هذه المدينة كانوا يعزموني يوميا، بغض النظر عن كلامهم الغبى ؛ وكانوا يضيفون دوما على سبيل المثال العرب el-Arab عقلهم akl-hum ناقص nakis ، بمعنى 'العرب دوما ناقصى عقل' ومع ذلك، كان هذا الكلام يضايق الكنينى، الذى كان يتمتع بروح أسمى من الآخرين ، ولم يكن على استعداد لتحمل الإهانات. – وجدت الكنينى فى الصباح جالسا منعزلا عنهم ومستاءًا: "قال: إخص، يا لهؤلاء الناس غير المحترمين ! ولكن بيتى فى البصرة Bosra ! وأنا أحمد الله! سوف لا أرافقهم بعد الآن! أوه! يا خليل، أنت لا يمكن أن تصدق ذلك الذى يقولونه عنى، – إنهم يقولون : "الكنينى بلوِّى"! " Bellowwy – هذه بذاءة صارخة، يندر سماعها بين البدو الرحل ؛ وهم يقولون ذلك عن أى إنسان، عندما تنفلت ألسنتهم. العرب – هم أصحاب أبخس الشفاة وأكثرها تدينا بين البشر! – وهم يلعنون ويسبون كل ما هو تحت السماء عندما يتعارض مع مزاجهم؛ يضاف إلى ذلك أن الحقد الوهابى استثير ضد واحد من أهل المدينة ، لم يكن عضوا فى حزبهم الأعمى، وإنما بدى لهم مساندا للنصرانى ومفضلا له. تعجبت عندما رأيت ذلك الرجل الطيب منفعلاً فى فلسفته هذه ! – ولكنه ارتعد هلعا وخوفا أمام الدين الشعبى العام؛ هذا الدين الذى يشكل ما هو أكثر من القانون ومن الحكومة أيضا، حتى فى هذه البلدة المتحررة. 'يقول الشاعر الشرقى: أشعر بألم حاد فى قلبى، لأن الجماهير المحروقة لم تقدرنى حق قدرى .' كان الكنينى واحداً من أولئك الذين عاشوا من أجل تقدم شعوبهم ، ولكنهم ماتوا قبل الأوان. ولعل الله يجعل الراحة والسلام مصيرا أبديا له!

كنت كلما أرى الوجوه الوهابية العابسة كل يوم، وطريقتهم فى غض البصر أحس أن قلبى الذى بين جنبى خارج على القانون ؛ وبالرغم من أنى لم أفعل لأى أحد منهم سوى الخير، – وهذا فقط من أجل نبى الجليل الشاب ومن أجل الموروث المسيحى! إلا أن ذلك الصنف البسيط من الليبراليين هم الذين كانوا يخشون الحديث معى؛ يضاف إلى ذلك أن الكثيرين من معارفى السابقين بدءوا يتحاشون رؤية الناس لى وأنا أدخل بيوتهم الصديقة. ولم أكن أعرف أن ذلك كان بناء على إيعاز من المطوع – هذا يعنى (أنهم فى خطب الجمعة) كانوا يحرضون الناس علىّ ! "قال هؤلاء المطوعون: ليس هناك منطق أو سبب، يجعلنا ، فى الوقت الذى ينشغل فيه سلطان الإسلام بذبح النصارى، أن نقوم نحن بإيواء أى نصرانى كافر فى بلد مؤمن : وأن من يناصر ذلك النصرانى أو يخصه برعايته إنما يكون مخالفا للمبادئ." – بالرغم من أن الكنينى هو ويسام الطيب كانا من مستشارى زامل. – ولكنى خطر ببالى،" ما هو أقرب موعد ستبدأ فيه أية قافلة رحلتها، حتى يمكننى أن أرحل معها؟" أجابونى ،" انتظر برهة؛ لأنه لا توجد قوافل فى هذه الأيام."

قام أحد المتشددين بتهديدى بينما كنت عائدا إلى بيتى، إذ خرج علىّ من طريق ضيق ومنعزل: أنت يا كافر ! إن شاء الله سوف تقتل عصر هذا اليوم أو أثناء الليل، أو غدا على أكثر تقدير. ها ! يا ابن الشر، إلى متى سترفض دين الإسلام؟ – لقد أعطيناك فسحة من الوقت كى تندم وتأسف، وصبرنا عليك كثيرا وعطفنا عليك كثيرا أيضا! – والآن، مت على عماك، فقد مل منك المسلمون. ما لم تقول الشهادة لقتلناك اليوم. لن تحصل على أى معروف بعد اليوم، لأن الكثيرين قرروا قتلك ." الجدل المميت الذى من هذا النوع أصبح بمثابة الشرور المعروفة، على حد قولهم ، فى تلك المحنة الطويلة التى عانيتها طوال أسفارى فى الجزيرة العربية ؛ ومع ذلك ، لم أكن أعود إلى بيتى من طريق واحد مطلقا ،إذ كنت أغير مسارى فى كل مرة ، كما كنت أضبط مواعيد عودتى إلى بيتى لتكون (أثناء الصلاة وشرب القهوة) وذلك حسبما يكون الوقت: صباحا أم مساءا؛ وعندما كنت استشعر الخطر كنت أمشى مسلحاً بطريقة سرية: وعندما كنت أعود من بيوت الأصدقاء [أثناء الليل كنت أطوى العباءة (بشت)] العربية

حول ذراعي اليسار؛ وكنت أناجي نفسي أنني طالما عشت هنا مهددا للعام الثاني، فإنني يتعين على مواصلة هذه الحياة، ثم أعمل في النهاية على الهرب من هؤلاء الناس.

جاءني في هذا الجفاف الروحي جمّال يدعى إبراهيم وهو من قرية شقراء Shug-gera ؛ وشقراء بلدة طيبة تبعد عن هنا مسافة رحلتين من رحلات الإبل، وهي تقع في منطقة الوشم el-weshm . عرض عليَّ ذلك الجمَّال أن ينقلني إلى أي مكان أريده، مؤكدا لي أنه يعرف الطرق كلها خير المعرفة سواء أكانت متجهة شرقا أم جنوبا، وحتى حدود اليمن. ' قال: إنني إذا ركبت إلى سدوس Siddus : فإن المسافة تقدر بحوالي عشرة مسيرات من مسيرات الإبل، وهو يقسم تلك المسافة على النحو التالي ؛ الرُّحلة الأولى إلى المذنب Mith, nib ؛ واليوم الثاني إلى عين Aun السوينة es-Sweyna ، التي هي قرية صغيرة في وادي Wady السِّر es-Sirr [في هذا الوادي، توجد بعض العيون المائية وبعض الهجر (الكفور) كما أن هذا الوادي يصرف سيولة في القاع ga] ؛ وقال: إننا سنصل في اليوم الثالث إلى الفيثة el-Feythah ، وهي واحدة من القرى الصغيرة أيضا ؛ وفي اليوم الرابع نصل إلى بُرود Borrud ، وهي قرية صغيرة؛ وقال: إن المحطة التي ستلي ذلك هي بلدة شقراء؛ وبعد ذلك ذرميدة Thermidda ، التي هي مكان قديم مزدحم بالسكان؛ والمكان السابع هو الرُبَّة el-Robba ، وهي من القرى الصغيرة ؛ أما المرحلة الثامنة فهي ثيدك Theydich ؛ والمرحلة التاسعة هي حريملاء Horeymla ، وهي أيضا من البلدان المزدحمة بالسكان؛ ثم بعد ذلك سدوس Siddus التي هي قرية صغيرة في وادي حنيفة، ومعها أيضا العيينة Ayena والجبيلة Jebeyly : ومن سدوس يمكن أن نواصل السير إلى الذَّرِيَّة eth-therreyyeh في نفس وادي العروض el-Aruth ؛ وإننا في المرحلة الثانية عشر سنكون قد وصلنا الرياض er-Riath . - وإذا ما كنت أرى أن ذلك سيكون متعبا ، فإن طريق النياق يصل طوله إلى أربع رحلات فقط إلى قرية سدوس؛ وأن محطات ذلك الطريق هي - وادي السِّر، شقراء، حر يملاء.' وعندما سألته عن الأمن والسلامة في الطريق، - "قال: سوف نركب أثناء الليل؛ والسير أثناء النهار ليس له طرق آمنة: والسبب في ذلك أنه بعد تكسير أوامر وسيادة ابن سعود،

عادت القبائل مرة ثانية إلى توحشها، وأصبح الغزو ينتشر في كل مكان." - سمعت من الكنيني، أن ذلك الإبراهيم جرى السطو عليه مرتين، خلال الشهور الماضية! وأخذوا منه ناقته والبضاعة التي كان يحملها إلى الأعراب الأصدقاء. ومع ذلك، كان من رأى صديقي أن أغامر بالركوب مع هذا الرجل، على أن أحمل معي رسالة من زامل ؛ وأن أعود ثانية.

"إذا كنا سنمشي طول الليل، فأين سنرتاح أثناء النهار؟" إبراهيم: "في القرى." - "وإذا ما سب أحد النصراني أو هدده - !" - "سوف ننزل طلبا للراحة في بيوت صديقة؛ ثم [دق الأرض برجليه] إنهم جميعا تحت عقبي - هكذا! ولا تخش أو تخف من أي شيء طالما أنك تحمل رسالة من زامل إلى عبد الله بن سعود؛ ووالله أن اسم زامل [وهو اسم محترم] سيكون سببا في ألا يسيئ أحد إليك." - ولكني خطر ببالي أن متاعب هذه الرحلة في الظلام ستكون قليلة الفائدة: يضاف إلى ذلك أنني كنت خائر القوى إلى حد أني ربما أحتضر وأنا على سرج الجمل قبل أن تنتهي تلك الرحلات الكثيرة مرة ثانية في عنيزة. وهنا وجدت أن من الأقيم، أكثر من تأكيدات عبد الله البسام، أن أركب بصحبة ولده إلى جدة؛ والسبب في ذلك ، أنني كنت أود التأكد من الطبيعة البركانية في الجزء الجنوبي من البلاد.

كان إبراهيم قد سبق له السفر، في بعض الأحيان إلى اليمن عن طريق وادي الدواسر؛ ولكن ذلك كان منذ سنوات طويلة. وأكد إبراهيم لي ، أن الأفلاج ،التي هي في جبل طويق تبعد عن الرياض مسير ست رحْلات بالنياق؛ وقال: إن الطريق وعر وخالٍ من القرى. وفي الأفلاج، حدد لي إبراهيم أربعة مستوطنات جيدة من مستوطنات النخيل. والمسافة من الأفلاج إلى وادي الدواسر" تستغرق مسير يومين عبر الطبيق tubg ،" أو المضايق الجبلية. وشمالي الأفلاج يوجد وادٍ ينحدر نحو الحوطة elHauta (تلك البلدة المزدحمة بالسكان من بني تميم، والحوطة "بلدة كبيرة مثل عنيزة")، كما يصل هذا الوادي أيضا إلى الخرج Kharj (ويصح فيه أيضا 'الخرق' Khark) . وفي الخرج توجد بعض القرى الجيدة مثل الديلم ed-Dillum واليمامة el-Yamama ،

وناجان Najan ، والسُّلومية es-Sellummiah، العطَّار el-Atthar ثم السَّيح es-Seyeh :
وبعد أن يمر ذلك الوادى من بين كل من الرياض وجبال الطبيق يضيع بعد ذلك فى الرمال. – وفى بومباى، التقيت بعد ذلك شخصا يدعى حامد Hamed النفيس en-Nefis الذى كان والده أمين صندوق فى الرياض ، قال لى ذلك الشخص: "الأفلاج ستة قرى،" سياح Siah ، وليطة Leyta ، والخرفة Khurrfa ، والرمضة، والبدية el-Biddea ! –
وفى وادى الدواسر أتى ذلك الرجل على ذكر كل من الحمَّام Hammam ، الشطيبة es-Shotibba ، السُّليِّل es-Sohleyil ، تمَّيره Tammerra ، ثم الدَّام el-Dam ، (بالإضافة إلى ثلاثة هجر) اللغريف el-Loghrif – الفراع el-Ferra ، الشويق es-Showyg والعياضات el-Ayathat .

كان هناك بائع كنت كلما مررت على دكانه، يود أن يغمغم ببعض الكلمات التى توحى بالتشدد والتزمت . ذات يوم وعندما كان ذلك البائع يمشى فى السوق، توقفت للحديث مع هذا الشخص نفسه؛ وعندما استمع ذلك الرجل إلى كلامى [المصطبغ بمسحة كلام البدو] قال: " ها – ها! ثم صاح، أنا لا يمكن أن أصدق، إلا أن يكون هذا الخليل عربيا، وليس إنجليزيا ! صدقنى ، لقد تربى فى أرض عربية." وبهذه الروح والمرح اقتادنى ذلك الرجل إلى بيته لشرب القهوة: كان الرجل يكن لى شيئا من الود. – وبدءا من تلك الأيام التى أصبحت فيها بلا مأوى، كنت أجلس طريح الفراش؛ ولم يحضر أى أحد لزيارتى . والعرب دوما على هذه الشاكلة – دائما يفتقرون إلى الإشارات التى توحى بطبع كريم. كان الناس نادرا ما يروننى فى الشارع . كان الوهابيون يقولون: "إنه خائف" وسرعان ما بدأ يتزايد عندهم سوء النية وسوء الطوية .

أصدقائى ، الذين كانوا يقرءون الجريدة، ولديهم فضول سياسى، لم تكن لديهم أية فكرة عن الجغرافيا: تناولت عندئذ فرخ كبير من الورق ثم خريطة لأوروبا؛ وهنا استدعى البسام كاتبه ابن عايض؛ الذى راح يكتب من فمى أسماء العواصم على الخارطة. وبعد أن انتهينا من ذلك العمل، أرسله البسام إلى أصدقائه كى يتفرجون عليه. الساميون – الذين يتجولون فى البلاد على نطاق واسع، تلك البلاد التى يمرون

عليها وهم راكبين على ظهور إبلهم، لا يفهمون ذلك الذى نحيط به نحن، ونتخيله بسهولة ثم ندونه على الخرائط. أنا لم أعثر، على أى إنسان، حتى بين الرفاق الجدد فى سوريا ، كانت لديه فكرة واضحة عن الجغرافيا . فتلك ليست فنون الساميين: الفنون السامية هى الحقد البشرى والحياة الحسية. سألنى الأصدقاء ، هل مررت بالأندلس؟ - ذلك الاسم الذى يتردد فى مسامعهم كما لو كان اسما لعشيقة! كان البسام يود منى أن أقول لهم : شيئا عن كل ما رأيته هناك. تحدثت عن غرناطة، واشبيلية، وقرطبة ؛ وتكلمت أيضا عن الأحداث الكبيرة التى تناولها الشعراء والتى بقيت إلى يومنا هذا ، ولكنهم كانوا يتشوقون إلى أن يستمعوا إلى وأنا أحكى عن المسجد الكبير (الذى أسسه عبد الرحمن) فى قرطبة [والذى هو عبارة عن مساحة فدان من السقف المنخفض المحمول على مجموعة من الأعمدة الرخامية] . رددت عليهم،" إنه يمثل الكنيسة المركزية عندهم الآن." وعندما علموا، أنه كان معبدا مسيحيا، فغروا أفواههم : ولم يتمالك ابن عايض ، ذلك الزنجى، نفسه وراح يتأوه! - والسبب فى ذلك أن فكرتهم مخيفة عن العقيدة المسيحية. وحتى عبد الله البسام الطيب أطرق برأسه فترة وجيزة؛ ولكنه سرعان ما استعاد وجهه البشوش مرة ثانية: يضاف إلى ذلك أن البسام كان بشوشا فى بلد فيه تزمت دينى . - هذا الرجل الميسور بشوش الوجه؛ وقلبه الإنسانى لديه من الأسباب ما يجعله بشوشا؛ ألا تستجيب الوجوه بملامحها البشوشة لما يدور فى القلوب؟ - راح الكنينى ، يتفحص الخارطة، ثم سألنى عما إذا كنت رساماً؟ فقد سبق له أن رأى صورا محفورة للإفرنج أو إن شئت فقل: الفرنجة؛ وكان يرى أن تلك الصور كانت فنا جميلا.

سألت هؤلاء الأصدقاء، عن اللهجة النجدية التى يتكلمها أهل القصيم . "أجابونى، إنها لهجة جيدة جداً إذا ما قارنها ها بلغة كل من سوريا ، ومصر ، والحجاز، وبلاد الرافدين. لغتنا العامية ليست هى لغة القرآن: نحن نتكلم كما لو كان لنا عقل آخر، نتكلم بطريقة جديدة." - وعلى حد ما سمعت فإن البدو الرحل كلهم، بدءا من القبائل التى داخل الحدود السورية والحدود المصرية، وكذلك سكان الواحات النجدية، كلهم يتكلمون رطانة واحدة، ويمكن أن نطلق على هذه الرطانة اسم العربية النجدية،

أو إن شئت فقل اللغة الأم فى أراضى الجزيرة العربية المرتفعة. وهم فى كثير من الكلمات يقولون إنها تنطق بطريق الخطأ كأن يقولوا على سبيل المثال Yahya يحى بفتح الياء بدلا من يحيى yehia (بكسر الياء). وهم يقولون 'قُو' go بدلا من 'قوم' Koom بمعنى 'انهض'. وهناك بعض الكلمات الأجنبية الوافدة عليهم عن طريق أولئك الذين سافروا إلى الخارج؛ ومثال ذلك يتمثل فى كلمة 'خوش' Khosh التى تتردد فى كلام تجار الشمال: وهم يقولون : رجل خوش، ويقولون أيضا: منزل خوش - بمعنى ممتاز أو جيد. والفرد من البشر يقولون له 'آدمى' adamy (وجمعه أوادم Ouadem) ، وهذه الكلمة تتردد فى كلام تجار منطقة الخليج.

الفصل الرابع عشر

طرد المسيحى الغريب من عنيزة، واستدعاؤه مرة ثانية

أسرة يحيى. بدو من الشمال. سنوات الجفاف ونفوق الماشية. السرقة واللصوصية فى عنيزة. الحرف اليدوية. صخب وهرج النساء المتزمتات والأطفال ضد النصراني. عنف الامير على، الذى يطرد الغريب أثناء الليل. رحله ليلية فى النفود. وادى الرماح. نزاع مع حادى الجمل. تعال إلى الخبراء فى النفود. قهوة الأمير. والد الأمير الضرير. الراكبون المسلحون من بريدة. الباحثون عن الطب. المدينة. عوفى. حادى الجمل يعود من زامل؛ لتوصيل الغريب، مرة ثانية، إلى عنيزة!الوصل الى الهلالية. البكيرية. واحة الهلالية. رحله ليلية فى النفود. النزول فى مزرعة خارج عنيزة (خصصت لسكنى النصرانى). زيارة عبدالله الكنينى.- جنايني رشيد. صالح. يوسف خالدى. واحد من أبناء رشيد سبق له أن زار أوروبا! أسرة رشيد. إبراهيم. قناة السويس. عمال الحقول. الوشم. حكايات واحد من العمال. تدمير الوهابى. الحدود الشمالية للمرة وأعراب الجنوب. غزوة من غزوات ابن الرشيد.

كانت عزبة يحيى المسورة بمثابة منتجع طيب خارج البلدة كنت ألجأ إليها فى فترة العصر. كنت كلما طرقت باب تلك العزبة، وحدث أن كان داخل المنزل أحد، فإنه كان يستقبلنى استقبالا بشوشا ؛ وكان أبناء ذلك الوطنى العجوز يجلسون على الفور لتصليح القهوة. كانوا، فى بعض الأحيان، يعزمونى على تناول العشاء ؛ وبدلا من العودة فى ساعة متأخرة، فى ظل الحرارة الشديدة، كنت أفضل البقاء هناك لأنام تحت نخلة فى ذلك البستان ؛ حيث كانوا يفرشون لى سجادة لكى أنام عليها فى أمان الله، شأنى فى ذلك شأن من ينامون فى خيام الأعراب. ذات مساء خرجت إلى خارج

المنطقة بصحبة أهل هذه العزبة، وذلك عندما اتجهوا لأداء الصلاة على رمل النفود. وبالقرب من بئر الماء الخاص بتلك العزبة أرانى حامد نباتا حارا يشبه الفلفل، وسألنى إن كان ذلك دواء أم لا؟ قال إنه أحضر بذور ذلك النبات (البرى) من السيل es-Seyl [أوإن شئت فقل :قرن Kurnالمنازل el-Menazil]، والسيل هذه واحدة من المحطات القديمة للقوافل النجدية، فى الجزء العالى من الجزيرة العربية الواقع قبل مكة (المكرمة) (الذى وصلت إليه بعد ذلك بشهور). شاهدت شخصا يتسلق الجدار من المزرعة المجاورة! كى يقابلنا: كان ذلك الشخص هو التاجر الشاب صاحب موضوع البندقية! الذى لم ألقاه منذ تلك الواقعة، ضمن أية صحبة طيبة فى البلدة. كان لسان ذلك الشجاع الشاب حلواً: ولكنه كشف عن عداوته من خلال صوته.كان الشفق قد بدأ يظهر عندما انتهوا من أداء الصلاة؛ وفجأة بدأنا نسمع صراخا فى النفود! وجرى الناس فى اتجاه ذلك الصياح: تسمَّع ذلك الرجل لحظة، ثم عزمنى بعد ذلك على تناول القهوة فى الصباح فى البلدة ؛"قال: هاأنت ترى ذلك الإزعاج المستمر الذى يصيب بيتنا فى الصحراء!"

– فى تلك الأثناء دخلت جماعة من بدو (العنوز) الشماليين؛ كان الرجال ضيوفا على صاحب هذا المنزل . جلسنا حول وجار القهوة، ثم جاء طفل رقيق وجميل فى عمر الزهور! كان ذلك الطفل يتماثل للشفاء من مرض ألم به قال الشاب الصغير الذى كان شقيقا لذلك الصبى الوسيم: قوم Goom حب hubb عمك amm-ak بمعنى 'أذهب وقبل عمك'؛ وقام ذلك الصبى الحلو، الذى كان مثل زهرة رقيقة جداً لاتقوى على صد عوادى ذلك العالم، بتقبيلى ؛ثم قبل البدو بعد ذلك ،ثم الجماعه كلها بعد ذلك: وذلك هو حنان ورقة العرب فى بيوتهم. تعجبت عندما سمعت أن هؤلاء القبليين كانوا قبل خمسة عشر عاما سكانا لهذه الديرة من ديار (القصيم)! لقد جاءوا إلى هنا قادمين من منزلهم فى سوريا، والذى يقع بالقرب من مياه الحزيل Hazzel el- [التى تبعد مسافة كبيرة عن هنا فى شمال النفود]، وقد قطعوا تلك الرحلة فى أسبوعين على ظهور الإبل : وقالوا: إنهم خلفوا وراءهم خيامهم منصوبة هناك، بالقرب من تدمر Tadmor [أوإن شئت فقل: بالميرا Palmyra وقد جاءوا إلى هنا لأمر يتعلق بالاتجار فى الإبل].

إبل الجزيرة العربية تطول قاماتها فى صحراء الشمال. كان حامد الصافى قد أرسل ناقته ترعى فى أحد الأعوام مع هؤلاء الأعراب؛ وعندما أعادوها إليه بعد ذلك لم يستطع التعرف عليها بسهولة، فقد تغير حجمها، كما غزر وبرها. هذه القبيلة من قبائل العنزى، كان لديها ثروة كبيرة من الماشية عندما كانت فى القصيم؛ والسبب فى ذلك أن بعض الشيوخ كانوا يملكون" ألفا من الإبل": إلى أن تعاقب على ذلك البلد عاما بعد عام سنوات كثيرة من الجفاف.إلى أن جفت أدغال الصحراء (التى مرضت بسبب الجفاف السنوى) وأسود لونها ، وهنا بدأت ماشية البدو الكبيرة فى النفوق بسرعة شديدة ؛ وهنا كانت الناقة الأصيلة تباع بريالين. ـ وتخلى أولئك الأعراب عن هذا المكان، واتجهوا شمالا [الذى يعج حاليا بقبائل وأنصاف القبائل من العنوز]، واحتلوا أو شغلوا ديرة بين ديار أقاربهم المحبين والمعادين لهم فى آن واحد.

ذات يوم، وبعدأن عدت إلى مسكنى، اكتشفت أن شخصا ما قد سرق ساعتى كنت قد تركت الساعة مع أدويتى. كانت تلك خسارة قاسية، لأن حظى كان عاثرا فى تلك المسألة؛ ولوكنت قد بعت تلك الساعة لحصلت على بضع ريالات قليلة ثمنا لها: اتجهت شكوكى نحو جار مطمور من جيرانى. هذه البلدة ليست متمدينة قياسا على الصحراء! كنت لم يمض علّى سوى يوم واحد فى الدكان، يضاف إلى ذلك أن كل الرياش التى كنت استعملها فى التطعيم كانت قد سرقت هى الأخرى: كانت تلك الرياش مصنوعة من العاج وقد كلفتنى عشرة ريالات ـ وهذا أكبرمما كسبته (طوال عشرة أشهر) من ممارسة الطبابة فى الجزيرة العربية. خطر لبالى من جديد ذلك العرض الذى سبق أن قدمه لى الكنينى، والذى كنت قد تناسيته فى ذلك الوقت ؛ ودار بخلدى أن الكنينى لم يجدد ذلك العرض مرة ثانية! هناك كثير من المصادفات الذكية فى الجزيرة : يضاف إلى ذلك أن كل قرش كنت أنفقه على شراء الخبز كان يباعد بينى وبين الشاطئ : وماذا يمكن أن يحدث لحياتى لوأنى، بفعل حادث سيئ ، افترقت عن أولئك الناس المحترمين الذين هم أصدقائى فى الوقت الراهن؟

أصحاب الحرف فى هذه المدينة التى تقع فى وسط نجد (أى الذين ينتمون إلى فئة الصناع)، هم صناع السلاح، السماكرة، النحاسون، الصاغة؛ أما العاملون فى الصناعات الخشبية فهم، صناع الأطباق الخشبية ، وصناع الأقفال الخشبية، وصناع

سـروج (عـدد) الجـمل، وصنـا ع الأدوات الخـاصـة بإبل جلب الماء من الآبـار، هذا بالإضـافه إلى النجارين (غير الدقيقين) [نظراً لعدم وجود العدد والأدوات] ؛ أما عمال الأحجار فـهم: قُطَّاع الأحجار، ومشكلو الأحجار، وعمال الرخام، وصنا ع هاونات طحن البن ومـا إلى ذلك؛ بنائو المنازل هم والمليسـون. وقد نتطرق إلى أولئك الذين يمارسـون أعمال الإبرة، مـركبو القيطان ومركبات القيطان، والمطرزون ، وصنّا ع النعال، أو إن شئت فقل الغَّرازون. والخياطون والخـياطات، على حد معـرفتي، هم من أولئك الذين ينغمسون في الملذات .زد على ذلك أن الصّاغة، في مجالي الذهب والفضة ،في عنيزة، ماهرون جداً في المشغولات الخيطية التي تصنع من الذهب والفضـة: والبعض منهم الذين اتـخذوامن مكة مسـتقرا لهم يقال إنهم يتفوقون على كل من عداهم في هذا المجال، في المدينة المقدسة. وعدني الكنيني بأن يريني شيئا من هذه الصناعة الدقيقة في الجزيرة العربية؛ ولكن موجات عالمهم المتشدد سرعان ما أبعدتني عن ذلك الرجل.

الباعـة، أناس من القمـاشين الذين يعملون في السـوق وهم يبيـعـون البـضـائع الصـغيـرة [التي من بينهـا العقـاقـير الخـام، وأدوية الإبل، وأرغفـة السكر، والتـوابل ، والصـابون السوري الذي يجلبونه من المدينة (المنورة) كمـا يبيـعون أيضـا البن اللازم لقوافل مكة (المكرمـة)، هذابالإضـافة إلى باعـة المأكولات . وفـي الأحيـاء النائية توجد بعض الدكاكين الصـغيرة العامـة ـ البعض من تلك الدكاكين مملوك للنساء، حيث يبعن في تلك الدكـاكين البـصل، والبـيض والمسـامـيـر، والملح، والكبـريت (الألماني)، والخـبـز المخمـور [كمـا أن البـعض من تلك النسـاء الفقيـرات قد يبعن شيئا من الحليب ،إذا مـاتيسـر لهن]. وفي يوم الجـمـعة، يسـتطيع الإنسـان أن يرى النسـاء المحجبـات وهن جـالسـات في المجلس ليـبعن الدواجن ، وقراب اللبن، وقـراب الماء، التي قـمن بدبغـهـا وإعدادها. والمهن غير الماهـرة هي الزراعيـة، وتجارة الإبل والخـيول. والأسـر الميسـورة هنا كلها من ملاك الأراضـي الزراعية – أما التـجار الأجانب الأثرياء في هذا البلد فقد كانوا خمسة عشر شخصا.

الناس هناك لا يعرفون شيئا عن الولائم في مدننا . والعرب لايقلون تدبيرا عن الإسـبرطيـين، ولكنهم سـعداء بالاعـتـدال الإبيـقـوري في دينهم. وعنيـزة بلد مـتـمـدين وميـسـور أكثـر من المدن الأخـرى في الجزيرة العربيـة : وروح المثـابرة هي التي تميز

سكان هذه البلدة من بنى تميم، بالإضافة إلى التفاهم الواضح - بالرغم من وجود التشدد الوهابى الدينى.

عندما وجدت أن قلة قليلة من الناس هنا، هى التى بدأت تتحدى الأطفال وتمنعهم من ملاحقتى والجرى ورائى فى الشوارع، رأيت فى ذلك نذير شؤم لى ؛ ولكن الكنينى لم يسبق له أن حذرنى، كما أن زامل كان صديقا لى : كان اليوم يوافق أواخر شهر مايو.ذات يوم، فى فترة ماقبل الظهيرة، كنت عائدا إلى منزلى، ورأيت أقذارا موضوعة أمام عتبة دارى؛ كما قام بعض الأطفال بإلقاء بعض الأحجار علّى أثناء مرورى فى ذلك الشارع المنعزل. وبينما كنت جالسا داخل دارى، جاء أولئك الأطفال الأوغاد، وراحوا يدقون بابى؛ كان هناك صراخ عال وحاد: والجريئون من هؤلاء الأطفال تسلقوا الحوائط الجانبية إلى أن وصلواإلى شرفة المنزل؛.وراحوا يلقون الأحجار علّى عن طريق فتحه السلّم. ووسط هذه الغوغاء سمعت صوت النساء الغاضبات وهن يقلن:" يانصرانى ستموت - وهم على وشك أن يقتلوك!" مكثت ساعة كاملة دام خلالها ذلك الهرج والمرج : وصمد باب الدار، وبالرغم من كل ذلك الصراخ لم يجرؤ أولئك الأوغاد على النزول إلى المكان الذى يمكن أن يلتقوا فيه الكافر. فى تلك الساعة كان المواطنون المحترمون يستريحون فى بيوتهم، أويشربون القهوة فى بيوت أصدقائهم؛ يضاف إلى ذلك أنى كنت أسكن فى مكان منعزل. وأخيرا جرى رفع الحصار عنى؛ نظرا لأن بعض الأشخاص الذين مروا على بيتى كانوا عائدين من صحبة شرب القهوة، وعندما وجدوا تلك الضوضاء حول باب خليل، أبعدوا أولئك الأوغاد عن دارى، وراحوا يكيلون لهم كل تلك اللعنات التى ترد على ألسنة العرب.

بعد ذلك ، وعندما كنت أتجول فى البلدة، كان الصبية يجرون مع بعضهم البعض وهم يصيحون ويقولون: إنهم حاصروا النصرانى عند النواصى، وكانوا يلقون عليه الحجارة من وراء ظهره؛ ولكن عندما كان الكافر يدير لهم وجهه كانوا يولون الأدبار. رأيت واحداً قادما نحوى - شخص ضخم من عامة الناس، والذى كان مريضا من مرضاى فى يوم من الأيام؛ وناديته كى يبعد الأطفال عنى - غمغم ذلك الرجل قائلا:" اشتكى لزامل!" هذا الرجل نفسه حاول أن يتقى حجارة الأطفال، بأن دخل ليقف فى مدخل أحد أبواب المنازل، وتخلى عنى فى الشارع. لقد استيقنت أنه ليس هناك أمهر

من العرب الذين يشبهون الغجر فى الرمي بالحجارة: كانت صواريخهم تدوى من حول رأسي، عندما كنت أتقدم نحو الأمام إلى أن وصلت إلى نهاية ذلك الشارع الذى كان مفضيا إلى طريق بريدة بالقرب من القاع Ga :مربّى بعض المواطنين. وبعد ذلك مر خفاش ضخم من أمام وجهى فاردا جناحيه القويين .توقف أولئك المواطنون وصاحوا "هو !"- نظرا لأن الحجارة تساقطت خلفهم؛ ومن بينهم صاح مواطن فى شهامة الرجال،"ماهذا الذى تفعلونه، ياعيال؟ أخص ! أريككم الله- كان هناك حجر، لولم يستدر خليل لكان ذلك الحجر قد قتله وأودى بحياته، وهو ضيف على البلدة، وعلى مرأى ومسمع من زامل."- ولم يفكر أحد فى وصف هؤلاء الأطفال بأنهم أوغاد أوأنذال.

وجدت على الزنجي، وأقنعته بالعودة معي؛ ويخلى الشوارع المحيطة بمنزلى من أولئك الأوغاد. وفعل ذلك بأن راح يطارد هؤلاء العيال eyyal؛ وعندما غضب وهاج راح يكيل لهم الضربات مستخدما فى ذلك عصاه، التى كان يهش بها فى أغلب الأحيان على الحوائط والجدران. بعض الجيران وجهوا اتهامهم إلى الحريم المتشددات، وإلى على الزنجي، الذى كشر عن أنيابه الزنجية وجرى خلف أولئك الأوغاد عله يضربهم؛ ولكن هؤلاء الجيران، كانوا يرجون عليًّا، ووعدوا أن يتولوا هم الأمر بأنفسهم . ولكنه رفع عصاه على واحدة من تلك النسوه المتشددات، 'ويصيح قائلا: والله ،إن لسانها سوف يقطع بأمر من زامل ' قال على بعد ذلك :" ستهدأ الأمور الآن ياخليل " وهنا رحت أشق طريقى متجها صوب المجلس؛ كى أشرب القهوة فى بيت البسام.

كان الكنينى فى بيت البسام: كانا جالسين بالقرب من وجار القهوة، بالرغم من ركود الهواء- ولكن أهل الجزيرة العربيه يحسون شيئا من الانتعاش عند ما ينتهون من شرب قهوة الصيف. ولأنى وجدت فى هذين الصديقين انفتاح القلب، الذى يمثل حياة الإنسان - وبالصغر وقصر ذلك الانفتاح- وجدت من الأوفق ألا أكشف لهما متاعبى ، التى كان يمكن أن تدخل الحزن على قلبيهما . كنت على ثقة أن ذلك الضجيج وتلك الجلبة لن تتجدد فى المدينة مرة ثانية: ولذلك كنت فى عجلة من أمرى، ثم وقفت بعد ذلك لأرحل عنهما .لامانى بعد ذلك لأنى لم أجلس للتحدث معهما ، مما كان يجعلهما يلجآن إلى زامل مباشرة- وأثناء عودتى وجدت الشوارع محاصرة بالقرب من بيتى ، وأن العيال كانوا قد سلحوا أنفسهم بالمقاليع. وعليه اتجهت إلى السوق كى أتكلم مع جارى

رشيد، الذى كان ضابطا من ضباط زامل ـ رأيت فى دكان رشيد بعضا من الطلقات الفارغة القديمة المتخلفة عن قذائف مدفعية إبراهيم باشا؛ والناس يستعملون تلك الدانات الفارغة هنا أهوانا لطحن البن، كما يطحنون فيها أيضا الملح والفلفل وما إلى ذلك .قال رشيد: لقد بلغ زامل خبر الشغب الذى أحدثه الأطفال فى البلدة؛ وأنه أرسل للأوغاد وحذرهم ؛بل إن عليا قام بضرب البعض من أولئك الأوغاد: وأن الهدوء سيسود بعد ذلك ، ويصبح بوسعى العودة إلى بيتى؛ـ ولكن خطر ببالى أن الأمر لم يكن كذلك .عدت من خلال السوق وأنا ضيق deyik الصدر es-sudr ـ فما هو ذلك القلب الذى يمكن أن يستقيم حاله، والإنسانية من حوله تجرمه؟ لقد وصل الأمر إلى أحط مستويات الوحشية ـ وبخاصة أننى بدأت ألاحظ كثرة أعداد أولئك الذين كانوا يغمغمون فى الدكاكين وفى الطريق العام عندما يروننى أمشى فى الطريق. ومن بين تلك الوجوه الكالحة التى كانت تمر علىّ ، وجه ذلك الرجل الذى يدعى عليًا،أوإن شئت فقل الأمير التنفيذى ، (الذى كان يحمل سيفا بحكم أنه من كبار أبناء بيت الأمير). وهذا هو الشيخ نصير جاء يتحدث إلىّ دون احترام أوتحية!ـ ولكن مرحبا بهذه الخبرة من الحياة الإنسانية. كانت الشمس قد غربت ، وكانت الشوارع خالية من الناس، عندما وصلت إلى باب ذلك البيت المهجور ؛ ولما كنت صائما ومتعبا فقد رقدت على الأرض ورحت فى سبات عميق.

حسبت أنى نمت ساعة، عندما استيقظت على صوت على الزنجى !وهو يصيح عند البوابة، "يا خليل ـ يا خليل! الأمير يأمرك بأن تفتح الباب." ذهبت لأفتح له الباب، ونظرت خارج المنزل. كان الظلام دامسا؛ ولكنى لاحظت من خلال حركة الأقدام أن هناك أناسا كثيرون.على: الأمير يستدعيك؛ وهو جالس هناك (فى الشارع)!" ذهبت وجلست إلى جواره: خطر ببالى، هل يمكن لزامل أن يأتى فى هذه الساعة من الليل! وبعد أن سمعت الصوت الذى كن يشبه صوت زامل، عرفت أنه شخص آخر." قال الصوت، إلى أين ستذهب ـ إلى الزلفى؟(*)"ـ" أنا ذاهب عن قريب جداً مع ولد عبدالله البسام إلى جدة." "لا،لا،لا! (ثم قال وهو يضحك) : كما أن جدة بعيدة جداً : ولكن إلى

(*) الزلفى : بلدة من بلدان السدير من نواجى نجد. (المترجم)

أين ستذهب هذه الليلة؟ -"على ،ماهذا الشيخ؟"-"إنه على الأمير." وهنا أحضروا ضوءاً : ثم رأيت وجهه، بصرامته الوهابية، والذى كان يشبه وجه زامل؛ وكان بصحبته بعض من أتباعه ومعاونيه- "ياأمير على، الله يدخل والديك الجنة! أنت تعلم أنى مريض ؛ وأن لى بعض الديون هنا فى المدينة، ثمنا للدواء؛ كما أن لم أذق الزاد طوال هذا اليوم .إذا كنتم ترون أنى استحق ذلك دعونى أستريح فى هذا المكان إلى طلوع الصبح ؛ ثم رحلونى بعد ذلك بسلام."- "لا، جملك جاهز عند ناصية الشارع ؛ وهذا هو الجمال الذى سيصاحبك : أنهض !وأخرج أغراضك (حاجياتك) وأسرع فى ذلك .هو! فليدخل البعض منكم مع خليل كى تعجلوا بالأمر معه."- "وإلى أين سترسلنى هكذا بصورة مفاجئة؟ ، أنا ليس معى نقود!"- ها- ها! هذا لايعنى لنا شيئا، أنا أقول لك :أخرج." : وبينما كنت أطيل النظر إليه، ضربنى ذلك الوغد بقبضة يده فى وجهى- ولو خاننى غضبى لانهال علىّ الحاضرون بكل أسلحتهم- وكان على قد سحب سيفه من غمده إلى منتصفه ." قلت له: أعد السيف ثانية إلى غمده: هل نحن بحاجة إلى العنف؟"

كان رشيد، ضابط زامل، الذى يتصل بيته ببيتى من الخلف- بالرغم من أنه من حيث المدخل، كان يقع فى شارع آخر، قد سمع الهرج والمرج فأتى لزيارتى، سعدت عندما رأيت رشيدا يدخل بيتى، وكان يحمل سيفا بأمر من زامل. سألته عما إذا كان أمر على أمرا سليما؟ لأنى كنت أشك فى موافقة أصدقائى على هذا الأمر، وهم من علية القوم بين المواطنين؛ كما كنت أشك أيضا أن زامل الفيلسوف، قد وصل به الحال لحد إخراجى من البلدة أثناء الليل ! وعندما أخبرت رشيدا، بأن عليا الوهابى قد ضربنى، قال لى على انفراد:"لا تستثيره، ولكن عجّل ، والذى لاشك فيه أن هذا الأمر صادر من زامل: لأن عليًا لا يمكن أن يأتى من تلقاء نفسه ويضطرك إلى مغادرة البلدة." نادى الأمير علّى من الخارج، "قل لخليل يسرع ويعجل بالخروج ! ألم يجهز بعد؟" ثم دخل علُّى بعد ذلك بنفسه ؛ وساعدنى رشيد فى وضع الأشياء فى الجوالات، نظرا لوهنى وضعفى ."قال للأمير على: إلى أين سترسل خليلا؟" "إلى الخبيرة Khubbera" ."-الهلالية EL-Helalieh أفضل، أم الرّس er-Russ؛ نظرا لأن هاتين البلدتين تقعان على طريق القوافل ."-"هو ذاهب إلى الخبيرة." "قلت: طالما أنك تطردنى، فسوف تدفع أجر الجمّال ؛لأنى ليس معى سوى القليل جداً من النقود." الأمير على:" ادفع

للرجل أجرته، وعجلً؛ أعطه ثلاثة ريالات ،ياخليل ." رشيد:" الأجرة إلى الخبيرة نصف ريال: خفض الأجرة ياأمير على."- "إذن فلتكن الأجرة ريالين، وسوف أدفع أنا الباقى."- "لكن، قل لى: ألم يتحسن الناس فى مدينتكم بفعل أدويتى ؟"-"نحن لا نود أى شكل من أشكال الدواء."- "ألم أبلى بلاء حسنا وأمينا فى عنيزة؟ أجبنى على سؤالى بوحى من ضميرك." الأمير على: "نعم، لقد أبليت بلاء حسناً ."-"إذن، فلماذا هذه المعاملة؟" ولكنه صاح قائلا: 'هل أنت جاهز للرحيل؟ أركب حالا "! فى نفس هذا الوقت كان معاونوه قد سرقوا نعلتى (التى كنت قد تركتها خارج باب الغرفة)؛ وهنا صاح فىَّ على الزنجى الأمين، متهما أولئك المعاونين بالسرقة." ياأنتم، أعيدوا إلى خليل نعلته! " تكلمت مع الأمير الفظ؛ الذى رد علّى قائلا:" ليست هناك نعال: وراح الأمير يضحك على انفراد لذلك الذى حدث للنصرانى [لأن مسألة المعاناة من السير حافى القدمين على أرض الصحراء التى تتوهج فى ضوء الشمس أمر لايطاق ولايمكن تحمله]". يصيح الأمير، هل أنت جاهز الآن؟هيا، أركب! ولكن أدفع للرجل أجرته قبل كل شىء."- بعد ذلك، لم يعد معى مايكمل خمسة ريالات؛ كما سرقوا ساعتى: وكنت فى وسط الجزيرة العربية.

رحل رشيد : أخرجوا الأشياء وحملوها على الجمل البارك؛ وركبت الجمل. وتابعنى الأمير على هو ومن معه إلى أن وصلت إلى المجلس." (قلت له):إلى من أنا ذاهب فى الخبيرة؟"- إلى الأمير، ولاتنس أن اسمه عبدالله العلى."- "حسن ، أعطنى رسالة له."-"لن أعطيك أية رسائل." سمعت عليا وهو يتكلم بصوت خفيض مع الجمَّال من وراء ظهرى :- كلام (خصم)،لاخير لى فيه وإلا لكان قد قاله علانية : وعندما ناديت عليه للمرة الثانية، كان قد عاد إلى بيته .كان الزنجى عليًا، مضيفى القديم، مايزال معى؛ وسوف يصحبنى من باب الود والمجاملة إلى طرف البلدة- ولكنى رحت فى سنة من التفكير، أين أصدقائى الآن؟ قال الزنجى: زامل هو الذى أصدر أمرا برحيلى فى هذا الوقت، تحاشيا منه لأية اضطرابات أوقلاقل أخرى فى المدينة ؛ يضاف إلى ذلك أن السفر فى الصحراء أثناء الليل آمن منه فى النهار وربما يكونوا قد ضخموا لزامل ضجيج الصباح :- وهم على استعداد لفعل ذلك بصورة دائمة .

أخبرنى على أن رسالة وردت من مطوع بريدة مؤخرا إلى زامل وإلى شيوخ عنيزه أيضا؛ تستحثهم، باسم العقيدة المشتركة، بان يطردوا النصرانى!-"هل يمكن

الوثوق بذلك الجمّال ؟ وهل أهل الخبيرة طيبون؟" أجابنى على مؤكدا، وأردف قائلا: "أكتب لى عندما تصل؛ ولعلمك الخبيرة ليست بعيدة: وسوف تصل إليها قبل طلوع الفجر، وصدقنى فى كل ما أقول ياخليل، أنا آسف لما حدث لك." وعدنى على أن يذهب بنفسه فى الصباح الباكر إلى الكنينى، بطلب منى، أن يرسل 'تلكم الريالات القليلة التى هى ثمن الدواء': (وحسبما علمت بعد ذلك) لم يذهب على إلى الكنينى؛ والسبب فى ذلك أن ذلك الزنجى تربى بين العرب، الذين لاتعدو وعودهم أن تكون مجرد كلام فى الهواء، وأنها تكون لخدمة أغراضهم فى وقت الحاجة إلى تلك الوعود ـ"استحلف ذلك الجمّال أن يكون أمينا معى." على: "نعم ، تعال هنا ياحسن! وأقسم على كيت وكيت." أقسم حسن؛ ثم رحل الزنجى عند سور المدينة. ومن السور انطلقنا إلى النفود المظلمة؛ وبدأ يلاقينا هواء الليل البراد قادما إلينا من الصحراء الرملية.الواسعة؛ مما أنعشنى وحثنى على الركوب: كنا فى ذلك الوقت، فى بدايات حرارة الصيف الخانقة فى الجزء المنخفض من وادى الرماح.

بعد مسير ساعة بالجمل وصلنا إلى بستان مهجور ومبان مهدمة- هذه العزب توجد بأعداد كبيرة خارج البلدة. كان الليل حالك السواد إلى حد أننا لم نكن نستطيع رؤية الأرض من تحت أقدام الجمل. دخلنا فى طريق أجوف من طرق النفود؛ ولكن ضاع منا ذلك الطريق بعد مسير أميال عدة. "قال حسن: هذا أمر طيب؛ لأن ذلك سيجنبنا خطر البدو المتسكعين." هبطنا ناحية الجانب الأيمن، وواصلنا مسيرنا راكبين الجمل عبر أرض سهل من السهول متماسكة التربة ـ وادى الرماح؛ وهناك شاهدت رذاذ ماء متجمع على شكل بركة، تخلفت عن الأمطار التى هطلت مؤخرا على عنيزة. بداية الصيف فى القصيم تكون على شكل زخات من المطر الحلو فى شهر أبريل: كان الجو ساكن الريح بالفعل، وكانت السماء ثقيلة، ولم يسقط منها سوى مطر خفيف منذ بضعة أيام؛ كان باديا أن ذلك الطقس سوف يستمر حتى شهر يونيو. شاهدت، فى الصحراء، فى العام الماضى، وذلك على بعد مائة فرسخ فى اتجاه الغرب، جفافا شديدا وأحسست بحرارة شديدة أيضا فى ذلك الموسم؛ كما شاهدت أيضا (وذلك فى فترات العصر) عواصف ورياح محملة بالغبار والتراب.

أحسسنا بالجمل مرة ثانية وهو يمشى فى النفود العميق؛ وواصلنا مسيرنا فى ضوء النجوم الخافت من فوقنا، وعند منتصف الليل، مررنا ببيارة من أدغال الوقود التى يطلقون عليها اسم غوطة ghrotha . وقد امتدح الناس هذا الحطب، الذى هو نوع من خشب الإثْل ـ أخبرنى أصدقائى، وذلك نقلا عن بعض (كبار) شعرائهم؛ "(يقولون): نار مشتعلة وحامية مثل نار الغوطة:" ونقلا عن الشيخ نصير، "النار المستورة فى هذا النوع من الخشب قد تدوم شهورا عدة ،إذ إنها تحترق ببطئ: وهذا هو ماثبت لهؤلاء الناس على مر الزمن؛ والسبب فى ذلك أن قوافل عنيزة أثناء عبورها الصحارى عثرت على جمار من نيران سابقة بقيت مشتعلة طيلة ثلاثين يوما." هذاالنوع من الخشب ناره عبارة عن وهج له لون أحمر صافى ؛ والفرع منه يشتعل كما لوكان شعلة: والناس هنا يفضلون خشب الإثل على أنواع الوقود الصيفى الأخرى، وقد اكتشفت أن الناس فى خيبر يقيِّمون غاليا ذلك النوع من خشب الوقود.

كان حسن، الذى زاملنى فى الرحلة، كراكب خلفى معى على الجمل، يعمل حطاباً. كان حسن يركب الجمل من كوخه أثناء الليل؛ وعند الفجر كان يصل إلى منطقة الأشجار، حيث يقوم بقطع الأغصان الجافة ويقوم بتحميلها على جمله؛ ليصل بها إلى عنيزة قبل دخول الظهر. كان حسن شريكا فى الجمل الذى نركبه ـ هذا الجمل كان سليما، وكان زامل شريكا فى ذلك الجمل، إذ دفع نصف ثمن الجمل الذى كان يقدر بخمسة عشر ريالا. كان العائد صغيرا من تلك الصناعة أو الحرفة الخطرة والمؤلمة فى الوقت نفسه؛ ومع ذلك كانت هى المهنة التى لم يكن ذلك الحسن يصلح لأى شيء سواها. سألته عن السبب الذى دفعه لأن يأخذ منى مبلغا لايمكن له أن يكسبه من حرفته تلك إلا على امتداد ثمانية أوتسعة أيام؟ 'أجابنى ،أن النفود مليئة بالأعراب غير الأصدقاء، وأنه كان يخشى أن يضيع منه جمله؛ وأنه لم يكن له أن يخاطر بغير هذا الطريق، حتى وإن أدى الأمر إلى عصيان أمر زامل ومخالفته.: أبلغنى أن طردى تحدد هذه الليلة، خلال اجتماع للشيوخ؛ وردد علىَّ أسماءهم، ولم يكن بين هؤلاء الشيوخ أحد من معارفى. استمع حسن إلى كلام الشيوخ؛ والسبب فى ذلك أن زامل أرسل يستدعى حسنا فى ساعة مبكرة، وطلب منه الاستعداد لنقل الحاج خليل: قال الأمير فى البداية إلى البكيرية el-Bukerieh التى تتهيأ فيها فرص أفضل لمرور القوافل؛ ولكن بقية أفراد المجلس كانوا يودون نقل خليل إلى الخبيرة.

ـ نزل حسن حول شيء لم أره يستعمل من قبل في البلدان العربية، بالرغم من أن مسافري الليل هم والبدو يندر أن ينخدعوا بالأصوات التي تصدرها إبلهم: ولف حسن مقوده حول خطم ذلك الحيوان الضخم الذي يشبه الوحش! الأمر الذي جعل الجمل يتوقف عن الشكوى والعواء. لم يسبق لي أن أضناني الألم مثلما حدث لي في تلك الليلة، وأنا جالس على سرج (عدة) صلبة وخشنة من هذا القبيل: هذا الخطو المتعب لذلك الجمل، الذي لايريد أن يحمل سوى الحطب فقط، تولد عنه من خلال ساعات الظلام الطويلة الألم من ناحية والتعب من الناحية الأخرى. ماالذي يمكن أن أظنه في زامل؟ـ هل أخطأت، أنا، كثيرا في تقديري لهذا الرجل وتقييمي إياه؟

شد حسن في النهاية مقود الجمل؛ وفتحت عيناي لأرى الشمس فوق كتف النفود: ونزل رفيقي لأداء الصلاة؛ وكشف لي ضوء النهار، ذلك الوجه الغريب الذي يشبه وجه النسناس. كنا قد قطعنا شوطا كبيرا أثناء الليل؛ وهذا الحسن، الذي يبلغ من العمر ثلاثين عاما، لم يعبر النفود إلى الخبيرة منذ أن كان طفلا. ومن الكثيب الرملي التالي، بدأت تطالعنا أعراف نخيل الهلالية. كان بحر الرمال يتراءى لنا على شكل موجات من الريح، وعلى شكل ضفاف وغدران: وكنا نحن الاثنين نركب كل هذه الأشياء ونسير فوقها؛ وعندما ارتفعت الشمس عن الأرض بدأت تظهر لنا بلدة الخبيرة [ويصح فيها أيضا الخبراء Khobra] بلا نخيل أو إخضرار. لم تكن الأرض المنزرعة على مرمى البصر؛ إنما كانت تقع على بعد خمسة أميال في قاع وادي الرماح، وكانوا يطلقون عليها اسم القرية geria .[أنظرص ٢٦٠] وسط هذه البلدة المبنية في النفود المنخفض ، يوجد برج مراقبة عالٍ مبني من الصلصال .حسن:"لاتقل عندما نصل إلى ذلك المكان ،'أنا نصراني،' لأنهم قد لايستقبلونك بناء على ذلك." ـ" ألم يسمعوا عن النصراني، من عنيزة؟"ـ" ربما يكونوا قد سمعوا ؛ نظرا لأن حركة النقل تتزايد في ذلك الوقت بسبب نقل الحبوب إلى آل ـ البسام ،الذين يقرضون المال للناس."

أبصرنا بعضا من رذاذ الماء على بعد مسافة قصيرة من الطريق الذي كنا نسير فيه.قال حسن: "هيا بنا إلى ذلك الماء."ـ" نحن لدينا ماء في القرية، وسوف نصل إلى المنطقة المأهولة بالسكان."ـ وهنا بدأت أرى مرة ثانية، أن حياتي هانت على الناس وأن الوضع هنا سيكون أسوأ مما حدث لي من جمّال بريدة (الذي كان يحمل الاسم

نفسه) الذى تخلى عنى بالقرب من عنيزة، ففى عنيزة، كان هناك أمل فى زامل: أما الخبراء، فهى بلدة مسكينة وفقيرة، يسكنها الفلاحون، كما أنها مستوطنة قديمة من مستوطنات القحطان ، وهى تخضع لسيطرة بريدة؛ وكانت تبعد عنا مسافة ميل تقريبا - "سوف تضعنى فى وسط البلدة؛ لأنك أخذت ريالاتى نظير القيام بهذا العمل." وبالرغم مما قلت برّك حسن جمله من تحتنا؛ ونزلت عن الجمل، وجاء حسن لينزل أشيائى عن الجمل. منعته من ذلك، وتناولت لفافة كنت أضع مسدسى بداخلها، وهنا شاهد ذلك البائس ذلك الشيء المعدنى فى يدى -" أيها الرفيق،إذا كنت خائفا من دخول البلدة، فسوف أركب أنا بمفردى إلى بوابة البلدة، وأنزل عن الجمل أمامها؛ وعليك أن - تأتى وتأخذ جملك: ولكن أرجو ألاتقاومنى وإلاافتحت النار على الجمل؛ لأنك بعت حياتى." رد على ذلك الوغد،أنا أحمل هذا الرمح لكى يعيننى على أولئك الذين يودون أن يأخذوا منى ناقتى."- وهنا توجهت إلى الناقة؛ وأخذت المقود فى يدى حتى أقتادها إلى الخبراء.

كان هناك رجل من البلدة على مقربة منا؛ وكان ذلك الرجل قدلا حظ خلافنا ، فجاء يجرى نحونا: " أوه! ماهذا؟ (تساءل الرجل)؛ السلام عليكم." حكيت له الموضوع، وحكى له حسن أيضا، ولكنه لم يذكر أنى نصرانى : كما أن ذلك الرجل لم يرانى عندما كنت مسلحًا .أفاد ذلك الرجل أن الغريب صاحب حق؛ وعليه ركبنا الناقة واتجهنا صوب سور البلدة. ولكن الناقه غير المدربة رفضت تخطى بوابة البلدة: ونزلنا من فوق الناقة وقيدنا رجليها بحبل، وتركناها ؛ وأجبرت حسنا على أن يحمل خرجى على كتفه، ويمشى أمامى- وعليه وصلنا إلى المكان العام ؛ وأنزل أشيائى فى ذلك المكان وكان يمكن أن يتخلى عنى؛ ولكنى لم أطق ذلك. وجاء بعض من أهل المدينة وحكموا أنى على صواب، وأن حسن يتعين عليه أن يحمل الأشياء ويوصلنى بها إلى مقهى الأمير.

سمعتهم يقولون من وراء ظهرى:" إنه غريب؛" وأن الكثيرين من أهل الخبراء هم من الجمالين بل ومن أولئك الحجاج الذين يذهبون إلى الأماكن المقدسة كل عام، وأنهم شاهدوا كثيرا من الغرباء- دخلنا صالة القهوة ؛ حيث كان يجلس فيها وحده رجل ضرير كبير السن - هذا هو على والد الأمير؛ الذى نهض واقفا عندما سمع صوت القادمين، وراح يتحسس الجدار وبدأ فى تصليح القهوة. جلس أولئك الذين دخلوا من

بعدى كل حسب عمره ووضعه بجوار حائط المقهى فى الجوانب الثلاثة. وبعدهم بوقت قصير دخل الأمير بنفسه ،الذى كان عائدا من الحقول؛ هذا الأمير فلاح حسن المظهر وتبدو عليه الرجولة والشهامة أرسلوا فى طلب رفيقى حتى يشرب معنا القهوة؛ ولكن حسنا بعد أن وضع أشيائى ،تسلل خارجا من بوابة بلدتهم مرة ثانية .جلست الجماعة وكلهم صامتين ،إلى أن يتم تصليح القهوة؛ وعندما كان البعض منهم يسألنى ، كانت البقية هى التى تجيب قائلة:" لكن ليس بعد." كان بعض الشباب يتناجون فيما بينهم، وعندما كانوا ينظرون إلى الأعلى فيما بين تهامسهم ،كانوا يطيلون النظر إلى. واتضح لى أنهم عرفونى على أنى ذلك الغريب الذى سبق أن مر على بريدة - أوإن شئت فقل ذلك النصرانى الرحاًل.

بعد طردى من عنيزة على هذا النحو ،كنت أعانى من إرهاق وضيق شديد؛ ولماكنت هنا بلا نقود فى وسط الجزيرة العربية، رحت أتأمل وأفكر فى كل من الكنينى والبسام اللذان كانا صديقين طيبين لى فى الفترة الأخيرة! ترى، هل تخليا عنى؟ هل سيرسل الكنينى لى النقود؟ وما طول المدة التى سيتحمل هؤلاء الناس طوالها وجودى بينهم؟ ومن منهم الذى يمكن أن ينقلنى إلى أى مكان بلا مقابل؟ وأنى أصبح يتعين على طلب الثمن من أولئك الذين يقدرون على دفع ثمن أدويتى أى من أولئك الذين ليسوا فقراء : وقد يكفى ثمن الدواء لشراء الخبز الذى قد أحتاج إليه- أما المسكن فيمكننى الحصول عليه بالمجان . وقد لاحظت من النظرات الفاحصة، ومن النظرات الجانبية، عندما ذكرت اسمى أمام الحاضرين ،أنهم جميعا يعرفونى،" غدا سيتم إجراء كل هذه التحريات." سمعت الأمير نفسه وهو يقول همسا،" سيرسلونى إلى الهلالية، أوإلى البكيرية Bukerieh- كانت قهوتهم من أردأ الأنواع: كان يبدو أن مضيفى من أهل الخبراء كانوا من أرباب العائلات الفقيرة.

لم يتبق فى المقهى سوى على العجوز؛ الذى أقترب منى وجلس على الأرض معتمدا على يديه، إلى جوار الحكيم؛ وحملق فّى بعينيه اللتان لاتبصران، ثم سألنى إن كان لدى دواء يساعده على الإبصار؟ وجدت أن عينيه سليمتان .قال الأمير، وهو يدخل علينا مرة ثانية:" إى، ساعد والدى! لأنه عزيز على." سألت الأمير،" هل أنا آمن هنا؟"- "إذا كان لابد من أن أجيب على ذلك ؛ أبق معنا هنا وعالج والدى، وسوف ترى مايمكن

عمله." ووعد على العجوز بأنه سوف يرسلنى إلى الرس فى أمان - والرس لاتبعد سوى أميال قليلة - ومن الرس أستطيع الركوب مع قفيلة(*) السمن (الملكية) ،إلى مدينة جدة. وأهل الرس يقولون: [الرُّس' er-Russ بدلا من 'الرَّس'] وكلهم من عمال القوافل. سألت عن موعد قيام القافلة؟ "قد تبدأ بعد فترة؛ ولكننا سوف نتأكد من الموعد."- "لم يكن معى مايكمل خمسة ريالات [حوالى عشرين شلناً] بالإضافة إلى هذه الجوالات، فهل هذا يكفى ؟"- نعم، أجاب الرجل العجوز، أعتقد أننا سنجد من ينقلك بهذا المبلغ."

بينما كنا نتكلم دخلت علينا، بأصواتها النشاز، وصليل سيوفها، وبنادقها جماعة من الغرباء؛ كانت تلك الجماعة من قوات الجمَّالة التابعة لأمير بريدة، وهذه الجماعة تشبه جماعة الرجاجيل التى سبق أن رأيناها فى حائل. كان هؤلاء الجمالة قد ركبوا أثناء الليل؛ نظرا لكثرة اللصوص فى الصحراء هذه الأيام، ركنوا بنادقهم الفتيلية على الجدار، وعلقوا سيوفهم على أعمدة الخيام، وجلسوا أمام وجار القهوة وقد علت وجوههم ابتسامات مقلقة؛ وحيونى أنا أيضا : ولكنى كنت أنظر إلى هؤلاء الرجال الوقحين بشىء من الخوف؛ مخافة أن يكونوا مكلفين من قبل حسن بإساءة معاملتى : وبعد شرب القهوة صعدواإلى غرفة علوية كى يناموا فيها . وفى صباح الغد شعرت بالارتياح الشديد عندما سمعت أن أولئك الجمالة رحلوا، فى ساعة مبكرة، قاصدين بلدة الرَّس :هؤلاء المراسلون الموفدون من قبل ولد مهنا، كانوا يقومون بالمرور على الواحات التابعة [لبريدة] لدعوة شيوخ القرى لحضور مجلس من المجالس العامة.

أعطانى على العجوز بيتا خاليا مجاورا لبيته، كى أقيم فيه، ولكى ينقلوا إليه أشيائى وزكائبى . وعند الظهر، اقتادنى ذلك الضرير بنفسه، وصعدنا الدرج إلى غرفة فى الطابق العلوى؛ حيث وجدت وجبة هزيلة جرى إعدادها لى، وكانت عبارة عن شىء من التمر وخبزا مخمورا ومعها شىء من الماء. كان ذلك الرجل أميرا، أو بالأحرى عمدة الخبراء، تحت حكم بريدة، إلى أن أصيب بالعمى؛ وعندما خلفه ولده، وهو رجل فى منتصف العمر حاليا؛ والذى كان العجوز يحدث الناس كلهم عنه بأنه هو 'الأمير'. كان

(*) قفيلة : المقصود بها القافلة الصغيرة ، أو قد تكون تصغيرا لكلمة القافلة . (المراجع)

الرجل العجوز قد اتخذ لنفسه مؤخرا زوجة شابة، وعندما لايكون هناك غرباء، فإنها كانت تجلس دوما إلى جوار زوجها العجوز؛ ويبدو أنها كانت تحبه حبا جماً.كان لهما ولد صغير؛ ولكن ذلك الطفل كان ضعيف البصر بسبب التهاب أصاب عينيه. طلب العجوز من زوجته أن تجلس مع الطفل في وجود الحكيم ؛ وراح يداعب ابنهما الصغير بيديه المسنتين، ثم وضعه أمام الحكيم.

بدأ على العجوز يحاورني في مسألة الدين ؛ محاولا أن يفرض علّي تسامحه طوال فترة التحاور. وسُر الرجل عندما سمع أن هناك حكما مقدسا لحياوات البشر في الدين المسيحي أيضا -"ياالله ! أنتم أناس طيبون، ولكنكم لستم على الطريق المستقيم، أي الطريق الذي يرضى الله؛ وبالتالي فأنتم لاتستفيدون شيئا .الله وهبك المعرفة حتى تعرف الحقيقة وتقول :لاإله إلاالله محمد رسول الله."- دخل علينا فجأة رجل أصم أفسد علينا حديثنا ؛ وطلب قبل أن يجلس ؛ أن أعالجه من مرضه؟"سألته، ماذا ستعطي الحكيم إذا مادلك على الدواء؟" رد الرفيق ،" لاشيء بكل تأكيد! هل تود أجرا على مجرد الكلام- ألن تدلني على ذلك الدواء ؟" إخ!" وبدأ غضب ذلك الرجل يتزايد. علي :" يارجل ،هذا الكلام لايليق بك أن تخاطب به الحكيم ،الذي سيساعدك إذا استطاع إلى ذلك سبيلا."- قلت : أطلب منه أن يصنع قرطاسا من الورق بحيث يكون واسعا من ناحية، ويضع الطرف الضيق في أذنه؛ وسوف يتحسن سمعه." هذا الرفيق، الذي خطر بباله أن النصراني يستخف به، تحمل كلامي على مضض." "قال الشيخ العجوز :لا، إذا كان الأمر لابد منه، فقد يكون لذلك حكمة أوسببا؛ وماعليك إلاأن تفعل مثلما قال خليل." ولكن ذلك الأصم لم يواصل الجلوس معنا. '(غمغم) النصراني الملعون، الذي حياته بين أيديهم، يحتقره على هذا النحو !' وانسحب بعيدا عنا وقد ارتسمت على وجهه علامات الغضب وجاءني شاب صغير السن، يشتكي لي من بؤس بلاده؛ "قال :ليس فيها من شيء سوى الضوضاء والجلبة الناتجة عن سواني (سواقي) الماء. لي شقيق مستقر ومقيم في الشمال ؛ وأنا أقسم بالله أني لو كنت أعرف أين هو، لذهبت إليه، وماعدت إلى هنا مطلقا."- "وتترك والدك العجوز وأمك يموتان! وتنسى معارفك؟"-" ولكن أصدقائي سيكونون من بين أولئك الذين أقيم بينهم."- هذه هي عقلية الكثيرين من سكان القصيم.

وصل إلى الخبراء فى الصباح شابان كانا يركبان ناقة، جاءا إلىَّ بحثا عن العلاج الذى يقدمه المداوى؛ كان الأول يبحث عن علاج لعينيه أما الثانى فكان يبحث عن علاج لأحشائه. كان هذان الرجلان من بيارة نخيل وحقل من حقول القمح الواقعة على أطراف الخبراء، هذه البيارات هى وتلك الحقول عبارة عن قيعان من الغرين (الطمى) أوإن شئت فقل :هى رياض فى الوادى ؛ وهذه الرياض تقع فى منتصف الطريق الواصل بين الخبراء والرس. وعندما سمعا، أنهما يتعين عليهما أن يدفعا ثمن الدواء الذى يقدر بإحدى عشر بنسا ـ وهذا مايعادل أجر عامل (هو وغذائه) طوال ثلاثة أيام ـ آثرا أن يبقيا على مرضهما لعدة سنوات أخرى، مرضاة لله، على أن يقامرا ويدفعا ثمن الدواء ـ "لا، عالجنا، وسوف ندفع لك الثمن بعد اكتمال الشفاء: وإذا ماساعدتنا أدويتك على الشفاء، ألـن يسارع المرضى بالقدوم إليك من القرى كلها ؟" ولكنى لم ألق بالا لكلامهما؛ وبعد أن وجها إلى الكثير من التوبيخ واللوم، ركبا الناقة آسفين ليعودا إلى محل إقامتهما.

اكتشفت ذيوع صيتى الطبى فى الخبراء ! نظرا لأن واحدة من مرضاى فى عنيزة كانت من أهل الخبراء: هذه المريضة استطاع غسول النصرانى أن يحسن بصرها إلى حد ما؛ واكتشفت أيضا أن تلك الشهرة ذاعت أيضا فى النفود وسرعان ما استدعيت لزيارة شخص مريض. وعند باب القهوة، طلب الطفل الذى كان يصحب الحكيم الانتظار برهة ـ وهذا مناقض لعادة الكرم فى الجزيرة العربية ـ فى حين دخل الطفل ليخبر أهل المنزل بمجيء الحكيم. سمعت الطفل يقول :" جاء الكافر!" وجاء الرد على الشاكلة نفسها ـ دخلت بعد ذلك !وجلست بينهم؛ ولمت رب الأسرة على ذلك الاستقبال والمعاملة غير المتحضرة. ونظرا لأنى كنت محقا فيما قلت،فلم ينبس أحد منهم ببنت شفة، بل ظلوا صامتين ويشعرون بالخجل؛ وسارع مُصلّح القهوة إلى صب فنجال لى: ونهضت واقفا وتركتهم جالسين ـ تعجبت من صمت الناس فى الخبراء! لم أر أحداً منهم فى الشوارع ؛لم أسمع أصوات هاونات القهوه تدوى فى هذه البلدة المبنية من الطين . فى تلك الأيام ، كان السواد الأعظم من أهل الخبراء غائبين عنها، مشغولين بدرس وغربلة محصول القمح: كان موسم الحصاد خفيفا نظرا لأن المحصول أصابته ندوة قبل نضجه بفترة قصيرة. مبانى قرية الخبراء بدائية وغير منظمة ؛ وهذه القرية

لا تختلف عن القرى والبلدان الموجودة فى أعالى سوريا .مررت خلال شوارع طويلة لاتسر الخاطر وعلى جوانبها أكواخ من الطين وشبه خربة؛ وفيما عدا طاولات القصابين، ودكان الحداد لم أر أية محلات أودكاكين أخرى فى البلدة. ومسجد البلدة قريب من المجلس ، وهو مبنى منخفض من اللبن: وبالقرب من ذلك المسجد شاهدت بئرا مذاق مائها مالغ ـ عمق تلك البئر عبارة عن قامة واحدة تقريبا ، والناس هنا يتوضؤون من تلك البئر قبل الصلاة. والبلدة ليس فيها ماء يصلح للشرب، نظرا لملوحة الأرض ؛ ولكن ربات البيوت يتعين عليهن الخروج إلى مسافة بعيدة ليملأن قراب الماء. وبرج المراقبة فى الخبراء مبنى من اللبن (الطين) ـ وهو مبنى على شكل غرفة من الأسفل ، ويرتفع مستدقا، وهذا البرج مبنى وسط المجلس الذى تبلغ مساحته ربع فدان؛ وفى هذا المكان (مثلما هو الحال فى بلدان القصيم كلها) ينعقد سوق الجمعة ؛ فى الوقت الذى يفد فيه البدو الرحل لصلاة الجمعة فى المسجد، ويجلبون معهم الإبل والسمن والماشية الصغيرة.

ـ قبيل الظهر : رأيت ثلاثة أشخاص يجلسون على مصطبة من اللبن، فى المجلس الواسع المهجور، فذهبت للجلوس بجانبهم .كان وجه أحدهم يشبه أهل العصر الحجرى؛ كانت هناك تكشيرة شرسة تظهر على محيا ذلك الرجل بين لحظة وأخرى. سألت الرجلين الآخرين اللذين كانا جالسين يتثاءبان وغير مباليين: وبدءا هما أيضا يسألانى عن دينى. قال الرجل شرس الملامح متعجبا :" ياليت نحضر الآن سكينا ونضعه على رقبته ـ هذا والله لو فعلناه سيكون شرعيا،لأن هذا هو رأى المطوع؛ كما أن النصرانى لايعترف بأن لا La إله ilah إلا ill الله Ullah ! ، وقل :بسم الله Bismillah الرحمن er-rahman الرحيم er-rahim ، واقطع رقبته ! وجج juj جج juj جج ـ ويسيل دم هذا الكافر مثل دم شاة أوجمل عندما تذبحه: سوف أجرى الآن وأستعير سكينا ."ـ"قالا: لاأنت لايجوزلك أن تفعل ذلك . سألتهما، "أليس ذلك الرجل بدويا؟ـ ولكن ما رأيكما يا صديقاى ؟أهذا صح أم خطأ؟"ـ "نحن لانستطيع البت فى ذلك : هذا من شأن الدين ! يا خليل؛ ولكننا لا نفضل العنف، ـ نعم، إنه بدوى."ـ:من أى قبيلة أنت، يامن تلبسك الشيطان؟"ـ" أنا حربى.(*) "ـ"أنت تكذب! الحربيون أناس أمناء:

(*) أى من قبيلة حرب. (المترجم)

ولكنى أعتقد ياصديقاى أن هذا الرجل عوفى."- نعم، وحياة الله!أنا فعلا من عوف؛ كيف عرفت ذلك، يانصرانى؟- هل النصرانى يعرف كل شىء!-"إذن، ياصديقاى هذا الرجل نشال، وسفاح مع الحجاج الذين يذهبون إلى مكة (المكرمة) وهو ملعون من الله ومن الناس!"- رد الباقون قائلين: "والله إنهم ملعونون، وأنت تقول الحق: ياخليل، لنا ديننا ولك دينك." ولكن العوفى ضحك ضحكة كبيرة ها ha - ها ha - هى hi هى hi هى hi ! لأنه سمع أنه هو وجماعته يتحاكي الناس عنهم فى العالم."قال العوفى: إى، بالله، نحن سفاحى الحجاج."- ضحكوا منه ؛ وعليه تركتهم وذهبت لحال سبيلى.

عندما شكوت للأمير من كلام العوفى، قال- وهو يهز العصا فى يده،" لاتخف من أى شىء ! وفى الوقت ذاته عالج الرجل العجوز والدى: ووالله، إذا ما قال أحد شيئا ضدك، فسوف أضربه إلى أن ينتهى منه التنفس!"- قال الناس عن الأمير:"إنه فقير ومدين:" والجزء الأكبر من محاصيلهم هنا يزرعونه لحساب البسام؛ الذى يحصل منهم فائدة بواقع عشْر أو اثنى عشرة بالمئة: وإذا ما دفعت نقدا فإنهم يأخذون الريال ريالا وثلث الريال.لم أرى الأمير أوألقاه بعد ذلك ؛ وقال لى ولده: إنه ذهب إلى البكيرية، ليركب منها أثناء الليل قاصداً بريدة: وهم يسافرون فى الليل تحاشيا للبدو. فى العام الماضى كان عبدالله ومعه خمسة عشر رجلا عائدين من الحج، ولم يكن يتبقى أمامهم سوى أميال قليلة، يصلون بعدها إلى محل إقامتهم، وبعدأن تركوا قافلة بريدة، طلع عليهم اللصوص من البدو وجردوهم من نياقهم.

كان أهل الخبراء الذين عاشرتهم أناسا يشبهون الفلاحين وبخلاء وغير بشوشين. لم يدعونى أى منهم لتناول القهوة، لم أر لهؤلاء الناس شبيها فى الجزيرة العربية، حتى بين أولئك السود الذين كانوا يعيشون فى خيبر: هذا المكان يحتوى على مايقرب من ٦٠٠ بيت. الكثيرون من هؤلاء الناس كانوا يعملون ضمن قوات العجيل فى المدينة المنورة؛ ولكن الرواتب التركية توقفت منذ فترة طويلة، وبالتالى تخلوا عن تلك الخدمة. الخبراء عبارة عن موقع خال من أى نوع من المرافق، والخبراء يحيط بها سور من اللبن: ومن الغريب فى هذا البلد الصحراوى، ألا يسمع الإنسان صراخ السوانى (السواقى) ونعيرها.- وكان الأمير هو ووالده العجوز أفضل من التقيت فى هذا البلد.

-"خطر ببالى، أن الكنينى لايمكن أن يتخلى عنى!" ولكن ها هو اليوم الثانى قد انقضى علّى هنا فى الخبراء. وهذا هو ثالث يوم تشرق الشمس علّى فيه هنا وقد دخل علينا وقت الظهر؛ وهنا ذهبت، وأنا أشعر بالقلق لنيل قسط من الراحة فى مسكنى. وفجأة سمعت طرقا على الباب، ومع الطرق سمعت بعض الأصوات الشابة أمام الباب، -" افتح ، ياخليل! لقد أرسل زامل فى طلبك." فتحت المزلاج؛ ورأيت حسن الجمّال واقفا على عتبة الباب.- "هل أحضرت معك رسالة؟"- "أنا لم أحضر معى رسائل." أدخلته على علّى العجوز، لعله يستمع إلى حكايته.- "لقد استدعانى زامل، ليرسلنى مع القفيلى التى ستتوجه إلى جدة.". ولكنا علمنا أن القافلة لن تكون جاهزة قبل مرور بضعة أسابيع! وهنا سألت إن كان بوسعى أن أركب عائدا إلى عنيزة اعتماداً على كلام ذلك الحسن؟- ربما كان من مصلحة ذلك الرجل العجوز أن أبقى هنا فترة من الوقت من أجل رعاية عينيه."قال العجوز، هذا كلام طيب، اذهب ياخليل، ولاتدع الشك يراودك مطلقا؛ اذهب فى حفظ الله وأمنه!" طلبت من العجوز بعض القوارير، وأعددت له بعض المحاليل التى يستعملها فى غسيل عينيه بعدأن أغادر المكان: كان ذلك السيد العجوز سعيدا بتلك الذكرى الطيبة.

قطعنا مسافة أربعة أميال عبر النفود، إلى أن وصلنا إلى الهلالية: شاهدنا جبل ساق Sag الوحيد، الذى يشبه ثمرة الأناناس، عن يسارنا، وعلى بعد أميال كثيرة. والعرب يقولون: إن صخر هذا الجبل صلب وشديد الاسوداد.- وربما كان ذلك صخرا بركانيا على حدود منطقة رملية. وعندما بدأنا نقترب، شاهدت أنواعا أخرى من النخيل، كما شاهدت برجا عاليا من أبراج المراقبة، على بعد مسافة ميلين ؛كما شاهدت أيضا واحة أخرى،هى واحة البكيرية: وفيما بين هاتين المستوطنتين يوجد مكان عثر الناس فيه على" عظام بشرية" مختلطة ببقايا جمر منطفئ؛ وعظام بعض من الماشية الصغيرة؛ والناس هنا يعزون كل ذلك إلى بنى هلال - الذين اشتق اسم القرية من اسمهم، والتى وصلنا إليها الآن. والبكيرية عبارة عن محطة من محطات الجمّالة؛ وأهل البكيرية يتجرون مع البدو. وبعض من أهل البكيرية أثرياء؛ وكانوا فى بداية الأمر يتجرون بواسطه النقود التى كانوا يقترضونها من البسام.

قرويو كلا من الهلالية والبكيرية (وهما مستوطنتان سبيعيتان(*) قديمتان) يفضلون أن يكونوا تحت رئاسة زامل وعنيزة على أن يكونوا خاضعين لحسن ولد مهنا - الذى يقولون عنه إنه جبار jabbar : وهم يدفعون الضريبة لبريدة بواقع خمسة فى المئة. هذه النسبة يذهب منها الربع لأمير المكان أوإن شئت فقل: عمدة المكان؛ وكان نصف المتبقى من تلك النسبة يذهب من قبل إلى ابن سعود، وماتبقى بعد ذلك يمثل دخلا أو متحصلات لأمراء بريدة؛ ولكن ولد مهنا، فى الوقت الراهن، يحتفظ بالنسبة (التى كانت تعطى للوهابى- والقمح فى هاتين المستوطنتين يقيم بالمكيال أما التمر فيقيم بالوزن. والهلالية فيها آبار قديمة كثيرة وهى من "آبار بنى هلال." وبلدة الزلفى thlfa تقع على بعد بضعه أميال فى اتجاه الغرب، وهى قرية قديمة، وبالقرب من منتصف الطريق توجد هجرة (كفر) صغيرة يطلقون عليها اسم الشيهية Shehieh: وهى تبعد مسافة نصف رحلة عن البكيرية، وعلى ذلك الجانب توجد أيضا بعض حقول القمح الشتوى وبعض مزارع بريدة- نادانا رجل ونحن ندخل البلدة،" من الذى معك ياحسن؟"- أجابه الرفيق، كلب نصرانى [هذا هو النجدى الوحيد من الجزيرة العربية الذى أهاننى على هذا النحو]، وليس عندى ما أقوله غير ذلك؛ وأنا أنقله مرة ثانية إلى عنيزة حسبما طلب منى زامل ."- هذا المخلوق الخبيث الذى يعمل لى جمَّالا، والذى يتسبب شكله الغريب وملامحه الغريبة فى اضطراب النفس، يسمه الناس هنا المسحور mishur. وأناعندما شكوت من ذلك الوغد فى قريته - بالرغم من أنه يعيش فى عنيزة منذ طفولته، قالوالى :" إى،إنه مسحور، ياله من مسكين! Mesquin- مشينا فى الشوارع ونزلنا مكانا دلنا فيه بعض القرويين على مكان القهوة فيه.

دخل معنا رجال كثيرون؛ وتركوا المكان المرتفع للضيف ، وهذا المكان يكون بجوار الشخص الذى يقوم بتصليح القهوة. وسرعان ما دخل علينا مضيف مهندم ويبتسم، وهو يحمل شيئا من حبوب البن فى يده: ولكنه سرعان ما وجه لى كلمة مريرة مثل قهوته تماما، "كيف تتنقل؟أيها العدو adu (بمعنى عدو الله)!" وكلمة 'عدو' من كلمات القرآن ؛ ولكن ذلك المضيف كان من قراء القرآن - "أنا رجل

(*) مستوطنتان سبيعيتان : أى تابعتين لقبيلة السباع أو قبيلة سبيع . (المراجع)

أبلغ من السذاجة حداً لاأستطيع معه إثارة المتاعب مع رجل حكيم كهذا : وهل كل جمل مسلم أيضا؟" "أجاب ذلك القروى المتحذلق ،الجمل مخلوق من مخلوقات الله، مخلوق غير عاقل؛ ولايمكن أن يكون له دين."- "إذن اعتبرنى جملا: وأنا أيضا أدعو الله أن يعطيك شيئا من الأوجاع التى أحسها فى عظامى المتْعَبة ؛ والآن، تغاضى عن أخطائى، أنا الذى جئت هنا لأشرب القهوة." ضحك الباقون، وهذا مؤشر من مؤشرات السلامة عند العرب؛ ردوا علّى،"إذن مايقوله منطقى وعقلانى ؛ ولا تضايق خليلا،لأنه مرهق تماما."- ولكن قارئ القرآن أثار موضوعاً دينيا كبيرا: "لماذا لاتتخلى ،أيها النصرانى ، عن دينك الـ(...) (*)؛ وتتحول إلى الدين الصحيح، دين المسلمين؟ وتعترف أمامنا بأن 'لا إله إلا الله وأن محمداً رسوله'؟- ويصيح الرجل، ونظراته توحى بالعنف ،أقول لك: إقسم بالارتداد عن دينك، ياخليل." وجدت أن من المناسب تهدئة ذلك الرجل : بداية الخلاف كانت حزبا من أحزاب الجزيرة العربية، ولذلك فهم يعتقدون دوما أن المسألة سيف ليس إلا -" ماالذى فعله لك اسمك ؛لأنى يبدو أنى أبلغ من صغر الفهم حداً لا أتمكن معه من استيعاب أشياءك العالية." انتفخت أوداج القروى عندما سمع واحداً من أبناء النصارى يمجده." أردفت قائلا، لاتقل أكثر مما قلت: إن من ألقانى على هذه السواحل، قادر على تقييم الحياة المستقيمة لمصلّ يقف أمامه. أما فيما يتعلق بى أنا شخصيا ،ألم أولد مسيحيا، بفعل العناية الإلهية؟ ، إن هذه العناية الإلهية خير؛ إذن فقد كان من الخير أن أولد مسيحيا ؛ ومن الخير لى أيضا أن أعيش مسيحيا ؛ وإن شاء الله أموت مسيحيا : وأنا لوكنت أخشى الموت، لماكنت مسيحيا!" غمغم ذلك المتحذلق ،" ولكن لو كان خليل يعرف القراءة والكتابة - إلى الحد الذى يستطيع معه قراءة كتابه المقدس ،لاستطاع تمييز الحق، ألا وهو أن محمداً هو خاتم الأنبياء ورسول الله."

استطعت هنا أيضا ابتياع شيء من الراحة بالعلاج الذى كنت أقدمه ؛ فهذا مريض جاء يأخذنى لتناول الإفطار. عدنا إلى القهوة؛ وقبيل العصر، انتقلت جماعة هذه القرية التى كان أفرادها يجلسون مثل الذباب الكثيف فى أرجاء هذا المقهى سيئ التهوية، انتقلوا ليجلسوا فى الشارع فوق التراب، مستظلين بجدار ذلك المجلس .طلبوا منى أن أرتاح ؛ وأنى لن يحدث لى أى شئ أو مكروه: وعلى حد قولهم، العرب هنا محاكمين muhakimin بمعنى 'يخضعون لحكّام'.[العرب لايحبون أن يحكموا بهذه

(*) كلمة فيها مساس بالدين المسيحى رأينا استبعادها . (المراجع)

الطريقة الصارمة فى الأمور كلها. أذكر أن شابا صغيرا من الوشم، وهو من أبوين طيبين، اشتكى ،من أن رجلا من منطقته لم يستطع قتل آخر على الفور، بالرغم من أنه وجده نائما مع شقيقته، ولم يستطع قتله حتى فى بيته:لأن هذا الرجل لايتعين عليه ترضية أقارب المقتول فقط وإنما سوف يعاقب أيضا طبقا للقانون !] - أخذنى بعض الناس هنا إلى البساتين؛ ووجدت أن آبارهم هنا عميقة مثل آبار عنيزة.

ومع ظهور شفق المساء ركبنا ناقتنا ومضيت قدما مع حسن. بدأ القمر يطلع علينا، وتوقف حسن عند مزرعة عند أطراف البلدة؛ حيث كان ينتظرنا اثنان من المطير، سيصاحبانا فى رحلتنا - وكانا يسوقان أمامهما نعجة صغيرة إلى منزلهما بالقرب من عنيزة. قامت أم حسن وبعض أقاربها باصطحاب حسن لتوديعه عند بداية الطريق. كانوا يتكلمون همسا؛ وسمعت العجوز وهى تقول لولدها: عامل النصرانى بما يراه جيدًا - لكى يخلص نفسه!' - كنت سعيدا برفقة البدو ؛ وكنت سعيدا أيضا لسماع أصوات أهل الصحراء ، وهم يتسلقون السور، ليقولوا لى إنهم كانوا رفاقا لى- مشينا فى ضوء القمر؛ وجلست وأنا أنظر هنا وهناك ، حتى أتمكن من رؤية ظل رمح حسن، الذى جعلته يمشى على قدميه. وعن طريق النجوم عرفت أن مسارنا يتجه شرقا عبر موجات النفود. وبعد ساعتين نزلنا إلى وادى الرماح - كان بصحبة البدو خليط من الأعراب، الذين يعيشون فى هذه الديرة بعد رحيل العنوز عنها . وهم يسكنون هذه المنطقة تحت حماية زامل؛ ويطلق عليهم هنا اسم أعراب Aarab زامل. هؤلاء الناس قبليون من كل من المطير وعتيبة، ولافتقارهم إلى الإبل تحولوا إلى تربية الماشية الصغيرة فى النفود، حيث توجد الآبار فى كل مكان ولكنها ليست عميقة: وهم يعيشون على خدمة الواحات، ويكسبون القليل من المال من عملهم رعاة للسوانى (السواقى) من ناحية ورعاة لإبل القوافل من الناحية الأخرى. منازل هؤلاء الأعراب تتحرك مع بعضها البعض: وهم ليس لهم أعداء؛وهم يتقدمون بقضاياهم لزامل حتى يحكم لهم فيها.

بعد ساعة من منتصف الليل توقفنا فى مكان عميق بين الكثبان الرملية؛ ونظرا لأننا أصبحنا فى مأمن من خطر الطريق، أراد الرفاق أن يأخذوا قسطا من النوم- استيقظنا قبل طلوع الفجر وواصلنا مسيرنا فى وادى الرماح؛ الذى كان يمتد أمامنا مثل سهل طويل من الرمل الثابت، الذى تغطيه الخضرة جراء نمو بعض الأدغال

الصحراوية من ناحية ونمو عشب الغُرُطة من الناحية الأخرى: وهنا تمكنت من رؤية شجرة الغرُطَة هذه فى ضوء النهار، وهى لاتعدو أن تكون نوعا من أنواع شجر الإثل، أوإن شئت فقل: شجرة الطرفاء. وأعراف تلك الشجرة مرة الطعم، وذلك على العكس من ـ الإثل الشائع ـ مالح المذاق : وإبل القصيم ترخى أعناقها إلى أعراف تلك الشجرة كى تقضم منها ما يملأ أفواهها أثناء المسير ـ وهنا ارتفعت الشمس المحرقة فوق أفق النفود: وهنا انسلخ البدو عنا قاصدين منازلهم؛ وواصلنا نحن مسيرنا فى قاع الوادى، الذى بدى لنا وكأنه سينتهى بعد ساعة واحدة. هذا يعنى أننا لسنا على بعد أميال كثيرة من عنيزة:ـ سمعت تغريدا صادرا عن طائر صغير، وهو يتنقل بين أدغال الصحراء، ثم راح ذلك التغريد يتصاعد محدثا النغمات كلها! كانت تلك النغمات عذبة وحلوة، على نحو لم أكن أحلم به.

حاولت أن أعرف من ذلك الرفيق الوحشى، ذلك الذى كان زامل يريده منى، سألته، إلى أين سينقلنى ؟، أجاب حسن،' إلى البلدة؛' وأننى ينبغى أن أنزل وأقيم فى ذلك البيت الكبير الموجود فى منطقة القاع ، ـ أوإن شئت فقل: منزل رشيد، ذلك التاجر الشمالى، الذى يغيب عن عنيزة فى الوقت الراهن .دخلنا واقتربنا وأصبح يتراءى لنا حقلا من حقول القمح الواقعة على أطراف البلدة؛ وهنا قصد حسن إلى مزرعة من مزارع النخيل ـ التى كانت تقع خلف أرض القمح. وعندما وصلنا إلى مزرعة النخيل نزل عن الناقة كيما يتحدث مع بعض الناس الذين سبق أن سمعنا أصواتهم فى المقهى ، ـ هذا المقهى عبارة عن حظيرة من العصى ومن جريد النخل، وهى ايضا بمثابة المأوى الذى يحتمى به المزارع. ـ أبلغهم أن أوامر زامل تقضى بإنزالى فى هذا المكان . لم يكن أهل الحديقة قد سمعوا من قبل هذه التعليمات: وبعد الأخذ والرد فى الكلام، عزمنى إبراهيم، رئيسهم وطلب منى النزول عن الناقة والدخول إلى المقهى، وأنه هو بنفسه سوف يركب مع حسن إلى المدينة للتحدث إلى زامل حول هذا الموضوع . قالوا لى: إن عنيزة يمكن رؤيتها من الكثبان الرملية التى تلى الكثبان التى نحن عليها حاليا. مزرعة النخيل التى نحن أمامها حاليا والواقعة على أطراف عنيزة تقع فى خليج من خلجان وادى الرماح، على بعد مسافة قصيرة (جنوب) العيَّارية.

كان الناس هنا مشغولين بدرس الحبوب: وأرض الدرس هنا لم تكن سوى قطعة من الأرض المعتادة؛ وشاهدت طابورا مكونا من اثنى عشر ثورا تدور من حول محور، مربوط فيه الثور الداخلى من بين هذه الثيران. وهذا يمكن من هرس سنابل القمح وفصلها عن السيقان، ثم يقوم النسوة بعد ذلك بفصل الحب عن التبن عن طريق الضرب بعصى من الخشب . أما الغربلة هنا فلا تعدو أن تكون عن طريق تذرية التبن المهروس فى الهواء، مستخدمات فى ذلك قبضات أيديهن. وكان يجرى تحميل زكيبة كبيرة من السنابل ومن الحبوب فوق ناقة من النياق، لإرسالها إلى منزل رشيد الموجود فى البلدة، وكانت تلك العملية تتكرر مرات عدة كل يوم.

كان سور هذا الحوش ،أوإن شئت فقل: القصر الموجود فى هذه المنطقة ، عبارة عن مبنى مربع الشكل مبنى من اللبن (الطوب النى)، وكان طول ضلع هذا المربع حوالى ستين خطوة ، وفى كل ضلع توجد أبراج مراقبة منخفضة عند الأركان. وفى المنتصف توجد البئر التى يصل عمقها إلى سبع قامات، ومبطنة بمبانى جافة، وكان المسار يتسع لاثنين من الإبل، كما كان المكان يسمح أيضا باستخدام الأبقار والحمير أيضا، فى جلب الماء، بدلا من الإبل؛ كان هناك مكان لإقامة الحارسة تلك المرأة العبدة هى وولدها، كما كانت هناك أيضا مخازن بدائية فى الأبراج، كما كان هناك بيت أيضا لراعى بئر الماء. كانت تكلفة العمال فى ذلك القصر الذى يشبه القلعة ومبنى من اللبن ، حوالى مائة ريال؛ أما تكلفة البئر فكانت حوالى خمسمائة ريال . ولم يكن لكل هذا المبنى سوى بوابة واحدة كانت تقفل عند دخول الليل. كل هذه التحسبات ـ التى لا يمكن التغلب عليها فى العمليات الحربية الضعيفة فى الجزيرة العربية، موجودة فى كل الممتلكات التى تقع على أطراف البلدان، كانت حيوانات المزرعة يجرى إعادتها إلى مراحها عند غروب الشمس.

قبيل العصر شاهدت خيالين وهما ينزلان من النفود. كان الخيالان هما الكنينى ومعه الصافى، اللذان جاءا لزيارتى ـ قال لى عبد الله الكنينى: إنه لاهو ولا عبد الله البسام، ولا أى أحد من أصدقائهما أحيط علما فى تلك الليلة برحيلك الاضطرارى عن عنيزة. وأنهما سمعا أول ماسمعا عن ذلك النبأ فى صباح اليوم التالى؛ وذلك عندما انتظرنى حامد، الذى كان قد عزمنى على تناول الإفطار، مدة ساعة، وتعجب لعدم

وصولي . وبعد أن ذاع خبر طرد النصراني أثناء الليل بدأ الناس يتكلمون عن ذلك الأمر في السوق : وجه الكثيرون منهم اللوم إلى الشيوخ .لم يكن الكنيني أوالبسام قد علما بالأمر كاملا في ذلك المساء؛ وعندها ذهبا إلى زامل ، وتساءلا،" لماذا طردني بهذه الطريقة، دون علمهما بذلك ؟' رد زامل عليهما،'أن تلك كانت إرادة المجلس ،' وأنه لم يكن ليعارض تلك الرغبة قال صديقاي: 'لكن لومات خليل،ألن يلقى باللوم على عنيزة؟ـ طالما أن النصراني جرى استقباله في المدينة. خليل كان ابن جواد Juad ، وأصبح من مسئوليتهم توفير الرحيل الآمن له.' وهنا طلب البسام ،الذي لم يكن زامل يرفض له طلبا، استدعاء خليل مرة ثانية:ـ" وأردف الكنيني، إنه يمكن أن يقيم في واحدة من الجنائن الواقعة على أطراف البلدة، هذا إذا تعذر استقباله في البلدة مرة أخرى [بسبب الحقد والكراهية الوهابية]، إلى أن تكون قفيلة جاهزة للرحيل.' وهنا وافق زامل ، وأرسل في طلب حسن الجمَّال؛ وطلب إليه أن يركب عائدا ثانية إلى الخبراء لإحضار الحاج خليل مرة ثانية. وهنا طلب صديقاي من الرجل أن يركب ناقته على الفور؛ وحددا لزامل مزرعة نخيل رشيد.

قال عبدالله:إن أحداً لن يسيئ إلى أويضايقني هنا؛ وأنني من حقي أن أنال قسطا من الراحة إلى أن يدبر لي وسيلة آمنه للرحيل : ثم سألني، عن المكان الذي أريد الذهاب إليه؟ـ قلت:" إلى جدة". قال: 'سوف يبذل جهده لتحقيق ذلك لي أيضا ، بموافقة من زامل ؛ كما سألني أيضا عن احتياجاتي في الوضع الراهن ؟ـ سألته إن كان بوسعي رؤيته مرة ثانيه؟' ـ'ربما لايسمح الوضع بذلك :أنت تعرف ألسنة هؤلاء الناس!" ثم طلبت من ذلك الرجل الطيب أن يعطيني نقوداً على سبيل القرض ؛ كان بصحبتي دفتر شيكات، عندما وصلت إلى ذلك الشاطئ ؛ وحررت له شيكا ببضع ريالات قليلة. كانت النقود من منظور الكنيني الفلسفي بمثابة، نجس' nejis ' الدنيا' ed-dinya؛ وبالرغم من ذلك كان ذلك التاجر يود من حامد(تلميذي في اللغة الإنجليزية] مواصلة تعلم الشفرات !ولكن ذلك كان من باب الود لكي يعلمني ؛ فقد قال بعد ذلك ووجهه يوحي بالصرامة:'ياخليل، لاتثق بأي إنسان !أو بي أنا شخصيا." لعله وهو يقول ذلك، كان قد تذكر عادتي غير الحكيمة عندما كنت أتكلم بصراحة ووضوح ؛ حتى فيما يتعلق بمسألة الدين. قال : إني هنا لست في خطر، بل وفي مأمن من الأمير علي: وعندما

قلت لصديقى إن الوهابى العنيد رفسنى،" تعجب على، يالله !يالهذا العلى الشرير!"- هذا الشيك الذى أرسله فى الصباح، لكى يحصل على النقود، وصل إلى يداى، بعد عام كامل فى أوروبا :فقد جرى سداد ذلك المبلغ فى بيروت- والعملة المستعملة فى القصيم هى الكراون الأسبانى: تساءلت عن الطريقة التى يحمل بها التجار الأجانب نقودهم عبر الصحراء ؟وأجابونى ،"مع قوافل الحج المؤمنة".

مزرعة رشيد هذه تقدر بحوالى فدان واحد وربع الفدان؛ ثلث هذه المساحة مزروع بالنخيل ،أما الباقى فهو عبارة عن أرض غير مسوّرة تزرع بالحبوب، وتقع فى اتجاه الوادى. كانت فى هذا المكان، من قبل، بيارات النخيل التى دمرها الوهابى فى إحدى المعارك الحربية؛ وأوقفت البئر بفعل المحاصرين من عنيزة- ولم يتبق من تلك المزرعة سوى قاع صحراوى ، عندما قام رشيد باحتلال هذه المنطقة، التى زرع فيها نخيلا وحفر فيها بئرين. الأرض وما عليها من النخيل الصغير تقدر قيمتها حاليا بحوالى سبعة آلاف ريال. عندما وصل ابن الرشيد إلى مداخل البلدة قبل عامين أوثلاثة أعوام مضت، مع بريدة، كانت تلك الجنينة مخيما لبعض من خيّالة بن الرشيد: وجدوا فى ذلك المكان علفاً كثيراً- هذا المكان كان مأهولا فى الماضى : والسبب فى ذلك أن العمال فى كثير من الأحيان كانوا يعثرون على قطع فخارية قديمة وطوب محروق عندما كانوا يقومون بحرث هذه الأرض وعزقها.

فى هذا المكان كان هناك رجل يدعى صالحا Salih، وهو واحد من الباعة الذين يعملون فى سوق القماش ؛ صالح هذا (ينوب هنا عن والده) صاحب الجسم فارع الطول الذى يشبه الفلاحين، والذى كان يأتى إلى هذا المكان يوميا قادما من البلدة- لوكتبوا على ظهر هذا الصالح عبارة بُطال Battal ابن ibn بُطال Battal،" لما فشل كل من لايقرأها ولايخطئ فهم هذا الكلام. كان ذلك الرجل ملتهب القلب، قليل البديهة، كسير الرأس ؛ وكان يحسب نفسه سكّيرا فى هذه الدنيا - بدأ صالح يقول لى فى المساء وأنا مندهش تماما !أنه سافر مؤخرا إلى أوروبا؛ وشاهد بلاد النصارى العجيبة ! وأضاف ذلك الأفاق، وهو مشدوه! إن تلك الرحلة كلفته "سبعمائة ليرة (أى ٥٦٠ جنيها إنجليزيا)." "قال: أبحرنا من البصرة؛ ووصلنا إسطمبول؛ وتجاوزنا جزيرة- أنا لاأذكر اسمها حاليا: ونزلنا فى لندن. وبعد ذلك زرنا باريس Baris ، وفيينا، والهند - هذه المدن

الكبيرة من مدن النصارى!" أمضوا سبعة أشهر: منها شهر من شهور الصيف فى لندرا Londra ـ وكانت لندن London رائعة! وفى باريس Baris أمضوا شهرا ـ وباريس Baris كانت جميلة جداً! ولكن الناس كان يحملقون ويطيلون النظر إلى ملابسهم الشرقية! وبعد ذلك بدءوا يرتدون الملابس ـ على طريقة الطربوش، وغطاء الرأس مثل الأوروبيين.

سألته عن رفيقه؟ وأجابنى،" يوسف Yusef الخالدى khalidy" ـ تصادف أن كنت قد مررت على فيينا يوم أن كان الخالدى فيها! وكنت قد لاحظت غريبين ساميين Semitic يضعان على رأسيها غطائى رأس حمراويين وهما فى الأماكن العامة! وكان ذلك الاسم معروفا لى! لأنهما سبق لهما زيارة المستشرق فون von كريمر : Kremer الذى كتب لى ذلك الاسم فيما بعد (باللغة العربية) يوسف الخالدى YUSEE KHALIDY القدس EL-KUDS: وقال لى إنه من العلماء المسلمين، ويقوم بالتدريس فى إحدى المدارس [وكان يتباهى بسلالته النسبية الأصيلة وأنه تسبب فى ارتداد البعض عن المسيحية] فى القدس، وأنه له معرفة ببعض اللغات الأوروبية؛ وأنى فى يوم ما قد ألقاه هناك ـ تناولت من زكائبى مجموعة من الرسائل ؛ وعرضت هذه الكتابة أمام عينى صالح الجريثتين والذى بدأ يقول، بعدأن ظهرت عليه بوادر الانهزام؛ إنه لم يكن هو الذى سافر إلى الغرب وإنما شقيقه هو الذى فعل ذلك ـ وأن شقيقه هذا يدعى علياً، وهو تاجر ومالك أراضى فى البصرة؛ كما أن عدد نخيله"يفوق أعداد نخيل عنيزة كلها!" [كنت قد سمعت أن عليا الرشيد لم يكن اسما ذائعا فى البصرة ـ ويقال: إنه قصرٌ فى أسفاره الأوروبية!] وأنه ترك هذا الصالح Salih وصيا على شئونه، أثناء غيابه. وقيل لى أيضا فى عنيزة عن هذا العلى نفسه،"إنه حدث أن أحضر إلى هذا المكان (هنا) غريبا من الشمال،وأن ذلك الغريب كان كافرا Kafir ـ ولكنهم لم يستطيعوا أن يعرفوا إن كان يهوديا،أم مسيحيا أم نصرانيا؛ جاءوابه لتركيب ترس لمضخة المفروض أن يوفر فى تكلفة العمالة. ولكن قبل اكتمال ذلك العمل وصل صبر الوهابيين إلى منتهاه؛ وجرى طرد ذلك الميكانيكى من بينهم لأنه لم يكن من دينهم.

رسخ كلام على العائد من الغرب، فى أذنى صالح. وراح صالح يحلم بعالم النصارى العجيب، العامر بالاختراعات المذهلة! الأمر الذى جعل موطنه نجد يبدو

لخياله المريض كما لو كان مجرد صحراء جرداء،إذا ماقورن بذلك الذى رآه من خلال عينى أخيه فى أوربا - ولما كان خليل أوروبيا ، فإن صالحا بدى عليه وكأنه يقرأ فى أقوالى البسيطة ألغاز (سيدنا) سليمان.

كان إبراهيم متزوجا من أخت صالح- وإبراهيم هذا رجل سمج ولكنه يتميز بظل خفيف، كما أنه مجادل سمج وسخيف ؛ ولكن فيه شىء من طيبة القلب، عندما لايكون غاضبا : كان إبراهيم يتواجد هنا بصورة مستمرة حتى يشرف على عملية الحصاد. فهد،أحد العاملين وعمره حوالى عشرين عاما وهو الابن الأصغر لرشيد، وكان يشرف هنا على المزارعين- وفهد هذا شخص أكثر أمانة وصدقا من الآخرين؛ ولكن له طبيعة جامدة هى التى حالت بينه وبين تعلم القراءة والكتابة. ومن ثم اضطر والده إلى نفيه فى الحقول؛ حتى يمكن للأسرة أن تفيد شيئا من ذراعيه القويين. هذا الشاب الصغير كان وقحا ويائسا فى ذات الوقت غير أنه كان جاداً ومثابرا فى العمل: وكل ماتعلمه فى المدرسة لايعدو أن يكون ذلك الذى يمكنه من أداء الصلاة.

هذه الأسر الثرية كانت جديدة على هذه المنطقة، وكانت منغمسة فى المجون إلى حدما: كانت سلالتهم من الجزيرة العربية، ولم تكن داكنة البشرة. كان رشيد الكبير فى أيام شبابه صبيا مع أحد القصابين؛ وكان يحمل لحم الضأن ولحم الإبل على رأسه من بيت إلى بيت. ثم تحول بعد ذلك إلى بائع يبيع الملابس القطنية وبشنيقات النساء؛ وسرعان ماتحول إلى تاجر ثرى. ولكن أصواتا كثيرة كانت تتناول مسيرة ذلك الرجل من نواحى مختلفة داخل عنيزة، البعض يقولون: إن "رشيد عثر على كنز فى الحجاز، وذلك أثناء عودته من مكه مع الحج؛" بعض آخر يقول: إنها النعمة:" فالله يعطيها لمن يشاء ويمنعها عمن يشاء فى هذه الدنيا."- كبر رشيد ومارس التجارة فى الشمال: وأصبح واحداً من كبار تجار الساحل؛ وتجارته تتركز حاليا فى مدينة البصرة. وله أبناء تجار فى كل من الزبير والعمارة Amara؛ وله ولد ثالث فى الكويت. بالإضافة إلى صهر له يعمل بالتجارة أيضا فى وادى الرونّيه Runnya فى بلاد بيشة Bishy؛ كما أن له ولدا آخرا كان يعمل بالتجارة مؤخرا فى منطقة عدن. سمعنا أن رشيد الكبير، سيعود مع القافلة القادمة - كانت توجد إلى جوار ذلك النخيل مزرعة لأسرة فقيرة، هى أيضا من النوع المتحرر: ولكن بطريقة تصعب ملاحظتها، من خلال أعين الغرباء، فى أضعف الأحوال، وتميزها عن بقية المواطنين الآخرين.

كان إبراهيم واحداً من النجديين الشرقيين الكثيرين، الذين ذهبوا قبل سنوات عدة، للعمل نظير أجر فى حفر قناة السويس: يعتقد إبراهيم أن مائتين من رجال القصيم كانوا يمارسون هذا العمل فى حفر القناة. وقال أيضا إنه سبق له أن شاهد فى هذا المشروع الشعوب أوإن شئت فقل : الناس النصرانيين."- شاهد فرنسيين ، وإيطاليين، ويونانيين(*)، كان يظن أنهم يتكلمون لغة واحدة! وشاهد بعض الطرود التى كانت ترسل من قناة السويس على عناوين الحانوتيين. تَمعَّن إبراهيم فى عمل المرأة الإفرنجية؛ وتفكر أيضا، على حد قوله، فى المرأة - الرجل التى تحمل مسدساً تعلقه فى وسطها، وتقوم بدور الريس الذى يشرف على العمال أثناء أدائهم لعملهم. كان هناك جمع كبير من أمم مختلفة، خليط من الرجال المعسرين والمحتاجين- هذا القطيع من البشر المهاجرين كانوا يلبسون أثمالا مهلهلة! كان من بينهم مسلمين ومسيحيين - وبخاصة اليونانيين الشرقيين (الروم er-Rum) المتشددين، كل أولئك كانوا مختلطين بعضهم ببعض؛ يضاف إلى ذلك أن المسالمين من هؤلاء البشر كانوا يخشون أن يضلوا طريقهم إلى رفاقهم أو يتوهوا منهم فى هذا الزحام. كان إبراهيم يرى فى مظاهر العداء الطبيعية هذه نوعا من حروب الأديان:" إدعى إبراهيم ،أن الروم هم الذين كان لديهم أكبر قدر من السلاح - وأنهم هم الذين كانوا يتعاركون مع المسلمين ." وقال: إن اليونانيين ملعونين من الإسلام فى تلك الأماكن؛ وقد وصل الأمر إلى حد أنى سمعت بين البدو الرحل السيناويين، شخصا يسب خصمه - مستخدما الكلمة الإفرنجية ، أنت أبشع من اليونانى! !Greco". كان الجنود المصريون يقضون على هذه الاضطرابات، على حد قول إبراهيم ،بالعدل - والحيادية وعدم الانحياز.

حكى لنا إبراهيم ،إنه ذهب إلى السويس ومعه قلة قليلة من الرفاق، وأنهم تربص بهم بعض النصارى السفاحين: ولكن وفد عليهم خيال نصرانى ؛ وراح يتكلم آمرا أولئك السفاحين؛ وأقنعهم بالرجوع عن غيهم- وأنهم عندما دخلوا السويس شاهدوا

(*) واضح مما ورد فى السياق أعلاه أن العمل فى حفر قناة السويس لم يكن قاصرا على المصريين وحدهم وإنما كانت هناك العديد من العناصر التى شاركت فى ذلك العمل من الجزيرة العربية وشعوب البحر المتوسط كما كان العمل فى حفر القناة يتسم بالسخرة والمعاملة السيئة للعمال. (المترجم)

ثلاثه جثث مجردة من ملابسها وملقاة فى الشوارع ، وأن تلك الجثث كانت لأناس مقتولين! وأنهم جرى جلدهم على وجوههم، الأمر الذى كان من الصعب معه التعرف على هويات هؤلاء المقتولين؛ ومع ذلك أمكن التعرف عليهم، من علامة الختان، التى يتميز بها الإسلام.

كان لدى إبراهيم المزيد من الحكايات الجميلة عن السويس: حكى لنا عن صداقاته مع النصارى. حكى لنا، أن بعضا من جيرانهم النصارى ،عزموهم ذات يوم لكى يشربوا معهم فى الخيام: ولكنهم اعتذروا عن ذلك، وقد دعاهم النصارى إلى تناول العشاء؛ وكان ذلك العشاء عامرا بالكرم حكى لنا بعض النكات المبتورة بلغته العربية، وحكى لنا أيضا عن بعض معارفه من المسيحيين- حكى لنا إبراهيم أنهم فى ليالى كثيرة كانوا يسرقون عارضة خشبية كى يستعملونها فى طهى الطعام وإعداد القهوة، وكانوا يخفون تلك العارضة أثناء النهار. وعندما قلت متعجبا، لصا! أجابنى،" الخشب برغم تكلفته الكبيرة، لم يكن ملكا لأحد؛ وإنما كان ملكا للكبانية (الشركة)!" Kompania عاد إبراهيم من تلك المهمة بعد اثنى عشر شهرا؛ عاد مفتقرا إلى القلب الإنسانى، وثريا بمبلغ يتروح بين مائة ومائتى ريال. وبالرغم من أنه لم يكن فقيرا أومحتاجا فى بلده، إلاأنه قطع مسافة سبعمائة ميل كى يعمل حفارا فى السويس!- ولكن هذا هو حال فقر سكان الواحات فى الجزيرة العربية.إبراهيم هذا كان من السلالة الأصيلة، وكان زوج أخت على، ذلك الرحّال العربى. وجدت ذاكرتى هذين الرجلين متأثرتين بقناة السويس؛ وقال لى البعض من الناس:" ألايمكن عمل قناة مثل هذه القناة عبر نجد؟"- كانوا يظنون، أن مثل هذه القناة، ستكون لمصلحة بلدهم.

كان علىّ أن أمضى أياما طويلة فى بيارة النخيل هذه. كان خُص القهوة (الذى يطلقون عليه هنا اسم 'معشوش' maashush أومجبوب mujbbub) هو الملاذ الذى أحتمى به من الشمس الحارقة؛ كما كان معلف الجمل المبنى من الطين فى منطقة البئر، هو السرير الذى أنام عليه، فى العراء وبلا غطاء أثناء الليل. لم يكن النمل كثيرا هنا فى هذه الجنينة التى تقع على طرف البلدة؛ ولكن أهل المدينة 'لم يكونوا ينامون بسبب النمل' فى هواء عنيزة الساكن الراكد. كانت تنبعث أثناء الليل، من البئر الأصوات التى كانت تصدر عن صراصير الغيط - وفيما بين منتصف الليل وطلوع

الصبح كنت أسمع الضوضاء الناتجة عن السوانى (السواقى)، كما كنت أسمع أيضا وقع أقدام الإبل؛ كما كنت أسمع كذلك وقع أقدام ذلك الراعى الذى يتتبع تلك الإبل جيئة وذهابا. كنت أجلب الماء لنفسى من البئر بواقع مرتين فى اليوم الواحد، وكنت أذهب لجمع الحطب من النفود، كى أسلق لنفسى حفنة من الأرز؛ وكنت أجد متعة وأنا أراقب ذلك الشىء من الحياة فى ذلك البحر من الرمال.لم أشاهد فى شبه الجزيرة العربية كثيرا من النباتات ومن الحشرات التى سبق لى أن شاهدتها فى جزيرة سيناء - سيناء تلك الصورة المصغرة للجزيرة العربية - أقول إن تلك النباتات والحشرات لم أشاهدها فى شبه الجزيرة العربية الكبيرة! هذه هى صحارى القردة وقد ابيض لونها بفعل القواقع الأرضية البيضاء ولكنى لم أعثر على هذا النوع من القردة فى صحارى الجزيرة العربية الجافة. لم أعثر سوى على قليل جداً من البنور التى استطاعت التغلب على تلك الصحراء! ونلاحظ هنا أيضا قصر أطراف بعض المخلوقات .أين منا نباتات الأراضى الواقعة على حدود هذه الجزيرة؟ـ من الصعوبة بمكان هنا العثور على أى نوع من الأعشاب الفطرية، فى بعض واحات هذا البلد! هناك بعض القواقع المائية تعيش فى غدران الماء الكبريتى) فى كل من قرية العلا وخيبر؛ ولكن الضفادع التى نسمع نقيقها فى ينابيع وعيون خيبر المائية الدافئة، لانجد لها وجوداً، ولانسمع لها نقيقا هنا على بعد ثلاثين فرسخا فى المياه المماثلة فى كل من العلا وتربة. هذه الضفادع لاوجود لها فى عنيزة أوبريدة، اللتان لايوجد فيهما سوى مياه الرى، وليس لهذه الضفادع وجود أيضا فى أية واحة من الوحات النجدية التى قمت بزيارتها: كنت قد سمعت نقيق ذلك الضفدع أول مرة، فى مكة أو إن شئت فقل فى (منطقة تهامة). هنا (لم أكن قد سبق لى مشاهدة ذلك من قبل فى نجد) نوع من الخنافس التى كانت تحبو على رمال الصحراء أثناء النهار: وكانت الفريسة التى تلتهمها تلك الخنافس تتمثل فى روث الإبل. صيادو هذا النوع من الخنافس يستخدمون فئوسا قوية؛ ليرفعوا بها كميات كبيرة من الرمل ويحملوه على ظهورهم، ليبعدوه عن تلك الخنافس حتى يتسنى لهم صيدها.

العيال هنا ومعهم صبية آخرون من المزرعة المجاورة ومن قرية العيًارية، يتجولون حول النخيل فى ساعات الفراغ ويلهون بالسلاح، وهم يصطادون الطيور. وهم هنا

يأكلون لحوم الطيور على اختلاف أنواعها، ومنها الهدهد بعرفه الملكى ، وقد قالوا لى إن الهدهد كان ملكا للطير فى يوم من الأيام ، وأنه كان خادما (لسيدنا) سليمان؛ الذى أمر الهدهد بالبحث عن الماء فى الصحراء؛ ولكن أصبح نجسا وغير مفضل . هذا الطائر الذى يعيش فى المزابل، يطير على شكل ثنائيات وثلاثيات فى البساتين هنا، وهو يشيع جداً بين الطيور (الطفيلية) الأخرى التى توجد بأعداد قليلة جداً فى الواحات.

قبيل الظهيرة، وعندما تشتد حرارة الشمس على غتر رءوس هؤلاء العيال، تراهم يعودون من عملهم الحقلى إلى ظلال بعض الأغصان، لكى يتناولون طعام الإفطار بشىء من التمر. ثم يجلسون بعد تناول الإفطار،إلى مابعد الزوال، أى إلى ماقبل العصر؛ ولكنهم لايكونون بلا عمل طوال هذه الفترة؛ إذ تكون أيديهم مشغولة فى عمل مقاود إبل الماء.البعض منهم يقوم بتجهيز ليف النخيل (الذى يكون منقوعا فى الماء)؛ والبعض الآخر يفتلون ذلك الليف كيما يصنعون منه حبالا مفردة، وحبالا مزدوجة. ومن الحبلين المزدوجين يصنعان حبلا واحداً من حبال الإبل ؛هذا الحبل الواحد يمكن أن يفتلوا معه حبلا آخرا ليصنعوا منه حبلا سميكا من الحبال التى تستخدم فى الآبار. كل هذه الحبال مصنوعة بطريقة بدائية، وبخبرة هؤلاء العرب: ولكن حبال الليف هذه تستمر أوتستخدم لفترة طويلة، والتكلفة منخفضة أو تكاد لا تذكر.

كان أول عيِّل من تلك العيال شاب صغير من شقراء ، فى الوشم ، والوشم هذه سهل من السهول- [من بين الأماكن الأخرى فى الوشم Weshm أشقير Shujjer، وهى قرية قديمة بالقرب من شقراء وهناك أيضا ثرمدة Thermidda، ومرأة Marrat، والعُزيزية Othe thia، والقرائن el-Geryen، والقصب Kessab، والحريق el-Herreyik، والجريفة el-jerryfa والشجير Osheyjir (التى جاءت منها أسرة البسام)، والفراع el-Ferra. وأهل شقراء هم بنى Beny زيد Zeyd، والسويدة es-Suedda (وهم من أصل قحطانى) . وشمالى البلدة عبارة عن نفود رملية، يطلقون عليها اسم المستوى el-Mestewwy، ومن ناحية الغرب توجد منطقة السِّر es-Sirr، ومن ناحية الجنوب يوجد الإنقيل el-Engll وهى عبارة عن حفرة ماؤها "يبقلل" أو يحدث فقاعات. أما التويم

El-Toeym فهى عبارة عن هجرة (كفر) فى الناحية الشمالية الغربية، وفيها انقاض" مدينة محصنة ذات أبراج مربعة الشكل، بنيت خصيصا لرماة السهام." أما الحاجية el-Hajia أو(إن شئت فقل: قرية Garat الحجيج el-Hajij، والتى تقع بين بلدتهم وبلدة ثرميدة، فهى عبارة عن تلة عليها بعض أنقاض مبنى حجرى وبعض الأعمدة: والناس هنا يقولون :"إن ذلك كان مكانا من أماكن الحج فى زمن الجاهلية]. هذا الشاب الصغير بالرغم من أنه كان يعيش من عمل يده، إلاأنه كان إنسانا صبورا :كانت إنسانية ذلك الشاب تنساب علينا أثناء جلوسنا فى فترة العصر، فى الوقت الذى يقوم فيه بفتل الليف وعمل الحبال، وفى رواية الحكايات؛ يضاف إلى ذلك أن صوته كان جميلا .أى أنه كان من الأصوات الموسيقية التى تنساب فى الآذان محدثة صورة من صور الحب والعاطفة الجياشة؛ والناس هنا لايتساءلون كثيرا عن القصص التى تروى، كانت طريقتة فى رواية القصص مثل الطريقة التى سبق لى أن استمعت إليها فى خيبر. وفى بعض الأحيان كان يروى لنا حكايات تثبت صحة الأمثال ـ وبخاصة الأمثال السائدة بينهم ؛ والتى منها المثل الذى يقول: "الحصيف هو من لايفشى اسمه وسط جماعة عربية"ـ "ذات مرة، وبينما كان آلاف الحجاج فى "منى Muna، تناهى إلى الناس صوت، صياح قائلا:هل إبراهيم Ibrahim الصالح Es-Salih الذى من بلدة الرس er-Russ، موجود هنا؟" وكان هناك رجل من الرس ـ فى القصيم ،ضمن الحج، ويحمل هذا الاسم؛ وردَّ ذلك الرجل (أملا فى أن يسمع شيئا لصالحه)؛" إنه أنا ."ـ واقترب الغريب، ولكنه سرعان ماهجم عليه بالسيف ـ وأرداه قتيلا! لأن ذلك كان يثأر لمقتل قريب له! وقتل قروى القصيم بطريق الخطأ؛ لأن القاتل كان من الرس فى اليمن!"ـ ويندر فى الحياة الصحراوية، أن يسمى شخص روحه ruh-hu (نفسه) أمام غريب من الغرباء!

ولكن ذلك الذى حكاه لى ذلك الشاب الشقرى، كان جديرا بالانتباه، فيما يتعلق بالدمار الذى حل بالوهابى فى نهاية الأمر – والذى لم تعرفه أوروبا ـ عندما توفى فيصل ذلك العجوز الضرير، خلفه فى الحكم فى الرياض ولده عبدالله ،الذى كان هو الأكبر سنا من بين ولديه. ولكن ابنه الأصغر سعود، الذى كانت له شعبية، انسحب إلى المن وجمع حوله أتباعا ومشايعين له من وادى بيشة Bishy ومن وادى الدواسر، ومن بدو

المضارب. ثم عاد ومعه هؤلاء الأتباع والمؤيدين إلى نجد: وحارب أخاه، وأبعده عن الحكم؛ وأصبح عبدالله، الأخ الأكبر، هاربا فى بلاد ابن الرشيد(*) [أنظر٥٠]

بعد أن تولى سعود الحكم كان عليه إخضاع قبيلة عتيبة الكبيرة؛ لأن تلك القبيلة كانت حليفة لعبد الله ـ وبدأ سعود ومعه رجاله المسلحين، ومعه أيضا الحلفاء من البدو الرحل، ومن العجمان، ومن أعراب الدواسر، ومن المُرة، والقحطان، والمطير، وكانت كل قبيلة من تلك القبائل تسير تحت لواء (بيرق)جرى تسليمه لها من سعود الأخ الأصغر- كان العتبان ينتشرون على مساحة شاسعة من الصحراء؛ ولكن وصلت الرياض أخبار مفادها أن مخيما صيفيا كبيرا، كان مقاما بالقرب من مورد من موارد المياه. عجل سعود بالوصول قبل أن تتفشى أخبار مجيئه وتحول بينه وبين مايريد ـ كان ذلك فى وقت الصلاة، فى فترة العصر، وعندها أصبحوا على مرأى من عتيبة؛ أولئك الذين أخذوا على غرة: ولكن البدو نظرا لأنهم كانوا قد وقفوا وأمسكوا بأسلحتهم، كانوا على استعداد لملاقاة أعدائهم. توقف سعود ولم يبدأ القتال فى ذلك اليوم؛ نظرا لأن رجاله وحيواناته وصلت إلى المخيم وهى متعبة وكان الرجال مرهقين أيضا، بعد تلك الرحلات الطويلة: وانسحب الوهابيون قبل غروب الشمس؛ ونزلوا بعد ذلك لإقامة مخيمهم.

تصادف أن كان ذلك الشاب الشقيرى (الذى أتجر فى ذلك العام مع الأعراب بمبلغ مقترض صغير) فى منْزل عتيبة، ومعه تاجر آخر، وكانا يبيعان الأقمشة. صلى الأعراب الفجر، وعين شيوخهم بعضا من رجال القبائل لكى يحرسوا المخيم أثناء غيابهم عنه ـ "قال المضيف للتاجرين الشابين، أبقيا هنا ياشباب؛ ديرا باليكما على نفسيكما: وسيحدث مايشاؤه الله."

وتعجل العتيبان وذهبوا لملاقاة الأعداء المتقدمين ،الذين كان عددهم يبلغ ستة أضعاف عدد العتبان. فى البداية صد العتبان المطير وكسروهم؛ وأخذوا منهم بيرقهم- وما الذى حدث بعد ذلك؟ قام القحطان بالهجوم على جانب من جانبى أصدقائهم- وهم

(*) كان الصراع الذى حدث بين ولدى الإمام فيصل بن تركى - عبد الله وسعود - داما للعثمانيين للسيطرة على الأحساء فى عام ١٨٧١ بدعوة من الأمير عبد الله بينما اعتمد سعود على مساندة الإنجليز له.

وقد أدت هذه الصراعات إلى إضعاف السعوديين ومن ثم تصاعد نجم آل رشيد . (المراجع)

الأفضل من حيث التسليح بين البدو الرحل. وخلال اللحظات التى تلت ذلك، أنزلوا الهزيمة بخيالة ابن سعود، واستولوا على"مائتى" فرسـ أى مايقرب من كل الخيول الموجودة فى أسطبل الوهابى، والتى جرى تجميعها منذ زمن طويل. ثم تحول هؤلاء الرجال، الذين كانوا يشبهون الزنابير، وراحوا يحاربون المطير ويقاومونهم! وواصل البدو الذين استحوذت على أذهانهم ذكريات عداواتهم القديمة، القتال فيما بينهم، فى تلك المعركة الشرسة القاسية. وأخيرا انسحب القحطان مع ذلك الذى غنموه؛ وبقيت عتيبة الشجاعة سيدة فى ميدان القتال.

سقط من رجال سعود" ثلاثمائة رجل"؛ وأصبحت خيامه القليلة وماتبقى فيها تحت سلطان عتيبة: وعاد الذئب الوهابى إلى الرياض. ومع ضياع الخيول، دب الضعف فى الحكم الوهابى الذى دام مائة عام؛ ولم تقم لذلك الحكم قائمة بعد ذلك(*) ـ على حد الرأى العام فى نجد فى ذلك الوقت! مؤسس الحركه الوهابية، هو شخص يدعى محمد بن عبدالوهاب، أحد المشايخ المتعلمين الكبار، الذى كان يتجول فى الذّرعية(**) Ther,eyyeh فى شرقى نجد؛ ويقال إنه من سلالة بنى تميم؛ والبعض الآخر يقول:إنه من العنوز،أى من قبيلة عترة: وقد استطاع محمد بن عبدالوهاب أن يكسب إلى جانبه أمير المدينه، ذلك الرجل المحارب سعود Saud بن ibn عبدالعزيز Abd_ el-Aziz. هذه القوة الوهابية استقلت وأصبحت هى السائدة فى نجد: فى مطلع سنوات ذلك العصر استطاع الوهابيون الاستيلاء على الحجاز واحتلاله! وبعدها جاء محمد على، ذلك الحاكم الألبانى فى مصر، ومعه أسطول وجيش باعتباره" نائبا للسلطان لتخليص الحرمين الشريفين."ـ وقد عرفنا أن ولده إبراهيم باشا، وصل إلى وسط الجزيرة العربيه [أنظر صفحه ٤١٤]. بعد أن غادر إبراهيم باشا عنيزة، استولى على الدرعية ودمرها، ولم يجر بناؤها مرة ثانية بعد ذلك: ولكن الوهابيين أسسوا عاصمتهم الجديده وبنوها من الصلصال فى الرياض er-Riath. وبعدأن أفاقوا من الحملة المصرية، بدءوا يحكمون

(*) الصحيح أن الحكم (الوهابى) ، أو بالأحرى الحكم السعودى لم يلبث أن انبعث من جديد على عهد الأمير – الملك فيما بعد – عبد العزيز بن سعود فى عام ١٩٠١ . ومن الواضح أن المؤلف كان يتحدث عن زمن وجوده فى الجزيرة العربية بين عامى ١٨٧٦–١٨٧٨ ولم يكن على علم بالتطورات التى حدثت بعد ذلك . (المراجع)

(**) الصحيح هو "الدُّرعية" ولكنها وردت عند المؤلف بالشكل التى عليه فى المتن. (المراجع)

نجد كلها هى وصحراء الجزيرة العربية، ولكن الوهابى لم يفكر فى العودة ثانية إلى الحجاز(*) - ووصلتنا شائعة غير مؤكدة مفادها أن منطقة الأحساء الخليجية، التى كان الأتراك يحتلونها، قد أعطيت للوهابى من قبل الأتراك (بناء على إتاوة تدفع للأتراك).

علم الحكام الوهابيون البدو الصلاة؛ وهادنوا الصحراء: بمعنى أنهم خلصوا القرى من التحزب والطائفية؛ وبدأ الناس يتعلمون القراءة والكتابة. اكتشفت فى عنيزة أن كلمة وهابى تعد سُبَّة: [كانت هذه الكلمة، فى مزرعتنا، للسخرية والاستهزاء فى أفواه العيال، الذين كانوا يطلقونها على أى رفيق من الرفاق يكون سيئ الطبع.] - والذى يتبقى حاليا من الممتلكات الوهابية يتمثل فى مدينة الرياض بكل ضواحيها والجزء القروى المحيط بها. وهو مايكوِّن إمارة صغيرة وضعيفة- شأنها شأن بريدة. بلدتهم الكبيرة التى بنوها من الصلصال لتكون عاصمة للجزء المرتفع من الجزيرة العربية، يخيم الصمت عليها فى الوقت الراهن؛ وقد تخلوا عن صالة الضيافة الكبيرة [قصر الأمير الوهابى المبنى من اللبن أكبر من القصر المقام فى حائل]: وهاهم خدم ابن سعود يتخلون عن نجمه الآفل ويذهبون (كما رأينا) ليستأجرهم محمد بن الرشيد. ولا أحد من البدو يدين بالطاعة أو الولاء للوهابى؛ وهاهى القرى الكبيرة فى شرقى البلاد تصد جباة الضرائب التابعين لعبد الله بن سعود، وتردهم خائبين: ولكن الجميع يتعلقون بالدين الجديد(**) تعلقا شديدا - وهم يقولون، إن عبدالله، زاد حجمه ووزنه ولم يعد يصلح.

لم يمهل القدر سعود بالحكم مدة طويلة. فقد حكم ذلك الوهابى فى الرياض مدة عامين ثم مات بعد ذلك : والمعتقدأن سعود مات بمرض من أمراض الشيخوخة. الناس يقولون عن سعود :" إنه لم يكن رجلا طيبا: وأن كل همه كان يتمثل فى الفساد والتلف." ولما كان عبدالله، قد أعيدت إليه كرامته واحترامه، فقد عمل على الحفاظ على

(*) فى عام ١٩٢٤ نجح السعوديون فى الاستيلاء على الحجاز على أثر انتصار عبد العزيز بن سعود على الشريف حسين فى ذلك العام . (المراجع)

(**) الدين الجديد : من الواضح أن المؤلف يقصد بالدين الجديد تعاليم الشيخ محمد بن عبد الوهاب، ولم تكن هذه التعاليم بطبيعة الحال دينا جديداً كما ذهب المؤلف. (المراجع)

أبناء سعود، وجعلهم يعيشون ساكنين بلا حراك فى الرياض- بلغنى بعد ذلك بعام واحد أنهم ثاروا عليه.

وقبيلة مرة Morra (أو Murra)، وكذلك القحطان ومعهم بعض أعراب اليمن يتجولون فى اتجاه الشمال فى فصل الصيف، ويصلون إلى الوشم، فى وسط نجد: وقد تعرف الشقيرى الصغير على كثير من أفراد قبيلة مُرّة، وأناس كثيرين من القحطان الذين كان يراهم كل عام فى بلدته: [أبلغنى جابر أن مضارب القحطان تصل من ناحية الشمال إلى الحريق el-Harrich] كما أنهم يجلبون معهم قرون وعل الجزيرة العربية التى تشبه العصا، والناس يطلقون على ذلك الوعل اسم الوضيحى ،الذى يسكن الجزء الجنوبى أيضا من بلادهم والعتبان أمة كريمة ومضيافة، وهم من البدو، ويشيع عنهم أنهم أشد بأسا فى القتال من القحطان؛ وهم لايخونون بسرعة. وهم لديهم الكثير من الأغنام والإبل ؛ ولم يخضعوا لأى أحد، سوى كبار الأمراء الوهابيين . وكانوا يقاومون التحرشات السنوية التى كان يشنها عليهم ابن الرشيد كل عام؛ وكانت الحملات العثمانية، تجرد عليهم بين الحين والآخر، من المدن المقدسة لكى تجمع منهم الخراج بالقوة.

وقد بلغنا مؤخرا أن محمد بن الرشيد قد أطلق إبله فى مضاربهم . وتركناه، والغزو قائم على أشده فى مراعى الشمال، فيما وراء النفود. ومن هذه المنطقه بدأ الأمير يتقدم على شكل رحْلات rahlas (نقلات)، على الطريقة البدوية، التى تتمثل فى رعَى الماشية، وإقامة المخيمات، إلى أن وصل إلى سوق Suk الشيوخ es-Sheukh على نهرى بلاد الرافدين. من الذى يظن أن وجوده هناك هو بنية خطف فريسة من منطقة مكة؟ [التى تبعد مسير شهر بقافلة الحج !]ولكن ليس هناك من أحد غير الأسيويين الساميين Semitic الذين يشتهرون بتلك الاحتيالات. فالمرء يبحث عنهم فى عام قادم؛ وهم اليوم معك ومن حوالك !ركب ابن الرشيد ومعه جماعته المسلحة، ومعهم البدو والمؤيدين لهم؛ ومضوا بسرعة عبر الصحارى المرتفعة؛ واستولوا على جزء كبير من القصيم المأهول بالسكان. وأثناء مرورهم، استدعى ابن الرشيد ركاب قبيلة حرب، الذين كانوا متجمعين فى سميراء : وبعد بضع رحْلات شاهد ابن الرشيد حرة القشيب، التى تقع على حدود الحجاز- وعثروا على بعض من رجال عتيبة عند مسقى من مساقى المياه -: وكانت الغنيمة "ثلاثة عشر ألف جمل" [ربما كان العدد

١٣٠ ؛ لأن العرب يبالغون دوما فى الأعداد؛ وهذه مبالغة كبيرة وتلك شهامة لا تكلفهم شيئا]؛ هذا بالإضافة إلى الأغنام التى لاتعد ولاتحصى، وأثناء عودته عرّج ابن الرشيد على بعض من الحطيم الأحرار، الذين يرتبطون بتحالف مع قبيلة عتيبة؛ وغزاهم أيضا. أخبرنى شيخ من شيوخ عتيبة بعد ذلك، "أن ابن الرشيد لم يأخذ سوى فريق من أفراد قبيلته." ونحن نقدر ٢٠٠٠ بيت بما يساوى "ثلاثة عشر ألفا" من الإبل، وأن ذلك العدد من الإبل كان يدافع عنه أكثر من ألفى رجل، أو إن شئت فقل أمة عتيبة كلها ـ وهذا العدد أكثر من كاف لرد خصومهم الشمر إلى ديارهم وهم يبكون ويولولون. كان ابن الرشيد عندما قام بالغزو، فى المنطقة نفسها، فى العام السابق، قد عاد بخفى حنين، نظرا لأن أخبار الغزو كانت قد سبقته إلى هؤلاء الناس؛ وبالتالى أنقذ الأعراب أنفسهم بأن لاذوا بأرض ابن سعود.

ملحق الفصل الرابع عشر

أعراب عتيبة ـ عدَّد لى الشريف نصير، جامع الخراج لحساب شريف مكة، والذى رافقنى فى رحلتى إلى جدة، عدد لى مايزيد على ثلاثين فريقا من قبيلة عتيبة على النحو التالى : -

الثبيت

المزاحمة	الزُّيد	الشَّعادة	الزُّديان	
المفيريج	العصومة	الصوطة	الوجيدان	
المراشدة	الروثان	الوثنان	الهليسة	
المقوطة	النقوشة	الحليفات	الحصانة	
الجذيمة	البراريج	المناجيم	البطعانين	المناصير
الدَّاجين	الدهوسة	الإيالة	الشعيبة	الكرزان
الشعابين	المروحة	إربعة	الثُّبات	السباها
				العطيات

أضاف؛ أنه ذات مرة وعندما تجمع" أقل من ربع" القبيلة ليقفوا فى وجه سعود بن سعود، قام بإحصاء منازلهم ـ عندما كان يمر فى مكان مستقيم ـ فوجدها ٢١٠٠ بيتا . [لقدتا كدنا أن البدو الرحل يضربون العدد الصحيح فى ١٠].

الفصل الخامس عشر

حروب عنيزة، طرد القحطان من القصيم

طرد الحاكم الوهابي على يدى يحيى البطل. محاربة ابن سعود لعنيزة، الحرب الثانية. هجمة مفاجئة. نساء عنيزة فى الميدان. كلام زامل. انعكاس غريب. كلام يحيى. عزل زامل لأمير سابق مغتصب. حياة زامل المنزلية. ضرائب الأمير. مياه الآبار فى عنيزة. إدارة الآبار والرى. أمسيات فى البستان. أنواع النخيل. الجراد. وصول قافلة البصرة Bosra. عنف إبراهيم. رشيد يزور البستانى. الحريم. الجدرى. الأسر الثكلى. الجهاد. آراء أهل الجزيرة العربية فى أعمال الصدقات الإنجليزية. أعراب المطير ينضمون إلى عنيزة. العمليات الحربية فى المدينة، مع المطير، ضد القحطان(المعتدين). هجوم المطير الصباحى. وصول زامل. الإطاحة بالقحطان وهروبهم. قتل حيزان. مخيم القحطان فى قوة المطير. إطلاق سراح مغربى كان مستعبدا لدى القحطان. المطير والمدينة يعودان من الميدان. زوجات البدو يولولن حزنا على أزواجهن.'عندما يجىء المسيح هل سيطلب منا الإيمان بمحمد(ﷺ)؟' شيخ المطير الكبير. رحيل قافلة مكة. حامد اليحيى. النصرانى ينتقل إلى مزرعة نخيل الكنينى.

أنا أحكى هنا، عن الحروب التى دارت مؤخرا فى عنيزة، والتى جاءت على لسان أصدقائى، وقد سمعت تلك الروايات من أفواههم. حكوا لى أن جلوى Jellowwy [قالوا إنه كان كان مايزال على قيد الحياة]. شقيق الأمير فيصل بن سعود كان حاكما منابا عن الوهابى فى عنيزة؛ التى كان يضايق الناس فيها يوميا بأعماله الابتزازية المستبدة المبتكرة: فقد كان يطلب تمرا من البعض، ويطلب علفا من البعض الآخر لخيوله - دون أن يدفع عن ذلك أجرا، من النقود الكثيرة التى كان يحصل عليها؛ ولامن تلك النقود

التى كان يحصل عليها على شكل مساهمات ، أوحتى من المتحصلات السنوية ـ كان كبار المواطنين وأعيانهم يتشاورون فيما بينهم فى السر؛ وقرروا التخلص من جلوى بخلعه وأن يتولى أحدهم قيادة ذلك المشروع." قال أهل البسام ،لايمكن له أن يكون واحداً من بيتنا ؛ لأن ذلك يحتمل أن يشجع ابن سعود على إعلان الحرب علينا، على أمل مصادرة ثروات البسام." قال يحيى:" حسن، أنا تركتى صغيرة؛ وأنا على استعداد لتحمل مسئولية هذا الخطر: ولكن أعطنى خمسين سيفا لأولئك الشبان الصغار (من الخريسى) الفقراء." ومن المسلم به ومن المعروف أيضا أن العرب يتعجلون التنفيذ: وعلى الفور جرى حمل السلاح الذى سبق تجميعه، علانية فى الشوارع؛ ثم جرى وضع ذلك السلاح أمام يحيى الذى كان مع الخريسى فى المجلس. طلب يحيى من الشبان الصغار(الخريسى) حمل تلك السيوف: وصاح قائلا: "من سيكون معنا فى تحرير عنيزة، عليه أن يتناول سلاحه الآن!"

قاد الشيخ أولئك الشبان إلى بوابة بيت الحاكم؛ وطرق الباب بعنف!ورد عليه واحد من العبيد،" من الطارق ؟"ـ "قل لسيدك، إن يحيى موجود هنا ومعه رجاله؛ وهو يقول لك: 'غادر هذا البلد، فى التو واللحظة!"ـ ثم سمعوا بعد ذلك صوت جلُوى ينبعث من الداخل،"ماهذا، ياأصدقائى! أليس اليوم هو يوم الجمعة؟ وأننا أوشكنا على صلاة الظهر. هيا بنا نذهب جميعا إلى الصلاة؛ وبعدها سوف نترككم." يحيى:" ولكنى أقسم بالله، أنه عندما يؤذن المؤذن ستكون أنت ياجلوًى خارج أسوار عنيزة." جلوى:" هل ستعطينى أربعين ناقة."ـ "ستأخذ أربعين ناقة." فى عنيزة هناك الكثير من النياق المملوكة للناس ويحتفظون بها فى حظائر منازلهم. وجرى إحضار النياق، أمام بوابة جلوًى. وعلى الفور ركب الحاكم الوهابى هو وحريمه تلك النياق ومعهم الخدم أيضا: ركبوا النياق ومضوا قدما فى طريقهم؛ متجهين صوب بريدة ـ ووصل بهم الأمر إلى حد التزود بالماء بالرغم من قصر المسافة بين البلدين: ولكن القراب السوداء التى كانت تتدلى من مقدمة (سروج) عدد الجمال كانت مليئة بسمن الأمير الوهابى ! وهل يمكن لمواطن الجزيرة العربية أن يخلّف وراءه زبده ـ أوفلوسه Fulus ؟

تقدم فيصل بن سعود قادما من الرياض لاستعادة البلدة المتمردة؛ وجاء تابعه ابن الرشيد من جبل الشمر لمساعدته ومؤازرته . وبقيت قوة الحصار مخيمة على حدود

الوادى حتى العام الثانى [هذا هو أسلوب الحرب عند أهل الجزيرة العربية!]؛ وعندما فشلوا فى التأثير على أحياء عنيزة وضواحيها، قام الوهابى بمهادنة مواطنيها، وانسحب عائدا إلى الرياض. هذه الحرب التى يطلقون عليها حرب harb الأول el-awwel، بمعنى "الحرب السابقة" حدثت فى العام ١٢٦٩ -٧٠ هجرية(*) (أى قبل مجيئى إلى عنيزة بخمسة وعشرين عاما) كان أمير البلد فى ذلك الوقت هو عبدالله Abdullah ibn يحيى yahya بن ibn سليم Seleym.

الحرب Harb الثانى eth-thany، أوإن شئت فقل :"الحرب الثانية مع الوهابى" حدثت بعد الحرب الأولى بثمانية سنوات .ففى العام ١٢٧٨ هجرى، انهزم القسم الخاص بعبد الله Abdullah العزيز المحمد el-Mohammed أمير بريدة، والذى كان عدوا للطغيان الوهابى؛ وترتب على تلك الهزيمة هروب عبدالله إلى عنيزة: وعندما أحس بعدم الأمان على نفسه، عجل بالانضمام إلى جانب شريف مكة. ولكن ابن سعود أرسل له بعض الرجال كى يضل طريقه فى الصحارى: وبينما كان عبد العزيز راكبا ومعه جماعة من مواطنى عنيزة، التقاه الوهابيون؛ الراكبين المسلحين، الذين أدركوا خدم ابن سعود واشتبكوا معهم فى النفود وهم يصيحون قائلين لهم:" أنتم قتلتم الضيف eth-thaif ياأهل عنيزة!" عبدالله مايزال أميرا؛ وكان قد سبق له تعيين زامل (ولد أخيه) أميرا تنفيذيا .

هذا العمل المجيد الذى قامت به البلدة ألّب عليهم الوهابى مرة ثانية. فقد قام محمد بن سعود، المطوع وشقيق فيصل، بشن الحرب على عنيزة ومعها" الجزيرة العربية كلها"، وعلى وجه الخصوص القرويين الذين يعيشون فى شرقى نجد ومعهم البدو أيضا، وكذلك القرويين فى كل من الأحساء el-Hasa وعمان Aman(**). كان المهنا هو وبريدة، والقصيم كلها مع محمد بن سعود؛ كما انضم إليه أيضا الأمير طلال بن الرشيد وعبيد بن الرشيد، ومعهما سكان الواحات وكل البدو والذين كانوا خاضعين لرئاسته ـ" كما شارك معهما أيضا أناس جاءوا من الجوف." هذا الحشد المسلح خيم

(*) ١٨٥٢ - ١٨٥٣م . (المراجع)

(**) الصحيح Oman وليست Aman كما وردت فى المتن . (المراجع)

فى النفود أمام البلدة المبنية من اللبن، التى يقدر عدد القادرين فيها على حمل السلاح بما لايزيد على ألف من الرجال- ولكن الجماعات العمانية هى والجماعة الأحسائية لم تكن متحمسة للقتال؛ أما فيما يتعلق بالقصمان فقد تظاهروا بأنهم يقاتلون إخوانهم المواطنين!

وبالرغم من حصار عنيزة إلا أن مواطنيها لم يدب الخوف فى نفوسهم: إذ كان المزارعون مايزالون يعملون فيما بين أسوار المدينة الواسعة." تساءلت، ولماذا لم يقم العدو بهدم السور المبنى من اللبن باستعمال دانات المدفعية؟" الإجابة: "لقد كانوا يخشون أسلحتهم أكثر منا- لم يكونوا قادريين على استعمالها؛ -ولم تسقط سوى دانة واحدة داخل الأرض الفضاء فى عنيزة، ولم تصب أى شىء أو أى أحد من الناس." وأنا سبق لى أن رأيت دانة مدفع قديمة داخل البلدة، والتى قالوا لى عنها: إنها 'تابعة للوهابى؛' وربما تكون تلك الكرات الحديدية - التى ليست كاملة الاستدارة! قد جرى إخراجها بأيدى صنّاع الجزيرة العربية.

حكى لى عامل جلب الماء من البئر عن مفاخر السلاح فى الحرب الثانية فقال: عند منتصف ليل واحدة من الليالى أوفد زامل مائتى رجل من حملة البنادق الفتيلية، لكى ينصبوا كمينا بالقرب من عين من عيون الماء فى الوادى، بالقرب من بلدة العيّارية." قال: الوهابى قبل طلوع النهار، فتح رجال عنيزة النار عليهم؛ وتناهت الضوضاء إلى مسامع أولئك الذين كانوا فى مَنْزَل العدو. وقد جر ذلك عليهم الخيالة النجديين؛ الذين قتل منهم اثنان بالفعل وصمدت بقية الخيالة: ومع طلوع النهار، وصل عبد الله اليحيى ومعه الخريسى. وهنا تقدمت جماعة مسلحة من الوهابيين وصاح عبدالله قائلا:" اهجموا عليهم يا خريسى " وهنا تقدمت السرايا العنزية، وراحت تفتح نيرانها، وولى العدو الأدبار، واستولى الخريسى على علم (بيرق) من أعلام الوهابيين: ووصل رجال عنيزة إلى الخيام بالفعل؛ وجرى الاستيلاء على المخيم الخارجى - وسقط الكثيرون من رجال ابن سعود صرعى؛ وكانت جماعة كبيرة من أولئك الذين كانوا يجرون فى اتجاه ثكناتهم، تحولت من الجرى إلى الهجوم على الخريسى الأعداء- العمليات الحربية فى الجزيرة العربية تشبه العمليات الحربية التى يقوم بها الغجر.هذا يعنى أن أهل الجزيرة العربية لايلقون بالا لتسوير منازلهم حتى ولو بساترمن التراب.

تقدمت ربات البيوت فى عنيزة للمشاركة فى المعركة بأن رحن يقدن الحمير وعليها قراب الماء. كن يصببن الماء للمقاتلين العطشانين؛ وكن يتولين أمر الجرحى من المقاتلين. وسقط عبدالله،أثناء قيادته للخريسى الشجعان وهنا قامت الزوجات الجيدات بوضع ذلك الشيخ الشاب على حمار ونقلنه إلى البلدة. أما زامل، الذى كان يجرى هنا وهناك (وهو الوحيد من عنيزة الذى كان يركب حصانا)، فقد صاح مناديا، إمبارك Imbarak إمبارك ! Imbarak لاتقتلوا la tuktillu المسلمين، el-Moslmin بمعنى بارك الله فينا، لاتقتلوا إخواننا فى الدين!"

ولكن سرعان ماحدث انعكاس مؤلم. فبينما كان القتال بين الخيام، دخلت جماعة من كبار الشخصيات إلى قائد المطاوعة ،الذى كان يجلس هادئا فى شرفة خيمته: "صاحوا، أنهض أيها المحافظ! وأخرج من الخيمة، حتى يتشجع رجالنا." ردت عليهم تلك الكتلة الدينية ،أيها الأصدقاء، أسجدوا معى، وهيا بنا نصلى." وبينما كانوا يصلون، بوصفهم أناسا صارعوا من أجل بقائهم على قيد الحياة، انهمر عليهم المطر. وغطى المطر نصف عرض الوادى. الأمر الذى أدى إلى تلف الكبريت الخاص بأولئك المواطنين الذين انتصروا مؤخرا؛ وقد بقى هؤلاء المواطنون بلا دفاع إثر تلف أسلحتهم النارية وعدم صلاحيتها للاستعمال، وبسبب بعدهم أكثر من ميلين عن مواطنهم، ومحال إقامتهم. انسحب هؤلاء المواطنون، ولكن الخيالة النجديين لاحقوهم ،إذ كانوا "يحملون أكثر من ألف رمح": وقتل فى تلك المعركة مائتا رجل من عنيزة:[كان ذلك يعادل خمس أوسدس عدد المقاتلين].

– هناك أنشودة من ذلك الزمن نظمها صاحبها عن والد يحيى البطل الذى كان شجاعا فى الحرب، وحاد البصر وقوى البنية، ومن الرماة الأجواد ـ عاد ذلك الرجل من الميدان وهو غارق فى التفكير إلى بيارة من بيارت النخيل خارج البلدة: ودخل الذين كانوا يراقبون تلك المنطقة، "ماذا كان يريد؟" إنه يوم صيام بالنسبة لى، وآه من العطش!" كان من عادة ذلك الرجل المتدين أن يفعل أمرين ـ أولهما أنه كان يصوم اليوم الثالث والخامس من كل أسبوع؛ وهؤلاء الناس عندما يصومون لايشربون إلابعد غروب الشمس ـ "أهذا يوم صيام، عندما ينكسرالأعداء ؟ أشرب يا أبا عبد الله، أشرب" ـ "إى ، الحمد لله على هذا اليوم بالرغم من أنى أفقد عبدالله، ومعه ولد آخر." التأم جرح

عبدالله - الذى نتج عن طلق نارى على فخذه - خلال شهر من الزمن؛ وتوفرت لعنيزة حياة نبل وعزة. أما فيما يتعلق بأبنائه الآخرين، فإن دمه الوطنى لم يختلط بدماء أولئك الأطفال الذين أنجبهم من زوجته الثانية- هذا البلد لاتجرى فيه للجرحى أية عمليات جراحية وذلك حبا فى الله، أوطلبا للجزاء والأجر الأوفى.

هناك معركتان صغيرتان أخريان جرى تسجيلهما ضمن المعارك التى دامت شهورا فى " كل أنحاء الجزيرة العربية"، وهاتان المعركتان دارتا أمام سور عنيزة المبنى من اللبن والذى يبلغ سمكه شبران. مل طلال من طول الوقت الذى انقضى بلا طائل؛ كما أن - الرجال فترت همتهم بسبب بعدهم عن عوائلهم، فضلا عن تعريض حياواتهم للخطر. وفى النهاية، طوى محمد بن سعود المطوع، المخيم؛ وعاد بخفى حنين إلى الرياض. فى جانب البلدة كان هناك "أربعمائة رجل من الفلاحين- الحرب الدينية وحدها هى التى يمكن أن تدخل الشجاعة فى قلوب أهل الجزيرة العربية، الذين هم محاربون أحرار، لايلقون بالا كثيرا لشيوخهم، وتجعلهم يقتحمون الأسوار المحصنة. قلة قليلة من الناس، إلى جانب يحيى، هم الذين سيخاطرون بحياواتهم وأموالهم من أجل الصالح العام.

أهل عنيزة يعتبرون أنفسهم أصحاب كفاية،إذ كان مايدور بخلدهم وخلد شيوخهم هو مسألة السيطرة على نجد. وهم يقولون الله هيأ لهم أمراء معتدلين وعادلين ومسالمين، ولو قدر لزامل أن تكون له شهية مثل شهية ابن الرشيد، لخضعت البلاد كلها لعنيزة التى تقع فيما بين وادى الدواسر ودمشق.- ومع ذلك فقد كان المواطنون العنزيون يقومون بدور الغزاة والمعتدين فى بعض الأحيان؛ مثلما حدث فى تلك الحملة المشئومة التى جردوها على ابن الرشيد،"كى يقتلوه" والتى لقيت هزيمة نكراء على أيدى عبيد بن الرشيد؛ الذى قتل الكثيرين من أهل عنيزة أثناء مطاردته لهم فى تلك المعركة التى نَظَم فيها القصَّاد المحارب تلك القصيدة التى سبق أن أشرت إليها .

كان زامل قائدا حظيظا فى كل العمليات الحربية التى جرت فى عهده؟- وزامل، عندما كان فى بداية عهد رجولته، كان قائدا لقوات عنيزة (ضمن حملة طويلة من حملات الوهابى) فى عُمان Aman، وفى تلك الحملة استطاع ذلك الرجل أن يكشف

عن موهبته الاستراتيجية وعن حبه للعدل والاعتدال، وكلها كانت أمورا طبيعية فى ذلك الرجل. وعمر الزامل حاليا، ربما يكون خمسة وأربعين عاما أو أكثر قليلا من ذلك. والناس هنا يقولون: "إن كل أمرائهم الذين يعيشون فى ذاكرتهم، لم يتمتعوا بالقيمة العامة والفهم العام أيضا." ومع ذلك فقد بلغنى أن واحداً منهم - وقد لايكون من سلالة الشيوخ، قام باغتصاب السلطة من الأمير. فقد قام ذلك الرجل بزيارة مكة لأداء فريضة الحج: وأثناء العودة، وعندما اقتربوا من عنيزة، نزل الرجل من فوق راحلته لتمضية حرارة الظهيرة تحت ظلال بعض النخيل الواقع على أطراف البلدة. وسمع زامل عن ذلك، وخرج مع أتباعه وعثر على ذلك الرجل، وقتله: وبالتالى نشب صراع دموى ثأرى بين هذا الرجل من ناحية وزامل من الناحية الأخرى - وإذا كانت يدا زامل لم تسلما من سفك الدماء، فما الذى يمكن أن ننتظره من الأعراب الآخرين؟

عنيزة ترفل فى النعمة حاليا بعد الجفاف الوهابى ؛ وزامل يجىء على رأس جيل من الوطنيين وفى مقدمتهم: وأنا لم أرفى أى مكان آخر، غير هذا المكان ،أناسا يعيشون فى مثل هذه السعادة والرضا: ونظرا لأن زامل عاقل وحكيم، فهو يحكم عنيزة حكما هادئا ومسالما، والناس هنا يعلقون كل آمالهم على حكمة زامل فى أوقات الشدة والأزمات. وزامل له ستة أوسبعة أبناء ذكور: وولده الصغير، على (الذى عمره حاليا ثلاثة عشر عامًا)، يقال إنه يشبهه. وزامل لم يرث المنصب على الفور، وإنما خلف الأمير السابق له، ألا وهو عمه عبدالله: والسبب فى ذلك أن وراثة المنصب بينهم، لاتسير على الوتيرة نفسها المتبعة فى الحياة الصحراوية، والتى تقوم على انتقال المنصب من الأب إلى الإبن. وزامل مسلم بمعنى الكلمة؛ وكان يمكن أن يكون رجلا طيبا ومحترما فى أى دين من الأديان. وهو متدين، وتدينه نابع من داخله؛ وهو أكثر صراحة يحكم وضعه كأمير: ولقد رأيت ذلك الرجل وهو ينعزل فى الحقول ويروح يصلى على انفراد. وزامل حذر جداً ويقظ جداً وهو يتعامل مع الصراعات الفكرية فى الحكم: وكل شىء فى البلد كان يسير بالعدل وبطريقة سلسة. ولم يحدث أن احتكم إليه أحد، بما فى ذلك البدو أو العجولين، الذين يتصايحون (فى قضاياهم)، والذين كان يسترضيهم بحكمة تقوم على الابتسام والملاحظة، ويصرفهم بكلام طيب، وفى أضعف الأحوال كان يقول: بالخير B,il-kheyer إن شاء insh الله Ullah بمعنى" سيكون كل

شيء على مايرام بمشيئة الله.' كان زامل خبيرا في تصريف الكروب والأزمات؛ كما كان ذلك الرجل موهوبا ـ بتلك السمة، التي نطلق عليها نحن في أوروبا اسم'العقلية المسيحية' أي الصبر على الأمور.

وزامل يتناول إفطاره عقب شروق الشمس مباشرة؛ ثم ينسحب بعد ذلك إلى جنينة، من جنائنه القريبة لمدة ساعة واحدة: وكان يعود إلى ذلك المكان في فترة العصر، كيما يتحرر بعض الشيء من الهموم والمطالب العامة. ومع شروق الشمس يعود زامل إلى المدينة حاملا معه سيفه: ثم يتجه إلى المجلس، وهو يلقي السلام على الباعة الجالسين في دكاكينهم، وعلى كل من يلقاه في الشارع . ويتجه الأمير إلى مقدمة المجلس، أو إن شئت فقل: شرفة المجلس، التي لايجلس فيها، في معظم الأحيان، سوى لحظات قصيرة؛ والسبب في ذلك أن الحياة العامرة بالحرية في بلد من البلاد، تقل فيها القضايا والمنازعات:وأنا لم أر المجلس ينعقد يوميا في عنيزة ـ وهذا الأمير الفيلسوف Filsûf سرعان ما يخلو بنفسه؛ وفي أغلب الأحيان يمكن العثور عليه في ساعات ماقبل الظهيرة أثناء زيارته لجنائن الأعيان الداخلين في زمرة أصدقائه. وزامل يعود إلى منزله لأداء صلاة الظهر؛ وبعد صلاة الظهر يجلس في القاعة المخصصة له أو في القهوة الخاصة بكبار الشخصيات. إذا ماكانت هناك بعض الأمور العامة، والشيوخ يتجمعون في المكان الذي يتواجد فيه الزامل؛ وقد تستمر تلك الجلسة إلى صلاة العصر، عندما يؤذن المؤذن لاستدعاء الناس من أعمالهم العامة الدنيوية، لأداء الصلاة.

والذي يمكن أن يؤخذ على الزامل أنه 'لم يكن ليبراليا.'والرجل الأمين أصلا، ومن سلالة طيبة ، لايمكن أن يزيد على جوهره، وإنما يحافظ على ذلك الجوهر حفاظا شديدا : والكنيني يقول: 'الزامل يعرض كل ماعنده مثل mithil التاجر tajir ." هذه السمة كانت شديدة الوضوح في شخصية الزامل، والسبب في ذلك أن عبدالله، الذي تولى الإمارة قبله، كان أحمقا كبيرا ولذلك توفي وهو مدين.

كانت متحصلات الأمير (الزكاة) بواقع اثنان ونصف في المئة، وخمسة في المئة على القمح ؛ وسبعة ونصف في المئه على التمور: أما المنازل، والدكاكين والماشية فلا

تدفع عنها زكاة. أما التجار الأجانب [وقد كانوا أغنى من الزامل نفسه] والذين لهم بيوت فى عنيزة، فكانوا يدفعون مساهمة نقدية معقولة للأمير: وهى تكون بواقع عشرة ريالات سنويا. كان الجزء الأكبر من تلك المتحصلات الكبيرة - التى كانت محطا للحسد - لايذهب إلى جيب الزامل: إذ كانت هناك مصروفات الخدمة العامة، وبخاصة المضيف- وقد زارنا فى بيارة نخيل رشيد: رجل شرس الملامح من رجال الجمارك، جاء يتجسس على الجنائن ليعرف المزيد عن حال الحصاد.

كانت تلك الأيام راكدة الهواء وخانقة تماما؛ وفى أشد تلك الأيام حرارة كانت درجة الحرارة (داخل تعريشتنا) ٧٩° فهرنهيتية؛ حتى عندما كانت السماء ملبدة بالغيوم والآبار هنا تتراوح أعماقها بين ثلاث قامات وأربع قامات وخمس قامات، حسب درجة انخفاضها فى اتجاه الوادى؛ وخلفه بمسافة تقدر بحوالى مائتان وعشرين ياردة، والماء قريب جداً إلى حد أن حفر شتلات النخيل الصغير قد لاتحتاج إلى الرى بعد العام أوالعامين الأولين. وقد أعطانى الترمومتر عندما وضعته فى هذا الماء الذى يبدو لنا باردا، درجة حرارة حوالى ٨٧° فهرنهينية . والبئر التى يجرى حفرها عند حافة النفود تعطى ماء جوفيا عذبا؛ ولكن الآبار التى يجرى حفرها (إلى أعماق أكبر) فى القاع يكون ماؤها مالغا إلى حد ما. والناس هنا يقولون: إن القمح يجود فى الأرض المالغة إلى حدما، ويقولون إيضا أن القمح الأخضر إذا ما اصفر لونه فى الأرض الحلوة يمكن إعادته إلى حالته الأولى عن طريق رش الملح عليه بين الحين والآخر. والآبار كلها تفوح منها رائحة كريهه أثناء الليل: وعن طريق الترمومتر واللسان يمكن التمييز بين مياه الآبار التى تبعد عنا مسافات قصيرة: والماء الذى ينبعث من الحجر الرملى يكون أبرد من الماء الذى ينبعث من انبعاجات الصخور.

ومن بين كل آبار عنيزة هناك بئر واحدة ماؤها عذب فرات! والشيوخ يرسلون مراسليهم إلى ذلك المكان، خلال موسم الجفاف فى الصيف ، لجلب الماء من تلك البئر. هذه البئر تقع ضمن ممتلكات أسرة عميدها الذى يدعى أبو Abu داود Daud، وهو مهاجر من مهاجرى القصمان ، وكان يعيش فى دمشق؛التى وصل فيها حاليا إلى منصب شيخ العجيل ، وأبو داود هذا هو أيضا قائد حرس المؤخرة فى قافلة الحج [قال أبو داود، إنه لم يجىء سوى مرة واحدة، طوال خمسة وعشرين عاما، لزيارة

موطنه الأصلى، ولمدة شهر واحد فقط! كان الماء يتم رفعه بصورة مستمرة من بئرى رشيد بواسطة خمس نياق؛ وكان الماء ينساب إلى قنوات رملية (كانوا يزرعون فيها بذور البطيخ، فى حفر صغيرة، مع روث الإبل) إلى بركة صغيرة، هى الأخرى محفورة فى الرمل المختلط بالطمى. هؤلاء الناس من سكان الجزيرة العربية لم يتعلموا كيف يحرقون ذلك الطمى ويستعملونه فى عمل القنوات وبناء الخزانات. وبركة الرى فى القصيم جرى العرف، أن تكون تحت تعريشة من تعريشات العنب؛ الذى إذا مازرع فى الرمل باستخدام الماء فإنه سرعان ماينمو كما لوكان غابة خضراء. لقد شاهدنا تعريشات العنب وهى تستعمل فى تظليل مدارات آبار الماء فى تيماء. والجمال هنا تؤدى عملها فى ظلال جريد النخيل.

تشغيل آبار الماء الذى يبدأ فى الساعات الأولى بعد منتصف الليل، يستمر حتى الساعة التاسعة تقريبا، أى عندما تزداد حرارة النهار بالفعل. ومع شروق الشمس يستطيع الناس أن يشاهدوا النساء (اللاتى من أسرة تشغيل البئر) وهن جالسات وأمامهن سلالهن عند نهاية مدار البئر،لكى يطعمن الإبل العاملة فى جلب الماء ورفعه: وهن يخلطن قبضة من الجلبان مع شىء من العلف الجاف الذى يجلبنه من الصحراء، ثم يضعن هذه اللفافة فى فم كل جمل من الجمال العاملة فى جلب الماء. والجمل الذى يعمل فى جلب الماء يبدأ العمل من الساعة الثانية بعد الظهر إلى الساعة السابعة مساءًا على وجه التقريب، وعندها يجرى إعادة إطعام هذه الإبل من جديد. وعامل بئر الماء الذى يتعين عليه أن يقطع راحته الطبيعية كل ليلة، هو وزوجته التى تحضر العلف وتغذى الإبل ، يحصلان على ثلاثة ريالات وقرش واحد - أى مايقرب من خمسة عشر شلنا، فى الشهر؛ ويتعين عليهما أن يتحملا تكاليف طعامهما .كان هناك ابن لذلك الرجل، يقوم على أمر بئر من الآبار الفرعية، وكانت أخته هى التى تتولى إطعام الجملين. كانا يعيشان معيشة متعبة، ولايعرفان للراحة طعما، فى أرض الراحة فيها ناتجه عن البطالة .[وأنا عندما كنت أسأل واحداً من هؤلاء الناس المساكين، عن مدى تحمله لذلك العمل بصورة مستمرة؟ كان يردعلى الغريب (وهو يتنهد حسرة)، إنه اعتاد القيام بذلك العمل منذ طفولته، وأن ذلك - من Min الله Ullah، وأن الله (سبحانه وتعالى) هو الذى يعينه على ذلك]. ولكن الصبية الذين يعملون فى الجنائن كانوا يتغذون بطريقة أحسن؛

وكان الواحد منهم يحصل على أربعة بنسات في اليوم الواحد علاوة على الغداء: وهم يتقاضون مبلغا أقل من ذلك عندما يعملون بالشهر. رأيت الشقيرى الصغير، عاملا جادًا وجيدا، وقد وافق على خدمة رشيد لمدة ستة أشهر نظير تسعة ريالات بالإضافة إلى التعيينات الغذائية؛ كما طلب من رشيد أيضا أن يعطيه لباسا (تونك) بما يعادل ثلثي ريال؛ وقد أجابه رشيد إلى طلبه. كل هذه الأماكن لم يرد فيها أى ذكر للمأوى أو الملاذ؛ ولكن حيثما استلقى الإنسان على الرمل، وفى العراء وتحت نجوم السماء، فإنه يجد مأوى ليلى طيب (طوال القسم الأكبر من العام) فى ذلك البلد الصيفى.

كان الصبية يخرجون للعمل اعتبارا من شروق الشمس: وعندما كانوا يُرُسُّون Yurussun الماء el-ma بمعنى "عندما كانوا يصرفون ماء البركة" إنما يفعلون ذلك من خلال قنوات؛ وبذلك يمكن غمر أحواض الحقل كلها وخطوط النخيل كلها بواقع مرتين فى اليوم الواحد ـ وكلمة "رُس" russ هذه هى اسم لواحة الرس er-Russ فى القصيم. والناس هنا يروون الجت Jet (نوع من البرسيم) بواقع مرتين فى الأسبوع ؛وعندما يصل ارتفاع ذلك البرسيم إلى قدم تقريبا يجرى حشه بعد ذلك كل خمسة عشر يوما [مثلما هوالحال فى دمشق] ؛ ـ والتربة هنا رملية صرفة. كان العيال يأوون هنا، مثلما شاهدنا، إلى تعريشة ظليلة، فى فترة العصر، ويروحون يستمعون إلى الحكايات إلى أن يدخل وقت صلاة المغرب. ثم يقوم واحد منهم بالتأذين للصلاة، ويسارع الباقون إلى الوضوء، وغالبا مايستحمون فى البئر. والعجيب فعلا أنى رأيت هؤلاء الصبية وهم يقفزون فى البئر الواحد فوق عنق الآخر، وذلك من ارتفاع ثلاثين قدما! نازلين إلى الماء؛ وكانوا يسبحون فى بعض الأحيان فى تلك الغرفة الضيقة: وكانوا يتسلقون ،مثل السحالى، خارجين من البئر، عن طريق الاعتماد على أصابع أيديهم وأصابع أرجلهم بوضعها فى المسافات والفراغات التى بين وصلات الأحجار المستعمله فى تبطين البئر. وبعد أن يؤدوا الصلاة جماعة، يعودون إلى عملهم من جديد إلى غروب الشمس؛ وبعد صلاة المغرب، وبعد أن يتناولوا طعام العشاء الذى يصلهم من البلدة. والعشاء هو الوجبة الرئيسة فى الجزيرة العربية ؛ والعشاء هنا عبارة عن وجبة ساخنة ومشبعة من طعام مضاف إليه القمح، يصلح غذاء للجائعين.

ينتهي يوم العمل مع غروب الشمس، والراحة عندهم يطلقون عليها اسم الكيف keyif: وبعد غروب الشمس بحوالى ساعة أو أكثر يصلون العشاء. والصبية الذين يعملون فى البستان (بلا قهوة وبلا تبغ) يروحون يغنون أغانى المساء؛ قد يروحون يطاردون بعضهم البعض مثل الخيول الصغيرة فى الصحراء المظلمة. وفى الليالى المقمرة يلعب هؤلاء الصبية ويمتد لعبهم إلى بيارات النخيل المجاورة؛ هؤلاء العيال، فى كثير من الأحيان ، يعودون وهم يغنون بصوت عالٍ ويعزفون على الطمبور. كانت الأعمال الهزرية الوقحة التى يأتيها كل من الخدام العرب والمزارعين خالية من العنف؛ وكان الصبية يمارسون ذلك اللعب طوال ساعتين أوثلاث ساعات: وبعد أن ينتهوا من اللعب يجلسون على شكل حلقة أمام بوابة القصر، وكان الشقيرى يتحف زملاءه بحكايات جديدة عامرة بالمغامرات العجيبة.

كل واحة من الواحات فيها أنواع كثيرة من التمور. وأشهر هذه الأنواع فى عنيزة هى الرُّطب rotb (هذا النوع من التمر يصلح للحمية الغذائية) ، وهذه الرطب يحصل الناس عليها من نوع من النخيل يطلق الناس عليه هنا اسم الشقرة es-Shukra ويصبح فيه أيضا الشقيرة Shuggera، التى تنمو فى واحة الوشم. وإلى جانب الرطب عندهم أيضا نوع من التمر الجاف ،الرطب حلو المذاق، الذى يحمله الناس معهم فى رحلات القوافل باعتباره قطعا من المسكّرات Sweatmeat. نخيل البلح هو الوحيد الذى يزرع فى الجزيرة العربية: أما نخيل الدوم dom فهو ينمو بريا فى [الحجاز وفى تهامة] - فى بعض المواقع من المستوطنات القديمة ،التى يكون الماء فيها على عمق قريب؛ كما ينمو نخيل الدوم أيضا فى بعض الوديان الصحراوية المنخفضة. ولحاء ثمرة الدوم التى يصل حجمها (إلى ثلاثة أضعاف حجم بيضة الأوزة) يأكله الناس ؛ وكلما جفت ثمرة الدوم يصبح طعمها مثل الخبز الحامض- وأنا عندما ذهبت بعد ذلك إلى الهند وبالذات بومباى، عثرت على صبى عربى من شقراء Shuggera يعمل فى الإسطبلات العربية تجولنا سويا فى ضواحى بومباى وأريته بعض نخيل جوز الهند، "قلت :ليس لديكم هذا النوع من النخيل فى نجد!" رد على متباهيا، لا، ليس هذا النوع من النخيل : هذا النوع من النخيل ليس فيه بركة baraka!" هذه الكلمة قالها الصبى بمعناها السامى Semitic (السرمدى)، "كل ما ليس بخبز فهو غرور."

هذه هى سباطات التمر تتدلى بالفعل من أعراف النخيل الإناث حاملة عساليج البلح: والظروف المحيطة تبشر بمحصول وفير هذا العام بعد الدمار والخراب الذى انتاب ذلك المحصول فى عام الجراد. كل عسلوج هنا مربوط فيه عضو من أعضاء التذكير، بعض من الأغصان الجافة الطرية؛ وهذا يحمى تلك العساليج من هجوم الجراد عليها فى وقت مبكر. والمزارع النجدى يخسر كل عام بسبب موجات الجراد السابقة واللاحقة، وبخاصة أن تلك الموجات تتربى فى أرض الجزيرة العربية وتتوالد فيها؛ كما تنهال على أرض الجزيرة العربية جحافل الجراد التى يحملها الهواء ولكن الناس ، وبخاصة المزارعين هنا، لايعرفون من أين تجىء إليهم هذه الجحافل. هذا العام كانت تلك الجحافل خفيفة وقليلة فى ذات الوقت؛ ولكن فى بعض الأحيان، وبخاصة بعد طلوع الشمس والريح الخفيفة التى تعقبها، كانت تنهال علينا أسراب الجراد jarad: وهنا كان الصبية يقومون، وكل واحد منهم يحمل جريدة من جريد النخيل، بهش الجراد ومطاردته لإبعاده عن النخيل ونبات البرسيم . كانت حشرات الجراد تجرى أمام هؤلاء الصبية وهى ترفرف بأجنحتها ! متجهة صوب صحراء النفود. كان أولئك الصبية يحملون جثث الجراد الميت وهم يصيحون قائلين " هذا الجراد طيب وسمين ؛" ويجرون إلى العزبة كى يشوون ذلك الجراد .وإذا تصادف وكنت هناك، فقد كانوا يعزمونى على تلك الوليمة: وذات يوم، وبعد أن رفض الحكيم أن يأكل من ذلك الجراد المشوى، رفض الصبية أيضا الأكل من ذلك الجراد؛ ولكنهم ألقوا بذلك الجراد المشوى على الرمل، فى ضوء الشمس وحرارتها، وراح الذباب يلتهمه- "قلت: الجراد يلتهم البدو، والبدو يلتهمون الجراد!"- كان كلامى هذا بمثابة العجائب والمعجزات أمام هذا الجمع الساذج من الصبية ؛ وراح صالح يردد المثل الذى قاله خليل، على الناس فى المدينة.

كان العمال الذين يعملون فى حقل رشيد أصدقاءً لى : وقبل انقضاء اليوم الثالث علّى معهم، كانوا قد نسوا دينى السابق وتسامحوا معى فيه، ويقولون : من يدرى ، لربما كان دينا سليما مثل دينهم ؛ وتمنوا لوأنى كنت أعيش بينهم. قال عامل البئر : نعم، "النصارى أصحاب دين سماوى، وكل مافى الأمرأنهم لايعترفون بأن محمداً رسول الله؛ وهم يقولون: محمد Mohammed بدوى Beduwy [وخطر ببالى أن هذا الصبى

المسكين لم يبتعد كثيرا عن الحقيقة، المحمَّدية(*) Mohammedism عروبة Arabism فى الدين]: وليس هناك أى خطأ غير هذا ؛ ولقد سمعت الشيوخ وهم يرددون ذلك ويكررونه فى البلدة."- فى بعض الأحيان، كان هناك دولى duli بمعنى" صبى مسحور" يأتى للعمل هنا فى هذا الحقل ، وكان باقى الصبية ينعتونه بالقحطانى Kahtany - وهذه الكلمة من كلمات السب والتوبيخ بين الناس هنا [وقد يصل معناها إلى "آكل لحوم البشر"] والسبب فى كل ذلك أن ذلك الصبى العامل كان من الخبراء. العاملان الآخران لم يكونا أمناء، نظرا لأنهما نشلا زكائبى أثناء الليل ونحن فى قصر رشيد: سرقوا السكر - تلك الهدية الطيبة التى أهدانى الكنينى إياها؛ وكانت تلك السرقة فاضحة! إلى حد أنهم أنهوا ذلك السكر خلال أيام قلائل . كان لولد صغير من أبناء رشيد يد فى تلك السرقة. وجرى طرد هؤلاء الصبية بعد ذلك من المزرعة ؛ وبلغنا - أن الأمير على عاقبهم على ذلك بالضرب.

– كانت الساعة قد تجاوزت العاشرة فى إحدى الليالى ، وكان ضوء القمر خافتا ، عندما كان إبراهيم وفهد جاهزين بآخر حمل من أحمال القمح- وعندما جاء إلّى إبراهيم وقال:" نحن الآن ذاهبان إلى البيت وسنبقى فى البلدة؛ وسوف نترك الجنينة." كان ذلك خبر مزعج من عرب بخلاء، قبل منتصف الليل بساعتين ،أى فى وقت كنت فيه على وشك النوم!- "ماذا أفعل ؟"- "تعال معنا؛ وسوف نوصلك إلى بيارة نخيل الكنينى، أو أمام منزله."-"وجنينة الكنينى مفتوحة وليس فيها أحد؛ وأنتم تعلمون أنى غير مسموح لى بالعودة إلى البلدة: فقدأرسلنى الزامل إلى هنا ."- "عليك لعنة الله" أنت والزامل !تعال معنا: هيا ! وإلا سوف أفتح عليك النار من المسدس!" ثم قاما بوضع أشيائى فوق حمار من الحمير]. - امش يافهد! هيا! ياخليل، هنا بعض اللصوص ؛ ونحن لايمكن أن نتركك وحدك فى الجنينة" . -" ولماذا تبقى إذن فى حقل الكنينى الواقع على أطراف البلدة؟"-" والله !سوف نتركك هنا فى وسط النفود!"- "لوكنت قد أنذرتنى اليوم لكنت قد أرسلت خبرا لكل من الزامل والكنينى : ولكنى يتعين علّى البقاء هنا- إلى صباح الغد، فى أضعف الأحوال ." وهنا خطف العبد عباءتى (بشتى)؛ ثم ضربنى على وجهى: ثم

(*) المقصود "بالمحمدية" Mohammedism هنا هو "الإسلام". (المترجم)

أمسك بحجر ثقيل ، واقترب منى يضربنى بذلك الحجر فى رأسى وكنت أعرف حقيقة مايدور داخل هؤلاء الأشيقاء التعساء، أشد الناس قسوة لايكونون بمثل هذه الخسّة أو الدناءة!ـ وخشيت أن يكلفنى ذلك الحجر عينا من عيناى؛ بل وقد يكلفنى حياتى أيضا ، إذا ما رفع النصرانى يده على واحد من المسلمين ! يضاف إلى ذلك، أنه لم يكن معنا أحد يمكن أن يشهد على صحة هذه الوقائع ؛ والذى لاشك فيه أنهما كانا قد رتبا لذلك العنف بصورة مسبقة. وبينما رحت أفتش بهدوء فى زكائبى بحثا عن مسدسى، مخافة أن تتطور الأمور إلى الأسوء، تكلمت إلى فهد،"أنه ينبغى ألايغيب عنه شرف أبيه." كان هناك صبى صغير، أوإن شئت فقل : ولد صغير من أبناء رشيد ـ أوبالأحرى لص السكر، راح يدور حول النصرانى ويوجه إليه السباب؛ وبينما كنت غافلا وغير منتبه فى الظلام، ضربنى إبراهيم من الخلف، ضربة ثقيلة بقبضة يده، فوق وجهى وعلى عنقى. وعند هذا الحد، جاءنا مصادفة شاب صغير، من المزرعة المجاورة. كان ذلك الشاب واحداً من مرضاى؛ وعندما وقف على حقيقة الأمر قال لهما:" هل ستقتلانه أثناء الليل؟ ونحن لانعرف إلى أين! أتركا خليلٌ هنا إلى الصباح، فى أضعف الأحوال." وعندما أدرك إبراهيم أنى ينبغى أن أكون معه، راح يعتذر عما بدر منه من عنف: كان العبد يدعى أن النصرانى سبّه (وهو مسلم) بأن قال له: لعنة Laanat الله Ullah عليك! Aleyk بمعنى " عليك لعنة الله!"ـ وصاح قائلا:" لوكنا هنا فى مصر، لقتلته!"ـ ربما كان يفرغ فى النصرانى العنف الذى لقيه فى قناة السويس.

كانت هناك قافلة قادمة من البصرة ومتجهة نحو عنيزة؛ وكان الوالد رشيد ضمن تلك القافلة. وقبل ظهر اليوم التالى استدعى صالح واحداً من المطير؛ كان ذلك المطيرى يود إرسال بريد للتجار الأجانب الموجودين فى الشمال. ولكن ذلك الرجل ،أثناء قدومه خسر كلا من النقود التى كانت معه وناقته أيضا، والسبب فى ذلك أنه كان يستريح يوما واحداً فى منزل من منازل المطير، ثم هاجمهم غزو قحطانى أثيم. أخبرنا ذلك المطيرى أن مقدمة القافلة وصلت بالفعل؛ وأن القافلة التى أمضت االليل فى الزلفى Zilfy، سوف تصل عند الظهيرة. هذا المراسل الذى كان يحمل أنباء طيبة، والذى سبق

(*) قفيلة : المقصود بها القافلة الصغيرة ، أو قد تكون تصغيرا لكلمة القافلة . (المراجع)

أن أرسل على عجل من البلدة، كان قد كلف بهذه المهمة بتحريض منا: جلست مضطرب الأنفاس فى جو شديد الحرارة، ورحت أتعجب من ذلك الجرى الخفيف. قال إبراهيم: "هذا البدوى رشيق وخفيف الحركة، والسبب فى ذلك هو حليب النياق الذى مايزال فى عظامه إلى يومنا هذا !"- كانت القافلة [التى تضم أكثر من مائتى جمل] قد غادرت البصرة قبل خمسة عشر يوما؛ كانوا يستريحون تحت المظلات فى وقت الظهيرة.

- يوم عودة أية قافلة من القوافل يعد من الأيام السعيدة فى البلدة. هؤلاء الذين يعودون، يتوافد أصدقاؤهم ومعارفهم على بيوتهم لزيارتهم؛ ويقدم المضيف لهم وجبة ضيافة فى فترة العصر. هذا هو رشيد يجلس حاليا فى هيبة ووقار داخل ذلك البيت الكبير المبنى من اللبن، وقد بنى رشيد ذلك البيت لنفسه ولورثته ؛كان رشيد يستقبل الزامل، فى ذلك المنزل أيضا، عندما كان الزامل يقوم ببعض الزيارات الودية لرشيد. أحضر رشيد معه سبعة عشر حملا (حوالى ثلاثة أطنان) من القماش، من عند ولده فى الكويت، لبيعها فى عنيزة، نظير دين من ديونه - يقدر بحوالى ٣٠٠ ريال - يتعين سداده لورثة صديقه المدعو القاضى el-Kathy الذى توفى مؤخرا. وقد سارع خدمه القدامى فى هذه المزرعة، إلى الذهاب إلى عنيزة ليقبلوا يد سيدهم القديم: وقبل دخول المساء كانت أجزاء من العشاء قد أرسلت إلى أولئك الخدم، من طعام عشاء الأسرة.

سمعت قصة رشيد من فم عامل بئر الماء. والعرب يرغبون فى إنجاب المزيد من الأطفال؛ وعندما راجت تجارته كان ذلك الرجل يشترى له المزيد من الزوجات؛ وفى معظم السنوات كانت الزوجات الأربع يحملن كلهن فى وقت واحد: وبعد الولادة، كان يجعل أطفاله يرضعون صناعيا، حتى يمكن لحريمه أن يحملن من جديد: وهو يفعل هذا الشىء منذ أربعين عاما." "هذا يعنى أن أطفال رشيد لابد أن يكونوا قد أصبحوا مائة طفل، وربما أكثر من ذلك !لكن كم طفلا عند هذا الرجل؟" كان عامل بئر الماء مندهشا إلى حدما عندما رحت أعد أطفال ذلك الرجل؛ ورد علىَّ فى بساطة، " ولكن الكثيرين من هؤلاء الأطفال يموتون." هذا الوالد، استطاع عن طريق هذا التصرف، فى سنوات شبابه، أن يصبح حاليا والدا لقطيع من البشر؛ وإلى جانب الأبناء، كان له أيضا خمسة عشر بنتا - هذا يعنى أن أسرة هذا الرجل الكبيرة فى عنيزة كان عددها يزيد على ثلاثين فرداً.

فى صباح اليوم الثالث جاء رشيد بنفسه، راكبا حمارا أبيضا (من حمر بلاد الرافدين) جاء قادما من عنيزة، ليتفقد نخيله فى نجد. هذا الرجل كبير السن، نزل من فوق الحمار، وهو يرفل فى ملابسه، التى كانت عبارة عن ثوب أصفر اللون، وغترة بغدادية مصنوعة من الحرير، ملفوفة حول جمجمة رأسه. وكان يلف حزاما حول وسطه ـ مثلما يعود عابر السبيل قادما من رحلة طويلة ـ وكان معه قدّامية، ومسدسا من مسدسات الخيول؛ وربما كان ذلك (نظرا لأن أحداً لايحمل السلاح فى المدينة) من قبيل التسلح تحسبا للنصراني! كان رشيد رجلا بهى الطلعة فارع القامة، وشديد الاسمرار: كانت عيناه العجوزتان مكحلتان. راح الرجل يتجول على قدميه فى ممرات الحديقة، كما لوكان هدهداً، كيما يتسنى له تفقد النخيل ونبات البرسيم. عاد رشيد بعد حوالى ساعة إلى العزبة، إلى المكان الذى كنت أجلس فيه ـ لم يكن رشيد قد حيا الكافر بعد؛ وعندما جلس رشيد،'(تساءل) هل أنا ذلك النصراني؟ـ فقد سبق له أن سمع عنى." صلحت لذلك الرجل العجوز شيئا من الشاى؛ وقد أفاد ذلك القلب الحزين من رؤية قطع السكر التى كانت بحجم البيضة فى الفنجال ـ كنت أحتفل بذلك الرجل على هذا النحو كلما جاء إلى هنا، وسمعت ذلك العجوز يقول فى بيته:' هذا الخليل رجل أمين؛ والله، لقد صلّح له شايا ووضع فيه كمية كبيرة من السكر.'

قال: مخففا من تعبى وإرهاقى، 'سأرحل، بميشئة الله، مع القفيلى خلال وقت ليس بطويل'. ثم خلع الرجل ملابسه بهيجة الألوان ، وخرج ثانية وهو يرتدى قميصه وغطاء رأسه المصنوع من القطن ـ وعاد الرجل إلى العزبة فى عز الحر؛ وجلس ذلك العجوز ثم تجرد من ملابسه؛ ولم يبق عليه سوى سترته التى يشدها على جسمه بحزام من الوسط؛ ثم راح يطهر جلد القصاب من ميكروب الطاعون الذى يحتمل أن يكون قد أصاب ذلك الجلد جراء الرحلة التى قامت القافلة بها إلى مصر . وقبل دخول وقت الظهيرة عاد ذلك الرجل مرة ثانية إلى الحديقة، وراح يتحاور مع العمال كما لوكان رجلا فقيرا حاله من حالهم تماما. كان رشيد ينظر بدقة إلى كل آلة من الآلات التى يستخدمونها، كما كان يعمل معهم بيديه فى بعض الأحيان؛ وبدأ الرجل فى تنظيف قاع البركة. وعندما عاد وكان يحس بالعطش، اتجه صوب قربتى وشرب منها، وكنت قد علقت القربة فى الهواء على جريدة من جريد نخلة من النخيل ؛ وفتح الرجل فم

القربة وشرب منها، شأنه شأن أى جمّال من الجمالين البدو ضعاف الحال- صيانة تلك العزبة تكلف ذلك الرجل مائتى ريال فى العام ، القسم الأكبر يدفع أجرا عن الأعمال التى تقوم بها الإبل . ولم تكن الثمار التى تنتج من تلك العزبة تساوى ذلك المبلغ.

كل هذا الازدهار الدنيوى، هو واختلاطه بالناس فى الخارج ، لم يستطيعا أن يخففا من فهم ذلك الرجل المتشدد؛ إذ كان وهابيا بأقصى معانى التشدد النجدى المتصل بهذه الكلمة. كان الرحّالة الغربى، واحداً من أبناء ذلك الرجل الذى تربى فى المجاز ونشأ فيها ! وكان له ولد آخر يعمل تاجرا فى عدن، رافقه فى عودته مع القافلة: وفتح ذلك الولد دكانا فى السوق. وراح يبيع فيه تلك الأحمال من القماش التى جاء بها والده. كانت غالبية المشترين فى البلدة من المطير ، وبخاصه القبليين منهم ؛ وكان واحدٌ من أولئك المطير "الذين يشبهون الجراد" خفيف اليد، مما جعله يسرق عباءة من العباءات التى كان يبيعها رشيد، وتصل قيمتها إلى حوالى عشر شلنات ؛ والتى دفع العجوز ثمنها وعنّف أولاده على فقدها وضياعها. هذا الولد جاء ذات مرة من البلدة ليستشير الحكيم ؛ كان ذلك الولد شخصا رذيلا ومخادعا ، وصاحب وعود كاذبة.وهو سوف يزور عدن مرة ثانية (من أجلى) ؛ وسوف يبحر معى على السفينة نفسها. فقد ترك خلفه هناك زوجته وابنه الصغير ؛ واستطاع تسجيل ولده على إنه واحد من الرعايا البريطانيين: وأنه سوف يرافقنى إلى الهند إذا ماكنت أنا أود ذلك.: تجولت فى مزرعة والده؛ ولم يصلحّوا لى أى شيء من القهوة.

- "قال واحد من الحاضرين فى صالة رشيد (فى البلدة): ماالذى يجعل نصرانيا يأتى من مدن أوروبا الفخمة إلى هذه البلاد الجرداء من بلاد نجد؟" أجاب التاجر العجوز على ذلك السؤال قائلا:"أنا أعرف أخلاقهم !هذا فرنجى ، ومن المحتمل جداً أن يكون فقيرا من أولئك الفقراء، وربما يكون قد أجر زوجته، نظير المال الذى يساعده على العودة إلى وطنه؛ وأرجو أن تثقوا بى لأنهم كلهم يفعلون هذا الشيء ." هذه الحكاية كان أولاده يتهامسون بها فى الجنينة: وذات يوم، فى فترة العصر، سألنى الشقيرى عن هذا الموضوع أمام الحاضرين كلهم، وأردف قائلا:" ولكنى لا أصدق ذلك ." تعجبت، هذه التخيلات لايمكن أن تستقر إلا عند جلف من الأجلاف الذين لاتعمر قلوبهم إلا بروث الحيوان؛ كما أن هذا الكلام لايردده سوى عبد من العبيد!" همس الرجل

قائلا: " ياخليل، لاتتكلم بهذه الصورة العلنية، لأن ولده جالس معهم (ولده الذى سرق السكر) ! كما أن الولد يعد ناقلا للحكايات ." وعندما استأذن الشقيرى وانصرف، تساءلت ، " هل أنت برئ من هذه الاضطرابات والمتاعب؟" ورد على قائلا: " هناك زنى وجماع يدور بينهم فى السر."

ويتعين علينا أن ننظر إلى حريمهم على أنهن أقل تواضعا منهن ناضجات . والعرب غيورون وماجنون ؛ وأية امرأة مسلمة ، طالما أنها تعرف أنها يمكن أن تطلق بمجرد كلمة، تخشى وتخاف أن تثير حتى ولو مجرد التأمل فى هذا الأمر. ولم تستطع الصديقات الحميمات إقناع كثير من السيدات الفقيرات، اللاتى ترددن على الحكيم، بالكشف ولو بشىء يسير جداً من القماش الذى يضعنه على وجوههن حتى يتمكن الحكيم من معاينة عيونهن المريضة. وهذه مخلوقة صغيرة من البشر عصت أمها، ولم توافق على الكشف عن تورم مؤلم فى ركبتها. وحتى النساء الزنجيات كبيرات السن [يمشين هنا وهن منقبات]، اللاتى يعانين من مرض الرمد، يرفضن كشف جباههن السوداء علهن يصيبهن شىء من الشفاء. بل إنهن كن يقلن: " إنه إن لم يكن ذلك بإرادة الله فإنهن سوف يعود إليهن بصرهن - وهذا الجنس البشرى البائس يتطلع إلى أن يرث ذلك الخير الذى افتقدوه فى هذه الدنيا - فى الجنة F'Iljinna. كانت زوجة يحيى هى الأخرى، من النوع الحريص : لأنها عندما طلبت من سيدها العجوز، وافقت على أن تكشف من خلال الثوب النسائى الطويل ،عن الورم المؤلم الذى كان فى ركبتها، كى يراه الحكيم. والعرب لهم طريقة غريبة فى الثياب وارتداء الملابس: فثياب النساء فى القصيم فضفاضة بشكل عجيب، إلى حد أن المرأة عندما ترفع ذراعها ينفتح الثوب إلى أن يصل إلى ركبتها. وهذا يحتم على المرأة أن تكون حريصة ومنتبهة إلى ثيابها أثناء تحركها، وذلك بأن تمسك بأكمام الثوب تحت ذراعيها ؛ ولكن النساء الحضريات اللاتى يعملن خارج منازلهن وكذلك ربات البيوت البدويات يتعرضن لكثير من الحوادث المفاجئة وغيرا المقصودة. والحريم فقط هن اللائى يجلسن على هذا النحو عندما يكون الجو حارا؛ ثم يتغطين إذا مادخل غريب عليهن.

مر علّى الوقت السابق لوصول قافلة السمن طويلا وثقيلا وبطيئا ومرهقا: فقد أرجأ الزامل الحملة التى كانت المدينة مزمعة القيام بها مع المطير ضد المعتدين القحطان إلى

مابعد وصول القفيلة الشمالية الكبيرة. على الجانب الآخر، فإن القافلة المتجهة إلى مكة لايمكن أن تستأنف رحلتها إلا بعد تسوية ذلك النزاع والبت فيه. لم يحضر أحد من أصدقائى أو معارفى لزيارتى فى تلك المزرعة التى تبعد مسافة ميلين ونصف الميل عن عنيزة. صداقة الناس هنا تشبه صوت طائر عندما يقف بين باقة من الزهور: إذا ماتملكه الخوف أو الفزع لايعود مرة ثانية إلى تلك الباقة. يضاف إلى ذلك أنى لم تصلنى أخبار لا من البسام أو الكنينى ! يستثنى من ذلك أن بعض المرضى كانوا يلوذون بهذا المكان، بين الحين والآخر، طلبا للمشورة من الحكيم؛ هؤلاء المرضى كانوا يقولون لى : إنهم موفدين من قبل الكنينى أو الزامل اللذان يقولان: " إن يد خليل فيها بركة baraka؛ وإن شاء الله يشفيك الله."

كان مرض الجدرى قد أوشك على الانتهاء فى عنيزة. وفقد صالح ولده فى ذلك الوباء، وتحمل صالح الآلام التى ترتبت على ذلك بصبر المسلمين القصير المعهود. كما ماتت أيضا ابنة صغيرة من بنات الكنينى ؛ ويقى الكنينى على غير علم بتلك الوفاة طيلة أيام ثلاثة- إلى أن سأل هو بنفسه عن تلك الابنة: وهنا قال له أهل بيته وأصدقائه :" لقد أخذها الله؛ ودفناها بالأمس ."- ولكن عبدالله الكنينى لامهم لوما شديدا وقاسيا؛" أوه! قال: لماذا لم تخبرونى؟"- حتى يمكننى أن ألقى نظرة أخيرة عليها بعد أن توفاها الله. وتألمت أنا أيضا لأنى لم أعلم بذلك - ولربما كنت سببا فى شفائها.

طلبت من صالح أن يعيرنى كتابا أقرأ فيه: وفى اليوم التالى جاء صالح إلىَّ من عنيزة ومعه مجلد ضخم له غلاف أحمر، وعامر بالأساطير المقدسة إلى حد أن هذا الكتاب، فى رأى صالح ،" هو الأكثر شيوعا وتداولا بين الحريم." هناك الكثيرون من الحضر الذين يستطيعون القراءة والكتابة فى البلدان الوهابيهة؛ والأطفال هنا، فى معظمهم ، يوفدهم أهلهم لتعلم القراءة والكتابة: وعلى حد قولهم هنا، إن الطفل عندما"يصل طوله إلى طول السيف "، يجرى تعليمه الصلاة. أعارنى صالح أيضا مجموعة من المجلة العربية الجريئة ؛ التى بلغ عمرها بضعة أشهر فى الوقت الراهن، ولكنها تعد جديدة على هذا الجزء من البلاد، كما أن تلك الجريدة كان يجرى إحضارها عن طريق القوافل. قرأت فى تلك الجريدة عن الجهاد: كان صالح يراقبنى وأنا أحاول القراءة، ثم سألنى فى نهاية الأمر، 'هل أنا راض الآن؟- لقد انكسر سلطان [الإسلام].؛

كان ذهن صالح المتحجر عامرا بالحقد الديني، وكان يبدو عليه أن ماقاله ينبغي أن يشرح صدري ويسرني تماما، وهو نفسه، عثر في جريدة إسطمبول، على الكثير من الكلمات [السياسية، والعسكرية والأوربية] الغريبة، الأمر الذي كان يجعله يقرأ الجريدة دون أن يفهم ذلك الذي يقرؤه.

– قرأت على الحاضرين، كيف أن "الإنجليز أرسلوا أدوية وأطباء، وعلى حسابهم الخاص، لعلاج مرضى المسلمين وجرحاهم؛ كما أرسلوا أيضا ملابس وطعاما ونقوداً؛ وأن أعدادا كبيرة من الأثرياء قد دفعوا من جيوبهم الخاصة مبالغ كبيرة جداً [التي تعد مبالغ خيالية في ضوء الفقر والعوز الذي يعيشه العرب!] وقلت لهم: "حسن، ما رأيكم في ذلك ؟ ألم تكن تلك الأعمال تستحق الشكر والثناء؟ ألم يكن ذلك لصالح المسلمين؟" لا إجابة: "نحن لانشكرهم ؛ أريكهم الله، هم وكل الكافرين! ولكننا نشكر الله، الذي حرّك الوثنيين وجعلهم يغيثون الإسلام."

بعد أن مضى علّى أكثر من ثلاثة أسابيع في تلك الأرض الجرداء ،كتبت على قطعة من الورق "قتلني Katalny التعب el-taab والجوع" Wa ej-jua ؛ ثم أرسلت هذه الورقة إلى الكنيني - كنت أتطلع إلى الانتقال خلال فترة وجيزة ، وبموافقة من الزامل إلى بعض مزارع الأصدقاء؛ سواء أكانت مزرعة البسام التي تقع في الجزء الجنوبي الشرقي من البلدة [حيث يوجد الحجر الأسود black stone، الذي ورد ذكره عند بعض شعرائهم القدامى، والذي "على حد قولهم ،سميت به عنيزة "] ؛ أم إلى بيارة نخيل يحيى، ذلك الوالد الطيب ، الذي كان متعاطفا مع قضيتي التي لاتشوبها شائبة. وصلت رسالتي إلى الكنيني: ومع شروق شمس اليوم التالي لوصول الرسالة جاءني خادم عبدالله ، وكان يحمل معه خبزا مخمورا وزبداً ، وقربة مملوءة بلبن الخض؛ كان يحمل معه رسالة شفهية يطلب إلّي فيها الخلود إلى الراحة، وأن "أقّر عينا؛ كما أبلغني أنهم (الأصدقاء) سوف يجهزون لرحيلي خلال فترة وجيزة- لم أستطع الحصول على أية كمية ولو ضيئلة من لبن الخض في هذا البلد (ومعروف أن لبن الخض هذا هو بمثابة النبيذ في هذا البلد). ورد على صالح،"إنه بالرغم من أن بعض الحريم قد يبعن الحليب سراً في عنيزة، إلاأنه هو، وأي واحد آخر من أهل بيته ، لم يكن لهم يد في إحضارلبن الخض هذا لخليل." جاءت بعض أسر المطير الفقيرة تنصب خيامها بالقرب من حفر

الماء التى فـى أرض الجذامة(*) التى هجرها أصحابها بالقرب من المزرعة التى كنت أقيم فيها؛

وخرجت إليهم علنى أحصل منهم على شيء من الحليب أو اللبن مقابل شيء من التمر أو الدواء؟ وتعجبت نساء هؤلاء المطير عندما رأين اللون (الإنجليزى) لشعر ذلك الغريب؛ وقالت بعضهن للبعض الآخر: "هل هذا الرجل رمادى الشعر وقد صبغ لحيته بالزعفران؟" ـ "لا، هذا الشعر طبيعى؛ المؤكد أن هذا رجل أحمر من min ها hai شطوط shotut ' بمعنى من أنهار (بلاد الرافدين) ؛ ألم نر نحن أناسا هنا لهم هذا اللون ؟ـ لكن ، خبرنا أيها الرجل، أين بلادك؟"

كان شيوخ المطير فى عنيزة فى ذلك الوقت لكى يتشاوروا مع كل من الزامل والشيوخ فيما يتعلق بالعملية الحربية المشتركة. ظن القحطان أنهم آمنين فى الخلاء، وأن أهل المدينة (عنيزة) لن يهاجموهم فى ذلك الصيف الحارق؛ أمافيما يتعلق بالمطيرلم، يكونوا يعولون كثيرا على القحطان كخصوم لهم ـ أرسل الزامل تعليمات لأولئك الذين لديهم نياقا فى البلدة، أن يستعدوا لركوب نياقهم ومصاحبته فى صباح الغد. لقد "أعد" الزامل لهذه الحملة "ستمائة" ناقة. بلغ حجم ذلك الغزو البدوى الاتحادى حوالى "ثلاثمائة ناقة" ومائتى حصان."

رحل المطير قبل عصر اليوم التالى. ولكن الزامل لم يركب راحلته ضمن جماعة واحدة من البدو الرحل الذين كانوا أصدقاء له: وأهل الحضر يقولون: البدو مخادعون تماما ـ مثلما شاهدنا فى هزيمة سعود الوهابى . وقد بلغتنى أخبار الآثام التى ارتكبها الأعراب قبل عامين فى عنيزة! وابن الرشيد هو الأمير الأوحد الذى يركب مع رجاجيله وقروييه، ويقوم بالغزو وهو واثق من رعاياه من البدو.

توجه الزامل فى اليوم التالى على رأس "مايزيد على ألف رجل" من أهل المدينة: والناس هنا يقولون :إنه "إذا ماهم الزامل بالقتال، شعرت عنيزة كلها بالثقة والأمان." خلف الزامل وراءه الأمير على كى يتولى أمر البلد: وأغلقت الدكاكين فى الأسواق ؛ إذ

(*) الجذامة: هى مايتبقى فى الأرض بعد حصاد محصول القمح أو الشعير .(المترجم)

توقف البيع والشراء إلى أن تعود الحملة إلى عنيزة. وتوقف انعقاد سوق الصباح ؛ كما توقف القصابون عن ذبح اللحوم طوال تلك الفترة. وبالرغم من أن عدداً كبيرا كان مع الزامل في الميدان إلا أن الشوارع على حد قول صالح، كانت تبدو مليئة بالناس، على نحو لاتخطئه العين !تساءلت "وماذا يحدث لوفتح أحد من الناس دكانه؟" الإجابة:" سوف يرسل الأمير على من يغلق ذلك الدكان: ولكن إذا ما أصر صاحبه على فتح الدكان، فإن صاحب الدكان، الذي يكون من هذا القبيل يجرى استدعاؤه أمام الأمير على، حيث يجرى جلده:" والدكاكين الصغيرة العامة وحدهاهي التي لاتغلق ، وهي عادة ماتكون مملوكة لرجال مسنين أولأرامل من النساء.

والأمير يدون أسماء أولئك الذين يشاركون في الغزو؛ وغالبا ما يكون هؤلاء الرجال من صغار السن ومن العائلات التي تقتني النياق. والخدمة العسكرية تقع على عاتق المواطنين الأثرياء- والسبب في ذلك أن العمليات الحربية لاتدور في الخلاء والناس سائرين على أقدامهم: ونحن لم نسمع أن الوهابي ،الذي لديه تنظيم عسكري متواضع، يستعمل الجنود المشاة في الحرب. أما أولئك الذين يبقون في البلد، فهم الذين يقومون على تسييرالحياة اليومية داخلها؛ كما أنهم يعدون أيضا حراسا للبلد. ورقيب الأمير هو الذي يقوم باستدعاء كل أولئك الذين أدرجت أسماؤهم للمشاركة في الغزو مع الزامل (في الصباح). والناقة التي تشارك في القتال يركبها اثنان؛ والرديف غالبا مايكون شقيق مالك الناقة، أو ابن عمه، أو عميلا [الذي غالبا مايكون بدويا] له، أوخادما له أيضا. وإذا ما تأخر أحد المسجلين تعين عليه إرسال آخر بدلا منه على ناقته ومعه رديف أيضا . وإذا ماتخلف الشخص عن صحبة الأمير، ولم يرسل بدلا منه، فقد يمكن التغاضي عن ذلك في حالة الشخصيات المهمة؛ ولكن، المواطنين العاديين، يجبرون على القيام بذلك وتنفيذه بالقوة. كان الزامل رجلا سهلا، إذ كان يقبل أعذار أولئك الذين يلتمسون الأعذار لأنفسهم؛ وإذا ما قال شخص:" والله، ياسيدي،إني لم أستطع المجيء معكم بسبب كيت وكيت،"فإن الأمير يرد عليه، في معظم الأحيان، قائلا:" إذن أبق في البلد."

أشيع كذبا أن الكنيني كان من المشاركين في ذلك الغزو. وأن ذلك الرجل الضعيف أرسل ناقتيه وعليهما راكبان (من أولئك الذين يمكن الحصول عليهم من بين

الحضر والبدو المساكين).لم يكن هناك أحد من أبناء رشيد في الميدان: وأردف صالح قائلا:" لنا أبناء عمنا الاثنان شاركا نيابة عنا جميعا ."- أبلغني أحد أقارب الزامل، في وقت لاحق،أن قوتهم في الميدان كانت تقدر بثمانمائة رجل، في حين كانت قوة المطير تقدر بحوالي ٣٠٠ رجل. قال بعض الناس: إن عنيزة أرسلت مائتي ناقة، أي ٤٠٠ راكب (مقاتل)؛ بعض ثالث قال: إن عدد المقاتلين بلغ خمسمائة رجل- ونحن يمكن لنا أن نحزر بأن الزامل طالب بتجهيز ثلاثمائة ناقة من عنيزة؛ وأن الذي ذهب للمشاركة في المعركة كان مائتا ناقة، كانت تحمل أربعمائة رجل، وهو مايعادل ثلث عدد الأفراد البالغين في المدينة ؛ ونحرز أيضا أن المطير لم يشارك منهم سوى مايقرب من مائة وخمسين رجلا من رجال القبيلة. ولم يكن في المدينة سوى عشرين فرسا، خاصة بكبار الشيوخ. والشخصيات وقدر عدد القحطان (بأسلوبهم التهويلي) بحوالي ٨٠٠ رجل؛ وربما كان ذلك العدد في حدود ٤٠٠ رجل، ولكنهم (شأنهم شأن أعراب الجنوب) لم. يكن في حوزتهم سوى اسلحة قليلة. كانت لديهم خيول كثيرة، وأعداد كبيرة من الماشية الكبيرة: وقيل :"إن أفراسهم كانت ١٥٠ فرسا؛" ولكنهم يقولون: إنهم كان لديهم سبعين حصانا فقط.

تحرك أهل المدينة على شكل جماعات ثلاثة، وكانت كل واحدة من تلك الجماعات تحمل بيرقا من بيارق عنيزة الثلاثة؛ ولكن واقع الأمر أن بيارت المدينة تقدر بخمس أو ستة بيارق، وذلك في حالة الحرب الداخلية.

في ساعة مبكرة من فترة العصر تناهى إلى مسمعي الحديث التالي الذي دار بين كل من فهد ورجل مطيري مسكين- الذي لم يستطع اللحاق بأفراد قبيلته لأنه لم تكن لديه ناقة. فهد:" لقد ساروا على الطريق !وإن شاءالله، سيعودون إلينا برؤوسهم."- إن شاء الله !الله كريم! وسوف يقتلون الأطفال من عامين فما فوق؛ وسوف يترمل الحريم!" قلت لهما:" أغلقا فاهيكما، أيها الكفار !بل أبشع من الكفار." البدوي: " ولكن القحطان قتلوا أطفالنا- بل وقتلوا النساء أيضا!"جاء المطير ليخيموا بالقرب من أسوار البلدة؛ وأصبح منزلان من منازلهم جيرانا لنا .أعراب الجنوب هؤلاء كانوا مثل سائر البدو الآخرين. سمعت على ألسنتهم ومن أفواههم اللغة نفسها التي يتكلمها البدو الرحل؛ ومع ذلك تبينت أنهم كانوا من ديار أجنبية. شاهدت قراب الماء وقد علقوها على ركائز

الواحدة منها مكونة من ثلاثة من العصى . وجاءنى البعض منهم يطلبون دواءً؛ ويبدو أنهم لم يكونوا كرماء؛ تأكدوا أنى أحظى برضى الزامل وسماحته ، ولم يكن القحطان متشددين.

فى هذا الجزء من البلاد يطلق أهل الحضر على أنفسهم اسم الأعراب، كما يسمون أيضا باسم المسلمين el-Moslemin وهذه الكلمة شبيهة بكلمة "مسيحى" Cristiani التى تشيع فى بلدان القساوسة فى أوروبا؛ الكلمات التى من هذا القبيل يقصد بها أولا تمييز الجبل الإنسانى، أوإن شئت فقل: الجبل البشرى، ثم يقصد بها ثانيا المعنى الدينى الضيق المتشدد. ذات يوم شاهدت إبلا ترعى فى اتجاه الوادى؛ وعلى أمل شرب شىء من الحليب، غامرت حافى القدمين ، واتجهت صوب تلك الإبل، قاطعا بذلك منطقة الجذامة فى أرض رشيد، وماشيا فوق الرمال المتوهجة: وألقيت التحية على الرعاة! ووقفوا بلاحراك؛ وعندما وصلت إليهم قالوا : بعد شىء من الاندهاش:" يارجل، النياق ليس فيها حليب، وهى ليست ملكا لنا: هذه هى إبل البلدة (عنيزة) ؛ونحن نرعى هذه الإبل لحساب المسلمين Moslemin". قال أحدهم :" أوه ألست أنت الحكيم؟ هل يمكن أن تعطينى دواء؟ـ وأنت عندما ستأتى إلى خيامنا بعد أن نسقى الماشية، سوف أحلب لك ناقتى الخاصة؛ وأنا ليس عندى غيرها: لوكانت ماشيتنا هنا، لحلب لك البدو لبنا كل يوم."ـ انقضى ذلك اليوم الطويل؛ وانقضى بعده يوم آخر، ولكنه بدى لى وكأنه بلا نهاية؛ وانقضى علّى يوم ثالث وكأنه ثلاثة أيام: وكان قد بلغنى أن "أصدقائى كلهم مشاركون فى الغزو"، وأن الأمير على هو الذى يحكم حاليا فى عنيزة! وطلب صالح منى أن ألزم الهدوء؛ ولكن الكلمات الحلوة لايجب الوثوق بها بين العرب؛ وهم يعتقدون أن إقناع الإنسان بنيل قسط من الراحة، هو من أعمال الدين.

وصلت أخبار ذلك الغزو إلى بريدة، وخرج المراسلون لكى يحذروا القحطان من ذلك الغزو. ولم يحافظ الزامل على سرية هذه العملية الحربية ، إذ لم تكن هنالك نقيصة فى شخصية رجل سياسى من هذا القبيل، لأنه كان رجلا شديد الحرص." قال صالح : إنه سيعطى أعداءه فرصة كى يسيروا فى طريق السلام"ـ وياله من اختلاف عن صقور كل من الرياض وجبل شمرّ!

ـ كان القحطان فى ذلك الوقت فى منطقة العيون el-Aun؛ قصد الغزو إلى هناك. ولكن الزامل بلغــه، وهو فى الطريق ،أن منازل (مـضــارب) القــحطان كـانت فى الدَّلامـيـة ed-Dellamieh، التى هى مسقى فى المسافة مابين جبل ساق Sak والرّس. سارت المدينة (عنيـزة) طوال نـهار ذلك اليـوم وجزءًا من ليله أيضـا. وفى عـصـر اليـوم التـالى كـانوا قريبين من الرس؛ ثم نزل الغزو عن الراحـلات طلبا لقسط من الراحة، ونصبوا خيامهم وفرشـوا سـجادهـم. وهنا بلغـهم أن العدو كان عند آبار الدُّخانى Dokhany، التى تبـعد مسافة رحْلة واحدة فى اتجاه الجنوب. وبينما استـأنف الغزو مسيره فى صـبيحـة اليوم التالى التقى المطير شيئا فشيئا؛ ونزل الجميع عن الراحلات عند الظهر ـ وقـال لهم كشافو المطير :إنهم شاهدوا خيام الأعراب فوق الدُّخانى! وطالما أنهم كثيرو العدد على هذا النحو فلا بد أن يكونوا هم القحطان؛ الذين يمكن أخذهم على غرة! وراح متعلمو عنيزة من الشباب يتفاخرون ويتباهون وهـم جالسون حول موقد القهوة:" سوف نحارب غدا فى ميدان جبل Jebel قيزاز Kezaz القديم بالقرب من الدُّخانى؛ حيث حارب تُبَّع(*) ملك اليـمن أبناء الوائليين Wailyin (أى أبناء وعـيل، أوإن شئـت فـقل: العنوز)ـ وكليب Koleyb، شيخ ربيعة؛ ومعـهم كل من بنى تميم وقيس" [قحطان ضـد إسـماعيل ـ حدث ذلك قبل الـهجرة بوقت قصير]. جبل قيزاز Kezaz يبعد مسير 'ساعة' عن حوض وادى الرماح .

بدأ الزامل ومعه بلده يتحركون فى الصباح، فى الوقت الذى كانت النجوم ماتزال طالعة فيه: فى حين كان المطير قد سبقوهم قبل وقت قصير، وكان جبل دخانى على بعد مسافة قصيرة. فى تلك المعركة كان مقررا للبدو أن يهجموا على عدوهم الرئيسى؛ وأن يكون الزامل قريبا منهم لتقديم يد العون لهم إذا ما تطلب الأمر ذلك. وضربت عنيزة الحصار حول القحطان من الناحية الجنوبية.

(*) تبَّع هذا هو مؤسس الدولة الحميرية الثانية ٣٠٠ – ٥٢٥م. ولقب بتبع الأكبر وقد زحف تبع بجيوشه إلى أرمينيا وهزم الترك وامتدت فتوحاته حتى وصلت إلى الهند وغلب أرض الصين ، وأخضع فارس وخرسان والشام ومصر. وقد ورد ذكره فى القرآن الكريم قوله تعالى " أهم خير أم قوم تبع والذين من قبلهم أهلكناهم إنهم كانوا مجرمين " الدخان – الآية ٣٧ . (المراجع)

هجم المطير على عدوهم مع طلوع النهار: وهرب القحطان من البيوت ، ومعهم أسلحتهم، وقفز الشيوخ من فوق أفراسهم ؛ وراح الناس يشجعون بعضهم البعض عن طريق الصياح. وعندما وجدوا أنهم محاصرون بواسطة المطير راحوا يقاتلونهم وهم يصيحون قائلين:"جابهم jab-hum الله! ' Ullah ـ ولكن ذلك اليوم كان واحدا من أيام الاعتراف عند الطرفين ، الاعتراف بالموت الزؤام. كان المطير يحاربون" بمائتى" فرس؛ ولكنهم كانوا من العناصر قليلة القيمة فى الشمال. كان القحطان فى بداية الأمر يحاربون بحوالى ستين خيالا. ثم انضم إليهم ثلاثون خيالا آخرين جاءوا من منزل كبير كان قد نصب خيامه على بعد مسافة قصيرة. وهنا أصبح عدد أفراد القحطان أكبر من عدد أفراد الغزو المطيريين، الذين تركوا ميدان القتال فى نهاية الأمر.

– تلى ذلك ، أن نظر القحطان حولهم؛ وراحوا يتحسبون لجماعات عنيزة المتقدمة صوبهم! وهنا راح القحطانيون الذين لم يقتل منهم عدد كبير، يتصايحون مع بعضهم البعض، كى يشجع كل منهم الآخر،" أخ! أهذا هو ابن الرشيد ؟ـ لكن لا! لأن ابن الرشيد يهاجم تحت لواء بيرق واحد: ولكن هؤلاء يهجمون علينا بطريقة الحضر. ـ الله إنهم حضر!"ـ وعندما اقتربت عنيزة ، تعرف عليهم بعض القحطان، وصاحوا قائلين:"هؤلاء هم القصمان!إنهم الزواميل Zuamil (بمعنى شعب الزامل)." وعندما تيقنوا من ذلك سارعوا لإنقاذ نياق الحليب.

– ولكن الزامل، الذى كان على بعد مسافة كبيرة، تعجب ،عندما رأى الخيالة البدو يسوقون الإبل:" أليس هؤلاء هم المسلمين Moslemin [أولئك الذين هم أنصارنا]؟" "أجابه شيخ من شيوخ المطير قائلا: لا!)ـوكان ذلك الشيخ قد ركب راحلته مع عنيزة، لكى يدل على الطريق فى الخلاء)، إنهم كلهم من القحطان!" كان عدد خيالة عنيزة صغير على نحو لم يتمكنوا معه من الهجوم على القحطان. وكان القحطان بدورهم قد تخلوا عن منزلهم لإنشغالهم بمحاولة إنقاذ الماشية: وترتب على ذلك أن ترك القحطان خيامهم، ومتعلقاتهم المنزلية، وزوجاتهم وأطفالهم فى قبضة العدو.

راح خيالة المطير يطاردون القحطان الفارين! الذين استدارو مرة ثانية إلى الخلف وصدوا خيالة المطير: وهنا حاول خيالة عنيزة مساعدة أصدقائهم. فى حين راحت بقية

المطير، الذين نزلوا من فوق إبلهم يسلبون خيام أعدائهم ويستولون عليها - وراح هذا ، وذاك الذين جرى اختراق أجساد ربات بيوتهم بسهام القحطان وكذلك أولئك الذين قتل القحطان أطفالهم، راحو يفعلون الشيء نفسه مع عدوهم، راحوا يطعنون كثيرا من الحريم ، ويذبحون الأطفال الصغار على مرأى ومسمع من أمهاتهم، وهم يصيحون قائلين :" أوه، لماذا فعل رجالكم الشيء نفسه مع أطفالنا فى ذلك اليوم المشئوم! " كانت بعض النسوة اللاتى أصبن بالهلع والجنون يجرين ويهاجمن الغزاة مستخدمات فى ذلك أوتار الخيام؛ فى حين راح المطير ،الذين كانوا يحملون أسلحتهم فى أيديهم ، ودمهم يغلى فى عروقهم، يكيلون لهم الضربات- وبذلك ماتت خمس أوست زوجات من القحطان، وعددا كبيرا من أطفالهم.

فى عز هذه المحنة خبّأت زوجة من الزوجات نقود زوجها ، وكانت تقدر بحوالى ٦٠٠ ريال [وهذا مبلغ كبير إذا ما توفر لواحد من البدو] ! خبأت النقود فى قربة من قرب الماء؛ ومزقت سترتهاالزرقاء - وهى كل ماتلبسه المرأة أوتضعه على جسدها الذى يكاد يكون ميتا بسبب الجوع، بعد الهجو haggu؛ ثم علّقت تلك القربة على كتف من كتفيها وحملت طفلها على الكتف الآخر. ثم أخذت تجرى منطلقة من خيمتها وهى تصيح قائلة: 'ويلى weily ويلى' weily بمعنى 'الويل لى!' وفرت هاربة بين أفراد العدو. وظن المطير، الذين شاهدوا تلك المرأة، أن واحداً قد اغتصبها، ووجدوا أن من العار تتبعها ؛ ومع ذلك ناداها البعض وطلبوا منها أن تلقى أرضا ذلك الذى كانت تحمله على كتفها : ولكنها تظاهرت بالجنون ، وصاحت قائلة:'لقد انتهيت!- ألايكفى أن تجرد ابنة شيخ من الشيوخ من ملابسها؟ وهل سيأخذون حتى ذلك الماء الذى تحمله معها لطفلها الصغير!' صاح بعض آخر مطالبا بالسماح لها بالمرور: وهربت المرأة مسرعة، وهربت من الجميع- وبذلك استطاعت أن تنقذ ثروة زوجها، مقابل التضحية بحشمتها.

سقط فى تلك المعركة ثلاثون رجلا من القحطان- وقد قتل أغلبية أولئك الرجال أثناء فرارهم؛ كما قتل عشرة رجال من المطير- وعاد أولئك لدفن موتاهم: ولكن الإحسان الإنسانى غير معروف هنا، والذى يتمثل فى إهالة القليل من التراب على جثة العدو بعد وفاته!

جاءت إمراة مراسلة إلى الزامل، موفدة من القحطان الهاربين. نزلت عنيزة عن راحلتها، عند آبار الماء (حيث سينصبون مظلاتهم ويشربون القهوة): وطلبت المرأة توصيلها آمنة إلى واحد من الشيوخ ، يأتى للتحدث معها؛ ولبى الزامل طلبها ـ وبعد ذلك عاد رجال القحطان وراحوا يقبلون الزامل ويتوسلون إليه أنه طالما أن قطعانهم، وخيامهم، ومتعلقاتهم أصبحت الآن (وهذا هو مايراه بنفسه) فى أيدى المطير ، الذين سيحولون بينهم وبين الوصول إلى الماء، فهم يرجونه أن يسمح لهم بورود الماء حتى يشربوا ولايموتوا .' وكانوا قد تعرقوا عرقا شديدا فى ذلك اليوم بالغ القيظ؛ ولم يكن معهم قراب للماء، عندما فروا عبر الصحراء ،وهم فى شدة العطش . ولكن من ذا الذى يمكن أن يثق بالأعداء من البدو أويركن إلى كلامهم! ومن هنا فإنهم يربطون بقسم يقول:ـ عليك aleyk عهد ahad الله Ullah وأمان waaman الله Ullah أن in ما ma أخونك akhunak ! الخاين el-khayin يخونه yakhunhu الله Ullah بمعنى 'وعهد الله وأمانه !لن أبيعك! ومن يخون يخنه الله.'

جاءت هزيمة القحطان على ذلك النحو، بعد أن كانوا عتاة غلاظا مع ابن الرشيد فى الفترة الأخيرة .[كان ابن سعود قد هاجمهم فى جبل الدُّخانى، فى صيف العام الماضى؛ ولكن القحطان استطاعوا رد الوهابى وصد هجومه!] ـ وقد عزى الناس ذلك النجاح إلى حسن طالع الزامل: إذ لم يستعمل الحضر أسلحتهم. وأرسل المطير من الميدان مراسلين لابن الرشيد، ومعهم هدية عبارة عن فرسين من الغنائم التى حصلوا عليها من القحطان ـ وقد سعدت بريدة بتلك الهزيمة، لأنها أدت إلى طرد القبليين الغرباء الحاسدين إلى خارج البلاد ـ ومات عدد كبير من القحطان أثناء فرارهم عبر الخلاء: الأدهى من ذلك أن الإصابات الطفيفة، فى ظل هذا الإرهاق الشديد والظمأ الشديد يمكن أن تودى بحياة البشر. هرب القحطان فى اتجاه الجنوب طوال ثلاثة أيام، مخافة أن يعلم أعداء هم القدامى بأخبارتلك الهزيمة ويقومون هم أيضا بالهجوم عليهم: وقد بلغنا ،أن بعضا من أفراد قبيلة عتيبة التقوا أولئك القحطان الهاربين وأخذوا منهم "مائتى" ناقة من نياق الحليب التى استنقذوها وفروا بها هاربين. قال البعض منهم الذين وصلوا إلى الأثيلة el-Ethellah: إنهم هزموا وخسروا 'مائة رجل'.ـ ومر الزمن عليهم ثقيلا وبيلًا قرابة العامين حاليا وهم يقومون بدور الذئب فى منطقة نجد!

عندما سألت عما يمكن أن يحدث للقحطان ؟ أجابني الشقيري،" البدو كلاب، لا تموت أبدا؛ وهؤلاء شياطين. سينتقلون عشرين نقلة؛ وبعد عام أو عامين سيحل الدمار بهم من جديد."_" ومالذي يمكن أن يفعلوه حاليا؟"_ "سوف يحلبون النياق ليكون اللبن غذاء لهم ، وسوف يبيعون بعض النياق في القرى، حتى يشتروا بثمنها تمرا وأواني للطبخ . ولن يستمر بقاءهم في العراء فترة طويلة على الأرض بلا مأوى من حرارة الشمس: والسبب في ذلك أن الحريم سيقمن بجز صوف الأغنام التي تبقت لهن، ويغزلن صوفها ليلا ونهارا؛ وإن هي إلا أسابيع قليلة حتى ينصبن خيامهن الجديدة! يضاف إلى ذلك أن قحطان الجنوب سيقدمون لهم يد العون والمساعدة."_ سمعنا بعد ذلك أن القحطان المنهزمين عقدوا صلحا مع العتبان؛ كما تصالحوا أيضا مع ابن سعود! ولكن كيف لهم بتأمين أنفسهم؟ هل وعد القحطان أن يكونوا حلفاء معهم ضد ابن الرشيد؟

مات حيزان!'ذلك الشاب ذي الميول اللصوصية،' على حد قول البدو الأعداء: وحيزان هذا هو الذي هددني، في العام الماضي ، وأنا في غرفة الضيافة في حائل:قتل ذلك الحيزان قصاصا لذلك الشيخ المطيري، الذي قتل مؤخرا في الشمال بيدي هذا الحيزان. فقد بحث عنه أثناء القتال شيخ من أقارب الشيخ المتوفي : وهرب الاثنان سويا؛ وأصيب حيزان بجرح نافذ مميت .كان حيزان بدويا قوي البنية، وكانت له يد قوية؛ ولكن طعنة رمحه تحاشاها العدو لأنه كان يلبس درعا تحت قميصه المصنوع من القطن. كان المطيري الذي قتل حيزان واحداً من الخيالة الأجواد،وكان قد قتل بعد حيزان خمسا من الشيوخ_ وعندما تحدد مصير اليوم بوصول "الزواميل" Zuamil، الزامل ومعه شقيقه وولده، الذي كان مايزال حدثا صغيرا [وأولاد الشيوخ سرعان مايصبحون خيالة، ويركبون خيولهم مع الكبار ويذهبون إلى ميدان القتال] ومعهم قلة قليلة من أعراب الزامل، وغنموا ثمانين ناقة من نياق اللبن! في ذلك اليوم أصابته الرماح،وطلق ناري في صدره، أحد عشر مرة؛ ولكن أسنة الرماح هي التي كانت تتثلم على قميصه" الداودي" المصنوع من السلاسل الحديدية القديمة. وهم هنا يقولون :إن الطلقة النارية التي تطلق على جسم يتحصن بمثل هذا القميص لاتحدث فيه سوى تهشم بالغ.

قتل أيضا فى تلك المعركة شقيق من أشقاء حيزان اسمه تركى؛ كما قتلت أيضا أختهما الشيخة: فقد جرى تجريدها من ملابسها وطعنها بالرمح- والسبب فى ذلك أن القحطان كانوا قد جردوا ابنة من بنات أحد الشيوخ من ملابسها ثم قتلوها .استطاع الشيخ القحطانى العجوز - والد هذين الأخوين سينا الطالع، الهرب بشق الأنفس على ظهر ناقة من النياق . وأصيب حيزان بجرح قاتل وبقى على سرج الحصان أثناء الهرب، إلى أن دخل عليهم المساء؛ وعندما وصلوا إلى الجلبان jolban التالى (جنوب جبل الدُخانى) أسلم الشيخ الصغير الروح: وألقى رفاقه جثته التى كانت ماتزال حارة فى بئر من تلك الآبار .

عثروا فى مخيم القحطان على أجنبى مسكين ، درويش مغربى شاب !الذى كان يعيش على إحسان أهل المدينة (عنيزة). جاء ذلك المغربى إلى مكة مع قافلة الحج فى العام الماضى؛ ثم قام بعد ذلك بإلحاق نفسه على قافلة القصمان العائدة من الحج،على أمل أن يمر إلى العراق من خلال بلاد القصيم . ولكن أثناء المسير تاه ذلك المغربى فى تلك الأرض الجرداء الخالية: وعثر عليه بعض القحطان الجائلين- يالحلاوة العثور على تائه، فى ظل ظروف كهذه، وذلك بترتيب العناية الإلهية! ولكن القحطان الذين أنقذوا ذلك المغربى ، لم يراعوا كرم الصحراء الدينى، وجعلوا من المغربى عبدا لهم؛ وجعلوه يرعى الغنم : وكانوا كلما اقتربوا من قرية من القرى يقيدونه حتى لايهرب منهم- لقد كانوا سيتعاملون معى بهذه الطريقة، بل وبما هو أبشع وأسوأ من ذلك ، لوكنت (على حدِ افتراضى) قد تجولت مع البعض منهم- أحضر المسلمون العائدون معهم ذلك الشاب المغربى إلى عنيزة، حيث بقى ضيفا فى المدينة ،إلى أن يتمكنوا من نقله إلى المكان الذى يود الذهاب إليه. كان ذلك المغربى بصحبة القحطان اعتبارا من فصل الشتاء، وقال فى بساطة شديدة:" أنا لم أعرف هذه الحياة من قبل، ولكنهم حولونى إلى بدوى، وأقسم بالله أنى أصبحت بدويا ."- واقع الأمر أن المرء إذا ما عاش فترة من الزمن بين الأعراب فإن حياته كلها بعد ذلك ستكون عامرة بذلك الإحساس عن الصحراء، وبهذه التجربة التى مربها فى تلك الصحراء.

– فى مساء الليلة الخامسة رأينا خيالا بدويا عند حافة النفود، وكان يتجه صوب الخيام: كان ذلك أول الخيالة العائدين من الغزو. وفى صباح اليوم التالى وصل الزامل

إلى عنيزة ومعه كل أفراد المدينة الذين شاركوا في الغزو؛ سمعنا وقع أقدام الماشية وهى عائدة إلى عنيزة وسط العزف العسكرى من آلات الطنبور؛ عادوا على شكل ثلاثة جماعات تحت لواء ثلاثة بيارق. ومع ذلك، لم تكن بقية البدو قد عادت بعد: إذ كانوا ما يزالون متخلفين في المسير بعض الشيء - وهذا أمر دائم الحدوث عند تقسيم الغنائم. فالبدوى يود الحصول على مايعثر عليه فى أى مكان؛ ونظرا لأن المطير قد سبق غزوهم مؤخرا من قبل القحطان فى الشمال، فقد راح الكثيرون من المطير يستردون ماشيتهم من أيدى أولئك القبليين . شاهدنا فى عصر اليوم نفسه الأغنام وهى يجرى توجيهها إلى داخل البلدة: صحيح أن عدد الأغنام كان قليلا، وصحيح أيضا أن الجزء الأكبر من تلك الأغنام كان ملكا لأهل عنيزة. وجاء أولئك الذين عادوا من الغزو بأخبار ثقيلة ومؤلمة، فهناك ستة رجال قتلوا وهم من أهل المنْزل القريب منا! هذا المنزل كان يضم حوالى ثلاثين أسرة. وعندما شاع الخبر، راحت زوجات المتوفين يجرين ويولولن، ويطحن بخيامهن التى ترملت . ورحل البدو وعندما طلع النهار، عادوا إلى الخلاء (الصحراء) من جديد - كانت تلك هى كارثة القحطان ومصيبتهم! وحدث بعد ذلك سلام بين كل من بريدة وعنيزة.

راح الجماميل في عنيزة يستعدون للقيام بأعمالهم؛ لأن قافلة السمن كانت على وشك أن تبدأ السفر إلى مكة. وجرى إحضار الزُّمَّيل Zemmel، أوإن شئت فقل: إبل الحمل، من عند البدو المتنقلين؛ وشاهدنا إبل الحمل هذه وهى ترعى كل يوم فى النفود المحيطة بنا. وكانت قافلة محملة بالتمور والقمح، قد رحلت فى تلك الأيام متجهة إلى المدينة (المنورة).

وذات يوم ركب كل من الزامل والكنينى راحلتيهما واتجها سويا إلى الوادى حيث توجد ضيعة للزامل؛ وقررا عند العودة أن يمرا على مزرعة رشيد لكى يزورا خليلا. ولكنهما أثناء حرارة الظهيرة الشديدة ناما فى ظل النخيل : واستيقظ عبدالله الكنينى وهو يعانى من حمى الملاريا! واختار أقرب الطرق الموصلة إلى البلدة.

ذات مساء وصلت من عنيزة جماعة من الأعيان الشبان كى تتفقد بعض أغنامهم، التى أحضرها الرعاة البدو، بعد أن أصابها مرض فى صوفها. هؤلاء الأعيان خلعوا

ملابسهم الفاخرة وعباءاتهم؛ ووقفوا في الغدران التي تتلقى مياه البئر، وراحوا يغسلون أغنامهم. وعندما دخل الليل، ناموا على رمل النفود، أمام خيام الرعاة. كان البعض منهم من آل البسام المتشددين؛ ومع هؤلاء الأعيان جاء أيضا الولد الأصغر من أبناء عبدالله البسام ذلك الرجل الطيب. كان ذلك الولد يحمل لي من والده تحية ملؤها الحب والود؛ وقد أبلغني الوالد أن "القفيلي (تصغير قافلة) سوف تقوم قاصدة مكة (المكرمة) خلال وقت قصير؛ وأني ينبغي أن أركب مع عبد الرحمن (ولده الأكبر)؛" كان قد مضى عليَّ حوالي ستة أسابيع في مزرعة رشيد.

قبل الرحيل عنا في الصباح، جاءني واحد من عائلة البسام المتشددين وقال لي:- "آه، ليتك تؤمن بمحمد (ﷺ)! صحيح، ياخليل ،إنك تتطلع دوما إلى عودة المسيح مرة ثانية، من السماء؟ وإذا ماطلب منك عيسى (عليه السلام) الإيمان بمحمد (ﷺ)، فهل ستطيعه وتصبح مسلما؟ ولكني واثق أن سيدنا عيسى سيأمرك بذلك !أتمنى لوأنه يعجل بالمجيء ؛ وعندها سوف نرى!"- في اليوم نفسه زارنا الشابان نفسيهما، اللذان كانا من أقارب رشيد، الذين شاركوا في الغزو: كان الشابان شديدا السُّمرة، ويبدو أنهما كانا من أصل زنجي .أخبرني أحدهما، الذي سبق له العمل مع قوة العجيل في دمشق ،أنه اشترى في الفترة الأخيرة، من اليمن حصانا مكتمل الشكل والقوة، ودفع فيه أربعمائة ريال؛ وكان يأمل أن يبيع ذلك الحصان في الشام بنفس هذا المبلغ .كانت القهوة تقدم لكل من يزور الجنينة، وبواسطة أبناء رشيد الصغار؛ وفي تلك الأيام - التي كانت تصادف الأيام الأخيرة من شهر يونيو - كانوا يقدمون مع القهوة عناقيد العنب الأبيض البارد، الذي بدأ ينضج في ذلك الوقت.

زارني أيضا شيخ المطير الكبير: موفدا من قبل الزامل. وبالرغم من أن ذلك الشيخ كان لم يصل بعد إلى منتصف العمر، إلاأنه أصيب بمرض الاستسقاء، ولم يعد يتحمل أقل قدر من التعب أو الإرهاق: جاءني ذلك المريض وهو راكب على سجادة كانت مربوطة إلى سرج الناقة، ومرض الاستسقاء istiska معروف بين الناس هنا - على إنه واحد من أمراض الخيل ، لم يكن ذلك الشيخ يعرف شيئا عن ذلك الذي كان يؤله ، ألا يعرف الناس كلهم هم وأطفالهم حق المعرفة الأمراض التي تصيب ماشيتهم وطرق علاج تلك الأمراض أكثر من معرفتهم للأمراض التي تصيبهم وتصيب أطفالهم!

أخذ الشيخ كلامى مأخذا حزينا. الحصان يتعرق كثيرا، وبالتالى فهو لايصبر على العطش : وبداية هذا المرض، قد تكمن فى شرب الماء البارد، من قربة من قراب الماء المبرد. وعندما علم أن مرضه سوف يستمر معه فترة طويلة قال:" ياخليل! ألن ترافقنا؟"حنا henna رحيل rahil، بمعنى "الأعراب سوف يرحلون غداً" (إلى ديرتهم الصيفية، فى الشمال): وسوف تسكن فى خيمتى ؛ وسوف يخدموك خدمة جيدة." -"أصبر على حكم الله!"-" أنا أعرف أن البركة والنعمة من الله؛ ولكن هيا تعال معنا ياخليل: وسوف تكون معنا فى أمان؛ وسوف أعيدك ثانية إلى عنيزة، وإذا كان من الأفضل لك، سأرسلك إلى الكويت أوإلى البصرة."-" أنا سوف أرحل قريبا مع قافلة السمن ."-" حسن، لقد بلغنا ذلك - وسمعناه أيضا فى البلدة (عنيزة) - وسوف تصل هذه القافلة فى اليوم التاسع غداً من اليوم ؛ تعال معنا وسوف أعيدك، قبل اليوم التاسع: وأنا أعدك بذلك، وسوف أوفى بوعدى."- كان جميلا حقا ، فى تلك الأجواء من الحرارة الشديدة، أن أتنفس هواء الصحراء من جديد، واستشعر الحرية من جديد، بين الأعراب؛ كما أن شربى للحليب يمكن أن يعيننى على استعادة قواى. أرسلت فى طلب الرأى والمشورة من الكنينى: وكتب لى صديقى مرة ثانية، أنى بوسعى المغامرة مع هؤلاء الأعراب. ولكن الوقت ضيق وقصير، ويجب ألا أعلق أملا كبيرا على وعود البدو.

أمضيت فى الجزيرة العربية أياما كثيرة من تلكم السنوات القلائل التى تشكل فى مجموعها حياة أى إنسان من البشر؛ وها أنذا الآن فى وسط الجزيرة العربية . وإن هو إلا شهرا واحدا – وبعده مباشرة أكون قد عدت ثانية إلى شركة الملاحة الأوروبية. المسافة من هنا إلى ساحل البحر تقدر بحوالى ٤٥٠ ميلا صحراويا، هذه الرحلة تقدر بمسير عشرين رحلة من الرحلات الكبيرة، فى أضعف الأحوال، فوق سرج الجمل غير المريح، فى حرارة شمس الصيف المحرقة؛ التى تشكل معاناة شديدة حتى لأولئك العرب الذين ولدوا فى الجزيرة العربية نفسها. يضاف إلى ذلك ،أن قواى البدنية، وصلت إلى مرحلة لم أعد أتحمل فيها الجلوس منتصب القامة؛ وفوق كل ذلك، فأنا يساورنى نوع من الخطر، نظرا لأنى سوف يتعين علىَّ الانفصال عن قافلة مكة عند المحطة الأخيرة قبل المدينة المحرمة (الممنوع على غير المسلمين دخولها). زد على ذلك كله، أننى يسيطر علىَّ قلق شديد: والسبب فى ذلك ،أننى قبل اثنى عشر شهرا، وبينما

كنت أدخل خيمة (فى وادى تربة)، فى ساعة الظهيرة، أثناء نوم البدو، عضنى فى ركبتى كلب من كلابهم. غسلت الجرح ؛ الذى التأم خلال أيام قلائل، ولكن تخلف عنه شامة حمراء اللون تشبه الزر الأحمر؛ الذى تحول حاليا (عند نهاية العام) إلى قرحة؛ ثم ظهرت بعد ذلك قرح أخرى شبيهة بتلك القرحة على ساقاى، كما ظهرت قرحة أخرى (على رسغ اليد اليسرى)ـ آه !ياللهول ، من أن أموت مثل كلب مسعور فى هذه الأرض المعادية.

اشترى صديقاى الكنينى والبسام، ناقة من سوق الجمعة، كى أركبها وأنا ذاهب إلى جدة، وأبيعها هناك بثمن لايقل عن الثمن الذى اشترياها به؛ هذا إذا لم يتيسر أحد من أقاربهما ليركب الناقة ضمن القافلة العائدة ـ وصلنى فى ذلك الوقت خطابا من عبدالله البسام الطيب:"(كتب يقول): كل شىء جاهز؛ ولكنه بسبب العقلية غير المتحضرة [الحقد الوهابى] السائد بين الناس، لن يتمكن من إرسالى بصحبة ولده! وطلب منى أن أسامحه فى ذلك. ولكنهما رتبا الأمر بحيث أكون بصحبة سليمان الكنينى ، والذى ينبغى أن أطلب منه كل ما أحتاج إليه [الماء، والطعام ، والمأوى فى وقت الظهيرة] وذلك طوال السير فى الطريق." ـ ، أنهى رسالته بأن طلب منى إرسال قليل من حبوب الكنين: ومن فوق خاتمه كتب مايلى "با رك الله فى المسلمين المؤمنين."

أرسلت للزامل أستأذنه فى السماح لى بالمجىء إلى البلدة (عنيزة) ، لشراء بعض مستلزمات الرحلة، ولتوديع أصدقائى: ولكنه لم يؤمن لى ذلك الطلب البسيط، أهل عنيزة الطيبين فيهم الكثير من البؤس والشقاء الوهابى.

عمال الزراعة فى البستان ـ الذين فيهم شفقة الفقراء، كانوا كلما ذهبوا إلى عنيزة فى يوم الجمعة، يشترون لى الاشياء الضرورية: أما أسرة القصاب فلم تقدم لى من الكرم شيئا ـ وجاء لى حامد اليحيى ، ذات مساء فى تلك الأيام الأخيرة، راكبا فرسه؛ جاء حامد أصلا لزيارتى. هذا أول صديق من أصدقائى العائدين ـ واعتذر عن تأخره فى الحضور إلّى. ونظرا لأن الحكيم كان على وشك الرحيل، فقد كان يود الحصول على دواء لوالدته، التى أرسلت لى معه خرجا مليئا بنوع من الكعك (الذى

يعدونه لاستعماله فى رحلات القوافل) ، كما أحضر لى أيضا كمية من اللحم الطازج المقدد الذى يمكن أن يدوم شهرا كاملا بلا تلف. كان حامد شابا تبدوعليه مظاهر الرجولة وطيب الملامح، أى أنه كان ابن أمه ـ ولكنه كان أيضا ولد أبيه من حيث القوة الكبيرة، وكانت له أيضا طبيعة سمحة، وتغلب عليه الكياسة والتحرر: لم تكن لحيته قد بدأت تظهر بعد. وتلك الفرس العجوز كانت ملكا له: كما أن كون المرء خيالا جعله أيضاً يندرج ضمن النبلاء. جاءنى مرتديا لباسا طيبا، شأنه شأن أولئك الحضر عندما يسافرون إلى الخارج؛ كانت غترة رأسه محاطة بعقال ومعطرة بعطر الورد، الذى يجلبة من مكة. كان ذلك الخيال الشاب يقتاد معه مهراً، قال لى: أنه وجده مربوطا فى خيمه من خيام القحطان: قال حامد (ملتمسا لنفسه الأعذار) : أنه أحضر ذلك المهر معه إلى بيته ' ولربما مات لو تركه هناك !' وراح المهر يجرى ويلعب حول الفرس العجوز، كما لو كانت هى أمه. هذا يعنى أن تلك الفرس تبنت ذلك المهر! وأدارت عنقها إلى الخلف وراحت تنظر إلى ذلك المهر الصغير، وكانت تعطس عطسا خفيفا فى شىء من الود.

تناولنا العشاء سويا؛ وحكى لى حامد عن ملاقاتهم للقحطان. وركب حامد فرسه وهو مسلح ببندقية (إفرنجية) بروحين؛ ولكنه اشتكى لى من أن المرء لايستطيع تعمير البندقية وهو راكب على ظهر حصانه. ورددت عليه، بأن ذلك راجع إلى ركوبهم الخيل فوق (مُعَرَّقة)(*) maaraakka؛ ونصحته باستعمال الركاب Stirrups، ووجد ماقلته له نصيحة طيبة ـ لقد بلغ غبار المعركة حداً من الكثافة تعذر معه على حامدأن يحصى عدد خيام القحطان، التى قدرها بما لايقل عن ٣٠٠ خيمة. معروف أن قوافل مكة (المكرمة) تمر على جبل الدُّخانى؛ ولكنه قال : إنهم تحاشوا ذلك الجبل فى ذلك العام، نظرا لبقايا جثث (القحطان) التى لم يجر دفنها. سألته إن كانت القفيلة تواصل مسيرها طوال ساعات حرارة النهار؛ "لا، لأن ذلك قد يترتب عليه تسرب السمن (المنصهر) من خلال قراب السمن." كان يحسب أننا سنسير أثناء الليل، وذلك تحاشيا للقحطان؛ وأن قفيلتنا سوف ينضم إليها عند بلدة الرس قافلة الزبد القادمة من بريدة .

(*) مُعَرَّقه: هى ما يطلق عليه الفلاحون المصريون اسم "العراْقه" وهى عباره عن قطعة من الخيش توضع على ظهر الحمار أوالحصان ،لامتصاص العرق ومنعه عن الراكب .(المترجم)

جلس حامد معي ساعة أخرى، في ضوء القمر: احتج حامد، أن صداقتنا سرعان ماوصلت إلى نهايتها ، وإننا سوف نفترق عن بعضنا البعض ـ وقال: إننا بعد فتراقنا يجب ان نكتب لبعضنا البعض . وركب حامد فرسه؛ لم التقيه بعد ذلك.

جرت العادة في هذه البلاد[انظر الجزء الأول] أن يتجمع كل أولئك الذين سيسافرون ضمن القافلة، في مكان محدد خارج البلدة (عنيزة): يتجمعون فيه مساء اليوم السابق للرحيل ؛ لكي تبدأ القافلة تحركها مع شروق الشمس.

الفصل السادس عشر

مغادرة القصيم، مع قافلة الزيد المتجهة إلى مكة

عبدالله الكنيني؛- وداع أخير. سليمان، تاجر جوال فى القافلة. مخيم عويهلان، أمير القنيلي. الرحيل. وقفة الظهيرة. مسيرة العصر. محطة المساء. الرس. جبال أبان. إبراهيم، الأمير. رياح السموم. آخرالقرى الصحراوية. السقيا. الرفاق البدو.- ألا تروى أمطار الرياح الموسمية هذه الصحارى؟ إنذار. رجال القوافل والبدو. السيول فوق سطح الأرض إلى وادى الرماح. الإبل والجمّالة. عفيف، محطة بئرية. علامات الصيادين. مسارات القوافل إلى مكة. وادى جرير. العلامات الأرضية الجبلية. ظلم وخال. مذاق الماء المتغير. حرّة الكشوب. العطش فى القافلة. رأى سليمان فى البحار الإنجليز. مسقى جميل. الموى: صياح فى منْزل المساء. الركّابة. البدو. مسقى شعارة. حرة عشيرى. الرّيع. السيل [قرْن المنازل]. رئيس وادى الحمض. جانب جديد من الجزيرة العربية. رجال القافلة أوشكوا على دخول مكة يأخذون الإهرام. الهذيل. انحدار الأشراف من سلالة محمد. الوصول إلى عين (الزيمة). مكة مدينة التهامة. النصرانى يترك القافلة عند المحطة السابقة لمكة؛ ويعتدى عليه شريف بدوى.

فى اليوم التالى، وعند غروب الشمس، جاءنى مراسل من عبدالله الكنيني؛ ومعه الناقة التى سوف أركبها إلى جدة. ركبت الناقة؛ وجاء عمال رشيد الذين تركوا عملهم فى ذلك اليوم ومعهم العبدة المسكينة، جاءوا ليأخذوا بيدى؛ ودعوا لى بالبركة عندما بدأت أتحرك. اتجهنا صوب مزرعة عبدالله الكنيني: حيث أبلغونى أننى ينبغى أن أقضى فيها اليوم التالى. لم تكن المسافة تزيد على ميلين؛ ولكننى وصلت إلى المزرعة فى فترة الغسق، أى قبيل طلوع النهار، وكان الجو مايزال مظلما: تركنى رفيقى فى مزرعة الكنيني؛ ونمت على أرض مزرعة النخيل المنعزلة إلى جانب البئر.

ومع شروق الشمس، جاءني عبدالله الكنيني! جاءني راكبا حمارا، قبل أن تشتد درجه الحرارة. وبعده بلحظات جاء عبدالله البسام ماشيا على قدميه: "قال: آه! ياخليل، وهو ممسك بيدي، نحن خجلانين لما أصابك، ونحن نشعر بالخجل أكثر لأن ذلك الذي أصابك حدث هنا! ولكنك تعلم أننا مغلوبون على أمرنا من هؤلاء الناس الحمقى." طلب الكنيني المزيد من ذلك الدواء الذي أفاد عيني والدته؛ وقمت بتوزيع أدويتي عليهما. وهنا جاء حامد الصافي؛ وجلس مع أولئك الأصدقاء إلى مابعد طلوع الشمس بنصف ساعة، وعندها نهضوا واقفين لكي يعودوا لتناول طعام الإفطار، وقالوا لي: إنهم سيزوروني فيما بعد. وجاء الصافي ليزورني في العصر مرة ثانية؛ ذلك الرجل الذي كان يود تحسين ماليه من كلام اللغة الإنجليزية - ولم يحضر أي أحد آخر من أصدقائي ومعارفي لزيارة ذلك النصراني المحروم من الرحمة والمغفرة.

وصل عبدالله الكنيني الطيب راكبا حماره لزيارتي للمرة الثانية، في براد عصر ذلك اليوم، وكان بصحبته ولده محمد. كان الرجل ضعيفا في ذلك اليوم، كما لو كان منهك القوى، ومتدني المعنويات؛ رأيته وهو يرتعش، عندما جلس يتحدث معي: في حين كان الطفل يلعب حولنا، وطلب منه والده أن يلزم السكون والهدوء، حتى يتسنى لعبد الله الاستماع إليّ. رجوت عبدالله الكنيني أن يسامحني على القلق الذي أصابه نتيجة مجيئي إلى عنيزة: ولكنه لم يرد على ماقلت.

في المساء: جاءني سليمان Sleyman، راكبا ناقة، ومعه ولده الصغير. كان سليمان متجها إلى مكان تجمع القافلة، وكان ينهي كلامه مع قريبه، الذي أقرضه النقود الذي يعمل بها في التجارة. نادى عبدالله خليلا وطلب منه إنزال طفله؛ ويقوم خليل بالركوب ومعه حاجياته - ركبت مع سليمان؛ ومررنا من خلال كسر في الجدار، الذي كان يحيط بمزرعة الكنيني. قطع عبدالله معنا مسافة طويلة؛ وبعدها توقفت كي أودعه: ودعته وداعا من القلب وتمنيت له كل البركات والنعم السامية Semitic؛ وودعت ذلك الابن الخير من أبناء بني تميم وداعا حميما. وقف عبدالله صامتا ساكنا وحزينا: هذه هي روح ذلك الرجل الضعيف وقد بوعد بينها (وهذا من سوء الطالع!) وبين ذلك المستقبل الذي كان يتطلع إليه - والذي ينبغي لنا أن نراه ونقف عليه [وبعد ذلك بثلاثة أشهر قام عبدالله الكنيني بالذهاب إلى مكة لأداء فريضة الحج : ثم عاد بعدها إلى

البصرة عن طريق البحر ولكن قواه خذلته؛ وحاول الرجل، ولكن بلا جدوى، العثور على جو أفضل فى أبى Abu شهر(*) Shahr على الساحل الفارسى- وفى صيف العام الثالث، كتب إلى سليمان ولد عبدالله البسام الأصغر، من جدة: "عبدالله الكنينى المسكين، توفى منذ أشهر عدة، والمحزن أنه توفى فى مدينة البصرة: لقد كان رجلا طيبا، ويتمتع بشعبية كبيرة"].

مضينا راكبين مدة ساعة أو ساعتين، فى ذلك الطريق الأجوف، المنحوت فى النفود، الذى سبق لى السير فيه أثناء الليل وأنا فى طريقى إلى الخبيرة، كان الظلام قد أرخى سدوله عندما وصلنا إلى مكان تجمع القافلة؛ الذى راح فيه سليمان يرحب بسائقيه الذين سبقونا فى الوصول إلى ذلك المكان، ومعهم أحمالهم. أوصلونا إلى المكان المخصص لنا فى المخيم؛ وهو المكان المخصص لكل المرافقين كى ينزلوا فيه عن إبلهم ويبركوها فيه. شبوا فى ذلك المكان نارا كى يصلحوا شيئا من القهوة، وشاهدت قرب السمن الخاصة بسليمان (والتى بلغ عددها حوالى أربع وعشرين قربة أى ما يعادل طن واحد من السمن) وقد رصوها بطريقه منظمة: كان من بين تلك القراب أربع قراب التى تتسع الواحدة منها لحوالى خمسة عشر صاعا Sah (من صياع القصيم)، وهذه بحد ذاتها تشكل حمولة جمل واحد، وقيمتها تساوى ثلاثين ريالا، وكانوا يتطلعون إلى بيعها بستين ريالا فى مكة- كان الكثيرون من أبناء عنيزة يمضون تلك الليلة فى المخيم مع أصدقائهم وأبنائهم المسافرين. وكان تجمع القافلة الملكية يقع فى منطقة النخيل على أطراف مدينة عنيزة، والناس هنا يطلقون على مكان التجمع هذا اسم العويهلان Auhellan؛ ويقال إن هذا المكان فيه بعض الكهوف Caves القديمة ancient المحفورة hewn فى الصحراء الرملية وأنا لم أسمع عن هذه الكهوف إلا فى هذه اللحظة فقط، وبالتالى لم يكن أمامى متسع من الوقت كى أدقق فى هذا الأمر.

(*) أبو شهر : ميناء يقع فى الساحل الشرقى للخليج العربى كان مركزا للمقيمية البريطانية منذ عام ١٨٢٠ حتى انتقالها إلى البحرين ثم إلغائها فى عام ١٩٧١ عقب الانسحاب البريطانى من الخليج ويطلق على الميناء اسم بوشهر .(المراجع)

– لكنى الآن سمعت ولأول مرة، أن القافلة لم يكن فيها أحد مسافر إلى جدة! إذ كان كل من كانوا فى القافلة مسافرين إلى مكة. كان عبدالله الكنينى قد كلف سليمان؛ وكان البسام، الرجل الطيب، قد كلف ولده عبدالرحمن، أن يديرا بالهما علّى، وأنهما فى المحطة السابقة لمكة [سواء أكانت وادى الليمون، أوالسيل] ينبغى عليهما أن يوفرا آدميا adamy، ليقوم بنقلى (من دون دخول الحدود، أو إن شئت فقل: حدود الأرض المقدسة) إلى جدة- وهذا الكنينى الطيب، الذى لم يسبق له أداء فريضة الحج، لم يكن يعرف الطريق؛ يضاف إلى ذلك أن عقله الواسع لم يتصور الخطر الذى يمكن أن يتهددنى فى المرحلة الأخيرة من الرحلة.

كانت قافلة الزبد تضم ١٧٠ جملا ، تحمل مايقرب من ثلاثين طنا من السمن ـ وحوالى سبعين رجلا، كان أربعون منهم يركبون نياقا ، أما الباقون فكانوا حداة للإبل. تم تقسيم القافلة إلى جماعات صغيرة؛ وكان كل رئيس من رؤساء تلك الجماعات بصحبة أصدقائه وخدمه المستأجرين للقيام بتلك الرحلة. وكانت كل جماعة تحمل معها خيمة أو تعريشة، تتقى بها أشعة الشمس وحرارتها فى أوقات الظهيرة من ناحية، ولحماية السمن من حرارة الشمس من الناحية الأخرى ، ذلك السمن المنصهر والموضوع فى قراب مصنوعة من جلود الماعز؛ (والناس هنا يطلقون على القربة المصنوعه من جلد الماعز وتستخدم فى نقل السمن أسم 'الجرم' jerm وجمعه جروم Jerum): هذه الجروم يدهنها الناس هنا من الداخل بشراب سائل يصنعونه من التمر. وكل قربة من القرب تحتوى على مايزن مائة صاع، يجرى تعليقها عن طريق عقدة (محكمة الربط عند الطرفين) فى هيكل سرج الجمل. فى بعض الأحيان قد ينفجر جرم من تلك الجروم أثناء سير القافلة، وينساب ذلك السمن القيم كما لوكان ماءًا على أرض هذه الصحراء الجرداء: فى بعض الأحيان قد تحتك الإبل الحاملة لذلك السمن ، بأشجار السنط، الأمر الذى يؤدى إلى وخز تلك القراب بفعل أشواك أشجار السنط. وكان برفقة تلك القافلة مُرَتق botcer، كانت مهمته القيام، فى محطة المساء، بإصلاح الأضرار التى يمكن أن تكون قد لحقت بقراب السمن ـ كل هذه الكمية من السمن، التى تساوى أكثر من ألفى جنيه إنجليزى فى مكة (المكرمة)، جمعها التجار ابتداء من فصل الربيع، من خلال اتجارهم مع البدو: كان تجار عنيزة يخزنون ذلك السمن ، طوال ذلك الوقت، فى أوعية من الرخام.

هذه القافلة الحضرية الكبيرة يعين الزامل لها أمير: وهذا الأمير يكون واحداً من أقارب الأمير؛ وهذا الأمير يتقاضى ريالا عن كل جمل من الجمال- وكان الكنينى قد حصل من الزامل على خطاب يزكينى عند أمير القافلة؛ ويكلفه فيه أيضا بمسئوليته عن سلامتى، عندما أغادر القافله عند "بلدة العين."- جلسنا نتجاذب أطراف الحديث حول وجار القهوة، إلى أن بدأنا نشعر بالتعب والإرهاق؛ ثم رقدنا على الأرض لننال قسطا من النوم، على رمال النفود.

استيقظنا مع طلوع الفجر وكان أمامنا متسع من الوقت لشرب القهوة. كان الأمير، هو وبعض تجار عنيزة الشبان، والذين سيعودون مع القافلة، قد أمضو الليل فى البلدة: لأنهم كانوا سيلحقون بنا، راكبين نياقهم العُمَانية Omanias.[نياق منطقة الخليج 'التى يقولون لها: 'عُمان' بضم العين أوُعامان' Aman' بفتح العين هى من النوع القوى كما أنها كبيرة الحجم؛ ولكن تلك النياق لاتصبر كثيرا على الجوع أوالعطش مثل بقية أنواع النياق الأخرى. والناقه العُمانية Omania ' الجيدة تساوى مايتردد بين ٥٠ إلى ٧٠ ريال فى عنيزة ، يصعب شراؤها فى موسم الحج فى مكة - حيث ترتفع أثمان ذلك النوع من النياق - بمبلغ ١٥٠ ريال]. عندما طلعت الشمس قام أفراد القافلة بتحميل أمتعتهم وبضاعتهم ، واستأنفوا المسير. وبعد ذلك مباشرة دخلنا فى وادى الرماح؛ الذى سرنا فيه إلى ماقبل ساعتين من دخول وقت الظهيرة؛ ثم نزلنا بعد ذلك فى شعب الشبيبية es-shibbieh، لنرتاح ونمضى فترة الظهيرة (يقيلون) Yugyilun. توجد فى ذلك المكان بعض المزارع الشتوية التابعة لعنيزة، وفيها أنقاض بعض المبانى الطينية، كما أن لهذه المزارع أفنية لها أسوار عالية . هذه المزارع لايسكنها سوى عمال آبار المياه، وهم يقيمون فى تلك المزارع بداية من بذر الحبوب فى فصل الخريف إلى ماقبل موسم الحصاد. من تلك الآبار جلبنا ماءً مالح الطعم وملأنا منه قرابنا. كانت حرارة النهار شديدة جداً؛ ووجدت أن درجة الحرارة تحت التعريشة كانت حوالى ١٠٥° فهرنهتية. كبار الشخصيات لها خيام خاصة، مصنوعة بطريقة البدو، وهنا بعض آخر من الشخصيات يستعملون تعريشات (تاندات) مصنوعة من السجاد البغدادى.ولم أشاهد فى القافلة كلها سوى خيمة أوخيمتين من الخيام المستديرة - التى جلبت من الساحل؛ كما شاهدت أيضا بعض الخيام المهلهلة المصنوعة من الشعر [التى قيل لى

إنها من الغنائم التى حصل عليها أهل عنيزة من القحطان!] التى كان يقيم فيها بعض الرفاق الفقراء البائسين. كانت حمولة سليمان الكنينى التى تقدر بسته أحمال من السمن مشاركة مع عبدالله الكنينى :إذ كان عبدالله جمألاً، كما كانت الإبل ملكه أيضا.

ربما كانت الساعة قد وصلت الثالثة قبل تحرك القافلة، - وكانت الشمس الحارقة قد بدات تتجاوز مرحلة الزوال: وقد صدرت إشارة التحرك بصيحة من خادم الأمير عندما نادى قائلا: الشّيل S-SHI-IL وإن هى إلا لحظة حتى بدأت التندات والخيام والتعريشات تتهاوى على الأرض، وأحضرت الإبل وجرى تبريكها فى مكانها، وراح عمال القافلة يخرجون قراب السمن الثقيلة؛ وهذا العمل دائم ومستمر، إذ يقومون من خلاله بتحميل الإبل، قبل تحرك القافلة: وبعدها يأتى على الفور حداة الإبل لكى تستأنف القافلة المسير؛ وعندها يجرى التخلى عن أولئك الذين تباطأوا فى التحميل. ويقف خادم الأمير أمام القافلة كما لوكان راعيا من الرعاة - فارداً ذراعيه مانعا المقدمة من التحرك، إلابعد نهوض بقية الإبل؛ أو، قد يجرى هنا وهناك، وهو يصيح مناديا على أولئك الذين تأخروا فى إطاعة الأوامر. وتبدأ القافلة مسيرها؛ ولكن الجماعات تمشى قريبة من بعضها البعض، تحسبا للصحراء وأخطارها. كان طريقنا المتجه جنوبيا يمر خلال وادى الرماح، الذى هو سهل واسع من الرمال الأكثر تماسكا فى صحراء النفود. هذه هى جبال آبان Aban تتراءى لنا ناحية الغرب، وقد غطاها السديم أوإن شئت فقل: الضباب الرقيق. [والأبانات Abanat يمكن رؤيتها، فى فترة الشفق، من فوق التلال المحيطة بعنيزة] وعند غروب الشمس نزلنا من فوق راحلاتنا عند بعض العزب الزراعية الواقعة على أطراف البلدة - وهذه العزب على وجه التحديد هى الرّس er-Russ، والحجنوى el-Hajnowwy، وهما تقعان خارج الوادى؛ كنا فى ذلك المكان نسير بمحاذاة الخبيرة Khubbera.

القافلة لاتنصب خيامها أثناء الليل؛ ولكن كل جماعة من الجماعات تستعمل تعريشتها أو تندتها فى الجلوس عليها فى العراء؛ ثم يستعملها بعد ذلك رئيس الجماعة للنوم عليها . ومن بين كل جماعة هناك رجل يقوم بدور الطاهى ويتمثل دوره فى الخروج لجمع الحطب المطلوب للوقود؛ وهناك شخص آخر يقوم باقتياد الإبل كى ترعى مدة نصف ساعة هى ماقبل حلول الظلام. رافق سليمان ثلاثة من حداة الإبل: أولهم رجل

فقير الحال من حضر عنيزة، وكان يقوم بدور الطاهى فى جماعتنا؛ والرجل الثانى كان بدويا ـ وبعد ساعة من الزمن يجرى وضع طبق العشاء (الذى يتكون من طعام من قمح مسلوق) أمامنا. وبعد تناول العشاء، نشرب القهوة: ثم يجلسون برهة يدردشون خلالها ويدخنون التبغ؛ ثم يلف كل واحد منا نفسه فى عباءته ويروح ينام على الرمل، تلك الساعات القليلة المتبقية على شروق الشمس.

قبل الفجر بساعة واحدة سمعنا صيحة تقول :"الرحيل!" وهنا سارع الجميع إلى النهوض واقفين فى أماكنهم؛ وهنا بدأنا نسمع الضجيج الناتج عن قيام الناس بأعمالهم؛ كما تناهى إلى مسامعنا الصوت الناتج عن نهيق الإبل. وإن هي إلادقيقة واحدة أودقيقتين حتى أصبح الجميع واقفين على قدم وساق: ثم ركب حداة الإبل نياقهم؛ أما أولئك السائرون على الأقدام فقد راحوا ينظرون حولهم على الأرض التى يكسوها الظلام، كى يتأكدوا من أنهم لم يخلفوا أو ينسوا شيئا وراءهم ـ وتبدأ القافلة فى التحرك؛ لتبدأ مسيرة يوم جديد، ويستمر المسير طوال ذلك اليوم القائظ إلى حلول المساء. وبعد مسير ثلاث ساعات ، فى السهل الصحراوى، مررنا من أمام بلدة الرس ، التى لم يتورع سكانها قبل جيلين، من أن يقطعوا سيقان النخيل على سبيل مقاومة الهجمات التى كان إبراهيم باشا يشنها عليهم. أرسل أمير القافلة مندوبا إلى الرس لمعرفة الأخبار ؛ وعاد إلينا ذلك المراسل بخبر مفاده أن قافلة السمن الخاصة ببلدة الرس قد انضمت إلى قافلة بريدة، التى مرت على الرس قبل يومين. الرس (التى يقولون إنها أكبر من الخبيرة) تظهر على شكل واحات ثلاثة تقع على الناحيتين الشمالية والجنوبية، وعلى بعد مسافة قريبة. وفى الواحة الأولى توجد الرويضة er-Rueytha، وهى مدينة؛ وفى الواحة الثانية توجد الرافية er-Rafya، وهى عبارة عن قرية وبرج مراقبة يشرف على أعالى النخيل ، والواحة الثالثة يسمونها الشنَّانى Shinnany. والرس هى آخر المستوطنات من الناحية الجنوبية وهى تعد البوابة الحقيقية للقصيم ـ وهنا نكون قدأصبحنا على حدود النفود؛ وبالتدريج يتحول السهل إلى سهل زلطى من تحت أقدامنا : وهنا ندخل إلى ذلك الإقليم المتوسط من الجزيرة العربية المكون من الصخور الجرانيتية والبازلتية، وهذا الإقليم المتوسط يمتد من جبال الشمر إلى مكة. وحقول قمح الرس موجودة فى وادى الرماح؛ أما النخيل فيوجد فى أعالى وادى الرماح.

شاهدت أبنات Abanat ـ التى تبعد عن هنا مسير نصف يوم فى اتجاه الغرب، شاهدتها على شكل ساحل جبلى، مثل جبل أجا Ajja، الذى يمتد فى اتجاه الجنوب. هناك جبلان أحدهما وراء الآخر؛ وحوض الوادى (الذى ليس متسعا اتساعا كبيرا هنا) يقع فيما بين هذين الجبلين. والجبل الشمالى يطلقون عليه اسم الأحمر el-Ahmar، بمعنى "الجبل الأحمر".

وصلنا عند الظهر إلى أم تيه Umm Tyeh، التى هى عبارة عن حقل من حقول زراعة القمح التابعة للرس وتقع على أطراف البلدة ويعيش فيها بعض السكان؛ وعندما نزل البعض منا إلى تلك الحقول طلبوا شيئا من الماء، عثروا على قطعة من الأرض مزروعة بالتبغ عاد إلينا رجال عنيزة وهم يضحكون، ليحدثونا عن تلك المغامرة التى قاموا بها فى المنْزل الذى توقفت فيه القافلة: والسبب فى ذلك أن وقت الظهيرة دخل عليهم واضطرت القافلة إلى التوقف هناك. ـ تحركنا من ذلك المقيل mogyil فى ساعة مبكرة؛ ثم مضينا قدما خلال سهل صحراوى ملئ بالصخور والقمم الجرانيتية والبازلتية حمراء اللون [من نفس نوع البازلت والجرانيت اللذان سبق أن شاهدناهما فى ديرة حرب وفى ديرة الشمر فى اتجاه الغرب]. وفى النهاية ومع غروب الشمس، ومع ظهور الضوء الأصفر المتوهج خلف جبال آبان Aban، توقفنا ورحنا ننصب مخيمنا.

أحضر لى اليوم عميل من أولئك الذين يتعاملون مع عبدالله البسام ذلك الخطاب الذى أصدره الزامل، ويزكينى عند إبراهيم ، أمير القافلة الشاب. إبرهيم ـ الذى خلف والده، الذى كان إلى وقت قريب جداً أميرا القافلة البلدة ـ هو ولد أخت الزامل ، وهو شيخ شاب صغير السن يبلغ من العمر عشرين عاما، ويوحى محياه بالشجاعة؛ وهو شبيه بالزامل يوم أن كان فى شبابه، بالرغم من أن ملامحه ليست شبيهة بملامحه: وإبراهيم شخصية مبتسمة، واثق بنفسه ومستقل برأيه ، ولكن الصدأ الوهابى كان مسيطرا على روحه. كان ذلك هو حال السواد الأعظم من الشبان الصغار فى الواحات الحرة، تراهم دائما يتقنعون كما لوكانوا يرتدون ثياب العطلة: ولكن إذا ما تغير حظهم تراهم أغرابا منحطين وظلمة. تسلم إبراهيم من يدى رسالة الزامل، ثم وضعها فى صدره بسرعة دون أن يفتحها؛ وذلك لأنه سوف يقرأ على انفراد ذلك الذى

كتبه له خاله عن النصراني ! كان إبراهيم يكشف لي كل يوم عن بشاشته؛ وفي بعض الأحيان؛ وأثناء المسير، وعندما كان يراني غارقا في سرج الجمل، كان يركب معي، ويضع في يدي غليونه الذي يكون قد أشعله في التو: وفي بعض الأحيان، كان يعزمني على تناول الغداء معه، وذلك في المكان الذي ننزل فيه في فترة المساء. كان شباب التجار العائدين إلى مكة، التي لهم فيها دكاكين، ومعهم قلة قليلة من أصحاب إبل القافلة، كانوا كلهم يركبون نياقهم ، ويرافقون إبراهيم في مقدمة القافلة: وكانوا ينزلون بين الحين والآخر لإشعال شيء من الحطب لتصليح شيء من القهوة. أما أنا فقد كنت أسير بناقتي، بين إبل الحمل ولا أشعر أوأحس بكثير من التعب أو الإرهاق - قال إبراهيم وهو يضحك :إنه سمع عني أول مرة في الكويت (التي كان قد وصل إليها ضمن قافلة من القوافل)، "أن نصرانيا وصل إلى حائل، وطوله tulahu ثلاثة Thelathy أرماح armah، بمعنى "أن طول قامته يصل إلى ثلاثة أرماح!" وأن ذلك الغريب لم يتكلم طيلة ثلاثة أيام! وأنه اكتشف بعد ذلك منجما لابن الرشيد، ثم اكتشف بعد ذلك منجما آخرا!- قضينا تلك الليلة بجوار صخرة الكير el-Kir التي هي أقصر من قمة جبل Jebel كيزاز Kezaz، وكان جبل دوخاني Dokhany لايبعد عنا سوى مسير ساعة واحدة، في الناحية اليمنى ؛التي يوجبها بعض حفر المياه الضحلة، وبعض الأساسات الأرضية لمبنى قديم.

واصلنا مسيرنا في الصباح وسط الأراضي المرتفعة التي كانت تحيط بنا، كما كانت تحاصرنا من كل جانب صخور البازلت وصخور الجرانيت .[والمنحدر يأخذ في الارتفاع التدريجي في اتجاه الطائف]. وصلنا في ساعة مبكرة إلى حفر المياه المالغة في الرقة er-Rukka: وجلبنا ماء من تلك الحفر ، وملأنا منها قرابنا : هذا الماء الكثيف كان مليئا بمخلفات ماشيه البدو الرحل؛ ولكن من هو الذي يمكن أن يمتنع عن الشرب في الصحراء، من يفعل ذلك يتحتم عليه أن يموت . في الرقه توجد قلعة مربعة، لها أسوار عالية وأبراج للمراقبة عند أركانها المختلفة؛ وقد بنى تلك القلعة أهل الرس، لكي يحتموا بها عندما يجيئون إلى هناك لاستخراج ملح البارود ، وهو ما يلوث آبار محطات المياه القديمة- شربنا واسترحنا مدة ساعة، ولكننا لم نرتو بحق أونشعر بالانتعاش: والسبب في ذلك أن السموم، أو إن شئت فقل: رياح الأراضي الحارة - كانت

تهب علينا كما لوكانت لفحة من اللفحات التى تصدر عن الأفران؛ هذه اللفحة تكون خفيفة وخالية من الأكسوجين، على نحو لا يسمح؛ بامتلاء الرئتين ،أوانعاش الدم؛ وهو مايتسبب فى إغماء وخوار قوى كل من الإنسان والحيوان - كنت أحاول عون نفسى من خلال التنفس من خلال قطعة من الإسفنج المبلل بالماء .

ركبنا راحلاتنا من جديد وغادرنا جبل Jebel أمرى Ummry الذى كان على الجانب الأيمن، هذا الجبل عبارة عن معلم أرضى طويل من البازلت - تعجبت عندما رأيت أمامنا ثلاثة رجال فى الخلاء! كان هؤلاء الثلاثة من الحطابين من الذّريّة Therrieh، تلك القرية الصحراوية التى كانت تبعد عنا مسير ساعات قلائل فى اتجاه الغرب ؛ وكانت قوافل عنيزة تمر بتلك القرية طوال سنوات قلائل. وعلى بعد أميال قليلة من تلك القرية توجد قرية أخرى اسمها مسكة : Miskeh هذه القرى، كلها عبارة من مزارع للقمح، وخالية من النخيل - وقرية مسكة هى الأكبر - إذ تحتوى على خمسين بيتا، وإلى الغرب من قرية الذّرية هناك هجرة (كفر) أخرى اسمها ثورية Thoreyih وهى فى جبل شابا Shaba. وأهل هذه القرى عبارة عن خليط متباين من الأقارب، جاءوا كلهم من القصيم ، ومنهم أيضا بعض من البدو الرحل ، ومن بينهم أيضا بعض الزنوج :هناك أيضا من يقول :إن هذه القرى كانت فى الماضى مستوطنات للحطيم . الشيخ مُذكر Muthkir ، أحد شيوخ عتيبة، الذى كان يرافقنا فى القافلة :[والذى كان إخوانه القبليين يشكلون أعراب هذه الصحراء الشاسعة] قال: " هؤلاء القرويون من المذور Muthur". وأن البدو الرحل الذين يحيطون بهم، هم من المطير فى بعض الأحيان ، كما كانت قبيلة حرب، فى أحيان أخرى [تعتدى عليهم من ناحية الغرب]، وفى أحيان ثالثة كان العتبان يعتدون عليهم أيضا؛ ولكن هؤلاء العنوز المهاجرين، كانوا فى السابق هم جيران هؤلاء القرويين، وأن هؤلاء العنزيين موجودون حاليا فى الصحراء السورية ، وفى أقصى الشرق توجد ثلاث قرى أخرى، وهذه قرى صحراوية : الشعرة :es-Shaara الدوادمى Doadmy القويعية Gaayieh التى تقع على طرف طريق الحج من شقراء Shuggera وسكان هذه القرى من بنى زيد Zeyd ، ويقال إنّ جد هؤلاء السكان كان صلوبيا!- مضينا فى طريقنا خلال تلك الجبال والقمم الصخرية، إلى أن

توقفنا فى المساء أسفل قمة يطلق الناس عليها هنا اسم الفرجين Ferjeyn ؛ التى شاهدت فيها بعض المناطق الأرضية القديمة التى تحتوى على كتل صخرية كبيرة.

فى الصباح واصلنا المسير فى المنحدر نفسه، الملئ بالصخور والقمم والجبال، والجرانيت. وعند الظهر لم نعد نحس بحرارة الأمس الشديدة؛ وقرأت على البارومتر أننا وصلنا إلى ارتفاع خمسة آلاف قدم! حيث كان هواء الصيف خفيفا ومنعشا ها نحن نرى، عن شمالنا جبال المنَّيَّة ، فى حين نرى عن يميننا جبلا كبيرا من الجرانيت يطلق الناس عليه هنا اسم التخفة Tokhfa. وكان مقيلنا mogyil بجوار مسقى من المساقى يطلق الناس عليه اسم الغرول el-ghrol ، وهو يقع فى أرض مجوفة وسط جبال مستوية السطح : التربة خضراء بفعل نمو بعض الأدغال الصحراوية الشوكية؛ كما يوجد فى هذه المنطقة أيضا جُلبان golban من جلابين الأقدمين، يصل عمقه إلى قامتين ، ومبطن تبطينا جيداً . وماء هذا الجلبان عذب وقليل الكثافة، وهو المصدر الوحيد الذى يشرب الناس منه على امتداد ذلك الطريق الطويل؛ وطول هذا الطريق الواصل من القصيم إلى منطقة مكة (المكرمة) يقدر بحوالى خمسة عشر رحلة ـ وهناك جبل يطلقون عليه اسم الجبلى Gabbily، يقع فى اتجاه الشرق، ويبعد عن هنا مسير يوم كامل، والناس هنا يقولون :إن صخور ذلك الجبل مجوَّفة بشكل غريب.

الصحراء العالية هنا تشكل أفضل المراعى البرية التى شاهدتها فى الجزيرة العربية كلها: والأدغال هنا قليلة العدد، ولكن الأرض هنا يكسوها اللون الأبيض الناتج عن نمو ذلك العشب الصحراوى الذى يطلق الناس عليه هنا اسم النوسى nussy. ـ ما السبب وراء ابتسام هذه الأرض الجرداء القاحلة فى هذه المنطقة، وذلك على العكس من بقية هذه الأرض نفسها فى الأماكن الأخرى، والتى لاتبعد عن هنا مسافة كبيرة؟ سألت العتبان الذين كانوا ضمن القافلة بصحبة مذكر Muthkir، عن سبب ذلك؛ وأجابونى أن الأرض الصحراوية فى هذه المنطقة تسقط عليها زخات الأمطار فى فصل الخريف كل عام ـ أليس ذلك بفعل وقوع هذه المنطقة على حدود الأمطار الموسمية، أوإن شئت فقل : فى منطقة الأمطار المدارية؟ وأن هذه الأمطار تكون غزيرة جداً فى مطلع فصل الخريف، وتستمر خمسة أوستة أسابيع فى الطائف؟ نحن نشاهد هنا فى كل الأنحاء أنواعا متباينة من أشجار السنط، وتلك علامات تدل على أن الماء السطحى

موجود على أعماق ليست كبيرة: وهذه الأرض الواسعة الشاسعة (التى تصل مساحتها إلى مايقرب من ثلاثمائة ميل مربع) ليس فيها مستوطنة واحدة! [ربما كان ذلك راجعا إلى ندرة الماء أو لعدم صلاحيته]. والأعراب فى هذه المنطقة، تخلُّوا مؤخرا عن تلك الأرض وهجروها لأنها تقع عند ملتقى الطرق التى يسكنها أبناء الرشيد ويستخدمها ابن الرشيد؛ يضاف إلى ذلك أن آبار المياه المهجورة تردم لقلة تطهيرها ـ" بعد المسقى ، واصلنا مسيرنا إلى أن دخل علينا المساء: ونزلنا فى مكان يطلقون عليه اسم الشعب es-Sheab ويقع بالقرب من جبل البازلت ومصدر الماء الذى يقال له كبشان Kabshan. وارتفاع الأرض فى هذه المنطقه لم يطرأ عليه تغيير إلى الآن.

فى صباح اليوم الخامس كنا مانزال نمشى فى نفس الجزء المرتفع من البلاد، وهذا الجزء المرتفع عامر بالتلال الصغيرة، التى هى فى معظمها من الجرانيت ؛ كما أنها غريبة الشكل فى معظم الأحيان، نظرا لأن الصخر الجرانيتى فى هذه المنطقة يمتد مثل لوح منبسط فوق الأرض ، كما لوكان قبَّة فى بعض الأماكن وقشرة خفيفة فى مكان آخر: وقد شاهدت هنا تلة صغيرة من البازلت، فيها عرق غريب، وهى تشكل علامة أرضية يسميها الناس هنا"مسار الذئب". وقبيل دخول وقت الظهيرة تجاوزنا آثار غزو كبير؛ قال الناس عنه إنه كان آخر غزو قام به ابن الرشيد مؤخرا على عتيبة، صدر إنذار قبل الظهر توقفت القافلة على إثره: ظن بعض الناس أنهم شاهدوا بعض الأعراب. وهنا راح كل واحد يستعد بسلاحه؛ وقام الكثيرون منهم بإطلاق نيران بنادقهم ، حتى يتسنى لهم تعميرها مرة ثانية؛ فى حين راح حداة الإبل الذين كانوا يمشون على أقدامهم يلوحون برماحهم ويقفزون ويرقصون: واقتربت الجماعات من بعضها البعض؛ ثم بدأت القافلة تتقدم على نحو أفضل مما كانت عليه. وها هو سليمان، كان من بين أولئك الذين أخرجوا بنادقهم من أكياسها، واندفعوا إلى المقدمة وهم يكشرون عن أنيابهم حقدا وغيظا. حذت الأغلبية حذو أولئك الرجال؛ لأن ذلك هو تشدد القافلة، التى تروح تتوعد أعداءها بأشياء مستحيلة!ـ ذئاب الصحراء من البشر. أرسل إبراهيم الكشافة لاستكشاف أحوال العدو الذى يحوّم حول القافلة: وعاد أولئك الكشافة ليقولوا لإبراهيم: إن ذلك العدو لم يكن سوى مجموعة من الأشجار الصحراوية ! وهنا سمعنا خادم أمير القافلة وهو يصيح قائلا:"امضوا قدما مطمئنين !"

عندما توقفنا عند الظهيرة، كنا مانزال على ارتفاع ٤٥٥٠ قدما ـ وفى فترة العصر واصلنا مسيرنا خلال سهل صحراوى ، فيه الكثير من التبن والقش، ولكنه شديد القحولة: هنا بدأت صخور البازلت تطغى على صخور الجرانيت وبدأت تظهرلنا بالفعل اثنان أوثلاثة من النباتات الصحراوية ، الجديدة أوإن شئت فقل :التى لم يسبق لى رؤيتها من قبل- يبدو أن هذه النباتات تنتمى إلى مناخ آخر: لم نر أى أثر للنشاط البشرى فى هذه المنطقة. وعندما بدأت الشمس فى الغروب نزلوا عن راحلاتهم فى مكان يطلق الناس عليه هنا اسم أم umm مشعاب Mesheaib ؛ كنا هنا على ارتفاع ٤٥٠٠ قدم. وبذلك نكون، اليوم قد تجاوزنا أعلى منطقة فى صحراء الوسط الضخمة ـ ومع بداية الغسق ظهر من حولنا فى السماء نيزك استمر لحظة، وكان جميلا؛ ثم انطلق بعد ذلك فى السماء منقمسا إلى نجوم صغيرة.

عثرت على مذكر Muthkir فى كل المنازل التى كانت تحت مظلة إبراهيم : والسبب فى ذلك أن مذكّر نزل عن راحلته مع الأمير. هذا الشيخ البدوى ركب معنا لكى يؤمن القافلة ويضمن سلامتها فى جميع المقابلات التى يمكن أن تلتقى القافلة خلالها مع القبليين من عتيبة ؛ يضاف إلى ذلك ـ أن ذلك الشيخ القبلى البدوى هو واثنين أوثلاثة من أتباعه هم بمثابة عيون لنا فى الخلاء أوإن شئت فقل : فى الصحراء ـ بالرغم من ذلك فإن رجال القوافل من أهل القصيم الذين اعتادوا على اجتياز الصحارى منذ طفولتهم ، هم خبراء فى فن الأرض والتجوال فيها ـ كان من بيننا شخص يدعى صالحSalih، (كان هو الوحيد فى الجزيرة العربية الذى كان له كيس دهنى فى منطقه الزور) ،اعتاد أن يقطع ذلك الطريق ذهابا وعودة إلى مكة (المكرمة) ؛ هذا الرجل يعتقد أنه قام بتلك الرحلة حوالى أربع سنوات من عمر هذا الرجل ، أو حوالى خمسين ألف ميل من الرحلات الصحراوية : هذا الصالح قطع مسافة لاتقل عن هذه المسافة، فى الطرف الشمالى أيضا فيما بين القصيم التى يقيم فيها ومناطق الخليج والأنهار. هذا الصالح كانت لديه المقدرة على حفظ اسم كل صخرة من الصخور الكبيرة التى يراها المسافرون على جانبى هذا الطريق. أمثال هذا الرجل هنا لايعرفون سوى المسارات التى يسلكونها، ولكنهم ليسوا على دراية بالصحراء الشاسعة التى وراء تلك العلامات الأرضية.

المزاج البدوى يمتاز بالسلاسة واليسر! وذلك بالمقارنة مع مزاج أهل الحضر الذى لايتسم بهذه السلاسة: من هنا توطدت الصداقة بينى وبين مذكر بصورة متدرجة. وبينما كنا نتحدث عن الغزو الذى قام به ابن الرشيد قال مذكر:" أنت كنت فى حائل، وأنت أيضا مداوى: إخ! ألاتستطيع تخليصنا ياخليل ،من ابن الرشيد الحكيم بصورة أوبأخرى! ووالله سنكافؤك على ذلك: لأن ابن الرشيد هو الذى يضايق عتيبة ويسبب لها القلق." وأردف الرجل يقول:" الأجزاء [الشمالية] التى نحن منها ليس فيها صديق لنا سوى عنيزة؛" وعندما سألته ، هل أعرابه أناس طيبون؟ أجابنى،" إخـ إنهم مثل أهل عنيزة تماما." ثم سألنى،"ما الذى يمكن أن أعطيه إياه إذا مازارنى فى بلدى؟ـ هل سأعطيه فرسا وفتاة يتزوجها؟ـ" وما الذى يمكن أن تعطينى إياه، يا مذكر،إذا مانزلت أمام بيتك؟" وهنا اضطرب حال ذلك البدوى، نظرا لأن خيمته السوداء المهلهلة المصنوعة من الصوف لم تكن بعيدة عنا؛ وعليه رد علىّ بأنه سوف يعطينى بنتا ، جميلة، كى تكون لى زوجة ـ "ولكنى أعطيتك فرسا، يامذكر؟ـ" حسن، سوف أعطيك ناقة ياخليل. نحن ذاهبون إلى مكة Mekky ، وأنت ذاهب إلى جدة، فإلى أين ستذهب من جدة؟"ـ "أنا ذاهب إلى الهند، إن شاء الله." قال إبراهيم:"لقد راودته فكرة زيارة الهند معى، فهل يمكن لى أن أنتظره فى جدة؟" إلى أن يعود إليها مرة ثانية فى موسم الحج ـ أى بعد أربعة أشهر!"

تحركنا قبل طلوع الفجر بساعة؛ وكشف الضوء أمامنا منظرا طبيعيا أكثر اتساعا، فيه الكثير من أشجار السنط. أعماق الآبار فى هذه المنطقة لاتتجاوز أربعة قامات؛ قال مذكر : إن هذه الأرض عامرة بالجلبان (الأبار) وحفر الماء التى يفيد منها الأعراب. والسماء عندما تمطر هنا، على حد قول مذكر، يذهب الماء إلى السيول وسرعان ما يختفى ذلك السيل فى التربة؛ وفى السنوات التى يصل المطر فيها حد الفيضان ، فإن تلك السيول كلها تتجه (غربا) إلى وادى الرماح. وهذا الجزء من البلاد فيه الكثير من دروب الماشية ، وربما تكون تلك الدروب قد تشكلت إلى حدما، بفعل حركه كل من الماعز البرى والغزال. ثم تركنا عن يميننا جبل Jebel شعابة Sheaba، الذى يوجد فيه "كثير من البدو"، لنعرّج بعد ذلك على علامة أرضية جرانيتية تشبه الخيمة ؛ والناس هنا يطلقون على هذه العلامة الأرضية اسم الوريسية Wareysieh؛

وعند الظهر نزلنا عن راحلاتنا بين جبلين أسودين من البازلت ، فيهما الكثير من القمم ومجارى السيول؛ على هذا الجانب كانت توجد بلدة ثلعان Thulaan النير en- Nir، وعلى الجانب الآخر توجد بلدة شعار Shear.

فى كل وقفة من وقفات الظهيرة كان يجرى إطلاق الإبل لترعى. وعندها تروح تلك الحيوانات المرهقة تتجول فى الصحراء ، ويصعب عليها أن تجد شيئا تأخذه فى أفواهها: كل ماتفعله هذه الإبل هو أنها تملأ أفواهها مرات قليلة من على الطريق فى الصباح الباكر، فى الوقت الذى تكون برودة الليل مازالت على الأرض. هذه الحيوانات الكبيرة التى تكاد تنوء بأحمالها، تتعرق تعرقا شديداً؛ وبسبب العطش تتوقف تلك الحيوانات عن أكل أى شىء إلى مابعد سبعة عشر يوما؛ عندما يجرى إنزال حمولتها عنها فى مكة. ولكن هذه الحيوانات النجدية تبدأ معاناة جديدة من هواء تهامة الراكد؛ الذى لاترتاح فيه سوى أيام قلائل :هذا يعنى أن تلك الإبل تتحمل كل هذه المشاق دون أى شىء من الترفيه أو الانتعاش؛ تتحمل كل ذلك إلى أن تعود مرة ثانية إلى عنيزة وهى واهنة تماما. حداة الإبل القساة [والعرب كلهم - ولكن فى صمت - يشكون ويتأوهون من آلام الحياة فى هذه الدنيا!] حكوا لى أن تنقلهم فى هذه الرحلات شاق ومتعب جداً؛ ففى الصباح يركب واحد منهم ويمشى اثنان؛ وفى العصر يمشى واحد ويركب اثنان - وقالوا أيضا: إن سير القافلة ورجال القوافل القصمان يختلف عن سير قافله الحج السورية التى تبطئ السير ؛ والسبب فى ذلك أنهم يتعين عليهم مواصلة السير والإسراع فيه أثناء حرارة فصل الصيف وذلك فى المسافة مابين كل محطة والتى تليها من محطات المياه. يضاف إلى ذلك طول المسافات مابين محطات المياه، أوإن شئت فقل: المساقى الصحراوية . وفوق كل ذلك، أنهم يتعين عليهم الوصول قبل اليوم الرابع وإلا خارت قوى تلك الحيوانات.

نفد صبر أفراد القافلة بعد انتظار دام ثلاثة أيام؛ وراحوا يصيحون ويتصايحون بأصوات مفعمة باليأس والحزن. وهاهم حداة الإبل يضربون الماشية المتوانية، ويروحون ينخسونها بأعقاب رماحهم، وهم يصيحون فيها ويستحثونها بكلام مثل: يامال Ya mal الطير el-teyr - حط hut بمعنى 'إخ ياجيفة الغربان،' أو يامال Yamal الذُّبَّاح eth-Thubbah بمعنى 'إخ! يالحم القصَّاب': الحداة يرددون هذه العبارات إذا ما توقف

جمل من الإبل لحظة ليقضم ساقا طرية؛ يا ya مال mal الجوع ej-jua بمعنى 'انت يامن تملكه الجوع!'، أوها القلب ha lkalb أوها hal الحلق hulk بمعنى'لعن الله رأسك ، وقلبك وزورك الطويل .'. وحداة الإبل يتعين عليهم أن يديروا بالهم بصورة دائمة على الإبل المحمّلة: والسبب فى ذلك أن الجمل إذا ماوصل إلى مكان رملى يحتمل أن يبرك على قدميه الأماميتين كى يتمرغ فى ذلك الرمل ، لكى يهرش أوإن شئت فقل: يحك جلده؛ وهنا يتحطم الحمل الذى يكون على ظهره! والإبل لاتميز طعامها عن طريق البصر وحده، ولكن للشم دخل فى ذلك أيضا؛ يضاف إلى ذلك أن الإبل تتوقف أمام أى حجر أبيض أوحتى الروث الذى يكون مصطبغا باللون الأبيض، كما لوكان قطعة من العظم أبيض اللون، - الذى إذا ماعثرت عليه الإبل ، فى أى وقت من الأوقات تناولته فى أفواهها وراحت تعضه فى شيء من الحزن وذلك طلبا" للملح" على حد قول العرب. أفراد القافلة يكونون كل يوم سيئى المزاج وقليلى الكلام ؛ وهم لايقولون شيئا إلابتقديم المشيئة؛ أما حداة الإبل، الذين تعانى أفواههم من شدة العطش، فهم لايردون على بعضهم البعض إلابعبارت مقتضبة، وكلام فيه شيء من التباهى بعض الشيء ، ومثال ذلك 'أنا ولدى !أنا شقيق أختى الصغيرة! "هل أنا عبد أبيك !(حتى أخدمك أو أطيعك)؟' وقد يصيح الرجل فى جاره قائلا: الله ullah لايبارك la yubarak فيك Fik ،لا la يجيب Yujib لك ' lak الخير el-Kheyr بمعنى 'لابارك فيك الله ، ولا أعطاك الله الخير.'

كانت درجة الحرارة فى وقفة الظهيرة حوالى ١٠٢ فهرنهيتية تحت التعريشة ، وعندما بكرنا بالتحرك كان دافعنا فى ذلك هو الوصول إلى المسقى على وجه السرعة؛ وبالفعل وصلنا ذلك المسقى قبل ساعتين من غروب الشمس. هذا المسقى ، يطلق، الناس عليه اسم عفيف Afif.' وعفيف هذا بئر قديمة يصل عمقها إلى سطح الماء حوالى عشر قامات، وهى مبطنة بأحجار جافة من كتل البازلت الغشيمة - كان سليمان ، ومعه كبراء رجال القافلة ، قد سبقوا القافلة ومعهم كل أدواتهم؛ وكان كل واحد يتصارع مع الآخرين على الوصول إلى فتحة البئر، ويحتل مكانا مناسبا للسقيا. وعندما وصلنا إلى البئر كان سليمان هو وجماعته هناك بالفعل ومعهم أدواتهم؛ هذه الأدوات كانت عبارة عن وتد غليظ فى الأرض جرى دقه بواسطة قطعة من الحجر : كانت رأس ذلك الوتد عبارة عن شوكة، علقوا من فوقها بكره السحب، وبكرة السحب هذه يطلقون عليها هنا

اسم المحال Mahal ـ وهذا المحال شبيه بمثله الذى يستعمله البدو الرحل فى أى جلبان (بئر) للحصول على الماء. والحبل يجرى سحبه بواسطة رجلان يجريان إلى الخلف؛ بينما يقف رجل ثالث عند حافة البئر؛ ثم يجرى بذلك الدلو لتفريغه فى الغدير المخصص لشرب الإبل ـ هذا الغدير عبارة عن قطعة من الجلد أومن الكليم مفرودة فوق تجويف للموه من العصى أومن الأحجار وسط الزلط، مستخدمين أيديهم فى ذلك [انظر الجزء الأول] وعندما يجرى سقيا عدد كبير من الإبل من جليب jelib (بئر) واحدة، تحدث جلبة كبيرة بفعل ذلك العدد الكبير من الرجال العاملين فى جلب الماء بكل قوتهم ويغنون تسهيلا لمشقة العمل، شأنهم فى ذلك شأن البدو تماما. ذهبت كى أشرب من غدير الإبل، ولكنهم حذرونى من ذلك قائلين: أنى يحتمل أن أنزلق فى الوحل، وأنكفئ على حافة البئر التى ليس لها رصيف [مثل بقية الجلبان (الآبار) الصحراوية] وقد تنهار التربة من تحت قدماى. هذا يعنى أن المهمة التى يقوم بها جالبو الماء من البئر تكون محفوفة أيضا بالمخاطر؛ كما أنهم يكونون متعبين أيضا. وفى آخر شوط لهم خانت واحدا منهم إحدى قدميه- وسقط فى البئر ! وجرى إخراجه منها على وجه السرعة والسبب فى ذلك أن العرب يزدادون شهامة على شهامتهم فى مثل هذه الظروف السيئة !زد على ذلك أن الكثيرين من هؤلاء الأعراب يتطلعون إلى النزول إلى تلك الآبار بدءا من سنوات الشباب. لقد انكسر ظهر ذلك الرجل الذى سقط فى البئر : وعندما رحلت القافلة، وضعه أصدقاؤه على جمل من الإبل؛ ولكنه توفى أثناء السير- حل محل ذلك الذى توفى أناس آخرون؛ ولكنهم لم يعودوا يستعجلون إذ كانوا يعملون بتؤدة وتأنٍ. وجرى عمل رصيف لتلك البئر القديمة: الأمر الذى سهّل العمل على أولئك الذين يعملون فى سحب الحبل لرفع الماء؛ كما ساعد أيضا على منع انهيار حافة البئر.

شاهدت بالقرب من هذا البئر أول إشارات الحياة الإنسانية فى تلك الصحراء الشاسعة ، شاهدت الرماد المتخلف عن نار حديثة شبها الصيادون! كما شاهدت بجوار ذلك الرماد زوجا من الغزال الذى شاهدته مرارا. والذى لاشك فيه، أن أولئك الذين شبوا هذه النار كانوا من الصلوبة؛ هذا بالإضافة إلى أن بعض المسافرين ضمن قافلتنا استطاعوا قص أثر الحمير التى كان هؤلاء الصلوبة يركبونها. والأعراب هنا

يتعجبون ويندهشون لأولئك الذين يعيشون من مجرد عملية الصيد فيهذه الصحراء.والصلوبي لايحمل مع بندقيته الفتيلية سوى شيء قليل من الماء؛ ولكن من عادة الصلوبة أن يشربوا حتى الشبع ماءً أو مريسا قبل طلوع الفجر: وبالتالى فهم عندما يبدءون تجوالهم لايشعرون بالعطش إلاعند دخول وقت الظهر'. وقد تعلمت منهم ذلك العمل؛ وكانت تلك الشربة المبكرة تكفينى إلى أن يحين موعد وقفة الظهيرة، هذا فى الوقت الذى يكون رفاقى قد شربوا خلاله ثلاث مرات ـ كان من النادر أن يعطونى الإناء كى أشرب عندما كانوا هم يصببون الماء لأنفسهم، وعندما كانوا يفعلون ذلك يكون مصحوبا بالسب واللعن: وفى حالة وجود سليمان بعيدا عنا كانوا ينكرون علّى حتى شربة الماء. وكان سليمان نفسه بحكم أنه لم يكن رجلا طيبا يقول: "الكل يعانى على الطريق وأثناء السفر، وأنا لاأستطيع تعديل ذلك، وهؤلاء الأعراب: ولوقدر لعبدالله أن يكون هنا، بلحيته ـ فإنه لن يفعل أفضل من ذلك . هل ترى ذلك الولد، ياخليل؟ إنه ولد من شوارع عنيزة: وهذا الآخر (صبى بدوى من عنيزة أهل الشمال) قتل والده، على حد قول الناس؛ وهذا الطاهى الذى فى الخلف! هو مسكين من المدينة: وأننى إذا ماأغضبته فسوف يتخلون عنى عند أقرب وقفة!"ـ مسألة شرب الماء مع صحبة جديدة أمر عسير؛ وقبل أن يعيد السطل إلى مكانه طلبت منه أن يصب لى شيئا من الماء. هذا الطاهى كانت زوجته واحدة من مرضاى، وربما تذكر أنه مدين لى بثمن الدواء؛ وربط الرجل عنق قربته على وجه السرعة وكأنه لم يعرفنى من قبل. وعندما ناديته باسمه- لم يستطع أن يرفض طلبى؛ ولكنه بعد أن فك عنق القربه، صب لى شيئا من ماء الصحراء وهو يقول :'هذا هو حال الطريق، وحال التعب والإرهاق اللذان يجعلان الناس لايتذكرون بعضهم البعض؛ والمثل السائد هنا أمش imshy حالك hal-ak بمعنى [دبِّر أمورك بنفسك']. ومن يبخل بتقديم ماء قربته يقول له جيرانه: بيّاع Biaa الماء el-ma بمعنى' بائع الماء'. كانت ناقتى متوسطة القامة وكانت ضعيفة أيضا : وكانت لاتستطيع مسايرة بقية النياق أوااللحاق بها أثناء المشى؛ وكنت ألاقى صعوبة كبيرة فى حثها على المضى قدما. قال سليمان: إن النياق مترمتة ولاتريد التحرك من مكانها؛ وقال إنه: سوف يجرحها فى جنبيها عندما يصل إلى مكه.

وجدت هنا أن درجة حرارة الهواء فى أبرد أحواله كانت ٧٢ْ فهرنهيتية؛ أما درجة حرارة الماء فى البئر العميقة فكانت ٧٩ْ فهرنهيتية . وكان ارتفاع الأرض حوالى ٤٦٠٠ قدم: وكان الذباب والنمل يحيط بمنطقة المياه- وأعدنا سقيا الماشية مرة ثانية قبيل الصباح: ثم تأهبنا لمواصلة المسير، ولكن لم تصدر إشارة البدء. وطلعت الشمس علينا ؛ وبعد طلوع الشمس بفترة وجيزة سمعنا صيحة رحب بها الجميع، وكانت صادرة عن خادم الأمير الذى صاح قائلا: اليوم El-yom نجيم nej-l-l-im! بمعنى "سنقضى اليوم هنا فى هذا المكان."

هناك مساران للقوافل المتجهة من القصيم إلى مكة :الدرب الغربى وفيه المزيد من الموارد المائية الأوفر والأحسن- وفى هذا الدرب سبقتنا قافلتا الزبد القادمتين من بريدة ومن بلدة الرّس - هذا الدرب الغـربى يطلق الناس عليـه اسم السلطانى es-Sultany بمعنى" الطريق السـريع ." وهناك أيضـا الدرب الأوسط الذى سـرنا فيـه، وهذا الدرب يقتصر على القوافل المتعجلة: والمسافات بعيده بين محطات المياه، ويقل فيه أيضا احتمال التصارع مع الأعراب الذين يقضون الصيف بالقرب من تلك المحطات المائية- ورجال القوافل لايجرؤن على سقيا إبلهم فى وجود البدو: وهم فى مثل هذا الحال قد يطلبون إلى البدو الرحل التحرك وترك المكان، والبدو قد ينصاعون لرجاء الحضر ولكن بذهن يضمر الشر. لكن إذا ماثبت أن البدو أكثر عددا ، فإن الحضر يبادرون إلى جلب الماء وأسلحتهم فى أيديهم: وقد يسوقون ماشيتهم التى لم تشرب حتى الشبع إلى آبار المواشى الأخرى، والتى غالبا مايكون ماؤها مراً فى هذه الصحراء- وهناك طريق ثالث، يقع إلى الشرق من المكان الذى نحن فيه، ويطلق الناس عليه اسم درب derb وادى wady سبيع، وهذا الدرب فيه عدد قليل من موارد الماء الصغيرة؛ وهذا الدرب تسير فيه الجماعات الطائرة التى يركب أفرادها النياق السريعة. فى العام الماضى، وجد عبدالله البسام، ذلك الرجل الطيب ، عندما كان عائدا إلى موطنه قادما من جدة وسالكا ذلك الطريق، وجد أن البئر كانت مردومة، عندما حاول الاستفادة من واحدة من تلك الآبار المهملة؛

كان اسم البئر التى قصدها عبدالله البسام جليب Jelib بن ibn حدّيف Haddif؛ وقام الرجل هو ورجاله بتطهير البئر، واستغرق ذلك منهم يوما كاملا. هذه الدروب

الكثيرة متقاربة من بعضها البعض ،على نحو يسمح للمسافر بتبين العلامات الأرضية التى على الجانبين.

عفيف التى نزلنا بها لنيل قسط من الراحة، عبارة عن أرض مقعرة تشبه أرض الغرول el-Ghrol وتحيط بها جبال بازلتية منخفضة. وقد شاهدت أحجار البازلت الموجودة عند فتحة البئر فى الصحراء ومن فوقها قشرة بيضاء اللون، كما شاهدت أيضا آثار حبال البدو الرحل على حواف رصيف تلك البئر! وفى هذه المنطقة المحيطة بالبئر ينمو نوع من العشب الطويل يسمونه ثيرِّم Thurrm الذى سبق أن شاهدناه على طريق الحج السورى. ودفع حداة الإبل المواشى إلى المرعى؛ فى حين قام بدو عتيبة ، المرافقين لمذكر، بالصعود إلى المرقاب mergab الذى كان عبارة عن أرض بازلتية مرتفعة ـ ذهبوا إلى المرقاب كيما يستطلعوا المكان. كانت الحرارة شديدة على رءوس أولئك الذين كانوا يضعون غترا(أغطية رأس) على رءوسهم وهم يرعون الإبل ؛ والسبب فى ذلك أن الشمس التى يتعين علينا تحملها أثناء مرورنا خلال هذا الهواء ، تعد أمرا لايطاق حتى بالنسبة للبدو الرحل الذين يلزمون أماكنهم ولايتحركون: وهنا صاح البدوى الراكب فى الخلف،"آه! ماهذه الشمس !" التى شوت مخه. وقبيل المساء صدرت إشارة من المرقاب! وعلى أثر تلك الإشارة جرى الرجال لتجميع الإبل وإعادتها من المرعى .كان الكشافة قدر رصدوا زولا Zol(*)، وقالوا: إن ذلك الزول يحتمل أن يكون بعض الأعراب: ولكن بعد فترة وجيزة استطاع أولئك الكشافة تمييز ذلك الزول، إذ كانوا عبارة عن أربعة أفراد من الصلوبة، يركبون حميرهم .

بدأنا تحركنا من عفيف قبل طلوع النهار. وعندما طلعت الشمس علينا كنا قد غادرنا سلسلة الجبال المنخفضة التى يسمونها سلسلة جبال عطوة ' Atula، وكانت على الجانب الأيسر؛ وهنا بدأت الصحراء تتراءى لنا أرضا واسعة ومفتوحة: الأرض مغطاة بالجذامة؛ ومع ذلك، كان مذكر يقول لى: إن المراعى هنا أفضل من الأماكن الأخرى! هنا بدأت الجبال تقل: فنحن نرى هنا صخورا بدلا من التلال والقمم ـ كنت راكبا فى

(*) الزول وجمعه أزوال وهو شىء غير مؤكد يظهر عن بعد .(المراجع)

المؤخرة؛ وشاهدت غزالا ذكرا ضخما أبيض اللون واقفا مرفوع الهامة أمامنا : ذلك الظبى Thobby الذى يشبه التيس الكبير، وقف ذلك الظبى ،كى يحملق فى ذلك الموكب غير المرغوب فيه والمكون من الرجال والإبل؛ ثم جرى ذلك الظبى جريا بطيئا وهو يبتعد عنا. وهنا قام شبّان البئر بإخراج بنادقهم من أجربتها ، وراحوا يجرون وراء هذه الطريدة وهم راكبين نياقهم التى تجرى وهى تمد رقابها كما لوكانت طيرا ـ ليعودوا إلينا بخفى حنين من تلك المطاردة الساخنة؛ كانت الأرانب البرية تجرى هنا وهناك أثناء مرورنا، كى تختفى تحت الأدغال ـ وكانت أذان تلك الأرانب البرية تدل عليها وهى مختفية بين الأدغال.

الأرض الصحراوية هنا وعلى امتداد مسير يومين كاملين فى أتجاه الجنوب يطلق الناس عليها هنا اسم الشّفا es-shiffa،التى يحسبون عرضها بمسير ثلاثة أيام؛ بعض آخر يقولون :إن الشّفا تقع بين الرس وعفيف ؛ وخلف هذه الأرض تقع منطقة الحزّام el-Hazzam، التى يصل طولها إلى مايقرب من رحلتين ونصف الرحلة:' ويزعم مذّكر أن الحزّام هى والشفا شيء واحد. هذه المنطقة الواسعة الشاسعة لم أر فيها أى مجرى من مجارى السيول؛ وعلاماتنا الجبلية فى هذه المنطقة تتمثل فى مردومة Merduma على الجانب الأيسر؛ وعن يميننا يوجد ثلاثة من التلال المخروطية ، والناس هنا يطلقون على هذه التلال الثلاثة اسم المثلثة Methalitha. وهذا هو جبل الشعيب es-Sheyb، يتبدى لنا ويقع على درب derb السلطانى es-Sultany: والماء طيب فى منطقه هذا الجبل [وهذه هى جاديتا Gadyta القديمة صاحبة التفاصيل الكثيرة ـ انظر كتاب الجغرافيا العربية؛ حيث ورد ذكر مدينة داثينا Dathyna ، أوإن شئت فقل آبار دافينا Dafina؛ وكذلك آبار قويا Koba التى يقولون لها هنا: جوبا Goba، وتشكل مسقى من المساقى الطيبة]: وهذا هو جبل ميشاف Meshaf أراه أمامى .كان مقيلنا فيما بين جبلى عجّيلة Ajjila والزّعال eth-Thal؛ وهذا المكان الذى فيه المقيل يطلقون عليه اسم الشبروم Shebrum هذا الشبروم عبارة عن قاع عامر بأشجار السنط ، كما ينمو فيه أيضا الكثير من الأعشاب الشوكية القصيرة ، التى لها زهور أرجوانية اللون يطلق الناس عليها هنا الاسم نفسه. فى هذه المنطقة توجد مجموعة من الآبار التى تسقى منها الماشية؛ والأعراب يطلقون على تلك الأبيار اسم الشبرامى Shbramy.

هنا فى منتصف الشَّفا رأس يقول مذَّكر عنه (بالرغم من عدم ظهور ذلك الرأس بشكل واضح): إنه من وادى Wady جرير Jerrir. ووادى جرير هذا يعد الرافد الرئيسى القادم من وادى الرُّماح فى شرق البلاد؛ وقد ورد ذكر ذلك الرافد فى بعض القصائد العربية القديمة؛ 'ودياني الجانبية تسقيني بالرشفة؛ أما وادى جرير فهو الذى يشفى ظمئى ويطفئه،' - هذا الكلام يعد شاهدا (هنا) على الأمطار المدارية! وعلى طول هذا الوادى الذى يمتد من الشمال إلى الغرب، يوجد الكثير من حفر المياه التى يتردد عليها البدو، البعض يترجمون كلمة 'الرماح ' 'بالجبل المزخرف' [وربما ذلك بسبب الالتفافات الكثيرة].

استانفنا المسير قبيل المساء: وأصبح منظر سطح الأرض من حولنا وكأنه سهل واسع مفتوح؛ وهذا هو آخر الجبال فى الجانب الشمالى بدأ يختفى عن أنظارنا وراء الأفق - وفى المنطقة التى نزلنا فيها بعد غروب الشمس وجدت أننا كنا على ارتفاع حوالى ٤١٠٠ قدم فوق مستوى سطح البحر.

لم نتحرك قبل طلوع الفجر: ومع شروق الشمس كنا مانزال على الارتفاع نفسه؛ واستمر ذلك الارتفاع إلى دخول وقت الظهيرة؛ وكانت درجة الحرارة تحت التعريشات ١٠٧ْ فهرنهيتة. الناس هنا يطلقون على هذه المنطقة الواسعة المستوية اسم الدُّعيكة ed-Daika وهم يترجمون ذلك الاسم على أنه 'السهل الخالى من التلال ذات التربة المخلوطة، والعامر بالمراعى الجيدة.' وفى اتجاه الشرق شاهدت جبلا عن بعد؛ كما شاهدت أمامى رأس جبل منعزل يطلق الناس عليه اسم خال Khal. مررنا بعد ذلك فيما بين كل من الصُّفَّة Seffua والعريضان ' Aridan من ناحية والذُّنيِّب Thennyib التى هى علامة أرضية ومكان للسقيا على درب السلطانى- وقبيل غروب الشمس دخلنا منطقة واسعة تغطيها قشرة من الملح؛ وهنا نزلت القافلة عن راحلاتها خلف هذه الأرض الملحية.

بعد أن وصل الأمير مكان التخييم، شد لجام ناقته، وراح يداعبها فى عنقها ويهمس لها حتى تبرك على الأرض؛ وهاهى المخلوقات الضعيفة تئن وتتوجع وتجثو على ركبها . وتتصرف تصرف الكلاب قبل أن تبرك تماما على الأرض- منظر راكب الجمل يبدو غريبا على من ينظر إليه من الخلف؛ إذ تظهر قدما الجمل الأماميتين من تحت ذلك

الرجل الذى يركب ذلك الجمل وهو ملفوف فى عباءته (بشته) . بعد أن يُبّرك الأمير ناقته، يأتى بعده أعيان القافلة ويذهب كل واحد منهم إلى المنزْل المخصص له- على أن يراعى الجميع أن الإقامة ستكون على شكل دائرة: ثم يجرى بعد ذلك إدخال جمال الحمل إلى المنطقة المخصصة لها، حيث يتم إنزال حمولتها عنها والجمل الغر غير المتمرس يجرى تبريكه بالقوة بأن يشده حاديه من لحيته: وإذا ما قاوم جمل من الجمال الباركة، بأن راح يتدحرج هنا وهناك ، ويعوى فإنه يجرى التحكم فيه عن طريق الخزام الموضوع فى أنفه ؛ وبعدها يعود الجمل إلى هدوئه السابق. قد يخطر على البال أن أسنان الجمل تشكل نوعا من الخطر، ولكن العرب لايرون فى ذلك خطرا على الإطلاق ؛ والسبب فى ذلك أن البدو يجمعون النباتات الطرية ويدسونها فى أفواه إبلهم - وقد قمت أنا شخصيا بهذه العملية ألف مرة؛ ولم أسمع مطلقا عن إنسان عضه جمل من الجمال [شاهدت فى سيناء - ذات مرة - جملا مكمما]. والجمال بالرغم من أنها تناغش بعضها البعض أثناء المسير،إلا أن ذلك من باب المداعبة: والجمل كبير السن يفقد أسنانه العليا الأمامية.

رحلة الغد - وهى الرحلة العاشرة بدءا من عنيزة - كانت فى اتجاه جبل خال البازلتى المخروطى أسود اللون ومنبسط القمة؛ وجبل آخر منتفخ له ثلاثة رءوس، وهو من صخر الجرانيت ويطلقون عليه اسم ذُلم Thulm. - وحجاج نجد يصيحون فرحا عندما يشاهدون تلك الجبال شكرا منهم الله (سبحانه وتعالى) لوصولهم سالمين آمنين إلى منتصف الطريق! فى المنتصف يوجد مورد ماء الشُرمة Shurrma الذى، نزلنا بالقرب منه قبل دخول وقت الظهيرة بثلاث ساعات: هذا المورد فيه حفر لشرب الماشية ولكن الماء مالغ الطعم، إلى الحد الذى يجعل القصمان لايقبلون على الشرب منه . " قالوا :سنصل غدا إلى مورد جديد من موارد المياه." لم يكن يتبقى معنا فى قراب الماء سوى القليل جداً. ولكنى آثرت الشرب من هذا المورد ، وأجبرت نفسى على استساغة طعم ذلك الماء ، وهذا أفضل لى من التصارع مع حداة الإبل التابعين لسليمان: كان طعم الماء يشبه مذاق الشبة. ولكن الطباخين كانوا قد ملأوا بعضا من قراب الماء من آبار عفيف؛ وبذلك كانوا يظنون أن خلط هذا الماء بذاك يمكن أن يساعد على استعماله فى إعداد طعام العشاء. حفر الماء الضحلة الثلاثة [التى منها واحدة مردومة] والتى

يوجد الماء فى كل منها على عمق قامة واحدة، مبطنة تبطينا جافا. فى منتصف محطة المياه، أولن شنئت فقل : المسقى ، كانت الآبار شبه جافة؛ الأمر الذى جعل الناس فى القافلة يوردون الإبل العطشانة على الماء بعد ذلك بساعة من الزمن ، بعد أن ارتفع مستوى الماء فى البئر مرة ثانية. كان ارتفاع الأرض هنا، مثل ارتفاع الأرض التى كنا نسير فيها بالأمس.

تحركنا من شُرّمة Shurrma، وبدأنا نتجاوز بعض المنخفضات الملحية، وبدأنا الاقتراب من ذلك الجزء البركانى التربة الكبير الذى يطلق الناس عليه هنا اسم حرة القشيب Harrat el-Kisshub. تجاوزنا أراضى واسعة من الوحل من فوقها قشرة من السّبخ Subbakha؛ وبيضاء اللون كما لوكانت مغطاة بصقيع فضى : فى أحيان أخرى كنا نمر فوق حصى أسود اللون؛ وأحسب أنى رأيت بين الأحجار بعض البللورات الصخرية اللامعة. هذا المنظر الصحراوى الذى له شكل واحد وارتفاع واحد أيضا، فيه كثير من أشجار السّمار Sammar التى هى نوع من أشجار السنط: ولكن السواد الأعظم من تلك الأشجار كان جافا، ولكن لم تتحول أية واحدة من تلك الأشجار إلى خشب - شاهدت أيضا ساحلا خلف خال khal "قال واحد من رفاقى: أنظر ياخليل ! تلك هى حرة القشيب التى تتراءى لنا من الأمام!" كان الضباب يخيم على جبال الحرة، التى سرعان ما اكتشفت أنها كانت عبارة عن فوهات ناتجة عن انفجارات منذ قديم الأزل ؛ والناس هنا يطلقون اسم حليان hillian على هذه التلال التى تكون على شكل فوهات تنتج من انفجارات حدثت فى الماضى البعيد . فى هذا السير مررت على بعض الحفر الضحلة، التى يصل عمق الواحدة منها إلى قدم واحدة، ولكنها واسعة كما لو كانت بداية لانطلاق ثقب من ثقوب الماء (الصورة رقم ٧) ؛ ووجدت أن تلك الحفر موجودة على شكل ثنائيات . ناديت واحداً من أفراد القافلة تصادف أن كان يمر بالقرب منى؛ وعندما أريته المكان رد على قائلا:" لقد استخرجوا الذهب من هذا المكان!" وسألت مذكر عن هاتين الحفرتين فى المساء: " وأجابنى ، نعم ياخليل ، نعثر على كثير من الرسوم بمعنى 'الآثار' Traces، فى ديرتنا." والناس هنا يطلقون اسم 'الرسوم' على 'الأطلال'؛ والرسوم الموجودة هنا "تنتمى إلى الأولين" aullin على حد قول مذكر.

تحركنا فى الصباح الباكر لنصل إلى مورد جديد من موارد الماء فى اليوم نفسه. وعندما طلع النهار، اكتشفت أننا كنا نسيرفى طريق مواز لحافة الحّرة، ولكنه يبعد عنها بضعة أميال. كانت الأجزاء السفلى من الحرة يغطيها ضباب الصباح الباكر، ومن فوق ذلك الضباب كنت أشاهد قمم تلك التلال التى كانت فوهات لبراكين فى أزمان غابرة وبعيدة. والدرب السلطانى يمتد لمسافة مسير يوم ونصف اليوم عبر هذه الأرض المكونة من صخور الحمم البركانية. اقتربنا من ذلك الدرب ؛ الذى يناسب أقدام الإبل ، وبخاصة فى الرحلات الطويلة. [يقول مذكر ، إن الصخور البركانية فى حرة Harrat ترعة Terra، التى تتصل بحرة القشيب، تبلغ من الوعورة حداً لاتصلح معه إلا لسير الحمير: وهذه الحرة لايوجد فيها سوى قرى ونخيل أعراب عتيبة]. وقدم الحيوان التى تلتهب يتعين تفريغها من الصديد الذى يكون بداخلها؛ كما أن تقسيم حمولة ذلك الحيوان على بقية الحيوانات الأخرى يقصم ظهور الإبل الأخرى. الكثيرون من الأفراد النجديين الذين يعملون مع القوافل يخشون مثل هذه العملية ويخافونها إلى حد أنهم يقومون أثناء الوقفات بعلاج أقدام إبلهم المصابة باستخدام البول- ألا يمكن صنع حذاء من الجلد لحماية قدم الجمل؟ هناك فى المعلقات [لبيد ،٢٣] مايشير إلى أن مثل هذه الحذيان جرى استعمالها من قبيل أعراب الجزيرة العربية القدامى (الأكثر بساطة وسذاجة).

هذه الأرض الطينية المغطاة بطبقة سوداء وشاهدناها بالأمس تقع فيما بين الجزء الذى نسير نحن فيه والأرض المكونة من الصخور البركانية؛ هذه الأرض الطينية خالية من العشب ومن الأحجار ، وخاليه أيضا من آثار الأقدام ولونها أيضا أبيض بفعل السّبخة Subbakha: وهذه الامتدادات لتلك الرقعة الملحية تمتد ناحيه الشرق إلى الخلف من الطريق الذى نسير فيه. قبيل الظهر شاهدنا آثار أقدام بعض البدو الرحل ، وآثار أقدام ماشيتهم فى اتجاه الحّرة- وأسفل تلك الحرة يوجد مورد من موارد المياه الجيدة، وهو مواجه لنا مباشرة. أثناء وقفة الظهيرة كنت ظمآنا تماما: ولم يكن مع أفراد القافلة مايشربونه، بخلاف ذلك الماء الأسود مر المذاق الذى أحضروه معهم من شرمة Shurrma؛ ولم نستطع الوصول إلى الآبار، قبل دخول الليل، أو فى الساعات الأولى من الصباح. كانت درجة حرارة الهواء تحت التعاريش حوالى ١٠٧° فهرنهيتية؛

وبدأت رياح السموم تهب علىناة وأفراد القافلة يأكلون التمر فى وقفة المقيل؛ ويأكلون مع ذلك التمر بقايا البرغل أو التمن المتخلفة عن عشاء الليلة السابقة. والسادة (أصحاب الإبل) هم والحداة يجلسون سويا لتناول الطعام؛ ولكن لا أحد اليوم يود تناول الطعام بسبب الظمأ الشديد. اتجهت إلى تعريشة كل من إبراهيم والبسام - وكان واحد منهما يحمل معه عشرة قراب من قراب الماء ذهبت إليهما بحثا عن فنجال من القهوة أوحتى من الماء. هذان الشابان أعطيانى تلك الرشفات من الماء ولم يعطيانى أى شيء غيرها: لأن هذا هو حال أهل الجزيرة العربية أثناء الترحال: لقد رأيت بنفسى أنهما كان معهما الكثير من القِراب المليئة بالماء.

كان المقيل قصيرا، بسبب الظمأ، وكان الماء مايزال بعيدا عنا. وعندما استأنفنا المسير نظرت إلى الخلف وحولى ووجدت الرفاق يشربون خفية !يضاف إلى ذلك أنهم شربوا حتى الشبع أثناء غيابى عنهم، بعد أن تظاهروا أمامى بأنهم ليس لديهم أى شيء من الماء؛ وكنت أعانى من الظمأ طوال اليوم وبخاصة فترة النهار. خطر ببالى ، أنى لو شربت هذه المرة، سيصبح بوسعى أن أتحمل لحين طلوع النهار. طلبت من الرفاق أن يصبوا لى قليلا من الماء؛ "لقد كنا رفاقا، وتلك كانت رغبه عبدالله الكنينى:" ولكنهم حرمونى من الماء وهم يسبونى ويلعنونى بأقذع السباب؛ ولم يعر سليمان ذلك الأمر اهتماما. نزلت عن ناقتى لأن "الضيِّق ليس له كبير" لآخذ شربة الماء سواء أرادوا أم لم يريدوا . وراح ذلك البدوى، يلوح بمشعابه ويتراقص، ليؤكد على قصدهم السيئ: ولكن سليمان (الذى كان يخشى نشوب صراع أونزاع) طلب منهم أن يصبوا شيئا من الماء لخليل- كان الماء عذبا من ماء عفيف، ذلك الماء الذى كانوا يخفونه لليوم الثانى عن خليل النصرانى: وكان بوسعهم أن يشربوا منه مرتين فى مسير فترة العصر- كان سليمان لم يصل بعد إلى منتصف العمر، وكان قصير القامة، وحاد الطبع، وتظهر عليه بوادر الحقد والكراهية المغلفة بالمرح ،كما كان ميالا أيضا إلى التشدد. لقد طردونى من قبل من عنيزة، وكان من بين الحضر الذين كانوا معى ، عدد كبير من الوهابيين. ولكن الغالبية العظمى كانت تحيينى فى المسيرات الطويلة بكلام فيه الكثير من الود، " كيف حال الطعام معك ياخليل ! هل تشعر بالتعب والإرهاق؟ حسن !ماعليك سنصل حالا إلى نهاية الرحلة." سمعت ذات مرة كلمة جارحة؛ وقد صدرت تلك الكلمة أثناء

راحة المساء ونحن فى عفيف، وذلك عندما كنت أمشى فى الظلام متجها صوب إبراهيم ومذكر، ثم مررت على بعض الرفاق الغرباء علىَّ، وتعثرت فى بعض قراب الزبد. صاحت أصواتهم العدائية وهم يقولون: "إلى أين، أيها الكافر"؛ ولكن بعضا آخرا من الرفاق ناداهم قائلا: "أقفلوا أفواهكم! واصل سيرك، ولا تلقى لهم بأَلا، ياخليل."

قال لى سليمان: إنه كان يتعين عليه فى بعض الأحيان التعامل مع الشاحنين الإنجليز، أو إن شئت فقل: الشركات الملاحية الإنجليزية، فى منطقة الخليج: "كانوا أناسا طيبين، وأنهم كانوا أفضل من الأتراك. قال :اعهد ببضاعتك إلى الإنجليز؛ لأنهم سيحمونك من الأضرار إذا ماتلف شىء منها أوضاع. أما فيمايتعلق بالشركات الملاحية التركية، يتعين عليك أن تدفع أولا للعمال، وتدفع ثانية قبل أن تتسلم بضاعتك فى الخارج؛ يضاف إلى ذلك أن الضابط هو الآخر يتطلع إلى أتعابه هو، فضلا عن أن البحارة سيقومون بتهريب أو سرقة شىء من تلك الشحنة أثناء الرحلة : ولكن إذا ما تعاملت مع الإنجليز فسوف تلقى المعاملة السليمة والنظام السليم أيضا. وأنا أقسم بالله، أن الإنجليز إذا ماتعاملوا مع العثمانيين ،فإنهم يتحولون إلى مرتشين ويكونون أسوأ من الأتراك!" ـ كانت شمس العصر التى لها اصفرار النحاس، فى شهر مارس قد بدأت تغطيها السحب: وبعد أن سرنا مدة ثلاث ساعات فى ذلك الجو تاركين خلفنا كلا من جبل الكمين el-Kamin وجبل الحكران Hakran ، شاهدت شيئا من الاضطراب عند مقدمة القافلة؛ راح ركاب النياق على أثره يتفرقون مبتعدين عن بعضهم البعض! سارع أولئك الجمَّالة بحثا عن حفر مياه الماشية التى تقع على جانب الطريق على بعد مسافة قصيرة. وعندما وصلوا إلى تلك الحفر، قفز كل واحد منهم نازلا عن ناقته متجها صوب حفرة من الحفر كى يملأ منها قربة الماء؛ الأدهى من ذلك أن واحداً من هؤلاء الجمَّالة كان يقف فى وسط الماء الذى كان يغمر جسمه إلى منتصفه: وراح كل واحد من أولئك العطشانين يشرب مايشاء من الماء كى يروى ظمأه ؛ وهنا فقط أدركوا أن الماء تعافه النفس!

هذا هو حزيم Hazzeym الصيد es-Seyd ، أى بيارة من بيارات أشجار السنط ـ وهى تشكل منظرا جميلا جداً فى هذه الصحراء الخالية! هذا المكان فيه الكثير من الحفر التى تشرب منها الماشية؛ وعمق كل حفرة من هذه الحفر يصل إلى حوالى قامة

ونصف القامـة؛ والماء يرتفع فى هذه الحـفر بسـبب الأمطـار- عندئذ نظرت إلى الخلف ووجدت القافلة متجهة إلى هناك! لقد تخلى حداة الإبل عن المسار الذى كانوا يسلكونه. وعندمـا وصلت الإبل إلى مكان تلك العـيـون أصـدر إبراهيم أمـرا بالتـخـيـيم فى تلك المنطقة. مـاء هذه الحفر كانت مقبولة أكثر منها صحية ، فقد أصيبت غالبية أفراد القافلة بالإسـهال أثناء الليل.أما أنا فلم يصـبنى ضـرر؛ كمـا لـم يصـبنى ضـرر بالإمس بعـد أن شـربت من مـاء شـرَّمـة Shurrma: وهذا جـعلنى أشكر الله، أننى لم يصـبنى مرض، فى تلك السنوات التى أمضيتها فى بلاد يعانى فيها الناس كلهم من المرض.

أوفـد إبراهيم ،أثناء الليل، بعـضـا من الجـمَّالة لاسـتطلاع مـورد الميـاه الموجـود أمـامنا، والذى كنا نتطلع منذ الأمس إلى الوصـول إليـه ؛ وعلى أمل أن يعـودوا إلينا بأخبار عمـا إذا كان هناك أعراب يقيمون حول ذلك المورد- طلعت الشمس علينا وكنا مانزال نستريح فى ذلك الموقع الجميل . كمـا خرج بعض آخر من أفراد القـافلة ومعـهم بنادقهم الفتيلية، وراحوا يجوثون بين أشجار السنط الخضـراء لاصطياد اليمام [الذى يحـوم دومـا حـول مـوارد الميـاه، ويندر أن يراه أحد وهو يطير فى الصـحـراء]: ولكن إبراهيم بناء على نصيحة من مذكر أرسل أمرا يقضى بعدم فتح نيران البنادق؛ نظر لأن صـوت البنادق يمكن أن يجر علينا الأعداء- وبعـد طلوع الشـمس بنصـف سـاعـة، شاهدنا كشافينا وهـم عائدين إلينا؛ عادوا إلينا ومعـهم أخبـار مفادهـا أنـهم شاهدوا قلة قليلة من البدو بالقرب من مـورد الماء، وأن أولئك البدو كانوا من العتبـان؛ وأنهم تكلمـوا مع شخص التقاهـم فى الصـحـراء وعزمهم على الذهاب معه ليشربوا شيئا من الحليب . بقينا بلا حراك فى أماكننا؛ ونصب الرجال التعاريش والمظلات- وذبحـوا نـاقـة فطير (والناقـة الفطيـر Fatir هى النـاقـة المرهـقـه المكدودة)؛ وتم تـوزيع لحـمـهـا على الرفـاق كلهم،الذين دفعوا ثمن الأجزاء التى أخذوها من لحم تلك الناقة. كان يجرى اقتياد ثلاث أو أربع من تلك النياق مع القافلة كيما يجرى ذبحها على امتداد الرحلة: وبهذه الطريقة يذوق أفراد القافلة طعم اللحم كل بضعة أيام.

تحـركت القافلة عند الظهر: وهذه هى مسطحـات الملاَّحات التى تمتد خلفنا لتصل إلى السـاحل البـركـانى، نشـاهدهـا أمـامنا من جـديد؛ وعن شـمـالنا نشـاهـد الأفق الصــحـراوى. وبدأنا نمشى بين جـبل حـكران Hakran المنخـفض وحـدود الحـرة. وعند

غروب الشمس دخلت القافلة خليجا صخريا في المكان الذي تتصرف من خلاله مياه الحرّة : الصخر البركاني في هذه المنطقة من النوع الثقيل وله خصائص البازلت. هذا المكان فيه مسقى يشتمل على آبار عدة ، مثل الموى El-Moy أو شعاب Sheab الماء el-Moy أو أمياه Ameah حركان Harkan، وهذه البئر الأخيرة واحدة من موارد الماء الرئيسة عند الأعراب.

رحل البدو عن المكان ونزلنا عند الشفق بالقرب من المسقى؛ نظرا لأن "هذا الجزء من البلاد يكثر فيه اللصوص في هذه الأشهر." ولكن كل رفيق من الرفاق أوفد فردا ومعه قربة إلى منطقة الآبار، لكي يملأها حتى يتسنى للناس أن يطفئوا ظمأهم. في هذه المنطقة خيم أفراد القافلة على شكل دائرة صغيرة تحسبا للصحراء وتخوفا منها: وشب الناس نيران القهوة ونيران الطهي؛ وسرعان مادخل علينا الليل البهيم ؛وتم تعيين ثلاث خفرات لحين طلوع الفجر. وإذا مامر أحد بالقرب من أضواء النيران الخافتة، أوإذا ماشاهدوا أحداً يقترب من المكان، تنطلق أصوات صادرة من عشرات الحناجر لتصيح قائله: مين Min هذا hatha بمعنى"من هناك؟" وهنا تنطلق أصوات الرفاق من داخل المخيم وهم يقولون بصوت عال ومخيف : اذبحوه! Ethbah-hu بمعنى اقتُلوه! وعليه فإن بداية الليل تكون عامرة بنداءاتهم ولعناتهم ؛ والسبب في ذلك هو تنقل البعض هنا وهناك لزيارة أصدقائهم؟ وأنا عندما مشيت في المخيم بحثا عن إبراهيم ومذًكر وولد البسام ؛ كانت الصيحات العالية تتردد هنا وهناك وهم يقرلون " أذبحوه! Ethbah-hu - مين Min هو hu هذا hatha ؟ والرد على هذا السؤال هو: أنا Ana صاحب Sahib، بمعنى "إنه أنا، صديق؛" أوقد يكون الرد: طيب Tayib مافي mafi شيء shey، بمعنى "كل شيء على مايرام، وليس في الأمر شيء - يقول لي سليمان إنهم في قافلة الحج السنوية، والتي تحمل معها كثيرا من البضاعة والنقود، يحتفظون بتلك الخفارات على امتداد الطريق الصحراوي.

مع طلوع النهار، حمل القصمان السلاح في أيديهم! وراحوا يسوقون الإبل إلى الماء: وسرعان ما أنهوا عملية السقاية نظرا لكثرة عدد الآبار. واستأنفت القافلة مسيرها بعد طلوع الشمس بساعتين، وكان ذلك اليوم يوافق اليوم الثالث عشر اعتبارا من تاريخ مغادرتنا عنيزة. ولم نلتق أحداً من البشر منذ أن غادرنا القصيم! ولكن ظهر

لنا بعض البدو الذين كانوا يسوقون ماشيتهم إلى الماء. وهذا هو المنحدر نفسه يحيط بنا من كل جانب: تلك رءوس كثيرة من أحجار الكوارتز، التى تشبه الأكوام البيضاء اللامعة، نراها فى بعض أجزاء التربة. مررنا بدار dar من الدور، أوإن شئت فقل: منطقة تخييم قديمة من مناطق الأعراب؛ وفيها حفر ماء تشرب منها الماشية، وماء هذه الحفر مالغ وهذا هو الساحل العالى من حرّة القشيب والذى يمتد موازيا لخط سيرنا؛ وقد رأينا فى ذلك الساحل أشجار السنط الخضراء وحاجز رملى مرتفع من الرمال التى جرفتها الريح من الصحراء: ومن خلال الضباب المشوب بضوء الشمس تراءت لنا بشكل غير واضح تلك التلال التى كانت فوهات لبراكين منذ قديم الأزل. [هذه الحمم البركانية غطت صخورا كثيرة.- أما صخور كل من خيبر ' والعويرضى فهى عبارة عن أحجار رملية]. ومسطحات الملح تقع بين طريق القافلة والحرّة- هذا هو حال سطح الأرض الذى شاهدناه ونحن مسافرين من نجد إلى مكة! ويصل ارتفاع هذه الصحراء كلها إلى مايقرب من ٤٢٠٠ قدم.

توقفنا عند الظهر ،فى عز الشمس، وبسرعة راحت كل جماعة تفرد تعاريشتها ومظلاتها. جاءنا بدوى قادما إلينا من الصحراء راكبا ناقة، كان ذلك الرجل صديقا من عتيبة ، وأخبرنا أن قافلة بريدة عند مسقى مياه مرّان Marran، خلف الحرة التى أمامنا - هبت علينا رياح السموم ، فقد كنا فى عصر يوم من أيام شهر مارس، وأخذت الرياح تهدر فى اتجاه الغرب. ومع غروب الشمس نزلنا عن راحلاتنا استعدادا لوقفة الليل: ولكن بعض أفراد القافلة عندما علموا أن حفر المياه التى تشرب منها الماشية ليست بعيدة، واصلوا مسيرهم إلى تلك الحفر كيما يملأوا قراب الماء: عاد الرجال خاويّ الوفاض بلاماء ، نظرا لأن الماء كان مذاقه مالغا ومرا وتفوح منه رائحه الكبريت.

فى الصباح شاهدنا الكثير من آثار البدو الرحل فى كل اتجاه. ارتفاع تربة الصحراء هنا كان هو نفس الارتفاع الذى سبق أن قسته على امتداد الأميال المائة التى مشيناها، وخلفناها وراءنا. خط سيرنا الآن يمر عبر حزام فى هذا الجزء من البلاد؛ والعرب يطلقون على هذا الحزام اسم الرُّكابة er-Rukkaba؛ وهم يقولون إن: هذا 'الحزام هو أعلى نقطة فى الطريق كله، وهم يلتقون بالهواء البارد فى هذا الجزء من البلاد،' - عندما يكونون قادمين من ناحية تهامة (المدارية). وبالرغم مما قالوه وجدت

أن 'ارتفاع 'هذا الحزام عند الظهر وقبل الغروب لايزيد على ٤٣٠٠ قدم فوق مستوى سطح البحر. درجه الحرارة هنا،أقل من ذى قبل ، وهانحن ننظر إلى منظر صحراوى جديد أكثر اخضرارا وجديدا علينا ؛ هذا السهل الذى نسير فيه يمتد إلى الطائف فى الاتجاه الجنوبى الشرقى . ومع مطلع كل يوم، وأثناء مسيرنا، وعندما كانت الشمس تشتد على رءوسنا، كنت أنحنى على سرج (عدة) الجمل وأغفو مدة ساعة أو ساعتين: ولكنى عندما نظرت إلى الأعلى فى ذلك اليوم خطر ببالى أننى رأيت الشمس التى كانت عائدة إلى الخلف ! خطر ببالى ، خلال تلك اللحظات المؤلمة، أنى أصبت بضربة شمس؛ أوربما تكون متاعب وأوجاع الترحال فى الجزيرة العربية قد تسببت فى النهاية فى إرباك فهمى وتواصلى: ولكن عرق جبهتى المر سرعان ماتحول إلى قطرات من الندى توحى بالارتياح، من باب الأمل الحلو، فى اجتيازنا لمنطقة الصيف المدارى؛ يضاف إلى ذلك أن وجود الشمس على شمالنا لابد وأن يعكس طريقنا الذى نسير فيه. رأيت عند الأفق ضفة جبلية كبيرة تمتد ناحية الشرق؛ هذا هو جبل حتثون **Hatthon**، الذى تعيش فيه أعراب البجوم **Bgoom**؛ ومن خلف هذا الجبل أرى قرية ترَّابة **Turraba**: وهم يقولون : إن بعض الآثار القديمة موجودة تحت هذا الجبل. وإلى الغرب من الطريق الذى نسير فيه أرى الجبل البازلتى الذى يطلقون عليه اسم نفور **Nefur** الطريق **et-Tarik**. هاهى الحرّة قدا ختفت عن أنظارنا: وهاهو أيضا أمامنا مورد ماء المحُادثة **Mehaditha** ـ هذه الليلة كانت أكثر إنعاشا من سابقاتها: إذ كنا على ارتفاع ٤٦٠٠ قدم تقريبا. كانت درجة الحرارة عند الفجر ٧٣° فهرنهيتية وكان الماء باردًا فى القراب المتعرقة.

كانت رحلة الغد فى منطقة الرَّكابة **Rukkaba**، التى هى سهل مفتوح ومنبسط : والارتفاع هنا يتزايد خلال الساعات القادمة إلى مايقرب من خمسة آلاف قدم. شاهدت أشجار السنط وأدغاله بعد أن قضمت الإبل أعرافها ، وشاهدت آثار أقدام الإبل فى الرمل المحيط بتلك الأشجار والأدغال ـ كانت آثار أقدام الغزال من بين الآثار الموجودة حول هذه الأشجار! عند المقيل(*) كانت درجة الحرارة تحت المظلات والتعاريش حوالى

(*) المقيل: كلمة عربية فصيحة من 'القيلولة' والمقيل' هو المكان الذى يتوقف المسافر عنده لتمضية فترة الظهيرة واتقاء حرارة الشمس الشديدة. (المترجم)

١٠٢ فهرنهيتية - شاهدنا في المساء قطعان أغنام الأعراب، وشاهدنا أيضا الأطفال العراة الذين كانوا يرعون تلك القطعان . أولئك البدو الصغار - الذين يشبه لون بشرتهم لون حبات البندق، تحت وهج شمس الجنوب الحارق - كانت أجسامهم هزيلة . شاهدنا إبلهم أمامنا: واقترب منا رعاة تلك الإبل كي يقفوا منا على الأخبار ، واندفع واحد من أولئك الرعاة بيننا وكان يركب فرسا بلا سرج .عندئذ بدأت تطالعنا خيامهم السوداء: هؤلاء الأعراب كانوا من الشيابين Sheyabin من قبيلة عتيبة. كانت الشمس منخفضة؛ وعندما تحولنا قليلا عن مُنزل البدو المترحلين نزلنا عن راحلاتنا طلبا للتخييم ونيل قسط من الراحة - وسرعان ماجاءت إلينا بعض البدويات، اللاتى كن يطلبن شراء الملابس من أفراد القافلة: ولكن القحطان قالوا: أنهن جئن للتجسس على مخيمنا، ولعلهن يسرقن شيئا بسيطا أثناء الليل. لاحظت عيونهن بشرتي الأكثر ابيضاضا؛ وسألن على وجه السرعة" من هذا؟ - من هو ذلك الغريب الذى معكم؟"

في الصباح مررنا من بين قطعان البدو الرحل - صوف الأغنام هنا كله أبيض اللون. شاهدت هنا في هذه الصحراء (المدارية في هذا المكان) بعض النباتات الطويلة المتفرقة من نباتات الصُّبيِّر المضلع، والناس هنا يطلقون على ذلك النوع من نباتات الصُّبيِّر اسم الغرلاَّثى el-ghrullathi، وهم يستعملونه دواء للماشية . الأعراب يلطخون أنوف إبلهم المريضة بذلك الصبير. والتربة هنا رملية وزلطية وهي من الصخور البللورية - قبل دخول الظهر بساعتين مررنا على سلسلة أخرى من الصخور الناتجة عن الحمم البركانية؛ والتقينا إبل الشيابين أنفسهم بعد أن عادت من مورد ماء شعارة Shaara، وكانت راقدة بالقرب منا . هذه الإبل العتيبية بنية اللون، والبعض منها يميل لونه إلى الاسمرار؛ ولكن الإبل كلها كانت قصيرة القامة: أما رعاة تلك الإبل فكانوا من الأولاد المتحررين الذين يجيدون الكلام - وبينما كنت أمر بجوار خيمة منعزلة مصنوعة من الصوف الخشن ، رأيت زوجة بدوية واحدة ومعها طفلها الذى كان جالسا داخل الخيمة، وألقيت عليهما السلام ! وردت علّي متهللة وهى تقول :" مرحبا - مرحبا "- كان أفراد قافلتنا، كلما اقتربنا من البدو الرحل - ويحكم شكهم دوما في سكان الصحراء وبحكم عدم وثوقهم أيضا بهؤلاء السكان - يجهزون بنادقهم الطويلة، ويخرجونها من أجربتها، ويشعلون الكبريت خوفا وتحسبا لأولئك السكان؛ وكانوا يواصلون السير وبنادقهم موضوعة على ركبهم .

أمامنا جبل منعزل أسود اللون يقولون له هنا: جبل بس Biss، والأرجح أن يكون من البازلت- وها نحن نرى من جديد الحرة الرئيسة؛ هذا يعنى أننا نقترب من مورد الماء في شعارة Shaara. يقول لى مذكر: "حرة القشيب الكبيرة مستديرة الشكل [البعض يقول: إن هذه الحرة يستغرق الدوران حولها يوما أويومين]؛ وحرة القشيب ليست منعزلة، وإنما هى واحدة فى سلسلة من الحرات الواقعة بين مكة والمدينة : يضاف إلى ذلك أن حرة القشيب وحرة أحرار المدينة ليست بينهما مسافة كبيرة." فى هذه المنطقة التقينا صبيا بدويا نحيفا يرعى الماشية؛ كان وجه ذلك الساقى الشاب جميلا، وهو يرتدى ذلك التونك المكى أزرق اللون- ولكن عيون أهل الشمال فى هذه البلاد، ترى اللون الأزرق على إنه لون نسائى : كانت خصل الشعر الأسود تتدلى منهدلة على كتفى ذلك الصبى اللذان يشبهان كتفى الأنثى." (صاح جمّال عنزى وقح، وهو بدوى لايحب أحدا غير أبناء قبيلته) هوى، ياولد- أقول أيها الرفاق: هل هذا رجل أم أنثى ؟" وهنا امتلأ قلب ذلك الصبى بالاحتقار والكراهية الشديدة؛ وتركزت عيناه الوحشيتان علينا وأوشك أن يبكى- شعارة التى وصلنا إليها الآن، ليست سوى خليج الحّرة، والناس هنا يطلقون على ذلك الخليج اسم عشيرى Ashiry. اكتشفت أن نهاية الصخور البركانية، التى يبلغ ارتفاعها ثلاثين قدما كانت قابعة فوق طبقة من صخور الجرانيت - التى يميل لونها إلى الابيضاض، وهشة بفعل الحرارة الشديدة: هذه الرأس من الصخور البركانية كانت موجودة عند حافة شُعب من صخور الجرانيت. وشعارة ليست سوى شعْب أو مجرى سيل يقولون له: وادى wady عزيز Aziz ويقولون له أيضا: وادى العقيق el-Agig. فى هذه المنطقة كثير من الآبار ذات الفوهات الضيقة، وهذه الآبار موجودة، منذ أزمان بعيدة، وهى مبطنة بأحجار جافة؛ ولكن بعضا من تلك الآبار غير مطهّرة. بلغنا أن قافلة بر يدة شربت من هذا المورد عند ظهيرة الأمس : واعتبارا من الأمس تحولت مسارات الصحراء إلى مسار واحد. كنا على ارتفاع حوالى ٤٩٠٠ قدم فوق مستوى سطح البحر.

أمضى أفراد القافلة الليل وهم يحملون السلاح. كان أولئك النيام مولعين بالصياح والتحذيرات ، ومولعين أيضا بإطلاق البنادق الفتيلية، إلى حد أننا كنا نخاف على أنفسنا من نيراننا وطلقاتنا،إلى أن طلع الصباح علينا. كانوا إذا ألقوا القبض على

لص من اللصوص يقتادونه إلى خيمة الأمير؛ ويكون عقابه، على حد قولهم لى:" الضرب حتى الموت ." كنا فى القافلة يضيع منا شيئا كل يوم؛ والمرجع أننا كنا ننسى ذلك الشىء على الأرض قبل أن نركب الناقة ـ وكنا عندما نصل المنزل الثانى، نجد صاحب ذلك الشىء ، واقفا فى مكانه ، ويصيح مناديا من خلال راحتى يديه، أنه ضاع منه شىء ما؛ وأنه إذا كان أحد قد عثر على ذلك الشىء، فليعده الآن، ويتقى الله.

جاء إلينا بعض البدو فى الصباح؛ وما أن رأونى حتى سألونى بفضول شديد عن هويتى. سألهم أفراد القافلة عن أسعار السمن فى مكة. بعد أن رحلنا، على أثر الانتهاء من سقيا إبل القافلة، اندس بدوى بين أفراد القافلة؛ كان ذلك البدوى يرتدى ملابس سيئة مثل أفضل البدو، ومع ذلك كانت مشية ذلك البدوى من النوع المميز إضافة إلى مظاهر السخرة القاسية التى تبدو على أهل الحضر. وهنا قام جمّالنا العنزى الجرئ بلعن الأب الذى أنجب ذلك البدوى، وطلب منه الابتعاد عنا وعن القافلة! ولكن العتيبى استل سيفه القصير إلى منتصفه، وبابتسامة بدو الحضر، راح يواصل السير بين أفرد القافلة: لم يكن ذلك البدوى خائفا من الحضر من أهل ديرته. واصلنا السير: وتبدى لنا ساحل الحرة وكأنه يركب المنطقة السهلية الموجودة عن يميننا . شاهدنا طفلا يرعى قطيعا من الحملان، ولم يكن ذلك الطفل يرتدى أى شىء من الملابس، سوى حزام من سيور الجلد .[شاهدت الحريم بعد ذلك ، وهن يرتدين ذلك الحزام نفسه من حول ثيابهن الواسعة: ربما كان ذلك من مميزات اللبس المماثل للهجو haggu فى جنوب الجزيرة العربية]. بكى ألطفل لأن جماعة من الغرباء أخذته هو وقطيعه: ولكنه تشجع وجمع أفراد قطيعه، وانتحى به جانبا وأشاح بوجهه عنا.

هنا بدأنا نتجاوز سهول نجد الكبيرة الوسيعة؛ ودخلنا منطقة صخرية فيها الكثير من صخور البازلت يطلقون عليها اسم الرِّيع el-Ria، ويصل ارتفاعها عن مستوى سطح البحر حوالى ٥٠٠٠ قدم. [وقد اكتشفنا أن الريع تعنى فجوة وممرا بريا فى الجبلـ وأنا لم أجد مثيلا لهذه الكلمة بين مفردات الأراضى المنخفضة فى بلادنا]. فى هذا الريع تنمو أدغال من نوع معين، هى أدغال أشجار النبأ nebba،التى سبق لى أن رأيتها مؤخرا فى تلال الحجر الجيرى فى سوريا: ومررنا على مناطق مغطاة بالهباب الأسود: هى عبارة عن محارق الفحم النباتى فى منطقة [مكة] المكرمة. وبعد أن قطعنا

مسافة أخرى فى ذلك المضيق مررنا على بعض الرُّجوم، التى وجدنا بينها مبنى بدائيا، وربما كانت تلك الرجوم عبارة عن مقابر لبعض الشخصيات الرئيسة فى الزمن القديم ، هذا الرِّيع عبارة عن ممربين المناطق الكبيرة. كنت عندما أسأل أحداً من أفراد القافلة، عن ماهية تلك الأكوام ؟ يرد على قائلا: "إنها من أعمال الكفار الذين كانوا فى هذه الأرض قبل المسلمين: ـ كيف ياخليل! ألم يكونوا من أهلك ؟" قال آخرون: " إنهم بنو هلال؟"

صعدنا من ذلك الممر إلى ناحية اليسار ، عن طريق سيل منحدر، تحيط به أشجار السنط والصخور. وبعد مسافة قصيرة شاهدنا طنفًا ضيقا من طنف(*) الجبال؛ عند هذه الحافة شاهدت تلة، ومدقات مؤدية إلى مبنى قديم من المبانى الجافة(**)؛ كان الارتفاع هنا حوالى ٥٥٠٠ قدم، فوق مستوى سطح البحر، وبالتالى تصبح تلك هى أعلى نقطة على امتداد هذا الطريق الذى نسير فيه. كان إبراهيم ورفاقه يجلسون بجوار ذلك المبنى؛ بينما كان خادم الأمير يقوم بإحصاء عدد الإبل ـ بأن جعلها تمر واحداً بعد الآخر ، وكان يدون ذلك على قطعة من الورق؛ والسبب فى ذلك (على حد قوله) هو أن الجمل الواحد يدفع عنه ريالا واحداً . وبعد أن قطعنا بضع خطوات، نزلنا عن طريق مجرى آخرا من مجارى السيل ـ بحثت دون جدوى عن نقوش مكتوبة: لم أعثر على شيء غير حفر من الصخر الجرانيتى رمادى اللون، الذى تتخلله عروق من البازلت.

المنظر كئيب فى هذا الجزء من البلاد كنا ننزل متجهين صوب مكة ـ التى أصبحنا الآن على مقربة منها – ولم أكن أعرف أى شيء عن تلك المغامرة التى قد أعيش بها أو أموت بسببها غداً : لم يكن ضمن القافلة أحد من أصحاب القدر أو الجاه. كان عبد الرحمن صديقا لى فى القافلة، ـ وذلك كان من باب طاعته لوالده: كان عبد الرحمن من الشخصيات المحبوبة؛ ولم يكن صاحب عقلية متشددة، وإنما كان صاحب عقلية مسكينة mesquin. وقد أحسست من ردوده علّى اليوم ،أنه كان شديد القلق على كل مايتعلق بى.

(*) طُنُف: بضم الطاء وضم النون هو "حافة" .(المترجم)

(**) المبنى الجاف: المبنى من الحجر بدون استعمال الملاط. (المترجم)

كان الوقت ظهرا عندما وصلنا إلى الأرض المرتفعة، تلك التربة التى كانت تمتد فيما بين الجبال، على شكل وادى مرتفع عريض. هذه الأرض تسلكها القوافل القادمة من نجد لتختصر من الطريق المؤدى إلى مكة مسيرة أو مسيرتين ؛ والناس هنا يطلقون على هذه المنطقة اسم السيل es-Seyl: كنا هنا على ارتفاع حوالى ٥٠٦٠ قدما ـ هذا هو وادى الحمص el-Humth الكبير الذى ينصرف فيه سيل الحرّات الواقعة فيما بين مكة وتبوك؛ ويقال إن هذا الوادى الكبير يبدأ من وادى الليمون laymun [انظر الجزء الأول ص٢١٧]، الذى ينخفض قليلا ، ويقع على الجانب الأيمن: وإذا ما أخذنا نقطة الارتفاع هنا، بعين اعتبارنا ،تصبح مسألة الانخفاض هذه أمرا ممكنا.

تجاوزنا نجد؛ وهذا جزء آخرمن الجزيرة العربية! ومن بين تلك الحشائش قدر كبير من نباتات النعناع [انظر صفحه ٤٢٧]؛ كما مررنا أيضا على مروج ومراعى قصيرة الحشائش ـ نظرا لأن إبل القوافل ترعى ذلك العشب طوال اليوم، عبر تنقلها فيما بين مكة والطائف. هنا توقفت القافله ونزلنا من فوق إبلنا: وعندما حفروا هنا بأيديهم، عثروا على الماء النقى على عمق شبر واحد. ومن هذه المنطقة، قالوا لى: إن المسافة إلى الطائف لاتتجاوز رحْلة واحدة: وعليه نصحنى بعض الأشخاص الواعين والأمناء بالذهاب إلى الطائف، إذ كانوا يقولون لى : 'إننا يحتمل أن نعثر على بعض الجمّالة المكيين القادمين إلى الطائف، وأنهم سوف يعهدون بى إلى أولئك الجمّالة ، وبالتالى فهم يرجحون وصولى إلى الطائف هذه الليلة؛ كما وصلهم أيضا خبر مفاده أن شريف (مكة) كان موجودًا فى الطائف: وأننى إذا ماوصلت إلى الطائف، وطلبت من شريف مكة،إرسالى إلى جدة، فسوف يأمر بذلك، وتصل إليها فى أمن وسلام.

ـ يالها من متعة إذا مازرت الطائف! هى جنة عدن المكية، فيها الهواء البارد الحلو، والماء الجارى؛ فيها حدائق الورد، وفيها البساتين وحدائق الكروم. ولكن هذه المميزات يمجدها الناس، فى كلامهم العام، والسبب فى ذلك أننى سمعت بعض القصمان يقولون:'إنهم يروون عجائب عن الطائف ـ حسن، لقد ذهبنا إلى الطائف؛ وأستطيع القول: إنها أقل مما قيل عنها ـ'. فقد ازدادت عندى أمراض وأوجاع الجزيرة العربية عندما ذهبت إلى الطائف؛ من ذلك مثلا أن أطرافى السفلى امتلأت بالتقرحات، التى يقول الناس عنها هنا'الحب' hub أو 'البذر' bizr. أو قد يقولون لتلك التقرحات،'بذرة'

bethra ' التمر' على ساحل الخليج الفارسى]نظرا لأن الحبوب تبدأ فى الظهور فى موعد حصاد التمر]. هذه التقرحات ، التى هى شبيهة بالأزرار button الحلبية Aleppo، معروفة فى أجزاء كثيرة من العالم العربى- فهى معروفة فى مصر ويطلقون عليها اسم (حمو Soresالنيل Nile) ؛ وفى الهند يطلقون على تلك التقرحات اسم (فقافيق دلهى): هذه التقرحات تعزى إلى شرب الماء غير النظيف فى كل أنحاء الدنيا. هذه التقرحات تغسل جيدا بحامض الكربوليك، ثم يجرى مسحها بزيت السمك؛ ووصل الشر معى إلى مداه، إذ لم يجد العلاج: وقد استغرق شفاء هذه التقرحات منى خمسة أشهر. - هذه التقرحات التى تظهر من تلقاء نفسها تشيع بين البدو. [التكوين، وسفر التثنية السورة رقم ٢٨ الآية رقم ٣٥] من هنا كان من الأفضل النزول إلى جدة؛ يضاف إلى ذلك أننى استحضرت فى داخلى ذلك الذى سبق أن قرأته عن (أشراف مكة) القدامى: وفوق كل ذلك، لو كان من صالحى الذهاب إلى الطائف، فلماذا لم ينصحنى البسام وأنا فى عنيزة بالذهاب إلى الطائف- مع انه امتدح طيبة شريفها الذى توفاه الله ؟ الآن، يتولى أمور مكة شريف جديد: وهذا الشريف هو أيضا أمير مكة؛ ولم أكن أعرف هل سيكون عادلا معى أم لا بوصفى نصرانيا.

كان القصمان مشغولين بالاستحمام هناك، والتخلى عن ثيابهم الدنيوية: وأعتقد أن الوقت ، كان مناسبا لغسل ثياب الجمّالة الفضفاضة، وغسل ملابس أصحاب الإبل التى أصبح لونها مثل لون الرصاص من كثرة العمل اليومى فى تحميل وإنزال قراب الزبد والسمن- وعندما كان الجميع جالسين حول ثقوب الماء، كان كل واحد منهم يساعد الآخر، بأن راح يسكب سطلا من الماء على رأس جاره. وأعقب ذلك أن تناول كل واحد منهم من صُرّة أشيائه، حوالى ياردتين أوثلاث ياردات من البفتة البيضاء، أو من قماش المناشف، التى تغطى الجسم إلى الركبة؛ وكانت هناك منشفة أخرى توضع على الكتفين. تلك هى ملابس الإحرام ihram، أوإن شئت فقل ملابس الحج. هذه الملابس تغطى الجسم إلى الركبة، والقطعة الثانية تغطى الكتفين. وبذلك يصبح الحاج حاسر الرأس وشبه عار؛ وكل من يدخل الحرم لابد أن يكون لابسا تلك الملابس إن كان حاجا أو معتمرا: أما إذا كان الشخص من أهل المدينة أو من الحامية القائمة على أمر حراستها، فإنه يقوم بهذه الشعيرة بعد تغيب محدد. وفيما يتعلق بأفراد قافلتنا

النجدية، فإن البعض من تجار الزبد والسمن، الذين يذهبون إلى مكة كل عام لبيع هذه السلعة، لايعد الأمر جديدا عليهم أوعلى قلوبهم . هذا يعنى أنهم لايتوقعون من هذه الرحلة إلى المدينة المقدسة سوى التعب والإرهاق ؛بل إنى سمعت البعض منهم يقولون : "إن حرارة مكه حاليا [فى فترة هبوب ريح السموم] لا تطاق": فهم يقضون اليوم بطوله فى السوق، حتى يتمكنوا من بيع بضاعتهم؛ يضاف إلى ذلك أنهم لايشربون أية مرطبات فى الليالى ساكنة الهواء، إلا بعد أن يعودوا إلى هنا مرة ثانية. سوف يقيم الرفاق هنا فى غرف مستأجرة: يضاف إلى ذلك أن أولئك الأشخاص القلائل من بين أفراد القافلة، والذين يعملون بالتجارة فى المدينة ، سوف يعودون إلى مواطنهم ؛وولد البسام سيفعل الشيء نفسه: والسبب فى ذلك أن والده الطيب له بيت فى مكة، هناك عبدة عجوز تقوم على أمر ذلك البيت.

هذه واحدة من مناطق المخيمات القديمة التى توافدت عليها جموع الحجاج وأفراد القوافل على امتداد أجيال كثيرة، وفى فصل الصيف يعد ذلك المخيم مقيلا يلوذ به المسافرون الذين يتنقلون بين المدينة المقدسة (مكة المكرمة) ومدينة الطائف. شاهدت فى هذا المخيم بعض النسور التى كانت تحلق صاعدة ونازلة فى أنحاء المخيم؛ وأذكر أنى شاهدت أيضا فى هذا المكان الصحراوى بعض الكتل التى كان الناس يستعملونها هاونات ليطحنوا فيها كل مايلزمهم، كما وقعت عيناى أيضا على أساس لمبنى أنشئ من الصخر . يقول أصدقائى العنزيين إن الناس هنا يطلقون على هذا المكان اسم قرن المنازل Kurn Menâzil؛ وهم يفسرون هذا المسمى على إنه شبكة الأماكن التى كانت تقام فيها خيام الشعر القديمة، والتى كانت مكونة من عدد كبير من الخيام التى يجرى نصبها فى مكان صغير .كنت أمشى حافى القدمين على الأرض هنا فى عز الظهر ، نظرا لأن حرارة الشمس كانت معتدلة هنا فوق هذه الأرض المرتفعة؛ ياحلاوة المشى من جديد على أرض خضراء، بعد سنوات من التجوال فى أراضى جافة ! لم يكن من بين أولئك الذين كانوا فى المخيم ،إلا النصرانى الذى كان يرتدى ثيابه؛ ومع ذلك لم يعترض علىّ أحد من القصمان؛ إذ كانوا هم أنفسهم على وشك الوصول إلى مكة؛ يضاف إلى ذلك، أنى قد أبدو صديقا للقصمان ، بالمقارنة مع البدو الحاقدين الحاسدين الذين يسكنون هذا المكان، الذى يطلقون عليه اسم الحطيل el-Hatheyl.

عثرت على ولد البسام محرّماً فقط فى ملابس الإحرام، وهو جالس تحت تعريشة من التعاريش ."قال: ياخليل ، من حسن حظك! هناك بعض الجمّالة الذين جاءوا من الطائف : وقد تكلمت مع واحد منهم بالفعل ـ وقد أعرب الرجل ـ وهو معروف لنا ـ عن استعداده لتوصيلك إلى جدة."ـ" ومن الذين سأراهم مع هذا الجمّال؟"ـ" إنهم من الجوّة Jawwa [أى حجاج من جاوه ولايحترمهم أهل الجزيرة العربية : والسبب فى ذلك أن وجوه أهل شبه جزيرة الملايو تبدو غريبة على أهل الجزيرة العربية! وسمعت العم محمد النجومى ، فى خيبر، وهو يقول: 'بالرغم من أنى قدر لى أن أقضى حياتى فى بلاد الجاوة، فأنا لم أستطع ـ !وأنا أقسم على ذلك بالله، الزواج أو معاشرة أية واحدة من نساء ذلك البلد .' كان أولئك المتدينون موجودين فى الطائف لزيارة الشريف ؛ كما قال أيضا: إن موعد ذهابهم، ضمن العمرة، إلى المدينة المنورة، أصبح قريبا جداً]. ياخليل، المغامرة من عند الله (سبحانه وتعالى) : ووالله أنا أشك فى مسألة عثورنا، فى العين el-Ayn على رجل يرافقك إلى الساحل. يضاف إلى ذلك ،أنى يتعين علّى ترك القافلة قبل الوصول الى المحطة التالية؛ والسبب فى ذلك أننا (أى الرفاق الشباب الذين مع إبراهيم) سوف نتجه هذه الليلة إلى مكة (المكرمة)؛ بدلا من دخولها باكر أثناء طلوع الشمس، وذلك من باب المحافظة على رءوسنا الحاسرة. هل أرسل فى طلب سليمان ليقوم باستدعاء ذلك الجمّال؟ـ لكن، يجب أن نتفق مع ذلك الجمّال على وجه السرعة ؛ نظرا لأننا أوشكنا على الرحيل ، وسوف نتركك هنا ."

ـ كان ذلك الجمّال شابا بائسا! واحد من أولئك الذين يعملون على الحيوانات التى تستعمل لنقل حاجيات المسافرين، فى البلدان العربية، والذين يفنون حياواتهم فى بؤس يومى بسبب الأجور الهزيلة والطعام الهزيل والنوم المتقطع على الطرق. كان يبدو كما لوكان يحتفظ فى ذهنه بمخ واحد من الإبل ،إذ كان يتحدث بطريقة فجة وضحلة. عبدالرحمن:" ومن العين، أنقل هذا المسافر إلى جدة، وذلك عن طريق وادى فاطمة. أنا سوف أنقله عن طريق مكة، لأن ذلك هو الطريق الأقرب." عبدالرحمن وسليمان:" لا،لا! لابد أن تنقله عن طريق الوادى ، وأردف عبدالرحمن قائلا: هذا الرجل لايذهب إلى مكة،" ـ قال هذا الكلام بشىء من الاستغراب المتشدد، الذى عرض حياتى للخطر ؛ وهنا هز سليمان رأسه ـ فغر الرجل فاه على ذلك الذى سيكون مسئولا عنه، واندهش

عندما رآنى صاحب بشرة شديدة البياض !تدخلت وواقفت على كلام هؤلاء الناس الأصدقاء: سوف أركب من العين إلى جدة خلال طريق واحد، فى حين قال ذلك العبد: إن ذلك قد يستغرق أياما عدة. إبل هذه المنطقة ضعيفة ولاتزيد قاماتها على قامات الخيول .هذا النوع من الإبل يحتقره أهل نجد: وهم يقولون :إن جمّالة مكة يمشون مثل mithil النمل en-nimml بمعنى'أن سرعتهم فى المشى تشبه سرعة النمل.'

انصرف ذلك الجمّال مستاءًا، وكان ينظر إلىّ باعتبارى مختلفا تماما عن سائر أنواع الحجاج. [أثناء أنصرافه، سأل ذلك الجمال أفراد القافلة، عن هويتى ؛ ورد عليه البعض من باب الحقد الفطرى ومن باب الخيانة بأننى نصرانى! وعندما سمع الجمال هذه الكلمة قال: 'والله wullah ـ بالله Bullah، لن ينقله ، لا؛ حتى لو دفع مائة ريال'!] قال عبدالرحمن:" ياخليل ،تلك كانت فرصة جيدة، ولكنك فوّتها!"ـ " وهل تعهد بحياتى إلى شخص تعيس كهذا ، شخص لا يقدر على حمايتى من السب والإهانة ـ أهذا هو الرجل الذى تثق به؟ شخص اكتشفت أنا أنه غير معروف لأى أحد من الموجودين هنا: الأفضل لى أن أركب وحدى وأسافر إلى جدة." سليمان :" ياخليل حيثما ذهبت فى هذه الأماكن، سوف يعرفون من سرج الناقه التى تركبها أنك من الشرق [أى وسط نجد] . يضاف إلى ذلك أن سرُج الإبل فى هذه الأراضى المكيَّة المنخفضة كانت تبدو لنا شيئا سيئا وغريبا علينا.

بينما كنا نتحدث صاح خادم إبراهيم مناديا على القافلة بأن تبدأ التحرك ! وهنا راح أفراد القافلة شبه العراة وحاسرى الرءوس ، يعجلون بتحميل أشيائهم على الإبل : وركب حداة الإبل ؛ ثم بدأت القافلة النجدية فى التحرك ـ كنا ننزل متجهين إلى مكة! وكان بعض حداة الإبل 'يلبُّون Yulubbun يقولون: لبيك Lubbeyk لبيك !Lubbeyk بمعنى' نحن ننفذ إرادتك ، نحن ننفذ إرادة (الله)!' هذه التلبية لم يكن لها وقع سار فى أذناى : كانت حياتى تحيط من حولها الشكوك بسبب هذا الكلام الذى كان أبشع من كلام ولد البسام المتهور. والأخبار التى من هذا القبيل سرعان ماتنتشر وتشعل نيران التشدد القاسى؛ ومع ذلك ، كنت أتمنى ، بحكم استباقنا إياهم، أن أصل إلى بلدة العين قبل أن يصل إليها ذلك الجمّال المكى التعيس. سألت حادى الإبل العنزى لماذا يقول هذا الكلام؟ وأجاب ـ" أوه!ماذا جرى لك ياخليل ؟ غدا سنكون فى مكة! Mekky

ولذلك فنحن، نصيح بهذه التلبية، نظرا لأن رحلتنا أوشكت على نهايتها- لبيك!lubbeyk لبيك! lubbeyk!"

ملابس الإحرام هذه هى بلا أدنى شك من مخلفات أديان الكعبة القديمة فقد عثرت على موروث بين البدو، عبارة عن لباس يطلقون عليه اسم اليمنى yemeny وكان بمثابة لباس قديم للبدو- والنساء اللاتى يدخلن الأراضى المقدسة يلبسن أيضا ملابس الإحرام ومن فوقها أيضا حزام؛ ولكنهن حسب الدين الإسلامى يغطين أنفسهن بقناع يشبه الملاءة. زد على ذلك أن الجنود الذين يرافقون قوافل الحج (السورية أوالمصرية)، وكذلك الضباط بل وباشا الحج نفسه، يلبسون ملابس الإحرام: إنهم يدخلون المدينة المقدسة وكأنهم إناس يستحمون ، ولا يعفى أى أحد من ذلك.[يتعين على الحجاج البقاء شبه عارين فى مكة لأجل زمنى معلوم، وقد لايتغطون أثناء الليل! إلابعد عودتهم من عرفات]. وفى مكة تكاد تكون درجة الحرارة مدارية طوال العام تقريبا: وبالتالى قد لايعانى الحجاج من البرد، عندما يجىء موسم الحج فى فصل الشتاء، مثلما يعانون من حرارة الشمس إذا ماارتدوا ملابس ثقيلة أوعمائم فوق رءوسهم.أما إذا كانت صحة الحاج لاتتحمل ذلك، فإن الله غفور رحيم، ويسمح له شريطة أن يقدم هدياً فى مكة.

شاهدت فى قافلتنا شخصا آخرا لم يلبس ملابس الإحرام- كان ذلك الشخص تاجرا مريضا من التجار الشبان، كان عائدا من البصرة منذ فترة وجيزة، لزيارة بيته وأهله فى القصيم؛ وهو الآن يقوم بعملية تجارية صغيرة إلى مكة (المكرمة). هذا الشاب تعلم، طوال خمسة عشر عاما أمضاها فى التجوال فى الشمال، كيف ينظر إلى نجد نظرة احتقار وازدراء،" أليسوا (قالها وهو يضحك لى) أناسا أغبياء ومتشددين؟ ها- ها!إنهم حفاة ولايلبسون نعالا، إنهم يشبهون البدو.أنا غريب على هذه الديار، ياخليل ، مثلك تماما، ولم أرتدى ملابس الإحرام، مخافة أن أصاب بنوبة برد؛ والأمر لن يكلفنى سوى ذبح شاة فى مكة." رحت أتأمل كلام هذا الرجل، وأتأمل كذبه، وأطيل النظر إلى وجهه الذى يشبه لونه لون الصلصال، وهنا أدركت أنه لم يكن من جنس هؤلاء البشر. كان ذلك الشاب قد جلب معه فى القافلة شيئا غريبا، مجرد حمار أبيض اللون، جلبه من بلاد الرافدين؛ وكان يتطلع إلى بيعه بضعف ثمنه فى مكة (المكرمة) - حيث يعد الحمار - كما هو الحال فى البلاد العربية الشرقية الأخرى - من حيوانات الركوب التى

يستعملها الأشخاص الكبار المهمين. قلت لعبد الرحمن ، الذى كان ضعيفا،" لماذا لبست ملابس الإحرام؟" أجابنى،' إنه إذا ماساء حاله فى الطريق فسوف يعود إلى ارتداء ملابسه من جديد، وسوف يقدم هديا فى مكة.: هؤلاء ليسوا حجاجا يزورون المدينة المقدسة" وإنما هم يقومون فقط بطقوس الكعبة المعتادة؛ ثم يلبسون بعد ذلك ملابسهم حتى يتسنى لهم القيام بأعمالهم.

من السيل ننزل إلى مجرى واد صخرى بين صخور سوداء ويصل اتساعه إلى حوالى نصف ميل: هذا المجرى عبارة عن قاع من قيعان السهول الكبيرة المكونة من الحصى و الأحجار المستديرة فضلا عن أشجار السنط ؛هذا المنظر الطبيعى أعاد إلى ذاكرتى منظر الحقول fjelde الأسكندنافية التى سبق أن عرفتها فى مقتبل حياتى. الحياة النباتية المحيطة بى هنا تشبه تلك الحقول الأسكندنافية: الفرق هنا يتمثل فى الغطاء الخارجى فقط ، هبة الشمس والمطر. والناس هنا لايعرفون لهذا الوادى من وديان الحديد، سوى اسم واحد فقط هو وادى Wady السيل es-Seyl. وكل الجبال المربعة المحيطة بهذا المكان يسكنها أعراب الحطيل Hatheyl [وجمعه الحطيلان Hatheylan] - والحطيلان هذا اسم قديم، والناس هنا يقولون عن الحطيل :"إنهم سلالة نسبية مستقلة، ولاتربطهم أية صلة بالقبائل المجاورة." والجمالة المكيون هم وجمالة القطيف عندما يلتقون أغرابا قادمين من نجد، فإنهم يحذرونهم بكلام من قبيل" احذر الحطيل فإنهم لصوص.". الوادى هنا كان طريقا تمر منه الإبل؛ وقد سبق لقافلة بريدة أن مرت من هذا الوادى وكانت تضم مائتى جمل. ولكنى شاهدت هنا آثار آلاف من الإبل ! لم أكن أعرف أن ذلك هو الطريق السريع المؤدى من مكة إلى الطائف، والذى تمر فيه كل يوم سلاسل طويلة من قوافل الإبل . نزلنا عن راحلاتنا عند غروب الشمس - هذا هو المنزل الأخير - بين الأحجار الكبيرة لوادى السيل . كنا هنا فى هذه المنطقة على ارتفاع ٢٧٠٠ قدم فوق مستوى سطح البحر.

كان البسام الطيب قد اشترط، أنه فى حال عدم وجود شخص فى المحطة السابقة لمكة، يقوم بتوصيلى إلى جدة، فإن رجله (الذى يخدم ولده عبد الرحمن) هو الذى يتعين عليه القيام بهذه المهمة، ألا وهى توصيلى إلى مدينة جدة. هنا استدعى عبد الرحمن البسام خادمه، ولكن ذلك الرفيق الذى داوم على أن يقول:" نعم - نعم" طوال

أيام الرحلة، ها هو يرد على عبد الرحمن قائلا:" ليًلا" بمعنى "لا- لا" وهذا يعنى أن الأعراب يمكن أن يخذلون فى الوقت المناسب!- قال الخادم: إنه سيرافق بقية القافلة إلى مكة." استاء عبدالرحمن وغضب لما قاله ذلك الخادم ؛ رد هذا الرجل أربكنا كلنا." إذن، لماذا وعدت بأنك سترافق خليل؟ قال: اذهب الآن،أرجوك؛ والأجر الذى سيدفعه خليل جاهز: أنت ليس من حقك أن تمتنع أوتقول :لا." حاول إبراهيم أيضا إقناع ذلك الخادم، - ولكنه لم تكن فى يده السلطة التى تجبره على القيام بذلك العمل. وهنارد ذلك الخادم ردًا مختصرا إذ قال:" أنا حر، وأنا لن أذهب إلى جدة!" ثم تركنا بعد ذلك. وهنا أرسل إبراهيم فى طلب رجل آخر من رجال القافلة، رجل فقير الحال ولكنه حسن الفهم: وعندما جاء ذلك الرجل الفقير استسمحه إبراهيم فى أن يركب مع خليل ويرافقه إلى جدة، ولكنه بدأ ينتحل لنفسه الأعذار، ولكنهم قالوا له:" ليس هناك ما يجعلك تتعجل، إذ يمكنك أن تعود إلى مكة خلال يوم أو يومين؛ وكل ماهو مطلوب منك هو أن تحدد الأجرالمطلوب ، وألا تقول:لا!" طلب الرجل خمسة ريالات؛ وبهذا التأكيد طلبوا من ذلك الرجل أن يذهب لحال سبيله." قلت: اسمحوا لى أن أربط ذلك الرجل بشىء من العربون." رد إبراهيم قائلا:" لاداعى لذلك أثناء الليل - وليكن ذلك فى الصباح!" كان يراودنى من داخلى إحساس بأن ذلك الاتفاق كان هشًا؛ وكنت قد تعلمت ألا أعلق أملا كبيرا على وعود العرب التى تقطع أثناء الليل."-"يا مذّكر!أسمح لواحد من بدوك أن يرافقنى إلى جدة."-" حسن ، ياخليل، ليتنى أساعدك؛ ولكنهم لايعرفون الطريق." كان مقررا لإبراهيم ، وعبد الرحمن والرفاق الشباب أن يركبوا راحلاتهم، عقب العشاء مباشرة، ويتجهون إلى مكة ، وهذا يعنى أنهم سوف يتركونى هنا فى هذا الممر الخطير. فهمت فيما بعد، أنهم أخروا رحيلهم لحين طلوع النهار- وما أسرع طلوع النهار بعد ذلك! وهنا بدأنا نمضى قدما.

لم أكن بحاجة إلى انتظار ذلك الذى وعدنى أثناء الليل؛ والذى لم يهتم بتنفيذ الكلام الذى قاله أمام كل من إبرهيم وعبد االرحمن ، - وكانا يعرفان ذلك تماما. وبالرغم من أن ذلك كان هو اليوم السابع عشر من رحلتنا منذ أن غادرنا عنيزة؛ إلا أن رتابة المنظر الطبيعى نفسه، جعلتنى أحس، حتى الأمس، وبعد أن تجاوزنا الشعارة es-Shaara وكأننا مازلنا متوقفين فى المكان نفسه- هذا يعنى أن القافلة سوف تصل

إلى مكة عند الظهر: وأنا يتعين علّى أن أتركهم فى خلال ساعة واحدة، ولكن لم يتخذ أحد أى قرار بشأن الترتيبات المطلوبة.

مررنا ببعض البدو الذين كانوا يتحركون صوب الأراضى المرتفعة: هؤلاء البدو، كانوا أصحاب أجسام نحيلة، وسود البشرة، ويبدو الجوع فى وجوههم: وكانت حاجياتهم البسيطة محملة على الإبل الصغيرة التى فى هذه المنطقة. شاهدت أجناب ذلك الوادى القاحل العامرة بسيقان الأعشاب الجافة - ومعروف أن هذه الجبال تهب عليها الرياح (الموسمية) وتسقط عليها أيضا الأمطار الموسمية - ومن بين هذه الصخور المتحدرة كان هناك جبل يدعى جبل أغنام البدو الرحل؛ كل هذه الأغنام كانت أصوافها بيضاء اللون ولكنها كانت من سلالة مختلفة عن سلالة الأغنام النجدية. وفى وسط ذلك الوادى ، مررنا خلال بيارة فيها عشب يشبه الأشجار (يطلق الناس هنا عليه اسم العشا el-esha) ويحمل الكثير من الأوراق الخضراء! هذا العشب له عناقيد ورقية فيها الكثير من البذور. وهم يقولون: إن هذا العشب عديم النفع للإنسان أو الماشية؛ ولكن أهل المنطقة يجمعون النسغ الذى ينساب من ذلك العشب ويبيعونه دواء، للحجاج الفرس؛ كما يستخدم البدو ذلك العشب فى عمل الفحم النباتى الذى يستخدمونه بدلا من البارود. فى تلك البيارة التقينا جماعة من المسافرين المتجهين إلى الطائف، وكانوا قد بدءوا رحلتهم أثناء الليل قادمين من مكة. كان الحريم يجلسن فى الصناديق الجانبية التى تستعمل فى سوريا لمثل هذا الغرض.

يتعين علّى عندئذ تجاوز دائرة غير مسموح للأجانب بالتواجد فيها؛ الناس الذين يعيشون داخل هذه الدائرة أقفلوا كل الطرق المؤدية إليها؛ وكل واحد منهم بالمقارنة مع النصرانى يعد واحداً من أهل الله. كنت قد بحثت عن مسدسى أثناء الليل؛ وبدأت أتحسب للطلقات الطائشة من حولى؛ نظرا لأنى لم يخطر ببالى الإقرار بذلك الدين البسيط. إن قدر لى أثناء هذه المغامرة، اختراق أى شكل من أشكال المعارضة البربرية غير المتحضرة، فأنا مايزال أمامى ثلاثين فرسخا ، يتعين علىّ طوال هذه المسافه المرور من مسارات مجهولة، فى وديان لايسكنها سوى الأشراف Ashraf، الذين هم من سلالة محمد (ﷺ) - يتعين علّى أيضا تتبع مجارى السيول، التى تصل فى النهاية إلى شاطئ البحر. ولكنى لم يكن معى طعام أو ماء؛ يضاف إلى ذلك أن قواى كانت قد

خارت تماما ـ كان إبراهيم الذى كان يعدو بجوار ناقتى يطيل النظر إلى الغترة التى كنت أضعها على رأسى؛ وكان يعجب (مثل أى عربى من العرب العتاة) لراحتى وأنا راكب الناقة. سألنى إبراهيم: كيف حالي؟ وقال : ألا ترى انحناء الوادى الذى أمامنا؟ عندما نصل إلى هناك سنكون قد أصبحنا على مرأى من عين Ayn الزِّيمة ". ez-ema. "وأنت ،ألن تساعدنى ،إذا ماحدث لى حادث أو مكروه؟"ـ" نعم، ياخليل؛" ثم راح يسبقنى بعد ذلك: ولكنى لم أر عبدالرحمن! فقد كان مع المقدمة والرفاق.

تعثرت الناقة التى كان يركبها واحد من الرجال، وكان يسبقنى بمسافة قصيرة، وترتب على ذلك التعثر كسر مفصل من مفاصل الناقة ـ هذا الحادث لاعلاج له ! وهنا تجمع حداة الإبل الآخرين طلبا للحم تلك الناقة؛ ونزلوا عن نياقهم وسارع الجميع إلى ذبح الناقة: وراحوا يستخدمون سكاكينهم فى تقطيع لحم تلك الناقة التى لم تمت بعد. وفى هذه العجلة كانوا يتركون شيئا من اللحم فى الجلد وراح كل واحد يفلت بالقطعة التى اقتطعها لنفسه من لحم الناقه، بأن راح يعلقها على مقدمة سرج الناقة التى كان يركبها؛ وأن ذلك اللحم سيكون عشاءاً لهم عندما يصلون مكة (المكرمة) وبادر الجميع إلى ركوب الراحلات من جديد واستئناف المسير وطوال الفترة مابين تعثر الناقة والانتهاء من ذبحها وسلخها وتوزيعها ، لم تقطع إبل القافلة سوى مسافة عشرين خطو ـ ها أنذا أرى أمامى الضفاف الصلصالية لعين الزيمة أراها بلونها الأخضر المتمثل فى نباتات الذرة المزروعة هناك؛ والتى خطر ببالى، أن جسمى يمكن أن يتحول فيها إلى منظر دموى مريع خلال دقائق قليلة. واصلنا مسيرنا على ضفة قناة من القنوات؛ هذه القناة تستعمل فى نقل مياه عين من ضفة إلى الضفة الأخرى. ورأيت إلى جانب حقول الذرة عددا قليلا من البساتين؛ كما شاهدت أيضا حوالى عشر من جذوع النخل المريض؛ أما بقية النخيل فكانت ميتة بسبب سوء الرى: وأهل هذه المنطقه من الحطيل . كنا هنا على ارتفاع ٢٧٨٠ قدم.

هذا ليس هو الحجاز، وإنما الذى نحن فيه هنا هو تهامة؛ ونقلا عن كل سكان الجزيرة العربية، فإن مكة مدينة من مدن تهامة. ومكة تحيط بها الجبال، وهذه الجبال لها علاقة بذلك الذى ينبغى أن نطلق عليه اسم المنطقة الوسطى؛ ومع ذلك فإن رءوس جبال هذه الأرض المنخفضة (التى يمكن رؤية حدودها من البحر) لاتصل الى طنف

جبال نجد.[فى الحجر، نجد أن ذلك الجزء الذى يطلقون عليه اسم تهامة هو الذى يقع غربى العويرض بالرغم من أن ارتفاع هذا الجزء فى بدايته يصل إلى ٣٠٠٠ قدم فوق مستوى سطح البحر، وتحيط به الجبال : انظر الجزء الأول].

فى الركن (الجنوبى) من الوادى توجد قلعة ضخمة مبنية من اللبن، وهى حاليا عبارة عن أطلال وحطام؛ هذه كانت واحدة من القلاع الوهابية القديمة، وكانت مهمتها حراسة تلك البوابة من بوابات نجد: شاهدت هنا أول محطة من محطات القهوة، والناس هنا يطلقون على كل واحدة من هذه المحطات اسم قهوة Kahwa (واللفظة العامية "جهوة" Gahwa). وتلك كانت أول قهوة من قهاوى مكة. هذه القهوه لاتعدو أن تكون مجرد مكان مسوّر بسور مبنى من اللبن وفيه بعض الأعمدة ومن فوقه سقف خفيف من جريد النخيل- كان يجلس داخل هذه القهوة كل من إبراهيم وحداة النياق؛ وعندما وصلت إلى هذه اللوكاندة المكشوفة. ونادى القصمان قائلين: خليل! ونزلت من فوق ناقتى؛ ولكن عبدالرحمن التقانى بوجه ينم عن الحرص والقلق- وسمعت صوتا أجشا يقول:"لابد أن يدخل فى الإسلام:" وتأكدت أن ذلك الرجل كان من أهل هذه المنطقة- ثم استل ذلك الرجل خنجره البرّاق!" رد الرجل على القصمان ،لا! لا! ليس بهذه الطريقة." دخلت القهوة وجلست بجوار إبراهيم: وهمس لى عبد الرحمن،" إنها عناية الله، أن ترى هنا شخصا من بيتنا الموجود فى جدة! لأن هذا الشاب الصغير ، عبد العزيز، هو ابن شقيق والدى، أوإن شئت فقل: ابن عمى. كان عبد العزيز متجها مع حمل من السجاد إلى مدينة الطائف؛ ولكنى كلفته بالعودة معك إلى جدة: والمطلوب منك هو أن تعطيه هدية ليس إلا- أعطه ثلاث ريالات ، ياخليل ، الأمر هنا صعب- نظرا لأن بعض الموجودين فى القهوة قد يثيرون بعض المتاعب: فقد علموا ليلة أمس بمجئ نصرانى إلى هذا المكان؛ ولكن من باب المغامرة المحضة تصادف وجود عبد من كبار عبيد الشريف هنا، وقد جعل ذلك العبد كل شىء هنا على مايرام فيما يتعلق بك. تعال معى واشكره على مافعل من أجلك: أما نحن أهل القافلة فيتعين علينا أن نرحل على الفور." وجدت عبدا محترمًا جالسا على الأرض: ثم نهض الرجل واقفا ليمسكنى من يدى. هذا العبد المحترم كان اسمه معبوب Maabub خرج كل من إبراهيم، وسليمان والآخرون لكى يركبوا راحلاتهم؛ وعندما نظرت إليهم للمرة الثانية كانوا قد ابتعدوا عنا

كثيرا. بقى معى ولد البسام وصاح قائلا: "اركب! وأنت ياعبد العزيز اركب خلف خليل!"- "اسمح لى أولا بأن أملأ قربة الماء." "الماء موجود فى الوادى، هيا أركب." قلت: "هيا، أركب يارجل!" وما أن ركب الناقة ، ضربت الناقة لتهب واقفة: ولكن الناقه كانت مرهقة تماما.

سمعت صوتا ينادى من الخلف ويقول: "أنزل ، أنزل!- أقول: اتركنى لحالى، وسوف أقتل الكافر." نظرت حولى، ورأيت ذلك الرجل الذى كان يحمل سكينا، بالقرب منه ويكاد يطبق علينا؛ وجاء ذلك الرجل وأمسك بيده لجام الناقة- "هو! أيها اليهودى، أنزل !هو! نصرانى (يصيح ذلك الوغد)؛ أقول لك: أنزل!: كنت قد عزمت على المضى قدما؛ ولكن ناقتى كانت ضعيفة، ولوكانت قوية لكنت قد طرحته أرضا وهربت من ذلك الخطر. توافد علينا أشخاص آخرون- "صاح عبدالرحمن قائلا: نوخ، نوخ! بُرك الناقة وأنزل من فوقها !ياخليل ." وعلى الفور فعلت مثلما قال الرجل، وبلا تردد. وهنا أقترب منى حامل السكين، وقد كشر عن أنيابه،" همس، [إنه سيقتل اليهودى -النصرانى؛" ولكن خادم الامير الذى سارع بالوصول إلينا، رجاه أن يبعد يده وينسحب بعيدا عنى - وهنا همست لولد البسام،" اذهب واستدع بعضا من رجال القافلة ومعهم بنادقهم؛ ولعلنا نتبين أن ضيف عنيزة لن يسمح له بالمرور. هل يمكن لهؤلاء أن يلقوا القبض علَى فى الطريق العام، أى خارج الحدود hadud ؟"(حدود المدينة المقدسة). ولكنه همس لى" قل إنك مسلم ياخليل، إنها مجرد كلمة ترضيهم؛ وغدا ستكون فى جدة: وأنت ترى بنفسك مايدور هنا -! ووالله أنا أخشى أن يقتلك واحد من هؤلاء ." -" سوف أمر بمشيئة الله، سواء أرادوا أم لم يريدوا ."" قال بصوت خفيض وبنفس الطريقة التى يتكلم العرب بها، إذا لم يكن المد فى صالحهم" إخ ياخليل! ماالذى يمكن أن أفعله الآن ؟ أنا لابد أن ألحق بالقافلة؛ انتبه ! لقد تركونى ومشوا ."- ركب ناقته دون أن يقول كلمة واحدة؛ وترك صديق والده واقفا بين القتلة والسفاحين.

كانت هناك جماعة من الجمالة المكيين الذين يقيلون (بعد مسير الليل الطويل): خرجت تلك الجماعة من القهوة ومعهم بعض من سكان هذه الهجرة (كفر) ليستطلعوا أمر ذلك الشجار. تجمعوا من أمامى على شكل صف، حوالى ثلاثين شخصا، كلهم كانوا يلبسون ملابس فضفاضة زرقاء اللون فيها أزرار زرقاء اللون أيضا. شاهدت

معهم سكاكين الجزار التى تشبه السيوف ، والتى لها مقابض معدنيه، والناس هنا يطلقون على هذا النوع من السكاكين التى تشبه السيوف اسم"الجنبية" Jambieh هذه الجنبيات كانت تتدلى من أحزمة هؤلاء الأشخاص المصنوعة من الجلد. هذه الوجوه الملكية كانت سوداء تماما، اسوداد وجوه المذنبين فى يوم القيامة: وقف الرجال صامتين وهم يضعون أيديهم السوداء على أسلحتهم.

انتقل خادم الشريف (الذى كان رجلا عجوزا ضعيفا) من الشمس ليجلس من جديد. وبعد هذه الهدنة القصيرة عاد ذلك البائس المجنون ومعه سكينه وهويصيح قائلا:"إنه سيقتل اليهودى - النصرانى؛" فى حين وقفت أنا ساكنا بلا حراك. كان ذلك الوغد واحداً من الأشراف؛ لأنى سمعت معبوب يسميه بذلك الاسم: هؤلاء الأشخاص الذين هم من سلالة محمد(ﷺ) "لايصح لأحد أن يتقول عليهم،" وهم أصحاب امتياز فى الرأى العام، وهذا الامتياز يضعهم فى منزلة أسمى من البشر العاديين. ظهر أن جمالة مكة لم يكونوا مشجعين له؛ ولكنهم لم يكونوا فى صفى أومساندين لى. [كان ذلك الشريف واحداً من البدو المترحلين: أما رفاقه فكانا واحداً أواثنين من الهجرة (الكفر) التى يعيش فيها الحطيلان اللصوص؛ كما كان معه أيضا بدوى يعمل حاديا للإبل. كان هدف ذلك الشريف وهدف من معه، إنهم بعد قتل الكافر - وهو عمل "دينى" مجيد ! سيحصلون على ناقته وعلى أشيائه].

بعد أن جاءنى ومعه سكينه على هذا النحو، وبعد أن رآنى واقفا ساكنا بلا حراك، وواضعا يدى فى صدرى، وقف يتعجب محبطاً. جرت العادة أن يكون هناك وسيط بين كل ثلاثة من سكان الجزيرة العربية؛ فقد هدأت أرواحهم، وراح الواقفون غير المبالين يحبذون الهدوء والتفاهم: انتظرت لعل واحدا منهم يتكلم نيابة عنى أولصالحى! ولكن أحداً منهم لم يقبل على هذا العمل. نظرت فى عينى ذلك الرجل؛ ونظرا لأنه كان مترنحا مثل بقية البدو الرحل ،لم يقو على تحمل نظرتى إليه؛ ولكنه رفع خنجره، وأخذ نفسا طويلا (فقد كان ضعيفا، شأنه شأن الكثيرين الذين يعيشون هذه الحياة القاسية ، وهم فى منتصف أعمارهم) وراح يوجه الخنجر ناحية صدرى؛ وبتنهيدة أنزل ذراعه وسحبه ناحيته مرة ثانية. ثم رفع السكين بعد ذلك وراح يحدد ضربته: لم يكن ذلك الرجل مكتمل النمو؛ ورحت أراقبه وأتحسب لتلقى الطعنة فى حالة حدوثها على ذراعى

اليسار- وبالرغم من وقوفي خائر القوى، فأنا أستطيع ضربه لإبعاده عني بواسطه اليد اليمنى؛ وحتى يتسنى لي، إذا ما أصبت بجرح ، الدفاع عن نفسي باستعمال المسدس، وأخرج من بينهم. وقف معبوب، وجاء على الفور؛ وسحب الشريف بعيداً عني: وأمسكه بيده، "قال: ماهذا الذي تفعله ياشريف سالم؟ لقد وعدتني ألاتفعل شيئا باستعمال العنف! هل تذكر ضرب جدة بالقنابل- وأن ذلك القصف كان بسبب إهدار دم البعض من هؤلاء الناس الغرباء؛ انتبه لما تفعل ، وانتبه لتصرفاتك.إنهم الإنجليز الذين إذا ماقتل واحد منهم، أرسلوا بوارجهم كي تنتقم لمقتله؛ ويهدمون المدينة. وهل تظن أن سيدنا الشريف سوف يسامحك إذا ماتسببت في جلب متاعب من هذا القبيل عليه؟- لاتتعرض لحياة هذا الشخص، الذي لم يرتكب ذنبا أو جريرة، فضلا عن أنه لم يدخل حدود المدينة المقدسة (مكة)- لا! ياشريف سالم، ومن أجل خاطر حسين [الشريف أمير مكة] هل الغريب نصراني؟ إنه لم ينكر ذلك مطلقا: ألايوجد نصارى في جدة؟"

استطاع معبوب أن يجعل الشريف سالم يعطي وعداً بالسلام . وبالرغم من ذلك، لم يكن ذلك الشريف البدوي الذي يشبه الذئب ليترك فريسته مقابل شيء من الكلام: فقد عاد من جديد، وفي يده السكين، بعد انسحاب العبد معبوب؛ ثم أقسم بالله أنه سوف يقتل النصراني في هذه المرة. وعندما شاهد معبوب ذلك صاح في الشريف سالم، طالبا منه العودة إلى صوابه! وتظاهر الواقفون بأنهم يحاولون منعه من ذلك الذي يود القيام به. وعندما وجد سالم أن الواقفين لم يعودوا يحاولون منعه مما يريد القيام به، وعندما وجد أن انفعالاته بدأت تهدأ- وعليه فقد منح الله البقرة قرنا حاداً- راح على إثر ذلك يقتنع بما يقوله الواقفون. ويقفز الشريف سالم فوق الناقة، التي كانت تمثل كل مايصبو إليه،" يصيح قائلا: هذا نهاب nahab"! وألقى ببطانيتي من فوقة سرج الناقة، وبدأ في إنزال الزكائب والخرج من فوق الناقة. وقام واحد من رفاقه بخطف عقالي وغترتي؛ ولكن الآخرين راحوا يلومونه على تلك الفعلة. وهنا حمل حطيلي البطانية وجرى بها إلى بيته؛ قام آخرون (من الخلف) بسحب عباءتي: ووقف الجمالة المساكين بلاحراك وسط كل هذا الهرج والمرج. صبرت على كل ما حدث ؛ ونظرا لأني لم أعد بحاجة إلى تلك الأشياء هنا في هذا المكان، فقد تساهلت في العباءة أيضا. وجاء إلينا معبوب وهو يعرج من جديد. أخذ معبوب خرج الجمل لنفسه ؛ وأبعد أولئك

الأشقياء عنى وأجلسنى إلى جواره. وندم سالم لأن الغنيمة ضاعت منه - على أنه لم يقتل الغريب؛ واستل سكينه وراح يهددنى من جديد؛ وعندما تقدم ناحيتى ورأيت فى عينه تصميما على قتلى، وراح يقسم بأنه سوف ينهى حياة اليهودى النصرانى، قام الواقفون بالحيلولة بينه وبين مايريد. معبوب: "أقول لك ياشريف سالم: إنك إذا ما أسأت إلى هذا الغريب فسوف أضع الأمر أمام مولانا الشريف؛ إياك وأن تفعل شيئا عن طريق العنف." "أوه! ولكن هذا شخص قام بالسرقة من بلادنا." "أنت لاتستطيع أن تتهمه بذلك؛ ويتعين مثوله أمام مولانا الحسين وأنا أضعه فى عهدتك ياسالم: ويجب أن تقدمه سالما أمام الحسين فى الطائف." وافق الواقفون على ماقاله معبوب، ووافق عليه سالم أيضا، وهو يقول: "آمل أن يأمر الشريف بشنق ذلك النصرانى أو قطع رأسه؛ وأن يعطينى الناقة." وبالرغم من الإرهاق والتعب، فإننى بذلك سوف أتمكن من زيارة الطائف.

الفصل السابع عشر

الطائف. الشريف. أمير مكة

معبوب وسالم. النصراني أسيرا. يوم متعب في عيون. رحلة ليلية مع رجال قافلة مكة. العودة إلى السيل. محطة السيل. مهاجمة النصراني مرة ثانية. شخصية مكية. بسام غير محترم. معرفة سابقة. عكاظ. الممر خلف الطائف. رحلة ليلية. النزول عند كوخ الأمير بالقرب من الطائف. نساء فقيرات من سلالة محمد. وصف الطائف. المدين . النصراني ضيفا على ضابط تركي. مؤتمر الشريف المسائي. الشريف حسين، أمير مكة. عبد الله شقيق الشريف. نادي قهوة الضباط الأتراك. حجر مجوف. زيد، البيشي. قرى حرب وأقاربهم. سالم يعود ثانية بالغنائم . غداء تركي. "اللحم يفيد الصحة." ثلاثة أحجار مجوفة. مأوى الظهيرة في البستان.

هذا المعبوب Maabub الذي هدّأ العاصفة، هو الذي وضعني في عهدة ذلك الذئب! كما أنه هو الذي أجبراللصوص على إعادة الأشياء التي سرقوها مني؛ ولكنهم كانوا مراوغين تماما إلى حد أنهم لم يعيدوا كل ذلك الذي أخذوه. هذه هي الزكائب الكبيرة، أعيد تحميلها من جديد فوق الناقة المرهقة؛ التي كنت قد أحضرتها معي؛ وهنا قام الجمَّالة بالتفرق كي يذهبون إلى القهوة ويستظلوا بظلها، ويحظوا بقسط من الراحة- تركني معبوب مع ذلك الشريف الغاضب الثائر! ولاأعرف إلى أين ذهب معبوب.

وهنا، راح سالم يهز رأسه الخشبي منتشيا نشوة لص أجبر على المسالمة ويقول: كان من الأفضل أن أضع على زكائبي أقفالا. وقد عثر على مخزن (غرفة) في مظلة القهوة؛ وأنه وضع فيها تلك الزكائب، وأغلق الباب، وتركني أجلس على باب تلك الغرفة:

كان ظل الإفريز لايكفى إلا لستر رأسى فقط من حرارة شمس الظهيرة. كان سالم ينظر إلّى نظره تشوبها اللهفة والحزن." (قلت): حسن ياسالم، ما الذى يمكن عمله الآن؟ أتمنى أن نكون أصدقاء."" قال- بعد شيء من الصمت، والله، لقد خطر ببالى أن أقتلك اليوم!"- هذا البدوى المترحل الذى لايعرف الرحمة كره بقائى على قيد الحياة حبا فى الغنيمة؛ والسبب فى ذلك، أنه أثبت فيما بعد أنه لم يكن مهتما بدينى! وبدأ سالم ينادينى على نحو فيه المزيد من الود، بأن يقول:" ياخليل، ياخليل!" بدلا من : يانصرانى."

- تركنى سالم برهة قصيرة؛ وتوافد علينا بعض شبان المكان كى ينظروا إلى النصرانى ، كما لوكان حيوانا خطيرا جرى الإمساك به." إخص!- أنظروا إليه! هذا هو، الذى تسلل نافذا من بين أيدينا . ما رأيك؟- هل سيعدموه؟ أم إنهم سوف يذبحوه؟- أوه! تعالوا وانظروه! هاهو يجلس هنا، الله يلعن أباه - أنت أيها الملعون! إخص! أهكذا تسللت خلال بلاد المسلمين؟" سألنى أحدهم، " ، وإذا ماجاء أحد منا إلى أرض النصارى، فهل سيقتلنا أهلك ويعذبونا؟"- هذا هو رأيهم فينا، ولذلك ومن باب المقارنة فقد راحوا يكشفون لى عن سماحتهم وإنسانيتهم! جاء بعد أولئك الشبان رجل يقول:أنه سمع أنّى حكيم؛ وسألنى إن كنت أستطيع شفاء جرحه القديم؟ طلبت منه أن يعود إلى فى المساء كى أقوم بتضميد جرحه. يصيح ذلك الشقى المتوحش قائلا:" أنت لن تكون هنا فى ذلك الوقت!"- وأنا لم أستطع تحديد معنى ماقاله ذلك الرجل. كانوا لايصدقون أى شيء أقوله؛" وسبب ذلك أنك كافر، وأبن كلب ، ،انت تكذب ." وكانوا يشفون غليلهم عندما كانوا ينادون بكلمة نصرانى ؛ وأنهم عندما كانوا يفعلون ذلك كانوا يدحضون أو يفندون دينه غير الصحيح.

قلت لهم:إنّى رحّال ومعى جواز سفر عام من حكومة السلطان . وجاءنا من القهوة رجل صاح يقول: 'إنه يود أن يعرف بحق إن كنت من أراضى الدولة (الإمبراطورية العثمانية) أم أننى من المسكوف ' هذا الرجل بدى لى وكأنه كان يعمل من قبل بالجندية: سمحت له بالإطلاع على أوراقى؛ وأخذ أوراقى وانصرف بها: ولكن سرعان ماعاد إلىّ ذلك الرفيق ليقول: 'إنى كذبت كذب النصارى الخالصين؛ وإن الكتابة التى

فى الأوراق لم تكن مثلما قلت أنا." ثم قام الوغد بعد ذلك ـ لأن ذلك كان هو قصده ومقصده ـ بسؤالى بعينين جريئتين :"هل كان معى نقود؟"ـ وكلمة النقود هذه كلمة خطيرة! والسبب فى ذلك أن البؤس حوّل الكثيرين منهم إلى لصوص، ومعروف أن البؤس هو أم السوء ـ وبعد أن عاد سالم ثانية راحوا يسألونى وبصورة مستمرة عن الناقة؛ وكأنهم كانوا يريدون أن تكون الناقة غنيمة لهم . ورددت عليهم ردًا قصيرا موجزا :"الناقة ملك للبسام." ـ"هو يقول : البسام !أليس أهل البسام من التجار الكبار؟ ووالله ملوك meluk، مثل الأمراء تماما، فى جدة!"

ـ كان سالم، العائد من زيارته لمكة، قد سمع بمحض المصادفة فى محطة القهوة، عن مجىء النصرانى: فى البداية خطر ببالى أن يكون قد علم بذلك الخبر من القافلة القادمة من بريدة. رد على، بأنه لم يعرف ذلك الخبر من بريدة ـ"أربك الله القصمان جميعهم! الذين يجلبون لنا الكافرين: وأنا أقسم بالله أننا أعدنا قافلة بريدة أدراجها من هذا المكان."ـ والمعروف أن قوافل القصيم فى بعض الأحيان ، وبخاصة القوافل القادمة من بلاد بن الرشيد ، تصل إلى مكة عن طريق وادى الليمون. خطر ببالى أن سالم لابد أن تكون له مصلحة هنا؛ ادعى سالم :" أن الإشراف على المحطة أوكل إليه من قبل الشريف."ـ كان سالم شريفا بدويا مترحلا، وكان عائدا إلى منْزله: ولكنه لم يكن راضيا عن نعتى إياه بالبدوى . واعتبارا من ذلك اليوم اكتشفت أن أولئك الأشراف الذين هم من البدو الرحل لايرتاحون إذا ما نعتهم أحد بالبدو؛ والحال نفسه ينطبق أيضا على أولئك الأشراف المستقرين فى القرى، إذا ما نعتهم أحد بالفلاحين . الكلام البسيط الذى من هذا القبيل يكون شديد الوقع على مسامعهم : قال لى شريف آخر، ومن باب الود والصداقه:ـ "قال: هذا لايليق ـ لأنهم أشراف."

طلب منى سالم أن أقف وانتقل إلى ظل شجرة مورقة يحتمى بها بعض الجمّالة من حرارة الظهيرة. كان الهواء ساكنا فى هذا الجزء من وادى تهامة، ولم يكن بوسعى الاستغناء عن عباءتى (بشتى)، التى كانت تستر المسدس؛ ومع ذلك لم أكن أستشعر الحرارة الشديدة. بينما كان سالم وبقية الجمالة نائمين تسللت إلى المكان امرأة كانت

تود أن تقول لى شيئا،لأنها سألتنى بصوت عال،'هل أتكلم اللغة الهندية؟' وربما كانت عبدة ترافق أسرة من مكة إلى الطائف ، والحرمان مليئان بالمسلمين الذين يتكلمون اللغه الهندية: وربما كانت تلك المرأة من الهند[فى الحى النجدى من جدة يوجد عدد كبير من هذه المخلوقات الهندية المسكينة.] هؤلاء هم بعض من العبيد الزنوج الذين عادوا من أعمالهم فى الحقول ،يتوافدون على باب غرفتى كى ينظرون إلى : قلت لهم، 'من الذى سرقكم من أصدقائكم، ومن بلادكم؟- أنا إنجليزى، ولوقدر لنا أن نلتقى أولئك الذين نقلوكم إلى البحر، لكنا قد أطلقنا سراحكم، وأعطيناكم نخيلا فى بلاد تابعة لنا.' هؤلاء السود المساكين كانوا يردون على باللغة العربية قدر المستطاع بأنهم 'سبق لهم أن سمعوا ذلك الكلام؛' ثم بدءوا بعد ذلك يتكلمون فيما بينهم بلغتهم الأفريقية - وهنا صحا واحد من أصحاب النوم الخفيف مندهشا ! جلس ذلك الرجل؛ وراح يدور بعينيه فى أرجاء المكان ثم أقسم بالله"إنه ضاع خلال الإنجليز، الذين استولوا على سفينة كانت محملة بأمثاله من البشر، وأن الإنجليز أحرقوا تلك السفينة.' قلت لهؤلاء العبيد: إننا لدينا معاهدة مع السلطان تقضى بقمع تجارة الرقيق ومنعها منعا باتا ." رد علّى أكثر من صوت من تلك الأصوات المتوحشة بأنى كاذب ؛ متى منع السلطان تجارة الرقيق، يا أيها النصرانى ؟' 'قال شخص آخر:لا، ربما يقول الحق، نظرا لأن النصارى لايكذبون' تعجب صاحب السفينة المحروقه قائلا: ولكنه يكذب!- ستعرفون إن كنت كذابا أم لا- عندما أصل إلى جدة، أحضروا عبداً إلى قنصليتى : وأطلبوا منه أن يقول :إنه يود أن يصبح حراً، وسوف يعطونه حريته على الفور!- 'يصيح الرفيق ،كلب! أنت كاذب!- ألايوجد آلاف العبيد فى جدة، وأن أولئك العبيد يباعون ويشترون كل يوم؟ إذن ما السبب أيها الكلب! فى عدم تحرير كل هؤلاء ؟ طالما أنك تقول الحق:' وراح يعض على أسنانه، ويرفع يديه فى وجهى.

استيقظ سالم متأخرا ، بعد رحيل الغالبية العظمى من الناس: ولم يكن يتسكع أمام بابنا سوى قلة قليلة من البشر؛ بل تجرأ البعض منهم على دخول المكان. وهنا نهض سالم واقفا وغاضبا .'يصيح' إنكشحوا عن هنا ! لعنكم الله جميعا؛ ياعجوز، ياطويلة اللسان - ما هذا! عشيقة تتكلم- وأنت أيها العبد انهض واذهب لحال سبيلك !

الله يلعن أباك! هل يجرؤ عبد على الدخول لهذا المكان؟' هذه هى السلالة المقدسة من سلالة محمد من حقها أن تلعن المواطنين العاديين المساكين . ولكنه كان يتعامل معى بوجه بشوش، وأنا أسيره: ربما يكون النوم قد أصلح مزاجه المعتل.أرسل سالم فى طلب قليل من اللبن لى (وهم يبيعون اللبن هنا، بالقرب من المدينة): ولكنه أرغمنى على دفع الثمن بطريقة مبالغ فيها؛ إضافة إلى ريال آخر ثمنا لشىء من العلف، لايساوى ستة بنسات، وضعوه أمام ناقتى وأمام إبلهم أيضا. كان ذلك العلف عبارة عن حشائش جافة جلبوها من الوادى الموجود فى الأعلى ، ومجدول على شكل حبل (على طريقه أهل مدينة نابولى)، ويجرى بيعه للجمّالة فى هذه المحطة.

كنا قد تجاوزنا منتصف فترة العصر: ودخل علينا رجل قديم؛ وتكلم مع سالم مدة طويلة وباهتمام شديد وافق ذلك الرجل القديم على إزهاق روح الكافر، ولكن الأمر كان جد خطير: 'قال:إن الغنيمة كانت طيبة أيضا، لكن الاستيلاء على هذه الغنيمة أمر محفوف بالمخاطر؛ قال الأمين صاحب اللحية الرمادية: نعم، كل هذا ،وراح يضرب خرج ناقتى بعصاه، هذا طمع toma (بمعنى 'فلوس أومصارى'). ولكن عليك أن تقدمه لحسين، ولاتضع نفسك فى موضع الخطر.' سالم:"إى والله، إنه طمع؛ ولكن ماهو أشد أنواع الطمع؟۔ 'أليس ذلك فى وجه النصرانى ؟ انظر إليه!ألايعبر وجهه عن الطمع؟" رحبت بالعجوز (الذى ربما كان حطيليا من الهجرة، أوشريفا من الأشراف) كما رحبت برأيه أيضا ،وقلت :'النصارى أعداء طيبين .' لم يكن ذلك الرجل العجوز سريع البديهة؛ وراح ينصت لكلامى۔ ثم رد علّى قائلا:'أنا لايمكن أن أتعامل مع كافر، إلابعد الندم والتفكير:" وبعدها انصرف عنى وقال لسالم:"إخ! يالقدرة النصارى على الإقناع ! ولكن احذرهم ،ياسالم! سأقول لك شيئا۔ حدث ذلك فى زمن المصريين. جاء إلى هنا حكيم مع العسكر: والله ياسالم، لقد وجدت ذلك الحكيم جالسا فى واحد من تلك البساتين التى إلى الخلف منا ! قال: سلام عليك! ورددت عليه على غير رغبة منى، عليكم السلام! وسمعت بعد ذلك أنه كان نصرانيا ! إخص۔ ولكن هذا مؤكد أن المسلم يمكن أن يطارد عشرة من النصارى، أوربما عشرين منهم؛ وهذا هو ماتراه فى أغلب الأحيان، وربما مائة ؛ وياسالم هذا بإذن ithin من الله ullah"حسن، آمل أن يعطينى حسين الناقة! " كان ذلك هو الرد الذى صدر عن سالم ذلك البدوى المترحل.

ـ عندما شاهدت بعضاً من أحمال الأرز الهندى، المتجهة إلى الطائف، والتى جرى وضعها أمام القهوة، وقفت على جدل كان يدور بين الجمّالة حول حمولة الإبل ؛ وهنا رحت ألمسهم بعصاى ثم سألتهم،"ماهذه الزكائب والجوالات؟ وماهى تلك الحروف المكتوبة على هذه الجولات؟ هل أقول لكم ماهذا هو أرز الإنجليز، فى جوالات الإنجليز؛ والعلامات التى عليه إنجليزية أيضا ،أنتم تلبسون ملابس جيدة ـ بالرغم من أن الحريم فى الشمال هن اللائى يلبسن هذا اللون الأزرق ! ولكن ماهذه الملابس الفضفاضة التى تلبسونها ؟ـ أقول لكم: القطن الذى على ظهوركم جرى غزله ونسجه فى مصانع الإنجليز. وأنتم لم يخطر ببالكم أنكم تأكلون وتلبسون إلى حدما بواسطة الإنجليز!" عارضنى البعض منهم: ولكن أثنت الغالبية على ماقلت. هذا الكلام ساعد على تمضية الوقت، وأدى إلى تجريدهم من صلافتهم ورطب ذهن ذلك السفاح المدعو سالم. ولكنى لم أستطع التوصل إلى ذلك الذى كان يدور فى ذهن ذلك المجنون: كنت قد بدأ يراودنى شىء من الشك أنهم سوف يقتلونى فى هذا المكان. وإذا ماطالبته بالذهاب إلى الطائف، فلربما دار رأسه ، وأسفر ذلك عن رؤية سكينه مرة ثانية؛ يضاف إلى ذلك أنى لا أعرف ذلك الذى جرى لمعبوب ـ هم يقولون :إن المسافة من هنا إلى الطائف تستغرق ثلاثين ساعة بقوافل إبلهم بطيئة الخطى: بدى لى من غير المرجح أن يبتعد ذلك الضبع عن إهدار الدم.

فى ساعة متأخرة من ذلك اليوم جاءنى سالم ومعه كل من معبوب وعبد العزيز؛ وكان معبوب وعبدالعزيز قد نالا قسطا من الراحة فى جزء آخر من القهوةـ لوكان فيهما خير (لم يكن ذلك الخير فى عبدالعزيز)، لما تركانى وحدى فى مثل هذا الحال. أبلغنى معبوب أنى يتعين على الرحيل عن هذا المكان مع القافلة عند حلول المساء؛ ثم تركنى معبوب وذهب لحال سبيله مرة ثانية. وبذلك يكون سالم قد تمكن من معرفة كل الأشياء التى كانت معى أى أصبح على علم بتفاصيل الغنيمة! استدعى سالم بعضامن الجمّالة الجهلة كى يكونوا شهوداً على مايجرى . وهنا أخرجت لسالم كل الأشياء التى معى، داخل جوالاتى، ووضعت كل هذه الأشياء أمامه: ولكن سالم يصيح صياحاً وحشيا ويقول:" الفلوس، El-Flus الفلوس el-flus بمعنى"النقود! حتى لايمكن أن تكون

هناك مساءلة بعد ذلك ، ـ أعرض كل شيء على أيها النصراني !ـ " حسن، ناولني صندوق الدواء هذا ؛ ثم قلت: وهذه هي الريالات القليلة التي معي، وهي ملفوفة في قطعة من القماش!"

جمع الجمّالة بعضا من الحطب وشبوا نارا مثل نار المخيمات: وأحضروا شيئا من الدقيق وشيئا من الماء، وصنعوا من الاثنين عجينا، خبزوا منه تحت الرماد المتبقي من النار، ذلك النوع من الخبز الذي يطلقون عليه اسم عبود ' abud؛ إذ كان المساء قد بدأ في الدخول عليهم. أخيرا انتهى نهار ذلك اليوم: ثم نهض الرجال واقفين من أماكنهم، وحمّلوا الأشياء على ظهور الإبل مربوطة ببعضها كما هو الحال في سوريا ـ حمّلوا خرجي وجوالاتي على ناقه البسام : أركبني سالم مع رفيقه فهيد ذلك البدوي أو نصف البلد الذي يمتلك هذه الإبل ـ" اركب في الشدّاد Shdaad، ياخليل يانصراني."[ولكن ركوبي على هذا النحو، قد يجعل الرديف(*) يطعنني في ظهري أثناء الليل!] قلت: سوف أركب أنا في الخلف؛ وقلت أيضا:إنني متعب إلى الحد الذي لا أستطيع معه المحافظة على اتزاني فوق سرج الجمل . ورجح رأيي! والسبب في ذلك أن العرب يقدرون ضعف حياة البشر- حتى وإن كانوا أعداء لهم. ومع ذلك كان سالم شخصا خطرا؛ والسبب في ذلك، أن كل من كان يسيئ إلى النصراني بالكلام، وعلى مرأى ومسمع من سالم، كان يجعله ينظر إلّي شذرا، ويروح يتحسس سكينه من جديد.

رحلنا عن ذلك المكان مواصلين السير في الطريق الذي كنا نسلكه؛ وهم يزعمون أن النصراني سوف يشنق، بناء على حكم عادل من الشريف حسين(**)، في الطائف:أمضينا الليل بطوله ونحن نصعد في اتجاه السيل. كان فهيد راكبا على سرج الجمل؛ في حين كان الوغد، في خرافاته، يكاد يموت خوفا من النصراني! وبالرغم من

(*) الرديف : من يركب خلف راكب الناقة. (المترجم)

(**) الشريف حسين : تولى شرافة مكة عقب وفاة أخيه الشريف عبد الله بن محمد في عام ١٨٧٧ لكنه لم يبق طويلاً في الشرافة حيث أنه قتل في عام ١٨٨٠ ولم يكن قد استقر في الحكم سوى ثلاثة أعوام . وكان الشريف حسين يقيم في مقره الصيفي في الطائف وقت وجود «دوتي» في تلك المدينة . (المراجع)

عداوته، وبالرغم أيضا من طمعه وجشعه، إلاأنه كان فيه شيء من الحنان الإنساني؛ والسبب في ذلك أنه عندما علم أني عطشان، نزل من فوق ناقته وذهب إلى بقية الإبل ليجلب لي شيئا من الماء. وبالرغم من أني عرفت أنه من البدو الرحل، وأن أخلاقياته كانت مثل أخلاقياتهم، إلاأنه كان يتحدث بلغة عربية قريبة من اللغة المستعملة في المدن الحكومية مثل دمشق وبغداد و مكة. ولكن تسرعه وعجلته واندفاعه لم يكن لها مايبررها، والسبب في ذلك أني، بحكم أني رجل متعب ومرهق، لم أستطع استحثاث الناقة المتعبة الضعيفة على السير بالطريقة التي تروق له- خطر ببال سالم أن النصراني يحاول التباطؤ كي يهرب منهم!

كانت تسير في مقدمتنا جماعة من مكة متجهة إلى الطائف، وكانت إبلهم تحمل فوقها صناديق، أو إن شئت فقل: هوادج فوق ظهورها. كانت القافلة كلها ملكا لشخص واحد: ذلك الرجل الطيب الأسمر سمرة الهنود، ولم يصل بعد منتصف العمر، وهو من أثرياء مكة. كان الرجل يرافق القافلة ماشيا بالقرب من حريمه، وكان يلبس لباسا فضفاضا أبيض اللون، ويضع فوق رأسه عمامة؛ كان يمشي كي ينشط ساقيه - اللتان كانتا متناسقتين - ولكي ينعش نفسه باستنشاق هواء الصحراء.[كانت درجة الحرارة في مكة، حسبما قال لي رقيب شاب من الجيش التركي كان يعمل في الطائف، تصل إلى ٤٦° مئوية] كانت قافلتنا مكونة من تسعة من الإبل، وواصلت مسيرها على نحو بطيئ ، ومررنا بتلك القافلة التي سبق الإشارة إليها: ولكن ذلك التاجر، صاحب القافلة، عندما علم أن نصرانيا كان يركب ضمن أفراد القافله صاح قائلا:" إخص! نصراني في هذه الأماكن!"(...)(*).

واصل أفراد القافلة مسيرهم راكبين على راحلاتهم ويتناولون عشاءهم البسيط المكون من ذلك الخبز الذي خبزوه في رماد النار التي أشعلوها. وهذا هو سالم الذي

(*) عبارات رأينا استبعادها لما فيها من تعصب ديني واضح . (المراجع)

كان يجلس ممددا على الجمل بطريقة البدو، يعطيني قطعة من ذلك الخبز عندما مررت عليه؛ وعندما بدأت آكل تلك القطعة من الخبز طلبت إليه أن يضع في حسبانه أنه " اعتبارا من الآن فصاعداً أصبح بيني وبينه عيش وملح ، ثم قلت: أتمنى أن تكون صادقا ياسالم. لاوالله، أنا لست خاين khayin (خائنا) ياخليل ."هذا الشقى العجوز كان يعاني آلاما في أحشائه، وربما كانت تلك الآلام سببا في طبعه الحاد - راح سالم يلومني شيئا فشيئا على اهتزازى فوق الجمل؛ وطلب منى الثبات." اصح، ياخليل! صحصح! ولاتغلق عينيك طوال هذه الليلة- أقول لك: إنك قد لاتنام لحظة واحدة؛ هذه ممرات خطرة وعامرة باللصوص، الحطيل! وهم يسطون على النائمين: اصح! صحصح! يجب ألاتنام." بدأت الإبل تتباطأ أكثر ، نظرا لأن حداة الإبل كانوا نائمين فوق أحمال الإبل: ومضينا صاعدين نحو الأعلى طول الليل. وكان فهيد قد تركني عند منتصف الليل، وذهب ليتمدد فوق جمل من الجمال التسع التي تتكون منها قافلته؛ وحل محل فهيد، واحد من حداة الإبل. وبذلك يكون هؤلاء التعساء ينامون مدة ليلتين من الليالي الثلاثة: ويروحون يتثاءبون أثناء النهار- الذي يكون شديد الحرارة على إبلهم المحمَّلة - عند محطة، أو إن شئت فقل: السيل.

والإبل عندما تمشي من تلقاء نفسها يكون خطوها مثل خطو النمل- "قال حادى الإبل، وهو جالس فوق سرج ناقتي: ياخليل! احذر من اللصوص!" وقبيل طلوع الصبح رحنا نحن الاثنين في سبات عميق، وانحرفت الناقة عن الطريق لتصل بنا إلى ظل شجرة من أشجار السنط- كنت سعيداً، لأن تلك المغامرات الليلية أثناء السفر في الجزيرة العربية لم تصبني بأى أذى !صحيح أن الثوب الذى كنت ألبسه تمزق بالفعل - واستيقظت في إثر ذلك؛ وعندما نظرت حولي شاهدت شخصا يمشي على قدميه ويقترب منا من الخلف - قال ذلك الرجل الغريب، وهو يقفز ليخطف الحزام الصوفى الذى كنت أرتديه وأنا راكب الناقة:" ماهذا؟" وهنا هززت رفيقي في ركوب الناقة كي أوقظه، ثم ضربت الناقة؛ وسألت حادى الإبل،' إن كان ذلك الشخص الغريب واحداً من الجمَّالة؟

-" ألم تره بينهم؟ لكن هذا لص وهو يطمع فى نقودك." جرت الناقة المتعبة بضع خطوات ثم توقفت. وهذا هو الرجل الغريب يقترب منى مرة ثانية: ربما كان يهدف بتحركاته إلى سحبى لإنزالى من فوق الناقة؛ أما مسألة إن كان حطيليا أم لا، فهذا هو مالا أستطيع القطع به. وأنا إذا ماضربته، واتضح أنه من الجمالين، ألن يقولوا: 'إن النصرانى ضرب مسلما؟' لم يتراجع ذلك الغريب؛ وكان حادى الإبل مايزال غارقا فى النوم. وجدت أن الحل الأمثل هو أن أكشف له عن مسدسى- ولكنى اعتبرت ذلك من قبيل الحظ العاثر والسيئ فى آن واحد: وهنا انصرف ذلك الغريب لحال سبيله. بلغنى أننا سننال قسطا من الراحة مع طلوع نجم الصباح: كان قد مضى على طلوع ذلك النجم ساعة من الزمن، وطلع علينا فجر ذلك النهار عندما وصلنا أرض السيل؛ وعندها نزلت عن ناقتى مع سالم، وجلسنا فى ظل وارف لواحدة من أشجار السنط كثيفة الأغصان.

هذه المحطة الوسيعة التى ليس فيها قهوة عامرة بالأشجار الظليلة وبالصخور الظليلة أيضا:رقدنا لننال قسطا من النوم، أشرقت الشمس علينا شيئا فشيئا .الشمس شديدة الحرارة عند هذا الخط من خطوط العرض؛ وهذا يحتم على النائم تغيير مكانه،إذا ماتناقص الظل."(قال ذلك المقلق) ياخليل، ماهذا الشيء؟ أرنى هذا الشيء الذى تعلقه فى صدرك، ما هذا الشيء؟ أرنى هذا الشيء."- "لقد أريتك كل ذلك الذى فى خرجي وفى زكائبى ؛ وليس من الكياسه تفتيش أى شخص تفتيشا ذاتيا."- "قال صوت أجش من خلفى: أها!انه يحمل معه مسدسًا؛ وكان بوسعه أن يفتح النار علّى الليلة الماضية."- كانت مصادفة غير سعيدة، إذ ظهرأن ذلك الغريب كان واحدًا من الجمّالة ؛ وكان الواقفون حولى حاقدين علّى على نحو لم أتمكن معه من أن أستثير فيهم أى شكل من أشكال الإحساس الإنسانى الكريم من دزينة (دستة) من الجمّالة.

تناول الشريف الغضبان السكين فى يده ثانيه! وصاح يقول:" أرنى كل ما معك، ولاتخفى شيئا ؛ وإلاقتلتك الآن."- أين معبوب ؟ ذلك الرجل الذى لم أره منذ مساء الأمس: وهذا الرجل الذى يتمثل فيه توانى الأصدقاء العرب وانعدام كفايتهم - "لاتنس العيش والملح الذى أكلناه سويا، ياسالم!"- "أرنى كل مامعك ، وإلا والله سوف أقتلك

بهذا السكين." تجمع حولنا المزيد من المتفرجين الذين جاءوا من أماكن الظل المجاورة: كان البعض منهم يصيحون قائلين :" دعونا نقطعه إربا إربا، هذا الملعون !ماهذا الذى يخبئه؟ـ أيها الرفاق، هيا بنا نقطعه إرباإربا!"ـ " أصبروا لحظة؛ وأبعدوا عن هنا." ويرفع سالم سكينه وهو يصيح قائلا:" إذا لم ترنى كل مامعك حالا، وفى هذه اللحظة، فسوف أقتلك !" ولكنى وقفت وابتعدت عنهم قليلا وقلت:" يجب ألايفكر أحدكم فى أخذ مسدسى منى!"ـ ثم سحبت المسدس وأخرجته من صدرى.

مالذى يجب أن أفعله الآن؟ كان العالم أمامى ؛ خطر ببالى، هل أفتح النار على كل من يهاجمنى من هؤلاء اللئام النصابين؛ وألا أضيع طلقة واحدة؟ وأنا بوسعى أن أعيد تعمير مسدسى فى حالة الخوف أو الفزع ـ كانت ناقتى قريبة منى : ولكن ماذا يمكن أن يحدث لواستطعت الإفلات من أكثر من عشرين شخصا، ماذا يمكن أن يحدث بعد ذلك ؟ـ هل أعيد عبور الرَّيع مرة ثانية، وأعود إلى شعارة Shaara من جديد! شعارة ذلك المكان الذى يأتيه العتبان فى معظم الأحيان طلبا للسقيا والارتواء؛ وإذا مافشلت فى ذلك، فقد أغامر بالمشى فى الصحراء ؛ وإذا لم ألتق أحداً فى الصحراء على مدى يومين أوثلاثة، فسوف يكون ذلك أسهل علّى بدلا من أن يقطعنى أولئك اللئام إربا إربا . وقفت بين ناقتى الهزيلة التى لم تستطع إنقاذ راكبها وبين تلك الجماعة من الجمّالة الذين كانوا يتقدمون ناحيتى ليطبقوا علّى؛ لم يكن معهم أية أسلحة نارية ـ اقترب منى فهيد، ورجعت أنا خطوة إلى الوراء: وفتح الرجل ذراعيه ليحتضننى!ـ لم يكن أمامى سوى لحظة واحدة، أقتله خلالها ، وإلا تعين على تسليم السلاح ، الذى هو دفاعى الوحيد ؛ ومن ثم تصبح حياتى تحت رحمة أولئك الأشقياء اللئام ـ طلبت منه أن يتقدم بشجاعة وجرأة. لم يكن ـ أمامى متسع من الوقت لإخراج الطلقة، كان المسدس مايزال معلقا فى عنقى بواسطة شريط قوى: وجهت عقب المسدس ناحية يدى فهيد ـ أمسك فهيد السلاح ! وهنا أطمأن الجميع على حياواتهم وعلى الغنيمة أيضا: شد فهيد الشريط وقطعه . ثم جاء بعد ذلك رفيقه سالم ؛ وجردونى من كل الأشياء التى كانت معى؛ وهنا وقع جهاز البارومتر بين أيديهم لأول مرة؛ ثم أخذوا بعد ذلك كيس نقودى، ذلك الكيس الذى سبق لعبد الله السروان أن أخذه منى ليضعه فى صدره التركى يوم

أن كنت في خيبر - وعندما تأكد سالم أن الكيس ليس فيه ريالات أوأية نقود أخرى، أعاده ثانية إلى حليفه فهيد؛ الذي أخذ أيضا جهاز قياس الحرارة (الترمومتر) الذي كنت أحتفظ به في جيبي: ذلك الجهاز الذي لم يجدوا فيه سوى لعبة من الخشب والزجاج ، وبالتالي أعاده إليّ مرة ثانية، وهم يدعون أنهم لم يأخذوا مني شيئا غير هذا الجهاز ! ثم جلس أولئك اللصوص ليقسموا الفريسة. كان الواقفون مازالوا غاضبين ؛ وراحو يشتمونى ويسبونى ويعنفونى، وينتظرون وقوف سالم ليبدأ تقطيع النصرانى إلى إرب صغيرة.

كان سالم هو وحليفه فهيد أخطر العرب الذين التقيتهم في حياتي؛ السبب في ذلك أن الإنسانية الطبيعية لأهل الجزيرة العربية كانت فاسدة داخل هذين الشخصين، بسبب العدوى القوية التي انتقلت إليهم وأصابتهم من مدن الحكم - رأيت بنفسي كيف كان ذلك الشريف اللص يخص نفسه، وبكل وقاحة، بأفضل الأشياء المسروقة! أدار سالم ماكينة المسدس في يده: لقد سبق له مشاهدة مثل هذه العدد التركية في مكة. ولكنه عندما كان يعد أطراف الطلقات التي في خزنه المسدس، خاب أمله؛ وراح يشكر الله (سبحانه وتعالى) الذي نجاه وخلصه من تلك الميتات الست !راح يتفحص هذه الآلة الخطيرة ، وراح يحملق فّي ويطيل النظر إلّي؛ وراح يوازن في داخله مسألة عدم فتح نيران ذلك المسدس على النصراني." إخص - إخص!، صاحت بعض الأصوات المعادية، نظروا، كيف كان يحمل معه مسدسا ليقتل به المسلمين! هيا تعالوا، وسوف نقطعه إربا إربا - عجبت لهؤلاء النصارى الملاعين، الذين تمتلئ دواخلهم بالرغبات الشريرة! - ياأنت ! كم مسلم قتلت بهذا المسدس ؟" أيها الأصدقاء، أنالم أفتح نيران هذا المسدس في أرض العرب - ياسالم - تذكر عين الزيمة! لقد جئت إليّ بسكينك لتقتلني ، لكن هل رفعت عليك هذا المسدس؟ أشكرا الله إذن! وتذكر العيش والملح ياسالم."

- طلب سالم من رفيقه فهيد تفريغ المسدس عن طريق إطلاق الرصاص الموجود فيه؛ وخشيت أن يجعل فهيد مني هدفا له. أطلق فهيد الطلقات الأولى في الهواء: كانت خزينة المسدس معمرة بالذخيرة منذ مايقرب من العامين؛ ولكن أمكن إطلاق الطلقات

الواحدة بعد الأخرى- وكان لإطلاق ذلك الرصاص دوى هائل ! وبخاصة بين جنبات هذا المكان الصخرى . قال سالم بعد أن نهض واقفا : " أبق على واحدة من تلك الطلقات!" تلك الطلقه الأخيرة كان يحتفظ بها لى ؛ وأحسست بالبؤس لأنى سوف أموت هنا بأيديهم البربرية وبلا دفاع." قال سالم من جديد : هل كل شىء على مايرام يافهيد؟- وتبقى طلقة واحدة."

أطال سالم النظر إلى، وربما كان يشعر بالضيق والقلق، لأنى لم أقل له دخليلك dakhilak: هذا يعنى أن هدوء الكافر جر عليهم القلق والمتاعب . وعندما أحس سالم بالتعب ، ذهب للجلوس على الأرض ثم نادانى ،" قال: أجلس بجانبى ."-"أنت تسمع كلام هؤلاء البشر المتوحشين ؛ يجب ألايغيب عن بالك ياسالم، أنك ستكون مسئولا عنى أمام الشريف."-" الشريف سيعدمك أيها النصرانى ! الله يلعن اليهود والنصارى." قال بعض الجمأله: " كنت فى مأمن فى بلدك، وكان بوسعك أن تظل هناك؛ ولكن طالما أنك جئت إلى أرض المسلمين، فذلك يعنى أن الله قد وضعك فى أيدينا كى نقتلك- إذن الموت للنصارى كلهم ! ولتحترق فى جهنم أنت وأبيك ياشيطان."" قلت لهم: انتبهوا !أيها الرفاق الطيبين- أنتم تعتقدون بجهلكم ،أننى سوف أعدم غداً: ولكن ماذا يمكن أن يحدث لو أن الشريف قدرنى تقديرا يفوق تقديره لكم جميعا، أنتم يامن تسبونى وتشتمونى اليوم! صدقونى! سوف يستقبلنى حسين كواحد من العلماء ؛ ولكن معكم أنتم ياعامة الناس، أيها الرعايا، سوف لايعيركم انتباها." "صاحوا مرة ثانية، سوف تعدم، أيهاالملعون !" ثم تفرقوا بعد ذلك ، وذهب كل واحد منهم إلى المكان الذى سبق أن توقف عنده.

- عقب ذلك مباشرة جاءنا ذلك الرجل المكى الخالص؛ الذى كان قد نزل من فوق راحلته على بعد مسافة قصيرة منا . من هذه الشخصية الناعمة، التى تعد زهرة بين تجار مكة - وبالرغم من رجائى لذلك الرجل، أن يتدخل بينى وبين سالم ، لم أستطع الخروج ولو بكلمة إنسانية واحدة؛ أدهى من ذلك أن هذا التاجر المكى امتنع عن الشر. أطال ذلك التاجر النظر إلّى ؛ ثم تخلى عنى عائدا إلى حريمه مرة ثانية. ورحت أنظر

إليه وهو يبتعد عني، في حين كان الشريف اللص يعنفني ويوبخني ويسبني ،"لأني أخفيت" الأشياء وأخفيت المسدس أيضا- أثناء ذلك التوبيخ تلقيت صدمة! وشعرت بالخدر إلى حد أني فقدت الإحساس بالدنيا من حولي: سقطت على الأرض مغشيا عليّ وأحسست بجسمي يرتعد؛ وخطر ببالي أنهم أصابوني بجرح قاتل أو طلقة قاتلة! والسبب في ذلك أني عجزت عن سماع كل ما يدور حولي، كنت أرى الضوء أمامي كثيفا ومريكا . ولكني عندما بدأت أعود إلى صوابي من جديد، واستطعت رؤية الأرض لم أر عليها أي أثر من آثار الدم: أحسست بخدر يشبه خدر الموت عند منطقة أسفل العنق. وعلمت بعد ذلك أن فهيدا قد ضربني بمشعابه ضربة قاسية - ضربة ركز فيها كل قوته.

نظرت إلى الأعلى ووجدتهم جالسين بالقرب مني. وسألتهم في ضعف ووهن ،"لماذا فعلتم ذلك؟" فهيد: "لأنك أخفيت المسدس." "هل المسدس ملكي أم ملك لكم؟ كان بوسعي أن أفتح عليك النار وأرديك قتيلا! ولكني تذكرت رحمة الله ." كان يجلس بالقرب منا أحد أفراد القافلة ويتناول شيئا من الطعام،- كان ذلك الرجل من أولئك الذين لم يوبخوني أو يقرعوني: كان ذلك هو الرجل الذي حاول الهجوم على أثناء الليل، والذي جرعلّي كثيرا من المتاعب والآلام. وفجأة أمسكت بيد ذلك الرجل وبلحيته؛ ووضعت شيئا من لحيته في فمي وقلت له:" كفى ماحدث أيها الرجل! فنحن بيننا عيش وملح." قبل الرجل هذا الكلام، ولم ينطق بكلمة واحدة بعد ذلك . ولم أر بين هؤلاء الناس خائنا لوعد العيش والملح سوى سالم- ولكنه كان من الشخصيات الروحية.

- جاءنا بعد ذلك شخص كان يركب حمارا! هذا الشخص اسمه عبد العزيز! فقد سمع عبدالعزيز ومعبوب أصوات الطلقات النارية ، عندما كانا جالسين خلفنا على بعد مسافة قصيرة! والسبب في ذلك،أن أولئك الذين كانوا متوجهين إلى الطائف، وصلوا إلى ذلك المكان أثناء الليل؛ ولم يكن عندي علم بذلك . كان معبوب قد أرسل ذلك الشاب الصغير (الذي لايستحق أن يحمل اسم البسام) ليعرف السبب وراء إطلاق النار، ولكي يعرف أيضا ذلك الذي حدث للنصراني،- وهل مازال على قيد الحياة أم لا؟ وعندما أبصر عبدالعزيز المسدس في يدي سالم، وعندما أبصر أن سجينه(أسيره)

مازال حيا تساءل،عن الأسباب التي جعلت سالم يأخذ مسدس الرجل ؟ قلت له:" هل ترى مدى تهديد هؤلاء الجهلة لي: قل لهم شيئا نيابة عن عمك عبدالله البسام." ولكنه بقسمات وجهه المتشدده تشددا مريرا قال:" هل أنا فرنجي؟"- ثم ركب راحلته من جديد، وابتعد مختفيا عنا.

بعد هذه الأحداث؛ وبعدأن أصبحت الغنيمة بين يدى سالم، وخوفا منه أن تضيع منه هذه الغنيمة فى الطائف، غيَّر رأيه وقرر إرسالى إلى جدة على ناقة البسام- " ها! ياخليل، لقد أصبحنا إخوانا الآن؛ ياخليل، ألسنا أصدقاء طيبين الآن؟ لم يعد بيننا أى شيء من القلق أو الإزعاج. مارأيك؟ هل تود أن نرسلك إلى جدة، على أن أركب أنا بنفسى معك على الناقة؟"- أجبته،"أنا ذاهب لزيارة الشريف فى الطائف؛ ولكى تقيم علّى أنت الاتهام أمامه وتبرئ نفسك؛ سيضعونك فى السجن فى جدة." قال بعض الواقفين:"اتركوه يذهب إلى الطائف."

- وصل مراسل من عند معبوب، يطلب من كل من سالم ، وخليل وفهيد الحضور إليه وبينما كنت أمشى متجها إلى المكان الذى فيه معبوب، نظرت إلى الوراء ووجدت فهيدا مشغولا بتفتيش خرج الجمل - ثم تبعنا بعد أن انتهى من ذلك التفتيش. كان البسام الشاب جالسا فى ظل صخرة مع معبوب- "قال معبوب-": هل أنتم رجال؟ هل أنتم رجال؟ من الذى تعامل مع هذا الغريب بهذه الطريقة!" حكيت له كيف سرقونى وجردونى من أشيائى ، وحكيت له عما لا قيته على أيديهم: كنت أعانى (وإلى فترة طويلة بعد ذلك) من الضربات التى وجهوها إلى عنقى . معبوب:" ياشريف سالم، مطلوب منك إحضار هذا الغريب أمام مولانا الحسين فى الطائف، وألاتسيئ إليه بعد ذلك. كيف تسرق إنسانا وتجرحه وهو أمانة لديك ومسئول عنه، وتتصرف تصرف اللصوص من البدو؟ ولكنى لاأظن أن البدو يمكن أن يفعلوا ذلك الذى فعلتموه أنتم." سالم:" أليس هذا نصرانيا! ولكنك سوف يتعين عليك تقديم أسباب هذه المعاملة السيئة أمام مولانا الحسين:"- ثم صرفنا معبوب بعد ذلك ؛ وعدنا إلى مكاننا مرة ثانية.

خطر ببالي أن أعود ثانية إلى معبوب : كان الرمل من تحت قدماي مثل النار الحارقة، إلى حد أني كنت أجثو على ركبتي بعد كل بضعة خطوات كي أذوق طعم الغوث والراحة ولو للحظة واحدة- كان معبوب واحداً من حملة مظلة الشريف ؛ كما كان أيضا خادما أمينا لأخيه المرحوم الشريف السابق." تساءلت ، ماالذي جعله يتخلى عني إلى الآن؟ أوكيف له أن يعهد بي إلى هذا السالم السفاح! الذي ينعته هو بأنه الشريف Sherif المجنون mad ؛ هل جاء يطمئن إلى أني سأصل إلى الطائف وأنا على قيد الحياة؟- أنا الآن بلا أية وسيلة من وسائل الدفاع، وقد يطعنني عند أي منعطف من المنعطفات ؛ هل ستركب معي على الناقة!"- ياخليل، أنا لا أستطيع الركوب على سرج الجمل بسبب المرض والضعف." وعندما قلت: إنني سوف أخفف من آلامه رد الزنجي المحترم قائلا:" هذا بعيد عني تماما !الآن هذا هو واجبي ، نحو مولاي الشريف : ولكن إن كان لديك علاجا لمرضي، فأنا أرجوك ألا تنساني في الطائف." - كان البسام الشاب يعاني من الحمى . وقد أصابته تلك الحمى عند الظهيرة؛ وهذا هو الذي لم يتكلم مؤخرا ولو كلمة واحدة دفاعن الفرنجي وحياته، ها هو يلجأ إلى الفرنجي من جديد كي يشفيه من مرضه. رددت عليه 'تقول في الطائف!' لو كان هذا الآدمي قد ساعدني في بداية الأمر، إرضاء لعمه، لماكنت قد توانيت عن تقديم العلاج. ومع ذلك، وعدته بأنه إذا مارافقني الليلة، فسوف أعطيه في صباح الغد دواء يقضي على الحمى: ولكن العرب لايثقون بالوعود طويلة الأجل.

تمددت إلى ما قبل الظهر، وعندها سمعت أننا سوف نرحل عن المكان؛ وهنا طلب مني ذلك البسام الأحمق الوقوف والمساعدة في تحميل السجاد على جمله. لم أمتنع عن تنفيذ ذلك؛ ولكن كل قوتي كانت قد خارت؛ ولكن معبوب، راح يلوم ذلك البسام على تهوره، وطلب مني البقاء في الظل- ركب معبوب جالسا فوق السجاد؛ وعندما وقف به الجمل، كان ذلك العبد الزنجي الثقيل على وشك السقوط من فوق الجمل. وهنا سألته مرة ثانية، ألأيتركني أويتخلى عني ثانية؟ وطلبت منه أن يتذكر تلك الساعات السوداء الكثيرة التي أمضيناها على الطريق.

عدنا إلى منزلنا على وجه السرعة؛ هذا المنزل كان عبارة عن مجرد شجرة فقط. وجدت ان أفراد القافلة قد رحلوا عن المكان؛ ووجدت أيضا أن الشريف اللص، الذي

بقى بجوار الناقة كان يتأفف من تأخيرى: ركب الشريف اللص فوق سرج الجمل، فى حين ركبت أنا فى الخلف- كان مع سالم رفيق جديد، كان يركب معنا، وهذا الشخص يدعى إبراهيم وهو من المدينة (المنورة) ولكنه يقيم فى جدة منذ فترة وجيزة، هذا الرجل سوف يعود إلى جدة على الفور بعد أن ينتهى من أداء العمرة. وعندما عرف إبراهيم اسم البلد الذى أنتمى إليه بدأ يقول:"إن إنجليزيا رافقه فى الباخرة إلى جدة؛- وأن ذلك الإنجليزى، والله، كان مسلما كاملا وطيبا بمعنى الكلمة! وأن ذلك الإنجليزى دخل مكة بالأمس، وقام بأداء الفرائض والطقوس الدينية- وهذا الإنجليزى الذى أحدثك عنه ياشريف سالم، يتجول الآن فى مكة، لزيارة الأماكن المقدسة."- كان إبراهيم واحداً من أولئك الذين كانوا يرقدون معنا تحت الشجرة التى كنا نستظل بها، والتى وصل إليها من بعدنا، ومع ذلك فقد استهزأ بى مرات كثيرة، وكان يصيح فىّ محتقرا إياى،" ياكلب! ياكلب! أنت كلب!" ولكن عندما استأنفنا المسير بدأ يبتسم للنصرانى ابتسامة هى خليط من الصداقة والعداوة: ثم قال فى نهاية الأمر:" أنت كنت فى حائل؛ ألا تتذكرنى؟- لقد تحدثت معك هناك، فى حائل؛ وأنت خليل."- يالغرابة هذه اللقاءات عندما تتكرر فى هذه الجزيرة العربية الخالية والواسعة الشاسعة! ولكن التردد على حائل بصفة دائمة أمر وارد: وقدأمضيت شهرا كاملا فى حائل.هذا الرجل خفيف الوزن، من أهل الجزيرة العربية، سوف يقطع رحلة طويلة على ظهر ناقته، وبالخطوة المعتادة، وتصل إلى مئات الفراسخ لمجرد هدف بسيط: وهو طوال هذه الرحلة لايقلقه أى شىء سوى بعده عن أسرته وعن أطفاله." أنت إذن عرفتنى منذ زمن طويل فى هذه البلاد؛ والآن ،قل أمام كل هؤلاء الغرباء، إن كان لديك ماتتهمنى به."-"ليس عليك أى شىء ، سوى دينك غير السليم."

ركب إبراهيم واحداً من الإبل؛ كان رديفه واحداً من الجمَّالة؛ وكان ذلك الرديف يتوعدنى خلال وقفات الكلام، بأن يروح يلوح لى بعصاه مهدداً: وعندما كان يمشى كان يقفز خطوتين إلى الأمام كما لوكان يستعد للهجوم على الكافر. رؤية سالم لأمثال هذا الجمَّال وهو يتهددنى كانت تشكل لى نوعا من الخطر، إذ إنه يود أن يكون هو الفريد فى هذا التهديد وربما أخرج سكينه مرة ثانية: وعليه قلت لإبراهيم (وأنا أمسك ذقنى

بيدى): "بحياة لحيتك يارجل! وبحق معرفتنا القديمه فى حائل!"- رضى إبراهيم عن تلك الإشارات؛ وبدأ يكشف للنصرانى عن وجه يحمل المزيد من الود والصداقه." ياإبراهيم ، هل سمعت أن الإنجليز أناس سيئون؟" "لا، كلشٌ kullesh طيب tayib" بمعنى "لم أسمع عنهم سوى كل شىء طيب" - "هل هم أصدقاء السلطان أم أعداؤه؟"- هم أصدقاءه: الإنجليز يساعدونه فى الحرب." سالم:" حسن، ياخليل ، ماعليك من هذا الأمر؛ خبرنى ، ماهو دين النصارى؟ كنت أحسب أن ذلك شىء مريع!"- خاف الله وأحب جارك، هذا هو الدين المسيحى- طريق عيسى بن مريم، الذى هو من روح الله."-(...)(*).

التقينا كثيرا من المسافرين على الطريق؛ كان البعض منهم يتفوهون بالشتم والسب ونحن نمر عليهم، وكان سالم يصيغ السمع إلى كلامهم البذئ: كان ذهن سالم يتقد مع كل كلمة جديدة - "لاتصغ إليهم ياسالم، إنهم هم النصارى " ورد الرجل رد البدو المترحلين قائلا:"إى، بالله، إنهم بدو وكفّار؛ ولكن هذا هو حال جهلهم هنا فى هذه الأجزاء من البلاد " لم ينس رديف إبراهيم مطلقا حقده أو غله؛ كما أن مخ سالم بدأ يضطرب من جديد: لأنى عندما قلت له: "إنك سوف تصدر إليك تعليمات غداً حول كل هذه الأمور:" صاح الرجل قائلا:" إنك تكذب مثل النصارى المنافقين، إن الشريف سوف يعدمك غداً بقطع رأسك، أو بشنقك- وأنا ،ياإبراهيم ، آمل أن يكافئنى مولانا باعطائى الناقة."

وصلنا إلى مجرى من مجارى السيل، وكان ذلك المجرى وسط صخور الجرانيت ، وتنمو فيه بعض الأعشاب ونباتات النعناع؛ وفى هذا المجرى يمكن الوصول إلى الماء العذب عن طريق الحفر باليد. عابرو السبيل المسافرين إلى الطائف ينزلون فى هذا المجرى فى فترة العصر، كى يشربوا ويتوضئوا استعدادا للصلاة. ويقال إن هذه

(*) حوار تضمن عبارات بها مساس بالدين المسيحى رأينا استبعادها. (المراجع)

المنطقة هى عكاظ Okaz، أو إن شئت فقل: البرلمان السنوى ومكان التفاخر والتباهى والمدح الخاص فى الجزيرة العربية فيما قبل الإسلام: هذا المكان

يتروح ارتفاعه عن مستوى سطح الأرض بين ٥٠٠٠ و٦٠٠٠ قدم. وعندما توقفنا مر علينا كل من عبدالعزيز ومعبوب؛ وهنا اتجهت لأسأل البسام الشاب إن كان سيركب معى هذه الليلة أم لا، وأننى سوف أكافئه على ذلك ؟ واعتذر لى عن ذلك ، نظرا لأصابته بالحمى : ولكن ذلك لايمنعه من الركوب على حمار من الحمير- كان سالم مشغول الفكر والبال ويود معرفه مادار بينى وبينهما ؛ وركبنا وواصلنا المسير.

بدأنا الآن نصعد ونسير بين الأماكن الضيقة التى بين الصخور ؛ ثم وصلنا إلى طريق مرصوف، امتد معنا لأميال عدة، وفيه منازل وممرات جرى فتحها عن طريق النسف بالمتفجرات ـ هذا الممر جرى فتحه مؤخرا بواسطة المهندسين الأتراك وعلى نفقة الحكومة: وبعد ذلك بدأنا نسير فى ذلك المنحدر اللطيف الذى يوصل إلى الطائف.

كنا قد سبقنا القافلة البطيئة وأصبحنا وحدنا الآن فى الصحراء: كان إبراهيم مرافقا لنا، وكنت أتشكك فى ذلك الرجل. قالوا: إنهم سوف يسبقونا ويكونوا فى المقدمة: وكانوا يضربون ناقتى البطيئة الضعيفة ويجعلونها تجرى؛ وكان ذلك يشكل لى نوعا من القلق والتعب ـ وكان سالم قد رد على أولئك الذين كانوا يتساءلون عن سبب تسرعنا وعجلتنا ، وعن سبب استباقنا لهم فى الممر بأنه يود التخلص من النصرانى :" وراح سالم يهمهم ويغمغم بكلمات وحشية ، إلى حد أنى بدأت أتشكك فى أن أولئك الذين كانوا يركبون معى كانوا مختلفين فيما يتعلق بقتل النصرانى ، عندما يكونون بعيدين عن أنظار الغير. لم يترك أولئك اللصوص لى من أشيائى سوى مطواة صغيرة: وعندما وصلنا إلى السيل، كنت قد ربطت فى غترتى حجرا ، كى أستعمله سلاحا إذا ما تطلب الأمر ذلك.

أخيرا غربت الشمس: وفى الحال ظهر الشفق؛ وطلب إبراهيم من سالم، أن يشرح له السبب الذى جعله يسبق على هذا النحو، وبلا توقف ,سالم :" هيا بنا نسبقهم وننام ساعة عند الظهر، إلى أن تلحق بنا بقية الإبل- ياخليل، اصح ولاتنم !

(لأنى ربت على ظهره) أوه! افتح عينيك !هذا طريق خطر عليك:" ولكنى واصلت النوم وكنت معرضا دوما لخطر الوقوع من فوق الناقة: كنت من حين لآخر أنظر إلى الأعلى وأراه ينظر إلى الخلف ويطيل النظر إلى ! وعليه كان يقول بطريقة ودية لطيفة : هل نمت ياخليل، يانصرانى ؟- ماهذا ! أنا عندما قلت لك: لا؛ العجيب أنك لم تخف!"- أليس الله فى كل مكان؟" إى(*) ! والله ياخليل." هذه الكلمات الدينية لها وقع سلس عند العرب، كما أن الدين هو الذى يفاجئ قلوبهم القاسية ويباغتها - "عجيب أنك لاتخشى الموت!" أنا لم أعش مسلما ، حتى أخشى الموت أو أخافه." نظر إلى ذلك الشقى! ونظرت أنا ثانية إلى وجهه المتجهم: كان أحد خديه معلم بثلاث شلخات! وهذا عرف سائد فى هذا الجزء من البلاد، كما هو الحال فى إفريقيا الزنجية؛ إذ عن طريق مثل هذه العلامات يمكن معرفة القبائل التى ينتمى إليها الأفراد.

هواء المساء يشرح الصدر هنا، وفى هذه الصحراء، فى فصل الصيف. مررنا هنا بمسقى يقع بين الأشجار، كان بوسعنا التوقف فيه؛ ولكن إبراهيم لم يلق بالا لندائنا! كان إبراهيم قد سبقنا فى الظلام. وهذا هو سالم ، بالرغم من الكلام الجميل الذى دار بينهما مؤخرا، يقول عن إبراهيم: إنه" رفيق وقح" بل إنه لعنه أيضا." من هو ذلك الرجل، ياسالم؟ كنت أحسب أنه صديقا من أصدقائك". ما الذى يجعله صديقا لى؟- يالهذا الشيطان! كل ما أعرف أنه من المدينة (المنورة) ."- وكل مافى الأمر أننا انضممنا إليه أثناء الظلام؛ وقال إبراهيم:"إنهم سبقوا كى يُصلُّوا. ثم قال: وهذا المكان طيب ويناسب ذلك؛ هيا بنا ننزل عن راحلاتنا هنا ونتناول طعام العشاء." كان معهم الخبز، وكان معى أنا التمر: جلسنا لنأكل مع بعضنا البعض. ولم يبعد عنا أثناء الطعام سوى الرديف ، تخوفا من تناول الطعام مع واحد من الكفار : ولكن ، عندما بدأ ذلك الرديف يشاركنا تناول الطعام بناء على طلب من الآخرين، تناقص حقده وغله - سألت إبراهيم، إن كان يعرف عائلة النجومى فى المدينة المنورة؟" قال: حسن، أنا أعرف هذه العائلة- إنهم ليسوا سوى حدادين."

(*) إى بكسر الهمزة تعنى «نعم» حسبما ورد فى القرآن الكريم. (المترجم)

ركبنا إبلنا وواصلنا السير، عبر السهل الواسع؛ وشاهدنا الكثير من ومضات النار التى شبَّها البدو الرحل فى المناطق التى يخيمون فيها .كان من رأى سالم ـأن نغير خط سيرنا ونتجه صوب جماعة من أولئك البدو الرحل، حيث يمكن لنا، على حد قوله، شرب شىء من الحليب. كان ذلك يشكل خطرا على الكافر، وقد سررت عندما تجاوزنا هؤلاء البدو الرحل ؛ هذابالرغم من أنى كنت أود رؤية أعراب هذا الجزء من البلاد ـ وصلنا فى النهاية إلى المنوخ(*)، أو إن شئت فقل: مكان التوقف فى منتصف الطريق؛ وفى عتمة الليل استطعت رؤية مبنى عال مبنيًّا من اللبن، كما شاهدت أيضا مجموعة كثيفة من الأشجار . وعلى مقربة من ذلك المبنى شاهدت أيضا بعضا من القصور والهجر الواقعه على أطراف الطائف وتستخدم فى زراعة القمح . سمعنا الحمير أثناء نهيقها والكلاب وهى تنبح كل ذلك كان فى منازل البدو الرحل من حولنا. نزلنا فى هذه المنطقة ورقدنا على الرمل ملفوفين فى عباءاتنا (بشوتنا)؛ ونمنا مدة ساعتين : ثم بدأت بعد ذلك طوابير القوافل البطيئة التى كانت تسلك الطريق نفسه تتوافد علينا من جديد: كان الجمالة نائمين فوق أحمال إبلهم. ركبنا إبلنا واستأنفنا السير من جديد، وسبقنا تلك القوافل فى الظلام من جديد، ولكننا ضللنا طريقنا فى نهاية المطاف؛ وهنا قال إبراهيم ، إنهم سيواصلون السير إلى الطائف، دون الحصول على قسط من النوم؛ ولم نرالرجل بعد ذلك.

ومع طلوع ضوء النهار تبينت أننا وصلنا إلى جدران أحد البساتين؛ ومع تزايد أنوار الصباح شاهدت مسورات حول أشجار الكروم وأشجار التين؛ ولكنى لم أشاهد إلا القليل من أشجار النخيل [الذى لايجود فى الطائف حيث الماء حلو وعذب والأرض حلوة أيضا]. ودخلنا عندئذ فى طريق ـ طريق من طرق الجزيرة العربية! وهذا أول طريق أخضر وشجيرات خضراء أراها بعد أن غادرت دمشق. مررنا على منزل أو منزلين مبنيين على جانب الطريق؛ وبيوت ليست من اللبن مثل بيوت الجزيرة العربية ،

(*)المنوخ : بفتح الميم وضم النون، هو المكان الخاص الذى تبرك فيه الإبل. (المترجم)

ولكنها مدهونة ومزججة مثل البيوت التركية. كنا بالقرب من الطائف؛ وقصدنا المنطقة الواقعة أمام فيلا الشريف ، التى أنشأ فيها وهو على قيد الحياة حديقة فيها كثير من الورود! [والأشراف هم أناس تربوا فى إسطمبول Stambul]. ـ ولكن حديقة الفيلا كانت قد بدأت تتحلل وتذبل.

دخل سالم بالناقة إلى الحقل الموجود فى الجهة اليمنى ؛ ونزلنا عن راحلاتنا انتظارا لطلوع النهار، تركنى سالم وراح يتمشى ليستطلع ماحولنا ؛ وسمعت صوت بوق ، فقد كانت الطائف واحدة من الأماكن التى تتمركز فيها قوات الحماية. وعندما عاد سالم وجدنى نائما؛ وسألنى ماإذا كنت خائفا أم لا؟ ركبنا ولاقينا شيئا من الصعوبة فى قيادة الجمل عبر غدير الماء الدافئ، الذى كانت مياهه جارية وصلنا بعد ذلك إلى هجرة من هجر الأشراف وهذه الهجرة تقع على مقربة من الطائف؛ وأوقفنا النياق قبيل طلوع الشمس بلحظات أمام بيت من بيوت أبناء عموم سالم.

نادى سالم عليهم بالاسم، وهم فى داخل المنزل، ولم يرد عليه أحد. كان الرجل الطيب صاحب البيت قائما برحلة هو الآخر؛ وبالتالى لم تستطع زوجاته الخروج لاستقبالنا . ولكنهن عندما تعرفن صوت سالم أرسلن صبيا كى يحمل أشياءنا إلى داخل المنزل؛ وتبعنا ذلك الصبى . هذا البيت الفقير من بيوت مكة كان عبارة عن حوش له جدران عالية مبنية من اللبن ؛ وفيه غرفة واحدة أوغرفتين مبنيتان عند مستوى أقل من مستوى ارتفاع السور. وجدنا فى ذلك البيت امرأتين (من الأشراف)؛ وكانت المرأتان تصنعان أكلمة (لحفا) من ذلك الصوف الخشن والخيوط الملونة مثلما سبق أن شاهدنا فى بلدة تيماء.[الجزء الأول] ـ هذه الأسرة كانت من الأسر البدوية المترحلة؛ والسبب فى ذلك أن الحريم قلن لى أنهن يعشن فى خيام ، طوال أشهر عدة من العام، وأنهن يشربن ألبان الإبل والماشية الصغيرة، أو إن شئت فقل: ألبان الماعز والأغنام . كان فقر البيت وبؤسه يوحيان أيضا بأنه من بيوت البدو الرحل: والسبب فى ذلك أن رب البيت الطيب لم يترك لهن شيئا سوى وجبة صغيرة؛ وأنهن خبزن من تلك الوجبة

الصغيرة كعكة، أوإن شئت فقل : فطيرة لايزيد وزنها بأى حال من الأحوال عن أربعة أوقيات ، كى يقدمنها إفطارا للضيوف. كانت أصواتهن مخنوقة بسبب الجوع ، وكانت التنهدات تتخلل تلك الأصوات؛ ولكن هؤلاء النساء النبيلات كن يتكلمن معنا باعتدال أنثوى ثابت ومتزن: وهنا رحت أتعجب لتلك السلوكيات الطيبة، التى لم يسبق أن رأيتها من قبل فى الجزيرة العربية. هؤلاء الناس هم ذرية محمد الفقراء. وسلطان الإسلام يقبل عن طيب خاطر وبوقار شديد يد أى إنسان من أولئك الأشراف مهما كان قدره؛ وسلطان الإسلام يُقَبِّل أيضا يد كبير أسرة الأشراف فى مكة .

اتفقنا فيما بيننا ألا نقول أى شىء عن دينى الغريب. تحدث سالم عنى كما لوكنت غريبا التقانى على الطريق. كان غريبا على، فى بلاد الغيرة هنا، أن تستقبلنى امرأتان . هاتان المرأتان (إحداهما كبيرة والأخرى شابة) كانتا زوجتين شقيقتين لواحد من الناس(*). هذا المكان الفقير لم يكن فيه أى شىء من البن أو القهوة؛ ولكنهن بناء على طلب سالم أرسلن يقترضن بنا من الجيران: وعاد الصبى ومعه ست أوسبع حبات من حبوب البن؛ ومن هذه الحبات الست أوالسبع غلوا لنا ، فى إناء من الفخار (مثلما تُصلَّح القهوة هنا) خليطاغير كثيف من القهوة- لم نستطع شرب ذلك الخليط ! وبعدما طلعت الشمس، قال سالم: إنه سوف يذهب إلى مجلس الشريف؛ ثم تركنى - سألت المضيفة الكبيرة زوجة الشريف . وأجابتنى قائلة:" حسين رجل طيب ، وإنه عاش فى إسطمبول منذ صباه وشبابه ! وهو أفضل المتعلمين قاطبة هنا: ولكنه ليس شبيها بأخيه عبدالله ، الذى تولى قبله ، ومات هذا العام ، تغمده الله برحمته !كما أن الشريف حسين ليس أبيضا مثل أخيه عبدالله؛ والسبب فى ذلك أن والدة حسين كانت عبدة من (الجِلاّ(**)).- يبدو أن مسألة اللون هذه كانت تقلقهن ،لأنهن كررن قولهن:" كانت أمه عبدة- ومع ذلك فإن حسين رجل طيب وعادل ؛ وطيب القلب".

(*) كذا .

(**) الجِلاّ: بكسر الجيم وتشديد اللام، سلالة من السلالات الحبشية. (المترجم)

أمضينا ساعات طوال بصحبة تلك النسوة (اللاتى ضربهن الجوع) ويتنهدن ألما، ونظرا لعدم وجود مايشغلهن فى منازلهن ، أثناء نومى، فقد رحن يمارسن عملهن المعتاد فى خيوط الصوف الخشن- كان الوقت قد شارف على الظهر، وعندها دخل علينا سالم. " قال الرجل: أخبار طيبة !ياعم خليل: مولانا الشريف أمر بأن تسكن وتنزل فى منزل واحد من الأتراك Tourk. هيا، قف! وهيا بنا إلى هناك؛ والمسافة التى سنركبها قصيرة جداً." حمل سالم بنفسه الخرج والزكائب الأخرى، ووضعها على الناقة المنهكة؛ ورحلنا عن المكان . ومن الأرض المرتفعة التى وصلنا إليها تراءت لنا الطائف! المنظر يوحى بالحزن، نظرا لأن المبانى هنا كلها من الأحجار التى لها لون الإردواز. قصر الشريف الأبيض يقع عند مدخل البلدة، والمنزل مكون من طابقين ، وأمام المنزل يوجد مبنى جديد فاخر له شرفات شبكية الشكل، وسقف ذلك المنزل فيه كثير من المداخن؛ هذا القصر هو قصر عبدالله باشا، شقيق الشريف حسين. وفى وسط البلدة يظهر مبنى ضخم كبير وعالٍ؛ هذا المبنى يشبه السجن؛ هذا المبنى هو ثكنات الجنود.

- هاهى البلدة أمام عينى !هذا منظر بديع يتراءى لعينى بعد تجوال فى الصحراء دام قرابة العامين. على جانب الطريق الذى نسير فيه ، شاهدت الرجال وهم ينسفون (صخور الجرانيت) كى يجرى استعمالها فى البناء- الطائف تقع على حدود المنحدر الصخرى، الذى سبق لى أن تجولت فيه فى الفترة الأخيرة، والبلدة تبعد حوالى مائة فرسخ عن القصيم. شاهدت أيضا منظرا أسود اللون وفيه الكثير من الصخور الوعرة، وعامرا أيضا بالجبال المنخفضة ؛ هذا هو المنظر الذى شاهدته فيما وراء بلدة الطائف . دخلنا مرة إلى الطريق بعد أن خرجنا من مجرى السيل، وعبرنا نهيرا ماؤه فاترا؛ هذا النهير ينبع من الجبال التى تهب عليها الرياح الموسمية، وهذا النهير يعد واحداً من العيون العامرة بالماء الوفير الذى يستخدمه الناس فى رى هذه الواحة القديمة. هؤلاء هم السقائون - ذلك المنظر المألوف فى بلدان الشرق! يمشون مترنحين وهم يصعدون المطلع حاملين الماء الذى يجلبونه من ذلك النهير؛ هؤلاء السقائون يحملون الماء فى قراب مصنوعة من جلد الماعز؛ بعض أولئك السقائين لهم أكتاف تبلغ من القوة

حداً تستطيع معه أن تحمل مايعادل حملا من أحمال الإبل ! التقانى فى هذا المكان جندى تركى، وكانت تعلو وجهه ابتسامات وقحة؛ وقال: إنه جاء لتوصيلى إلى البيت الذى سأنزل فيه. هذا الجندى، وهو سورى من البلاد التركية المحيطة بأنطاكية، هو المراسل العسكرى لواحد من ضباط الشريف حسين: هذا الضابط سوف يستقبلنى فى بيته وذلك بناء على أوامر من الشريف حسين.

البوابه التى دخلنا منها هنا يطلقون عليها اسم باب Bab السيل؛ فى الداخل توجد أرض فسيحة أمام قصر الشريف المتواضع. الشوارع هنا ليست ممهدة تمهيدا جيداً ، وأفضل المنازل هنا هى تلك التى طلاها أصحابها بالجبس الأبيض: منظر هذه البلدة، التى تنشغل عن آخرها خلال شهور الصيف ، يوحى بالقدم والدمار والأنقاض. الطرق هنا غير ممهدة: ونرى هنا كلاب الشوارع التى تشتهر بها البلدان التركية . كان هناك خادم من خدم الشريف ينتظرنى فى الشارع ، ثم اصطحبنى إلى خوخة(*): طلب الجندى منى النزول عن الناقة ، وهنا أحمد الله! على أنه أرسل سالما لحال سبيله." قال الخادم المبتسم : سوف أحضرلك فورا شوكة وسكينا؛ وقد طلب الشريف منى أن أسألك إن كنت تود شرب شىء من الشاى مع شىء من السكر؟"- كانت تلك أفكار لطيفة من الأفكار المنزلية الإنسانية لأمير مكة.

وهنا اقتادوا الناقة التى أصابها إعياء شديد على إثر المسافة التى قطعتها وتقدر بما يقرب من مائة وخمسين ميلا، دون أن تحظى بأى شىء من الراحة أو الترفيه، اقتادوها إلى إسطبلات الشريف؛ وحملوا خرجى وزكائبى إلى الدور العلوى. كان المضيف، واسمه العقيد Colonel محمد Mohammed ينتظرنى عند مدخل البيت؛ ليدخلنى بعد ذلك إلى سكنه. كان الثوب الذى ألبسه ممزقا من فوق ظهرى، كما أن عباءتى (بشتى) كانت قديمة وممزقة؛ كان شعرى طويلا ويتدلى من تحت الغترة (غطاء

(*) خُوخه : بضم الخاء الأولى وفتح الخاء الثانية، عبارة عن بُويب صغير داخل باب كبير، والكلمة فصيحة. (المترجم)

الرأس) إلى أن يصل إلى كتفاى؛ كما كانت لحيتى طويلة ومتدلية وغير مشذبة؛ كانت عيناى حمراوين، وشبه مغمضتين، كما كانت بشرتى المحروقة بسبب الشمس متشققة في منطقة الوجه. وجلبوا لى حلاقا، وجرى تجهيز الحمام: وبعد كوب من الشاى، بذل العقيد الطبيب جهداً فائقا كى يعيد شكلى إلى شكل بقية المواطنين المدنيين العاديين. وبينما كان الحلاق يقص الشعر ويهذبه، راح ذلك المسئول التركى يضع على وجهى بعض المراهم المرطبة؛ وكانت يداه لطيفتان كما لوكانتا يدى امرأة- ولكنى لم أر إفطارا في ذلك المكان! بعد ذلك ألبسنى ذلك الضابط، وأنا فى غاية التعب والإرهاق، لباسا عسكريا أبيض اللون؛ ووضع فوق رأسى طربوشا.

هذا الضابط الطبيب، الذى كان اسمه ولقبه محمد خيرى أفندى، والذى هو ياور Yawer من ياوران الشريف حسين، قال لى: الخدمة مع الشريف (من حيث استمرار الحصول على الأجر) أفضل من الخدمة مع الدولة (الإمبراطورية العثمانية): كان محمد افندى يحمل رتبة بمباشى Bim-bashy أو قائدا لألف رجل، فى الجيش الإمبراطورى. كان العقيد محمد من ولاية قونية Konia فى الأناضول. كان ذلك الرجل يكره المسئولين المفسدين فى إسطمبول، وكان يطلق عليهم اسم الخونة؛ والسبب فى ذلك هو تنازلهم فى محادثات السلام التى جرت مؤخرا عن بعض المناطق التى كانت داخلة ضمن الإسلام(*): كان ذلك الرجل، يعجب من أولئك الباشوات الكبار الذين خانوا الجيش. كان الرجل ، من منطلق صراحته العسكرية يستنكر تلك الرذائل البيزنطية التى كان أولئك الباشوات يرتكبونها، كما كان يستنكر أيضا سكر السلطان المتوفى وعربدته!- ذلك الذى كان يرد على لسان العقيد محمد،إنما كان يعكس ذلك الذى كان الضباط الأتراك يقولونه فى كل من مكة والطائف. ولكن الرجل كان يتحدث بكبرياء صادق، عن الحياة الرسمية فى وطنه؛ والتى يحافظ الناس فيها على السلوكيات التركية القديمة

(*) محادثات السلام هى تلك المحادثات التى انتهت الحرب الروسية التركية بما ترتب عليها من عقد معاهدة سان ستيفانو بين روسيا والدولة العثمانية فى عام ١٨٧٧ وفيها تنازلت الدولة العثمانية عن سيادتها الفعلية على بعض الولايات التابعة لها فى شبه جزيرة البلقان. (المراجع)

التى تتسم بالبساطة. حدثنى محمد خيرى عن نشأته، كما حدثنى أيضا عن المهمة التى ألقيت على كاهل أمه التى كانت تقول: " ولدى، لايقول سوى الحق! ويكره كل مظاهر حياة الرذيلة." يتذكر محمد خيرى من طفولته ذلك اليوم الذىُ دخل فيه بعض الناس عنوة بستانا من البساتين، أثناء الليل، وسرقوا منه التفاح، والجلبة الكثيرة التى ترتبت على ذلك! هذا هو مايقوله الناس عن مزاج أولئك الأتراك!ـ ولدى هنا كلام قليل، قاله لى رجل صادق، ـ وقد حدث ذلك بين التركمان والفلاحين الأتراك، فى قريته القريبة من أنطاكية." عثر فلاح فى حقله على كيس من أكياس النقود؛ وكان ذلك الكيس مملوءًا بالنقود. ولكن هذا الرجل الذى لم يكن الحقد يعرف إلى نفسه سبيلا، وضع ذلك الكيس معلقا فوق عمود من الأعمدة، وراح ينادى فى شوارع القرية، 'هل تسمعون، ياجيرانى، من الذى ضاع منه ذلك الكيس الموضوع هنا؟' وعندما لم يجبه أحد، قام هذا الرجل المسن بتسليم ذلك الكيس الغريب للقس المسيحى؛ وطلب منه الاحتفاظ بالكيس إلى أن يظهر صاحبه ويسأل عنه."

ـ سمعت وقع أقدام قوية على درج السلم؛ ثم دخل على ضابطان تركيان. الضابط الأول طويل القامة، عسكرى المظهر، وهو سمىّ المضيف، وكان يلقبه بأنه شقيقه، هذا الضابط كان يشغل منصب الياور الثانى مع الشريف حسين؛ وكان الأصدقاء إخوانا فى السلاح طوال عشرين عاما. كان بصحبة ذلك الضابط أغا من الخيَّالة؛ هذا الأغا كان البانيا وعظام وجهه بارزة بشكل مخيف، وكان يعتمد على ذلك الشكل المخيف فى السيطرة على الجنود الهمجيين؛ ولكن هذا المسكين كان ألطف مما يوحى به شكله، إضافة إلى أنه كان طيب القلب. هذا الألبانى كان يتفاخر بأنه من سلالة الإسكندر الأكبر " ذى القرنين؛" ولكنه جاء لزيارتى من باب المجاملة، ومن باب أنه من جيران أوروبا. تحدث عما كان يدور بخلده ـ حوالى خمس أو ست كلمات خرجت من فمه مرتبكة، وعلى شكل صيحة شجاعة: وعندما لم أستطع تجميع المعنى؛ نظرا لأنه كان يغمغم ببعض المصطلحات تخليدا لذكرى الإيطالى الأيونى، وتخليدا أيضا لهيلينى الحدود، راح يستعمل الأصوات والإشارات! وعندما بدأت تبدو عليه العظمة انشرح صدره لأنه كان يتحدث مع شخص غريب باللغات الأجنبية. وهذا النقيب (الذى لم يكن

يعرف القراءة أوالكتابة) كان يطلب منى أن أكتب له اسمه هو أيضا: محمد أغا الأرناؤطى أبو سماً شيرى، جوزباشى. هذا الرجل خدم فى هذه المنطقة سبع سنوات؛ ولكنه لم يتعلم كلام العرب المغمورين ـ كان يتفاخر بأنه يعمل ضمن خدمة السلطان العسكرية! بالرغم من أنه لم يتقاضى مرتبه إلا نادرا. هذا الرجل المحترم (قال لى) إنه كان قبل سنوات عدة قُواسا kawas فى القنصلية الفرنسية فى كورفو؛ التى شاهد فيها المعاطف الحمراء الإنجليزية." هاى إنجلى Angli ـ هو ـ هو! قال الرجل : الإنجليز (أقوياء بحق). ولكن الألبان، هو huh- أى الألبان أصحاب قلوب كبيرة!ـ والقلب هو الذى يجعل الإنسان إنسانا!ـ القلب هو الذى يحض الإنسان على القتال!ـ أها؛ القلب هنا قوى وجرئ هنا!" ثم وضع ذلك الألبانى يده اليمنى على صدره الشهم الشجاع. هذا الصديق كان يبدو عليه الحزن والهم: فقد أبلغنى العقيد محمد أن زوجته توفت مؤخرا بصورة مفاجئة؛ وأنه هو الذى يعيش وحيداً مع أبنائه الصغار ـ ولكن محمد الأغا، كان فضوليا ويصعب إرضاؤه، وكان مستوى فهمه وإدراكه أعلى بكثير من المضُيف: كان يتكلم العربية بطلاقة ولكن على الطريقة التركية. هؤلاء الناس شهدوا مؤخرا تدمير الدولة (الامبراطورية العثمانية) فى أوروبا: قالوالى: 'إن القائم حاليا نوع من الهدنة وليس سلاما؛ وقالوا لى أيضا: أن إنجلترا تقف إلى جانبهم، وأنها فى ذلك الوقت أرسلت جيشا من الهند عن طريق البحر ـ وأن هذا الجيش مرعلى مدينة جدة ـ وقوام ذلك الجيش حوالى مائة ألف رجل!' يضاف إلى ذلك أن النمسا كانت تقف أيضا إلى جانب السلطان؛ وأنهم كانوا ينتظرون اندلاع الحرب من جديد.

قبيل المساء، وبعد أن تناولت وجبة تركية مع مضيفى، دخل علينا قُواس الشريف حسين؛ كان ذلك القواس يحمل معه غيارا جديدا من الملابس،جاء به إلىّ ـ وعندما ألبسونى ملابس شيخ عربى؛ أخذنى العقيد محمد فى فترة الشفق ومر بى من أحد الشوارع لحضور مجلس الشريف : كان الطريق خاليا فى تلك الساعة من اليوم.

كان بعض أفراد الحرس البيشى Bisha يقفون على درج السلم؛ وقدموا لنا التشريفة ونحن نمر متجهين إلى مكتب ضابط الشريف: كان هناك بعض الرجال

المسلحين يقفون عند نهاية السلم من أعلى . وهنا وجدنا غرفة للانتظار؛ ثم تركني ضيفي، ليتقدم هو صوب الشريف. ولكنه عاد بسرعة ليصحبني إلى داخل صالة المجلس؛ التي يجلس فيها الشريف أمير مكة بضع ساعات كل يوم - وذلك طوال وجوده في مقره الصيفي في الطائف - كنت أبدو مثل شيخ عربي كبير وسط هؤلاء المشايخ musheyikh. في هذا المكان يجتمع إلى الشريف يوميا كل من علية القوم والأعيان من المواطنين ، وكذلك الأعراب والأقارب: والسبب في ذلك، أن هذ المكان ، هو المجلس، أو إن شئت فقل:إنه برلمان القهوة عند كل أمير من أمراء الجزيرة العربية؛ هذا الأمير كان من السهل الوصول إليه ، وله شعبية بين الناس، مثلما كان العقيد محمد نفسه.

سرعان ماخلت الغرفة من الضيوف: ولم يتبق في الغرفة سوى الشريف ومعه شقيقه الأصغر عبد الله باشا، وهو رجل أبيض البشرة قوي البنية مثل الأتراك، وصاحب سلوكيات عربية لطيفة. حسين باشا [كان الشريف يحمل ذلك اللقب التركي] رجل سمح الوجه، وصاحب همة ونشاط باديان في عينيه وصاحب سلوك إنساني؛ وهو يتكلم بصوت معتدل بشوش: وعمره يقدر بحوالي خمسة وأربعين عاما. كان يبدو من جلسته الرجولية، رجلا فارع الطول وكانت بشرته بنية اللون؛ وكان صدره عريضا، وكبير الأطراف وطويل الساقين أيضا. كان الشريف يرتدي لباسا مدنيا من الألبسة الشائعة في المدن العثمانية، هذا اللباس كان عبارة عن جبة Jubba طويلة زرقاء اللون. كان الرجل يجلس منتصب القامة على الديوان كما لوكان رجلا أوروبيا، وكان محياه جذابا ؛ وكان يدخن التبغ في غليون مثل " قدامى الأتراك." هذا الغليون،أو إن شئت فقل: الشيشة ، كان موضوعا في طبق أمام الشريف: في حين كان ساق الياسمين الموجود إلى جواره يقارب طول الرمح- نظر الشريف مباشرة: ثم انسحب العقيد محمد بعد ذلك، وهنا جاء خادم وأحضر معه كأسا من القهوة.

سألني الشريف بصوت هادئ:"هل شربت القهوة؟" قلت:" نحن نعتبر ذلك الذي يزدهر في الجزيرة العربية كلها، هو أفضل ما تناولناه حتى الآن؛ ونحن نعتقد أن نبات البن جرى إحضاره إلى الجزيرة العربية من خلف البحر (الأحمر)."-"إي، أعتقد أن

نبات البن جرى إحضاره من الحبشة: أليس أولئك الذين كنت عندهم فى نجد، من شاربى القهوة؟" ثم سألنى الشريف بعد ذلك عن العدوان الذى حدث " فى عين الزيمة"؛ ثم بعد ذلك عن العدوان الذى حدث فى السيل." قال : هذا كاف لإخافة أى إنسان مهما كان .[المؤسف أن حسين نفسه قتل بعد ذلك بوقت قصير بسكين واحد من السفاحين- حدث ذلك ، فى مدينة جدة، فى العام الثانى بعد رحيلى عن تلك المدينة: ولفظ ذلك الرجل أنفاسه الأخيرة بنفس المرح والعدل الذى اشتهر بهما فى حياته؛ مات الشريف حسين بين ذراعى واحد من مواطنينا هو الدكتور جريجورى ورتابت ، الذى كان وقتئذ مسئولا عثمانيا مقيما عن الصحة فى منطقة البحر الأحمر]. - ثم أردف الشريف حسين فى ود وحنان، ولكن ها أنت قد وصلت أخيرا؛ وبذلك تكون الأخطار المحيطة برحلتك قد انتهت. استرح ماشئت فى الطائف، وبعد أن تسترد عافيتك ونشاطك سوف أرسلك إلى القنصل الإنجليزى فى جدة." سألنى الشريف حسين،' ألم أفكر فى زيارة الطائف؟'- وأردف قائلا: ربما كان ذلك أفضل لوأننى جئت إلى هنا مباشرة من السيل؛ وكان يمكن أن يرسلنى إلى جدة مباشرة:' أضاف الشريف الطيب قائلا:" هذه ليست المرة الأولى التى يجىء فيها الأوروبيون إلى هنا؛ لأنى - أحسب أنه فى العام الماضى، جاء إلى هنا أوروبى بصحبة قنصل هولندا؛ جاء إلى هنا لزياره نقش بالقرب من طريق السيل ؛- سوف أكلف من يطلعك على ذلك النقش أثناء العودة." رددت عليه،' لقد علمت أن واحداً (بركخاردت) جاء إلى هنا فى زمن العمليات الحربية المصرية.'- وهنا نظر إلَى الشريف نظرة توحى بالدهشة المشوبة بالود والحنان! [تعجب، الشريف ،لذلك المصدر الذى استطعت منه الحصول على هذه المعلومات عن شئونهم الداخلية؟] - شريف مكة الغامض هذا، الذى أغراه محمد على ذلك الثعلب الألبانى، يحتمل أن يكون العم الأكبر لهذا الأمير المحترم.

"سألنى ، كيف استطعت معايشة البدو، وكيف تحملت طعامهم؟- وهل وجدت أنا البدو مثلما يقال عنهم [فى الحكايات التى تروى عنهم فى الحضر]، أم أنهم أقل بكثير مما يقوله عنهم الرأى العام [وبخاصة فى مسألة الشهامة] ؟- هل شاركت فى عملية السقيا؟ وسحبت الدلاء الواحد بعد الآخر - على هذا النحو؟" وهنا وببشر العرب

وترحابهم وضع الشريف الطيب شيشته جانبا، وراح بنفسه يأتى الحركات التى يفعلها السقاة وهم يجلبون الماء من الآبار لكى يسقوا ماشيتهم!(وقد شاهد ذلك بنفسه أثناء القيام بحملة من الحملات). مبلغ علمى أنه ليس هناك أميرا فطريا من أمراء الجزيرة العربية - إلا وفية شيء من الوهابية المرة - إلا وقد فعل هذا الشيء نفسه. الناس كلهم هنا يشرحون الصدر -" لم تكن عندى القوة التى تمكنى من رفع الماء معهم." وهنا نظر إلى نظرة حنان إنسانى ،" إى، لقد عانيت الكثير.

سألنى بعد ذلك عن رحلتى؛ وأجبته وتحدثت معه عن مدائن صالح، وعن تيماء، وعن حائل: واندهش الشريف عندما علم أننى أمضيت شهرا - بالطول فى تحمل ذلك الطاغية!- فى مدينه ابن الرشيد. سألنى عن محمد بن الرشيد،' هل اعتبره رجلا طيبا؟-' من الواضح أن الشريف حسين، الذى كان يتلقى من ابن الرشيد هدايا كل عام ،لم يكن ينظر إليه على إنه رجل طيب : وعندما أجبته باختلاف قليل عما كان يتوقعه أو ينتظره وقلت:" هو رجل محترم،" لم يكن الشريف راضيا أو مقتنعا بتلك الإجابة. ثم تكلمنا بعد ذلك عن عنيزة؛ وسألنى الشريف عن الزامل،" هل هو رجل طيب؟" وفى النهاية سألنى' ما إذا كنت مسرورا من الملابس [الهبة الإميرية] التى كنت مرتديا إياها أمامه فى مجلسه؟' وسألنى أيضا ماإذا كان مضيفى [الذى كان الأمير يشك فيه] قد أكرمنى أم لا؟ ومضت علينا ساعة أو أكثر قليلا ؛ وبعد ذلك دخل العقيد محمد الذى كان ينتظر فى الخارج؛ وهنا وقفت كى أستأذن فى الخروج . وتكلم الشريف مع المضيف عنى؛ ونبه عليه أنى ينبغى أن أتحرك فى الطائف تحركا حرًا وبلا قيود داخل الطائف وخارج أسوارها أيضا؛ وأن يسمحوا لى بزيارة كل الأماكن التى أود زيارتها - وقَبل العقيد محمد اليد الكريمة ، يد الشريف، وخرجنا من المجلس.

عدنا عن طريق الشوارع إلى سوق الطائف؛ وذهبت للجلوس على المقاعد أمام قهوة من المقاهى . هذا هو نادى الضباط الأتراك ، الذين يفدون على هذا المكان لشرب القهوة، وتدخين النرجيلة (الشيشة) ولعب الشطرنج . وجدنا هناك قائمقام، ووجدنا القاضى ، وجراحًا شابا من الجيش وبعض الشخصيات الأخرى؛ كانوا جالسين على

المقاعد لتمضية ساعات المساء، والتسامر على الطريقة الشرقية . قدم لنا مصلِّح القهوة شيئا من القهوة وعلى شفتيه ابتسامة؛ وبعد تبادل التحية أصبحت من بين كبار معارف أولئك الذين كانوا يجلسون على المقاعد . الجراح - الذى كان من إسطمبول - تحدث معى بالفرنسية التى لم يكن يجيدها . 'هل أنا طبيب ؟' وكرر عليهم بالتركية ، وهو مندهش، أننى لم أكن طبيبا ! وذلك لأنهم سمعوا أننى كنت أمارس تلك المهنة فى أسفارى . ولكن القاضى رد علىَّ قائلا: " هذه هى طبيعة الإنجليز ، وهم لايكذبون ." ثم سألنى الجراح بعد ذلك ،' ما إذا كنت أود زيارة مكة ؟ لقد قرأ باللغة الفرنسية عن أوروبى عاش سنوات عدة فى كل من المدينة (المنورة) ومكة (المكرمة)!' - وهنا مر علينا معبوب: وعندما رآنى، جاء نحوى لتحيتى. "قال العقيد محمد: هذا هو الرجل المحترم ! الذى أنقذ حياتك فى عين الزيمة- يامعبوب مولانا الشريف يشكر لك هذا العمل الطيب، ويشكرك أيضا للعناية التى أوليتنا إياها . والله لو لم تكن فى العين، لكان خليل قد قتل هناك بالأمس بأيدى ذلك السالم اللعين ." معبوب: " حسن الطالع هو الذى أوجدنى فى العين فى ذلك الوقت لإنقاذ خليل من شريف مجنون ؛ الذى وقف فى وجهه ومنعه من المرور إلى جدة".

- قال الجراح الشاب:' لقد شاهد ذلك النقش الذى أشار إليه الشريف : وأن الحروف بصورة واضحة- أبو قراط HIBBOCKATES" وبعد ذلك قال لى شخص آخر إنه استطاع قراءة ذلك النقش - وأنه فيليب PHILLP المقدونى MACEDON - وأن تلك كانت أرواح ، ومن الأفضل أن تخضع للدراسات اللاهوتية: صحيح أنهم ينتمون إلى الجماعة نفسها ولكنهم غرباء على الذهن الأوروبى . وهنا دخل علينا جراح عسكرى آخر وقال: 'الطائف بلغت من الجفاف حداً تعذر معه أن تكون الحياة فيها صحيحة ؛ إن الحمى انتشرت فيها هذا العام: وأن مستنقعا خلف البلدة هو الذى يفسد هواءها أثناء الليل.' وأن الناس فى الطائف كانوا يتطلعون لسقوط المطر (المدارى) فى الشهر القادم؛ وإن هذا المطر يستمر أربعة أو خمسة أوستة أسابيع فى الطائف- أليس الحد الفاصل للأمطار الموسمية يقع فيما بين اليمن السعيد وصحراء الجزيرة العربية ؟ وبالرغم من الارتفاع الكبير للسهل المحيط بالطائف [الذى يصل إلى مايقرب من ستة

آلاف قدم] ، إلا أن الجليد لايتكون فوق هذا السهل . كان الجراحون الأتراك - أصحاب المزاج الساخر المستخف إلى حد ما - متهمين " بالجهل " من قبل العسكريين ومن قبل الحضر نظرا لأن هؤلاء الناس بحكم تكوينهم الشرقي لايشعرون بالقلق ولا يصبرون على العلاج الطبي البطيء الذي يطول وقد يكون غير مؤكد في بعض الأحوال- كان الباشا، أوإن شئت فقل الحاكم العسكري لهذه المنطقة يقيم في مقره الصيفي في مدينة الطائف : أما مقره الدائم فهو في جدة.

نهضنا من مجلسنا، وذهبت بصحبة كل من القاضي ومضيفي، لزيارة تلك الكتلة من الصخر التي تقع مقابل بيت القاضي: والناس هنا يقولون: إن هذه الكتلة هي صنم العزّى el-Uzza. شاهدت على ضوء الفوانيس كتلة غير مهذبة من صخر الجرانيت رمادي اللون، وهذه الكتلة لم تكن عليها أية نقوش (انظرالصورة رقم ٨)، - هذه واحدة من الصخور المأخوذة من هذه الجبال؛ والتي تصادف وجودها هنا قبل تأسيس بلدة الطائف – مسألة التمسُّح في الحجر الأسود وتقبيله في الكعبة ماتزال طقسا من طقوس الدين الإسلامي : وبالطريقة نفسها يمكن أن ترى أهل البلدان الشمالية من الجزيرة العربية يتدافعون لتقبيل جمل المحمل العائد من مكة؛ وتراهم يمسحون وبحماس شديد ملابسهم في ذلك الجمل الحامل للمحمل. ولكن القاضي هو والعقيد محمد قالا لي:" هناك بعض الملعونين في المدينة (الطائف)، الذين يجيئون عندما يصابون بالمرض لكي يحكوا أجسادهم في السر، أثناء الليل، في هذه الصخرة. (أضاف الرجلان) أن تلك الأحجار كانت بمثابة هواتف للغيب، عند الوثنيين، في أيام الجاهلية، وأن الشيطان كان يتكلم من خلال هذه الصخور." [ونحن نعرف أن الكعبة كانت فيها أنواع مختلفة من الأصنام؛ ومن بين هذه الأصنام صورة كل من عيسى (يسوع) ومريم . عندما عاد محمد (ﷺ) إلى مكة فاتحا،أمر بتدمير هذه الأصنام كلها؛ وقد أحصاها علماء العرب (المولعين بالمبالغات) بما يقرب من ثلاثمائة وستين صنما!- أوإن شئت بواقع صنم واحد لكل يوم من أيام العام، مما جعلنا نقول: ان عُدد تلك الأصنام كان كبيراً .

فى الصباح أوفد الشريف واحدا من الحرس البيشى Bishy، أو إن شئت فقل: الحرس الشريفى، لكى يتولى حراستى:ـ هذا الحارس من بنى سالم، وهو قروى (من قبيلة حرب) ، وهو من سلالة زنجية، ومن جبل الفجيرة el-Figgera، الذى يقع فيما بين المدينة (المنورة) وينبع : اسم هذا الحارس هو Zeyd، وهو شاب محترم وطيب، ويعرف شيئا من القراءة والكتابة. والحراس البيشيين (الزنوج) لايجرى جلبهم فقط من وادى بيشة، كما أن سكان وادى بيشة ليسوا كلهم من سلالة أفريقية؛ ولكن الجنود البيشيين هم عبارة عن أولئك الرفاق الذين يتقدمون ويعربون عن استعدادهم ورغبتهم فى خدمة الشريف. ارتدى زيد حزام الطلقات (الجبخانة)، وعلق فى حزامه أيضا السكين الذى يشبه السيف؛ وجلس على الأرض مثلما يفعل البدو، ثم أخرج من صدره كتابا صغيرا من كتب الدين، وراح يتمتم لنفسه، وينظر إلىَّ بين الحين والآخر. وعندما بدأت أراقبه؛" قال: أنت طيب، أنت لست كافرا، ولا ينقصك سوى معرفة وتعلم الطريق إلى الله." سألته عن ديرته وعن بداية هذا الوادى الكبير فى وادى الليمون؟" أجابنى،" هذا أمر محتمل ." وقال لى : إن كل قبيلة حرب يمكن تقسيمها إلى بنى سالم والمصروح Mosruh. سألته عن مستوطناتهم. زيد:" سأقول لك كل ما أعرفه.ـ وهذا هو ماسمح به لى الشريف: قرى المصروح Mosruh هى رابوج Rabug، كليس Kleys والخريبى (بالقرب من مكة)، والسُّريقية es-Suergieh، وقرى أخرى، وأنا لا أذكر كل أسماء تلك القرى. ولكن قرى بنى سالم فيما بين المدينة (المنورة) وينبع وفى وادى Wady فرًّاع Ferra ـ وهو وادى طويل يعيش فيه أعراب بنى عمر Amr" والعبيدة ubbeda el- هم على النحو التالى:ـ الجديدة el-Jedeyda، أم umm ذيان Theyan، كيف Kaif، القصة el-Kissa الآب el - Ab، الحمره el-Hamra، الخورمة el-Khorma، الوسيطة el-Wasita الحسانية el-Hassanieh، الفايرة el-Faera، العلى el-Aliy، جديد Jedid، بدور Beddur، (وقريته) الفجيرة el-Figgera؛ وفى وادى ينبع يوجد كل من السويجة Sweyga الشّاذة Shatha، النجيِّل en-Najjeyl، مدسوس Medsus". قال زيد عن اللحَّابة، (قطَّاع النخيل فى قافل الحج): هم من المصروح Mosruh وهم فخذ من قبيل العوف Auf": أما بقية العوف فهم ليسوا من اللصوص. وهو أبرز شخص بين اللحابة الذين هم أفضل

اللصوص؛ ونظرا لأن اللحابة توارثوا اللصوصية عن أبائهم ،فهم ليسوا على استعداد للتخلى عن ذلك وامتهان عمل آخر ينقلهم إلى حياة أفضل وأكرم. وقوة هؤلاء اللحابة تعادل ستمائة بندقية ."[ربما يقدر عددهم بحوالى مائتى رجل أوأقل من ذلك]. سألته ،" كيف تجرؤن على الإساءة للحجاج؟ وأنتم بقية قبيلة حرب ، لماذا لاتطهروا ديرتكم من هؤلاء البغاة الآثمين؟" ولكن زيدا كان يرى أن ذلك لن يكون جيدا ، وبخاصة أن هؤلاء الناس يمارسون ذلك الفعل من قديم الأزل! هذا يعنى أن العرب لا يرون شيئا غير تحزباتهم أو عصبياتهم؛ وبالتالى فإن عدم وجود روح عامة ومشتركة بين العرب هى التى تؤدى إلى عدم ظهور الزعماء أو القادة بينهم . ثم أردف زيد يقول: أفخاذ حرب من فرع بنى سالم هى:

الحمدة el-Hamda الرحالة Rahala السراحة es-Serraha السعادين

الصُّبح es-Sobh بنى عمر Beny Amr المعارة el-Moara الهوازم والحجيلة

المطالحة el-Motalha الجواد el-Guad ولاد سليم Weladselim الظهايرة

المحاميد Mohamid الوفيان el-Wuffiam بنو تميم (غير النجديين) المزاينة

الحنيطا

الجميلة

قال زيد عن المصروح:

السّعادى Saadi بنى أسّام Beny Ass'm بنى حسين Beny Hasseyn

اللحابة Lahabba بنى عمر Amr (الذين من الفراع وليسوا من بنى سالم)

(هؤلاء كلهم من الأشراف)

الزبيد ez-zbeyd الجراجرة el-Jerajera

البشر Bishr العُبيدة el-ubbeda

الحمران	el-Humran	الجهم	el-Jahm
السحيلى	Sheely	أهل حجُّور	Ahl Hajjur

دخل علينا العقيد محمد- ومن بعده سالم: الذى كان الشريف قد أمره بإعادة كل ذلك الذى سرقه منى هو وجماعته. أعاد اللص التعيس المسدس (مكسورا!) ، وأعاد إلّى البارومتر، وأربعة ريالات، التى اعترف بأنه سرقها من خرجى. ثم قال: سامحنى ياخليل! العيش والملح ونحن فى طريق مجرى السيل، عندما تناولت السكين، للمرة الثانية، لتقتلنى؟" العقيد محمد:" خليل يقول الحق؛ لماذا لم تكن تتذكر عندئذ ذلك العيش والملح؟"- "صحيح أنا أذنبت وأخطأت ولكن أرجو أن يتغاضى الشريف عن ذلك ! وأرجو ألا يقف ضدى ياخليل!" طلبت منه كيس النقود والأشياء الصغيرة الأخرى . ولكن سالم أنكر أن لديه أى شىء غير هذا الذى جاء به إلّى! أخرجه العقيد محمد وطلب منه العودة بتلك الأشياء على الفور- "قال مضيفى ؛ سالم يهم بالخروج: هذا شخص ملعون ! لقد قرر الشريف أن يسلسله بالحديد بعد رحيلك، وسيفعل الشىء نفسه مع الشخص الآخر الذى ضربك . وسوف يعاقبهما عقابا شديدا، ولكنه لن يفعل ذلك الآن، لأن أقاربهم قد يؤذونك وأنت فى طريقك إلى جدة. وقد أصدر الشريف مرسوما و سوف يرسل إلى كل القبائل والقرى التابعة له، "أنه فى حال وصول أى غريب إلى ديارهم، فإنهم يتعين عليهم إرساله إلى الشريف": فلربما مر أوروبى آخر فى ممتلكات الشريف، وقد يسئ هؤلاء الجهلة معاملة مثل هذا الغريب. وبالتالى يعفى الشريف نفسه من تساؤلات حكومات مثل هؤلاء الغرباء."

ربما كان الشريف حسين واسع الصدر فيما يتعلق بقيام أوروبى (مسيحى) بزيارة مكة (المكرمة) إذ ليس فى ذلك مايتعارض مع جوهر (الإسلام). وقد وصلت للأمير من المدينة أخبار ذلك البريطانى الذى سبق الإشارة إليه؛ هذا الأوروبى الذى ربما ألقى أهل مكة القبض عليه لأنه نصرانى. وقد أبلغنى العقيد محمد أن ذلك الأوروبى محتجز هناك فى الوقت الراهن؛ كما قال لى العقيد محمد أيضا: إن هذا الأوروبى استشهد بكثير من الشخصيات، التى سبق أن عرفته فى مواسم سابقة من

مواسم الحج. وكتب الشريف مرة ثانية يقول: "إذا ثبت أن ذلك الغريب مسلم فإنه يتحتم أن يبقى فى مكة ويقيم فيها إن أراد؛ أما إذا ثبت غير ذلك، فإنه ينبغى إرسال ذلك الأوروبى مع الحرس إلى قنصليته فى جدة." وسرعان ماتكلمت فى هذا الموضوع عقب مجيئى إلى هنا بأيام قلائل، وقلت إن ذراع القنصلية يجب أن تمتد لحماية المواطنين الذين يتهددهم الخطر. الإجابة: " إذا ما تصادف وجود إنجليزى فى مكة، فذلك يعنى أن ذلك الرجل ذهب إلى هذه المدينة دون أن نعلم نحن بذلك: ولو جاء إلينا لحلنا بينه وبين ذلك الذى فعله أو ارتكبه؛ أما وإنه الآن فى خطر، فذلك خطؤه هو، ويجب عليه تحمل ذلك الخطأ!"

تجولت فى المدينة مع ذلك الألبانى؛ ولكنه بحكم نظراته الصارمة كان يرفض التجمعات التى كانت تحيط بنا، وكان يفرق بعض هذه الجموع بيديه ويقول لهم بصوت مخيف: الصلاة! الصلاة!، بمعنى ، اذهبوا لأداء الصلاة ! إلى أن بلغ الأمر به حد ضرب الناس (نظرا لأنه كان يتعذر عليه سماع صوتى وسط هذه الجموع) ، وأمسكت ذراع الألبانى بكل قوتى؛ من منطلق أن الناس فى البلدة قد يقولون: " لقد شاهدنا المسلمين يضربون اليوم بسبب نصرانى." وعليه عدنا ثانية إلى النادى (القهوة) الذى فى ميدان السوق؛ وهذه القهوة محاطة بالدكاكين المفتوحة وطاولات البيع والشراء، كما لوكانت سوقا من الأسواق، وفى المنتصف توجد طاولة عليها مصابيح . وقد أرانى محمد كل ذلك عن طريق الإشارة بيده، بعدأن سألته عنها، وكان يفعل ذلك وكله شك كما هو حال الشرقيين وبخاصة عندما يتعلق الأمر بأشيائهم؛ وتساءل الرجل، "هل سبق أن رأيت مكانا بائسا مثل هذا المكان؟"

عدت إلى مضيفى؛ وحضر إلى فى بيت ذلك المضيف كل من سالم وفهيد ـ وهما محطمان تماما، كى يعيدا إلىّ بقية الأشياء الصغيرة المسروقة: وقد جرى احتجاز الجمَّال فى الطائف من أجل هذا الغرض: الأمر الذى منعه من رعاية ماشيته ورعاية التجارة التى كان مكلفا بنقلها؛ هذا بالإضافه إلى أنه كان يخشى أن يقع عليه شىء من العقاب البدنى. العقيد محمد: ما سمك العصا التى ضربك بها ذلك الرجل ؟" ثم

أرانى العقيد محمد أولئك الأشخاص الذين سارعوا بإمساك أيديهم ليمنعوهم من ضربى" وعندما أجبته قائلا: "أقل من عصاه التى يتوكأ عليها ، وأكبر من هذه الباخورة" تعجب سالم قائلا: " ياالله !أنعم بصدق هذا النصرانى !إنه لايضخم الأمر!" وشكرانى هما الاثنان ـ "قال مضيفى : يالهما من وغدين!ـ بعد أن دخلت أراضى السلطان، وأصبحت بين الأصدقاء، ياللعجب ، حاولوا قتلك!"

قبل غروب الشمس أدخلنى العقيد محمد إلى غرفة داخلية لتناول العشاء؛ واستدعى أيضا الجندى البيشي: وجلسنا حول مقعد مستدير من فوقه صينية، فوقها مجموعة أصناف من الطعام التركي. ولكننا نحن الضيوف، الذى كان واحد منا من قرية حرب والآخر كان قد وصل إلى هذا المكان قادما من الصحراء منذ فترة وجيزة، لم نكن ميالين تماما للأكل من تلك الأصناف ؛ التى قد تضر بنا ـ وعندما سألونى، 'كيف كنت أتغذى بين البدو؟' امتدحت الحمية الغذائية البسيطة فى الجزيرة العربية. زيد:" هل سمعت مايقول شيخ الحرب (نسبة إلى قبيلة حرب)ـ عندما تناول العشاء مع باشا الحج؟ـ'قال البدوى: أنا لاأمتدح طعام بلدك !أنا يكفينى الأرز ولحم الضأن مسلوقين ؛ وهذا هو ما اعتبره مفيدا للصحة: وسوف أريك ذلك' ـ والله، لقد أخذ الشيخ شيئا من عشاء البدو ووضعه فى إناء؛ وأخذ شيئا من عشاء الباشا ووضعه أيضا فى إناء: ودفن الإناءين سويا . ومع طلوع الصبح تناول البدوى الإنائين، وذلك على مرأى ومسمع الباشا: واتضح أن لحم البدو لم يفسد! ولكن إناء الباشا تكونت فيه بعض الديدان ـ إلى حد أن الباشا كره النظر إلى طعامه كما كره رائحته أيضا ! قال الباشا : 'الله ، لقد تغلبت علّى!'"

– قال لى العقيد محمد: طلب الشريف منا إعلامك عن كل شىء؛ وشجعنى مضيفى بأن طلب منى عمل رسوم لكل ذلك الذى أود رؤيته أومشاهدته فى الطائف وعينوا زيدا ومعه رجل آخر من بيشة كى يقوما بمرافقتى . فى الصباح ذهبت لزيارة الأحجار الصّنمية الثلاثة المعروضة فى الطائف . شاهدت العزى الذى سبق لى رؤيته فى ميدان سوق القصابين الصغير، هذا الصنم يبلغ طوله حوالى عشرين قدما: شاهدت ذلك

الصنم بالقرب من أحد الأطراف العليا يوجد تجويف يطلقون عليه اسم مقام Makam الراس er-ras، بمعنى 'مقام الرأس؛ وهم يقولون : إن ذلك كان هو فم هاتف الغيب عند الوثنيين (انظر الصورة رقم ٨) شاهدت أيضا حجرا أصغر من الحجر الأول فوق أرض مرتفعة ، أمام باب المدفع الرئيسى، وهم يطلقون على هذا المدفع الرئيسى اسم الهبّال el-Hubbal: هذه الصخرة هي واحدة من صخور الجرانيت الغشيمة يصل طولها إلى حوالى خمسة أوستة أقدام ومشقوقه من النصف" بضربة سيف من سيدنا على"(انظر الصورة رقم ٨) . وهنا اقترب منى درويش من الدراويش ، وراح يحملق فّى ويطيل النظر إلىّ، وصاح صياحا غريبا، وهنا راح البيشيان يطاردانه . ومر علينا رجل محترم من الطبقة المتوسطة من المواطنين؛ الذى قال عندما رآنى واقفا أمام الحجر:" ياأسفاه !ليس هناك مكان من أماكن المسلمين لم يدخله هؤلاء الناس؛ وهاهم يأتون إلى هنا أيضا!"

خرجنا من بوابة المدينة الموجودة عند نهاية المدينة ومررنا بالمسجد الجميل الذى يقال له: مسجد عبدالله ، وعبدالله هذا هو ولد محمد عم العباس. هذا المبنى الأبيض القديم فيه نوع من التناسق المهيب، والمسجد له قبتان : وجزء من جدران وحوائط ذلك المسجد أعيد بناؤها وهم هنا يطلقون على هذا الحجر اسم اللّات el-Lata [الذى هو فينوس العرب على قول هيرودوت] : هذا الحجر عبارة عن صخرة لاشكل لها، وهى من حيث الطول تقترب من طول حجر العُزّى، ولكنها أقل منه من حيث الارتفاع ، وهى من الجرانيت الرمادى اللون أيضا (انظر الصورة رقم٩) شاهدت طرف مثقاب عامل من عمال التعدين ـ كما شاهدت كلمات فى طرف الصخرة! قالوا لى: إن ذلك من عمل بعض عمال الطرق، وقد حدث قبل عامين؛ هذا المحطم الميكانيكى للعادات القديمة كان يتطلع إلى تحطيم الشيطان بمسحوق ناسف: ولكن هذه الكتلة لم يتطاير منها سوى قشرة صغيرة جداً ـ وهذه القشرة كفيلة بالكشف عن طبيعة هذه الصخرة.

ـ كانت الصخور فى مرحلة طفولة الطبيعة الإنسانية بمثابة هواتف للغيب ومنقذين: هذا يعنى أن تلك الصخور كانت أربابا وآلهة فى صحراء الجزيرة العربية !

[استمر ذلك حتى القرن السابع] كانت تلك الأصنام بمثابة الأماكن الخاصة بالطقوس الدينية۔ أى أنها كانت مناهل menahil، بدلا من أن تكون هى آلهة بحد ذاتها .[راجع سفر التكوين السورة رقم ٢٨ الآية رقم ١٧ : كما أن الأعلى يسمى " صخرة" عند الشعراء العبريين] هذه الصخور الدينية تكون غير مشذبة الحواف؛ بالرغم من أنناعرفنا من قبل أن البدو يستطيعون تشكيل أية كتلة من الصخر بحيث يكون بينها وبين شيء آخر شبه كبير. كانت هناك بعض الحفر الضحلة أوإن شئت فقل: الأوانى ، فى الجانب العلوى من ذلك الحجر الذى يطلقون عليه اسم اللات Lata. هذه الحفر هى أيضا مقام الراس makam er-ras (مقام الرأس) كما هو الحال فى صنم العزّى ؛ ولكن هذه الحفر تبدو وكأنها من عمل الطبيعة . هذه الآلهة ليست آلهة؛ لأن الأجيال التى كانت تخشاها ـ الخوف من ، تلك العاطفة البهيجة والمقنعة فى الدين! ماتت وانتهت ـ الباطل هو تلك الحكمة الدينية التى تقوم على حجج مؤقتة واهية، لكى تنقض على المعرفة الأفضل ! 'مخاوف' آباء الجزيرة العربية هؤلاء ! ألقى بها حاليا بين الأدران والأقذار بعد أن تخلى عنها العابدون من البشر وهجروها .

أخذنى زيد إلى بستان من البساتين ؛ كى نقضى فيه فترة الظهيرة فى ظلال الأشجار الكثيفة ـ لم أشاهد على هذا الجانب من البلدة كثيرا من الأعشاب والحشائش الخضراء؛ ولكنى رأيت وشاهدت صحراء جرداء يميل لونها إلى الاسوداد [كما لوكانت صخورا بركانية]. ثمار بساتين السوق يجرى إرسالها من الطائف وجدة: والبساتين الواقعة بعيدا عن تهيرات الماء وغدارنها ، يجرى ريها من حفر ضحلة يجرى سحب الماء منها باستعمال ثيران الجزيرة العربية ، تلك الثيران صغيرة الحجم . دخلنا بستان bustan رجل ثرى غريب اسمه القاضى el-Kady موسر Musr، وهو أحد الشخصيات التى تعيش فى الطائف بشكل عام؛ ولكنه لم يكن فى الطائف فى تلكم الأيام. وقفت نساء الحديقة عندما شاهدونا قادمين، وغطين وجوههن ـ ثم فرشن سجادة تحت شجرة كبيرة؛ وأحضرن لنا مخدات كى نتكئ عليها؛ وقامت واحدة بجمع الثمار الناضجة للضيوف وجلست امرأة أخرى كى تسوى لنا قهوة، التى صلّحتها لنا۔ كما هو

الحال هنا- فى إبريق من الفخار، له شكل قديم؛ فى حين قامت امرأة ثالثة بإعداد النرجيلة (الشيشة) : وكانت هناك صبية صغيرة تقوم على خدمتنا عن طيب خاطر وبهمة. وبعد أن شربنا القهوة تركتنا النساء كى ننال قسطا من النوم . وهنا رقد زيد على كوعيه متكئا على المخدة وأخرج كتابه من صدره من جديد؛ وبينما كان زيد يقرأ كانت علامات التدين ترتسم على وجهه؛ ولكن هذه المناسبة لم يظهر فيها أى شىء من تشدد هذا الرجل، كما هو الحال عند أصحاب الطبائع المريضة- هذا الشاب الصغير ، الذى اسمه زيد، كان قد تخلى مؤخرا عن قرية حرب تخوفا من الشيخ . شيخ جبل الفجيرة يتسلم صرةً من صررطريق الحج ؛ وهذه الصرة تدفع على شكل أرادب من الحبوب؛ والشيخ يقوم بتوزيع تلك الأرادب من الحبوب على أرباب العائلات والأسر: ولكن مطالبة زيد الذى بلغ سن الرجولة بنصيبه [ليس ماقيمته خمس ريالات] رفضت من قبل الشيخ: وهنا غضب زيد، وهدد أثناء غضبه بقتل الشيخ: وبدا بعد ذلك يرى أنه لم يعد له مكان بين الأعراب الذين كان يعيش معهم. وبالتالى حمل معه أسلحته ، وعبر الجبال إلى مكة (المكرمة) ؛ وفى مكة جرى ضمه إلى الخدمة فى صفوف جنود الشريف بعد أن وجدوا أن طوله مناسب.

الفصل الثامن عشر

وادى فاطمة

غانم. معركته غير المتكافئة مع القحطان. المجلس الثانى للشريف. قبائل الأشراف. ممتلكات الشريف. يأجوج ومأجوج. الربع الخالى. الطائف تخشى المسكوف وتخافهم. قريش. الاستعداد للسفر إلى جدة." الإنجليز من ديرة الطائف". الشريف يمرض بسبب الحب. تمثال شهير. جبل الصبّية. التمور الجديدة. وادى فاطمة. النباتات المدارية. المحراث. حرة أخرى. أكواخ تشبه خلايا النحل. حر تهامة. رجل ثرى فى العالمين. الحياة المدنية والكرم فى مكة. كلمة من سعود بن سعود أثناء حصار جدة. ضيف الله. كرم زنجى بسيط. نهاية وادى فاطمة. طريق مكة السريع إلى جدة الحمام المقدس أحجار ذكية : قرود تيماء مقهى على جانب الطريق – جدة عند مرمى البصر! البطيخ يزرع فى الرمل بدون ماء رى. أعمال وخزانات تجار الماء فى جدة. قبر حواء. دخول المدينة - قنصلية مضيافة.

التقانا الألبانى عند دخولنا من البوابة أثناء العودة، واقتادنى من خلال فضاء يشبه الشارع مابين سور الطائف (القديم) المبنى من اللَّبن، ومنازل المدينة ، إلى أن أوصلنى إلى فناء الثكنة التى يقيم فيها: فى تلك الثكنة أرانى ذلك الألبانى خيول الخيالة، الذين كلهم من السوريين؛ وكانت تلك الخيول تقف مسرجة وجاهزة للعمل. ثم أعادنى إلى السكن عن طريق نادى القهوة. وفى السكن وجدت شيخا اسمه غانم Ghraneym، وهو من عنيزة؛ وكان يجلس معه شيخ من شيوخ عسير. شربنا القهوة ودار بيننا حديث؛ وقد رحَّب بى الشيخ العسيرى، الذى كان ضليعا فى اللغة العربية

ترحيبا لطيفا وخاليا من أية إشارة أوعلامة من علامات التشدد أوالكراهية- لم ألاحظ في كلامه شيئا جديدا. أما فيما يتعلق بالشيخ العنزى فقد استقبل الإنجليزى - الذى رحب به الشريف وكرمه - بانحناء يوحي بالإعجاب بالنفس. كان غانم واحداً من أقارب الزامل؛ ويبدو أنه كان مقتنعا بأحقيته في الإمارة قبل الزامل؛ وبسبب ذلك اختار التركيز على مسألة الوصول إلى مركز الإمارة في بلده؛ وهو يعيش هنا في مكة على معاش صغير منحه إياه الشريف.[وتلك هي عادات الكرم عند أمراء الجزيرة العربية عندما يساندون الغرباء الهاربين]. وقيل لى هنا: 'إن غانم معرض للخطر والإطاحه برأسه إذا ما عاد إلى بلاده': وعندما حكيت ذلك فيما بعد لبعض أفراد مدينته، عندما كانوا في جدة، ضحكوا؛ وردوا على قائلين:' إن غانم، إذا ماأراد العودة إلى عنيزة، فسوف يعود إليها ويعيش هناك.'

أخبرني غانم، أنه كان من قبل رئيسا لبريد الإبل الإنجليزى في الهند- وأن حقيبة البريد يجرى الآن نقلها عبر الصحراء الشمالية من دمشق إلى بغداد خلال ثمانية رحلات كلها ركوب بلا توقف ! وذلك عن طريق العجيل. [أبلغني أحد تجار عنيزة الذى كان ضمن القافلة، أنه ركب ذات مرة من القصيم إلى الطائف - حوالى ٣٦٠ ميلا؛ ثم عاد ثانية، وذلك كله خلال خمسة عشريوما! وكان يستعمل غذاء من الجلبان(*) ينعش به ناقته. ركب محسن Mehsan العلايدة Allayda ذات مرة بعد صلاة الجمعة من العلا؛ وصلى الجمعة التالية في المسجد الكبير في دمشق - هذه المسافة تقدر بحوالى ٤٤٠ ميلا: ولكن هذا الطريق محفوف بمخاطر نفوق الإبل؛ لأن الطريق يقدر بما يتروح بين عشرة واثنتى عشرة رحلة من رحلات النياق مع وقفات الاستراحة. وساعي بريد طريق الحج الذى يبدأ من بلدة معان يستطيع توصيل رسالة إلى دمشق - على بعد حوالى ٢٢٠ ميلا - بعد ثلاثة أيام. والمسافة من الحجر إلى تيماء - حوالى ٧٥ ميلا، تقطع كلها خلال رحلة واحدة من رحلات النياق؛ والمسافة من خيبر إلى المدينة (المنورة) - حوالى

(*) نوع من الأعشاب الطبيعيه التى تستخدم لتغذية الإبل. (المترجم)

٧٢ ميلا وتقطع خلال رحلة واحدة من رحلات النياق. والناقه التى تكون بصحة جيدة يمكن أن تجرى مسافة سبعين ميلا فى اليوم وذلك فى المسافات القصيرة، وبسرعه ٦٠ إلى ٦٥ ميلا يوميا طوال أسبوع واحد، وبسرعة خمسين ميلا يوميا لمدة أسبوعين. والناقة لها خطو يترتب عليه تحريك رجلها وضمها إلى جوار بعضها، مما يسهل عملية الركوب]. سألنى محسن العلايده أيضا،" ألا يمكن مد خط حديدى عبر الجزيرة العربية، يمر بعنيزة ومنها إلى مكة (المكرمه)؟" قلت :إن مثل هذا المشروع يحتاج إلى مناسبة معينة. والسبب فى ذلك أن شمالى الجزيرة العربية (باستثناء الحجازوجبال غربى الطويق) عبارة عن سهل مرتفع، هذا المشروع ممكن ولكن تكلفة وضع القضبان لمسافة ثمانمائة أو تسعمائة ميل عالية جداً، فيما بين سوريا والشعارة es-Shaara. ومن الشعارة لايبعد الطريق غير المعبد عن السيل es-Sey سوى بضعة أميال قليلة؛ أما بقية الطرق فهى عبارة عن منحدر هين إلى أن يصل إلى عين Ayn" الزيمة ez-Zeyma.

تحدثنا عن هزيمة القحطان . وقال غانم :إنه يأسف لأنه لم يكن هناك فى ذلك الوقت: ولوكان هناك لأعطانى فرسا، أركبها حتى أرى بنفسى أسلوب البدو فى القتال . قال: إنه كان يتعلم فى الطائف ركوب الخيل باستعمال الركاب؛ وأرانى أيضا ساقيه المصابتين . وحكى لنا غانم بعد ذلك عن مغامرة عجيبة من مغامراته فى العمليات الحربية فى الصحراء: هذا الرجل الذى كان عميداً لجماعته لم يكن متفاخرا أو كذابا! وقد تأكدت فى جدة من الحكاية التى رواها لى هذا الغانم؛ والذين أكدوا هذه الحكاية كانوا من عنيزة، ولم يكونوا أصدقاء له بمعنى الكلمة: غانم:" لقد حاربت ذات مرة فى صفوف القحطان- كان ذلك بالقرب من الشبيبية es-Shibbieh، فى صحراء النفود- كنت راكبا بصحبة عشرين من الخيالة العنزيين ، وفجأة وعلى غير وعى منا [الخيالة الذين يمشون بين الكثبان الرملية يكون مجال الرؤية من حولهم ضيق جداً] وجدنا أنفسنا أمام ستمائة [وهذا عدد كبير جداً] من خيالة القحطان- قلت فى نفسى عندئذ: هل ينبغى أن ألقى سلاحى وملابسى أرضا، وأتخلى عن فرسى؛ وأنصرف عاريا تماما [لصوص الصحراء قد يسمحوا للشخص بالمرور إذا ما كان على مثل هذه الحال-

طالما أنه ليس هناك ثأر بينهم وبينه، ولكن خطر ببالي أن ذلك من أعمال، الخسة وعدم الإحساس بالكرامة. هناك ضبطنا ثأرا بينهم وبينه؛]. وهنا ضبطنا أوضاعنا فوق أفراسنا ومضينا لملاقاة القحطان! الذين أصابهم الارتباك عندما شاهدونا نجرى فى اتجاههم ! لأنهم خطر ببالهم أن غزوا كبيرا كان يجرى فى البلدة: - ووالله استدار القحطان وولوا الأدبار!" وراح غانم هو ورجاله يطاردون القحطان واستولوا منهم على ثلاثة أفراس،ثم عادوا إلى عنيزة- البدو ليس بينهم أى شيء من التنسيق،إلى حد أن جمعا كبيرا منهم قد يتفرق كما لوكان ذلك الجمع رجلا واحداً! سألنى غانم أيضا:'مارأيك فى عنيزة؟' واحتقر تشدد السكان الوهابيين وازدراه،كما احتقر أيضا طردهم للإنجليزى.

استدعانى الشريف مساء اليوم نفسه. كان هناك جمع كبير من الناس يجلسون فى أركان القاعة، على الديوان: وفى المنتصف من هذا الجمع الكبير، وتحت نافذه من النوافذ ، يوجد المقعد الذى يجلس عليه الشريف الأمير.

وضعوا كرسيالى من جديد أمام الشريف مباشرة: وراح الأمير يتكلم مع الغريب فترة طويلة استهلك خلالها ثلاثة رءوس من رءوس الشيشة؛ وكنت أفكر بصورة مستمرة 'أنعم بامتياز فهم ذلك الرجل !'سألنى الشريف فى البداية ، عن رأيى فى هواء الطائف؟ وهنا لفت انتباه الشريف إلى ذلك المستنقع الموجود خلف المدينة، ورد الشريف علّى، وهو يتأمل ماقلته له:" لقد أصابنا بلل كبير فى الموسم الماضى: أما هذا العام،فسوف آمر بتجفيف ذلك المستنقع ." سألنى عن الآثار[التى يجرى تضخيمها بين قُرّاء القرآن] فى مدائن صالح . وأجبته بصراحة،'بأن بيوت المواطنين كانت مبنية من اللَّبن؛ والغرف محفورة مثل القبور.' وهنا وافقنى الأمير المتسامح على ماقلت وراح يتأمل كلامى وهو يدخن الشيشة؛ قلت له أيضا: إننى عثرت على أكفان وعلى مادة راتنجية، كانوا يستخدمونها فى تحنيط الجثث."- قال الشريف:" هذا عجيب!" ثم استدار الشريف ناحية جمهور الحاضرين، وراح يتحدث معهم عن مومياوات مصر. "قال: ياللعجب! اللحم البشرى يحفظ طيلة ثلاثة أو أربعة آلاف سنه، والحجر نفسه يبلى بفعل طول زمن

كهذا !" تساءل الأمير." هل أعجبتني الطائف ؟ وما الذى شاهدته اليوم؟' وأجبته، أننا زرنا الأحجار الثلاثة، التى كانت تُعْبَدُ فى" العصر الجاهلى"ـ أحسست بالأمير وهو يقشعر لهذه الكلمة، بل إن تعبير وجهه تغير أيضاً ؛ والسبب فى ذلك أن بينهم وبيننا أرض هشة؛ وقد استثير بكلامى بعض التعبيرات المتشددة من أولئك الأشخاص المهمين الجالسين حول الشريف. وهنا سارعت إلى الحديث عن شواهد القبور فى الحجرـ وأن تلك الشواهد كانت مكتوبة بلغة الأنباط ؛ هذا فى الوقت الذى كانت النقوش الموجودة فى قرية العلا مدونة باللغة الحميرية؛ علما بأن قرية العلى لا تبعد كثيرا عن الحجر. وتعجب الأمير عندما سمعنى أقول: إن اللغة الحميرية مايزال الناس يتكلمونها إلى يومنا هذا فى منطقة من مناطق اليمن!ـ ولكن هذا الذى قلته سرعان ما أكده شيخ يمنى كان يجلس بين الناس ، وبخاصة أن ذلك الشيخ كان من المنطقة نفسها التى يتكلم الناس فيها اللغه الحميرية. تكلم الشريف أيضا عن الكتابة المنقوشة بالقرب من السيل؛ وطلب الشريف منى أن أرسل له صورة من نقوشى عندما أصل مدينة جدة. [أنا لم أعثر على نقوش فى وسط نجد، ولكن هناك فى الوشم نقش مكون من خمسة أوستة أسطر ـ وهذا النقش موجود فى منطقة ماسول Masul السودة es-Sudda، فى حوض من أحواض السيل تحت جبل شطب Shotb، من جبال طويق Tueykـ وهذا النقش معروف لكل الناس فى هذه المنطقة؛ لأن الموروث الشعبى هناك يأخذ ذلك النقش على إنه إشارة إلى منجم من مناجم الذهب!]

كان من بين الحاضرين مواطن حاج أسود اللحية جاء من مدينة كابول؛ كان يتكلم العربية دون أخطاءـ هذا الرجل نادانى فجأة، " ألن تزور كابول فيما بعد؟" " كابول، لاياسيدى؛ أنا أخشى أن يضيع منى رأسى هناك!" ثم قلت للشريف بعد ذلك: " إنهم يغارون من الإنجليز ويحسدونهم؛ ولكن نظرا لأن المسكوفيين (الروس) يهددونهم من الخلف، فقد نتحول إلى أصدقاء لهم." فكر الشريف ملياً ثم ابتسم؛ ثم قال بصوت مهادن :" ربما كان الناس مايزالون همجيين فى تلك المناطق!ـ وما رأيك فى الهند؟"ـ أجبته بسرعة ،" أم الدنيا ummed-dinya". تعجب الأمير وراح يتأمل كلامى ثم أعاده على الحاضرين ـ والسبب فى ذلك أنهم يعتقدون أن إنجلترا الصغيرة نمت وكبر

حجمها مؤخرا " من أرض الهند الواسعة الشاسعة ." أخيرا قال الشريف الطيب :'لقد تحدثت حديثا طيبا باللغة العربية: أين تعلمت هذه اللغة؟' [كنت ألفظ الكلمات بالطريقة النجدية أى بالحاق 'نون' فى نهاية الاسم، وفى بعض الأحيان كنت أستعمل صيغ الجمع البدوية. والتى لها وقع طيب على آذان أهل الحضر]. ـ وهنا استدار حسين إلى الجمهور وراح يتكلم بشىء من الدفء الكبير (الحر) عن التقدم التعليمى الكبير الذى حدث فى السنوات الأخيرة فى كل مجالات اللغة العربية، عند كثير من الشبان فى جبال لبنان،[نصارى ، تخرجوا من الكلية الأمريكية فى بيروت. ـ كان الشريف قد زار بيروت منذ سنوات ، عندما كان رجلا عاديا من عامة الشعب، طلبا لعلاج طفل مريض ، سرعان ماتوفى بعد ذلك]. تكلم الشريف أيضا عن كثير من الكتب [الأوروبية] الخاصة بالمعارف الأساسية ، التى تجرى ترجمتها وطبعها كل عام فى هذا البلد من بلاد الليفانت، أوإن شئت فقل: البلاد الواقعة شرقى البحر الأبيض المتوسط : وكان الشريف حسين مسرورا جداً من دائرة المعارف البريطانية: قال الشريف: لدى الأجزاء الأولى من هذه الموسوعة ، وأنا أجد متعة عندما أقرأ فى تلك الأجزاء . والقارئ لتلك الأجزاء يجد فيها تاريخا لكل شىء ، وهذا أمر عجيب! خذ على سبيل المثال كلمة 'كرسى' العربية، التى يقولون لها بالإنجليزية Chair: عثرت على الكلمة حسب الترتيب الأبجدى لحروفها : ووجدت فى البداية دراسة اشتقاقية للكلمة، التى هى ليست كلمة عربية؛ ثم بعد ذلك تاريخا للكراسى منذ بدايتها عند كل الأمم."

وعندما فهم الشريف أننى سبق لى أن زرت الأندلس ، بدأ الأمير يسألنى عن كل ماشاهدته هناك: وسمع منى بسرور بالغ هذا الذى كنت أقوله " وادى النهر العظيم"ـ والمأخوذ اسمه Guadalquiver من اللغة العربية (الوادى Wad الكبير el-Kebir)؛ وقلت أيضا: إن شوارع الأسواق فى كثير من بلدان الأندلس تقوم على النمط أوإن شئت فقل : النموذج المغربى؛ وهذا هو السبب وراء وجود الكثير من آثار اللغة المغربية والعادات المغربيه أيضا ـ ثم سألنى الشريف، إلى أين سأتجه بعد ذلك؟ وأجبته :'إلى عدن، لأنال قسطا من الراحة هناك؛ ثم اتجه بعد ذلك إلى الهند.' [هذا الشريف اللطيف طلب من مضيفى أن يسأل عنى فى الصباح ليسألنى،' ماهى الوسيلة التى ينبغى أن أستعملها

فى الرحيل عن جدة؟ـ الرأى الثابت عندهم أن الفرنجة (الإفرنج) بالرغم من عقيدتهم المشتركة، يتحولون فى مثل هذه المغامرات إلى ظنانين، لايتعاطفون مع بعضهم البعض ويكونون بعيدين تماما عن كل مظاهر الكرم والضيافة. ويلغنى أيضا أن ذلك كان هو موضوع الحديث الذى دار بين الضباط الأتراك مساء الليلة السابقة عندما كانوا فى نادى الضباط يشربون القهوة].

حسين هو من قبيلة الأشراف التى يطلقون عليها اسم العبادلة Abadella، الذين هم أبناء فاطمة وعلى [الذى تولى الخلافة فيما بعد] ، هذه القبيلة نمت وكبرت خلال أقل من خمسين جيلا لتضم عددا كبيرا من الأفراد؛ وأنا أحسب أن هذا العدد ربما يصل إلى خمسة عشر ألف شخص! فى كل من مكة واليمن؛ هذا العدد الضخم مقسم إلى ما لايقل عن عشرين قبيلة فى هذين المكانين: البعض من هذه القبائل ، كما هو الحال فى ذوى Thuy حسن Hasan، فى اليمن ، يقال إنهم بلغوا من القوة حداً أصبحوا معه أمة كبيرة مثل قبيلة عتيبة ! قبائل الأشراف البدوية المترحلة عدَّدها لى واحد من البدو الرُّحل التابعين للشريف ؛ هذا الواحد هو [الشريف نصير] الذى صحبنى إلى جدة فيما بعدـ العبادلة EL-Abadella، الشنابرة es-Shenaberra ذو Thu جودالله Judullah (الذين منهم سالم، الذى أشرف على طعنى بالسكين)، ذو Thu جزّان Jazzan؛ الحروث el-Hurrth؛ المناعمة el-Menama؛ ذو Thu السرور es-Surur؛ ذو Thu الزيد ez-Zeyd، الذين منهم عبد Abd 'المطلب الذى تولى منصب الشريف، قبل الشريف عبدالله الذى توفى مؤخرا [كان السلطان قد عزله من ذلك المنصب : ولكن بعد مقتل حسين، أعيد عبد المطلب مرة ثانية من إسطمبول، ليتبوأ من جديد مكانته السابقة. حكم عبد المطلب مدة عامين ـ وفى النهاية عزله الأتراك]؛ ذوThu إحامود Ehamud؛ ذو Thu سواملى Suamly؛ والفور el-Faur؛ ذوThu حسين Hasseyn؛ والبُّراشيدة el-Barracheda والأرانطة e-Aranta؛ الرواجى er-Ruage ذوى Thuy عمير Ammir؛ الحيادرة ؛ ذوى Thuy حسن؛ ذوى Thuy جساس Jessas؛ الثليبة eth-Thaleba:، إلى جانب هذه القبائل هناك أيضا قبيلة أخرى كبيرة هى قبيلة الصَّعادة es-Sada والتى

لاينتمون إلى الأشراف بالرغم من انحدارهم من سلالة فاطمة ـ هناك أشراف، وذرية من سلالة النبى (ﷺ) فى كل المدن الإسلامية الكبيرة، بل وحتى فى القبائل الصحراوية: كان صديقى الفجيرى العجوز، زيد السبيكان es-Sbeykan [الجزء الأول] واحداً من هؤلاء الأشراف ؛ فضلا عن كونه أيضا واحداً من أفضل الناس وأقلهم تشدداً! وأفراد قبيلة الأشراف لايزوجون بناتهم لغير الأشراف؛ أماهم فيتزوجون مايشاءون من النساء، ويتخذون من المحظيات مايشاءون؛ وسلالتهم كلها يطلق عليها اسم الأشراف.

بعد أن عدنا إلى المنزل سألنى العقيد محمد من جديد،" ماهو رأيى فى الشريف؟" وأجبته ،" رجل طيب بمعنى الكلمة:" ولكن مضيفى آثر الكلام عن المرحوم سيدنا عبدالله . قال: "لوكنت فى الطائف قبل ذلك بفترة وجيزة لكنت قد شاهدت مظاهرة شعبية عجيبة مكونة من أولئك البدو الرحل غير المتحضرين جاءوا من كل أنحاء البلاد، ومعهم قبائلهم وأقاربهم كى يرحبوا بالشريف الجديد : ثلاثه أيام وهم يأكلون ويشربون [راجع سفر أخبار الأيام] ، ويمرحون وهم يتصايحون ويطلقون النار من بنادقهم الطويلة – الولاية الإسلامية ليست ، كما رأينا ، من الأب إلى الإبن : فهذا ابن الشريف المتوفى، وهو شاب طيب، كان مايزال مقيما فى الطائف.

أملاك وضياع الأمير الشريف تمتد إلى ماوراء وادى بيشة . وهو الأكبر سنامن بين أفراد بيت النبى، وهو أيضا أمير مكة؛ وبالرغم من ذلك فإن، الشريف له بعض الرعايا المناوئين الذين كانوا يرفضون من حين لآخر دفع الجزية (الزكاة) ـ وكان عندما يجرد حملة لتأديب أولئك المتمردين فإنه هو نفسه (شأنه شأن أمراء الجزيرة العربية كلهم) يقوم بقيادة تلك الحملة، ومعه حرسه البيشى (وبعض الجنود العثمانيين). ومنذ ثلاثة أعوام شارك العقيد محمد فى واحدة من تلك الحملات فى اتجاه وادى Wady الرونّية Runnya: وبعدها شاهد صحراء الجزيرة العربية ـ " التى هى ، على حد قوله، ليست خالية كما يتخيل الناس. والعجيب أن الكثيرين من هؤلاء أشباه العراة، الذين أحرقتهم الشمس يُصبحُون كل يوم قبلنا ، فى الوقت الذى لانلقى نحن فيه بالا لهم!

ولكن آه !من ذلك التجوال خارج الطريق، أو على غير هدى ،وآه ! أيضا من الشمس الحارقة ومن الرمل الحارق؛ وآه! أيضا من العطش! أذكر ذات يوم أننا عثرنا على بئر عسرة الماء، وسعدنا بها غاية السعادة لأننا نملأ منها قراب الماء ونروى منها ظمأنا. أنا كنت ضمن هذه الحملة، ومعى اثنين من ضباط الدولة (الإمبراطورية العثمانية)؛ ذهبنا للمشاركة فى تلك الحملة، ونحن نرتدى هذا الزى ![أى كنا نرتدى ملابس عسكرية أوروبيه]. خرج الناس من قراهم، ليلقوا علينا نظرة، أوإن شئت فقل : ليحملقوا فينا ويطيلوا النظر إلينا ـ عندما كنا جالسين فى الخيام ؛ وكانوا يتهامسون فيما بينهم "انظر هناك !لابد أن هؤلاء ثلاثة من النصارى!"ولكن العسكر الثلاثة الأتراك كانوا مسرورين بعض الشيء لأن الناس تنظر إليهم من هذه الزاوية؛ وهنا قرر الشريف أنهم فى الحملات المستقبلية سيقومون بها وهم يرتدون ثيابا مثل بقية أفراد الحملة".

سألنى العقيد محمد، فى شيء من الاهتمام !"عما إذا كنت أفكر فى زيارة وادى بيشة، والمنطقة الواقعة فى اتجاه وادى الدواسر؟ وفى مثل هذا الحال سوف يعطينى الشريف خطاب سلامة وتأمين!" ـ ولعل حسين يكون قد رشحنى لأكون مصاحبا صدوقا له؛ ويتطلع إلى إعفاء حكومته، مستقبلا،من مغامرة إفرنج آخرين بالمجيء إلى هذا البلد ـ وبالرغم من أنى كنت فى السابق أرغب فى زيارة هذه الأماكن ، إلا أنى أحس الآن بحتمية التخلى عن كل ذلك وأن اتجه إلى الساحل على وجه السرعة وبلا أى تأخير.

هم هنا لايحبون الأتراك (المعتدين) ـ وقد علمنى زيد ذلك (من كتابة) ، الميراث السماوى للعالم؛ ـ "فقد أعطى الله ربعين لبنى آدم، والربع الثالث أعطاه لكل من يأجوج Ajuj وماجوج Majuj، وهم شعب من الأقزام يفصلنا عنهم جدار أو سور؛ وأنهم سوف يتعين عليهم القفز فوق ذلك السور فيما بعد : ثم يجتاحوا العالم بعد ذلك. والأتراك (كلهم) وكذلك الفرس (الكفرة) من هذه السلالة: أما أنتم، أيها الإنجليز، فأنتم من النوع الطيب مثلنا. أما القسم الرابع من الدنيا ، وهو الذى يطلقون عليه اسم الربع الخالى Roba el-Khaly فهم يتصورونه أو يتخيلونه على إنه الشرق الأوسط الكبير، الواقع شرقى الجزيرة العربية ؛ وهم يرون أن ذلك الربع الخالى ليس فيه أى شكل من

أشكال الحياة!ـ وأنا لم أعثر على أى أحد من سكان الجزيرة العربية ، حتى يقول لى، ولوعن طريق النقل والسماع، شيئا عن ذلك الجزء المخيف من البلاد . هذا الجزء عبارة عن نفود، عامرة بالرمال المنقولة، أو إن شئت فقل: الرمال المتحركة، وهذا الجزء يمكن الدخول إليه وتجاوزه، بل وحتى عبوره بواسطة نياق الإبل المدرة للحليب، خلال فترة الربيع التى تستمر بضعة أسابيع قليلة. ولكنى الآن، ضعفت صحتى ، وخارت قواى؛ وعكس ذلك، سيكون بمثابة محاولة منى لفك لغز هذه الأحجية.

يضاف إلى ذلك أنى هنا فى جبل الطائف ، يتملكنى الخوف من المسكوف Muscov. وقد أبلغنى الجندى المراسلة(*) الذى يقوم على خدمة العقيد محمد، أن النفخ فى البوق الذى دوى (عند وصولى) قبيل طلوع الشمس بقليل ، كان إيذانا بآخر خفرة يقوم بها المتطوعون المدنيون!" قال: الخفرة الأولى تبدأ عند غروب الشمس، ومهمتها القيام بدورية حول الأسوار ؛ وهذا هو ماتفعله الخفارات التى تلى ذلك طوال الليل ـ وذلك تخوفا وتحسبا لأية هجمات مباغتة يقوم بها النصارى!"ـ لم يكن هناك خط تلغراف واصلا إلى مكة . هذا الرجل السورى الأمين، الذى كان يحترف إصلاح الساعات، كان يتطلع إلى انتهاء خدمته العسكرية، حتى يستقر بعد ذلك فى مكة؛ التى قال: إنه سوف يكسب فيها " خمسة ريالات يوميا،"ـ وهذا يبدو لى من قبيل المستحيل.

جرى تحصيل مساهمة الحرب من كل أنحاء ممتلكات الشريف حسين، قال العقيد محمد: وصل إجمالى المبلغ إلى مايقرب من خمسة آلاف جنيه إنجليزى؛ وأن العقيد محمد، قام هو بنفسه لنقل هذا المبلغ إلى إسطمبول. واكتشف أن العاصمة تغيرت؛ وراح يفترض أسوا الأحوال!ـ وعبر قناة السويس ثم نزل فى بور سعيد: حيث حل ضيفا على القنصلية الروسية ـ نظرا لأن الجهاد لم يكن قد أعلن بعد على روسيا ، وإنما الجهاد كان معلنا على المناطق المتمردة. وتم إنزال صناديق النقود الفضية، التى جرى جمعها من سكان اليمن السعيد المعدمين، على رصيف الميناء؛ وكان العقيد محمد متخوفا من فقدان أى صندوق من تلك الصناديق : ولكن القنصل الذى كلف قُواسة Kawas بحراسة تلك الصناديق، طمأنه وطلب منه ألايخشى أويخاف من أى شيء

وأخذ الضيف العثمانى إلى بيته ليستضيفه على الطريقة الروسية ـ وعندما وصل العقيد محمد إلى إسطمبول قام بإيداع الصناديق لدى الباب العالى Porte؛ ولكنه بقى يوما بعد يوم، دون أن يحظى بأى رد من الردود. أخيرا، ومن باب الاطمئنان ، استدعى العقيد محمد لمقابلة الباب العالى؛ الذى سلمه صندوقا صغيرا؛ بداخله رسالة، مكتوبة بخط السلطان، ومعها هدية للشريف حسين.

ـ أهل الطائف لديهم الكثير من الاشياء الضرورية الأخرى، إضافة إلى الفاكهة: وأشهر الأغنام فى الطائف هى من الضأن العتيبى؛ القرشيون يجلبون إلى الطائف الجبن الأبيض المصنوع من اللبن الخاثر. والقريش Koreysh (وجمعه القوراش el-Korash) أهل محمد (ﷺ) من ناحية الأم، هم أناس من البدو الفقراء الذين ينظر الناس إليهم فى منطقة مكة نظرة ازدراء واحتقار؛ وهذا، على حد قول الشريف نصير، " راجع إلى أن آباءهم أساءوا معاملة الرسول(ﷺ)."

ومع ذلك يشيع عن القُوراش أنهم بعيدو النظر فيما يتعلق بأراضى البدو المترحلين؛ والناس هنا ينعتون القوراش بأنهم بنى Beny فهم Fahm بمعنى "أبناء الفهم"." يقول الشريف نصير: من بين القريش من يستطيع أن يحدد من أثر قدمى الشخص إن كان متزوجا أم لا؛ وما إذا كانت الأنثى عذراء أم زوجة. والقريشى إذا ماضاعت منه ناقة ضالة ومعها ولدها؛ وعثر على أثر أقدام ذلك الصغير، حتى ولو بعد سنوات فإنه يستطيع التعرف على تلك الناقة".

ـ كان اليوم يصادف اليوم الرابع من فترة الراحة التى أمضيتها فى الطائف : وكانت ناقة البسام المرهقة التى تورمت اقدامها قد بدأت تستعيد قواها من جديد، وثبت أنها تستطيع أن تنقلنى إلى جدة (مسافه تقدر بحوالى ٣٠ فرسخا) ، وأننى يتحتم علَّى بدء هذه الرحلة قبل دخول المساء. [هناك طريقان يتجهان من الطائف إلى كل من تهامة

(*) الجندى المراسلة: مصطلح يدل على جندى يخصص لخدمة الضابط عندما يصل إلى رتبة معينة؛ كان ذلك فى الجيش التركى، ومازال ساريا أيضا فى الجيش المصرى . (المترجم)

وجدة؛ واحد من هذين الطريقين ينزل منحدرا من جبل قورة Kora (ويصح فيه أيضا قُرَّة Kurra) ويبتعد عن مكة من الناحية اليمنى؛ والطريق الثانية هى طريق السيل وعين الزيمة، عبر وادى فاطمة. والشريف الطيب ـ وهذا نقلا عن العقيد محمد ـ ترك لى أن أختار بين هذين الطريقين: وأنا بدورى تركت الأمر ليفعلوا هم مايرضيهم]. وعند الظهر ذهبت مع العقيد محمد لطلب الإذن من الشريف؛ ولكنى عندما وصلت إلى سلم القصر سمعت، "أنه دخل، قبل قليل، إلى الحريم؛" هذا يعنى، أن الشريف قد خلد إلى الراحة بعد أن انتهى من عمله ـ وربما يقرأ فى الموسوعة البريطانية، وسط أفراد عائلته. حرارة الظهيرة ليست قاسية فى الطائف: وجدت أن درجة الحرارة فى ذلك الوقت من النهار كانت ٩٠° فهرنهيت؛ يضاف إلى ذلك أن الليل كان منعشا أيضا.

ومع دخول المساء، أرسلت زكائبى وجوالاتى على واحدة من النياق إلى المكان الذى ينبغى أن أبدأ منه مع الجماعة المرافقة. فى حين أخذنى كل من العقيد محمد هو والأغا الألبانى سيرا على الأقدام إلى ذلك المكان؛ وجاء معنا أيضا زيد البيشى : كان زيد قد طلب السماح له بمرافقتى إلى جدة، ولكنهم لم يأذنوا له بذلك . ذهبنا فى البداية إلى قصر عبدالله باشا، كى أودعه وأستأذن: ولكن عبدالله باشا كان قد ذهب مع الشريف حسين، وجماعة من الشيوخ لاستنشاق الهواء، أسفل الجبال السوداء (التى ربما وصل ارتفاعها إلى مايقرب من ٨٠٠٠ قدم). وخلف بوابة السيل وصلنا إلى خيمة مقامة وسط حقل من جذامة القمح ـ ووجدت التبن مكوم على الطريقة الأوروبية ! كان ذلك مسكن أولئك الذين يرعون ماشية الشريف من الإبل . كانت ناقتى مبِّركة فى ذلك المكان؛ ورأيت ناقتين مبركتين أيضا بجوارها ، وكانتا خاصتين بالرجلين اللذين سيرافقانى إلى جدة ـ عن طريق وادى فاطمة: هذان الرجلان هما الشريف نصير البدوى المترحل، وهو واحد من جباة الزكاه التابعين للشريف، ومعه اثنان (زنجيان) من الحرس البيشى. شاهدت هؤلاء الزنوج وهم يضعون على أنوف النياق نوعا من الطلاء الذى يستعمل فى طلاء الخشب ! وقالوا لى: إن هذا الطلاء يحافظ على النياق من الهواء الملوث فى الأراضى المنخفضة ـ من هنا فإن عرب الحضر يضعون ذلك "الكريوزوت فى آبار" المياه الملوثة.

بعد التوديع والاستئذان ركبت الناقة، مع رفاقى وواحد من المشرفين اسمه" حسن Hasan وحسن هذا رفيق لطيف سيركب معنا إلى مسافة بضعة فراسخ. وبعد أن قطعنا مسافة ميل، وعندما بدأت الشمس فى الغروب ، نزل الجميع بستانا من البساتين ، حيث توجد بئر من الآبار، التى سيتوضئون منها ثم يصلون . وجدت أن العمق إلى الماء هنا كان يقدر بحوالي خمس قامات ، وكان الماء هنا عذبا وقليل الكثافة: وقد أخبرنى السائق الذى يعمل فى جلب الماء من البئر، عن طريق مجموعة من الثيران ، أن ذلك العمق يقل قامة واحدة عندما تسقط الأمطار- مررنا على حقول الفاكهة ومسوّرات مزروعة واستمر ذلك على امتداد ثلاثة أميال ـ ولكن هذه الأراضى ليست مستمرة أو متواصلة: ومن خلف هذه الأرض توجد صحراء . كروم هذا العام - التى تحمل فى الطائف (المدارية) عناقيد مشوهة من العنب الأبيض هاجمها الجراد وأتى عليها: ونباتات العنب هناك تمتد على الأرض كما هو الحال فى سوريا؛ ولكنها يجرى ربطها بأوتاد، مدقوقة فى الأرض بطريقة منظمة. شاهدت كثيرا من أشجار الإثل - والناس هنا يطلقون على الإثل اسم الايرين el-aerin - والناس يزرعون أشجار الإثل هنا طلبا لأخشاب البناء. وشجرة التين يسميها الناس هنا حماطة hamata (مثل شجرة التين البرية التى تنمو بالقرب من بعض أنواع المياه الصحراوية) - [انظر الجزء الأول] بعض أشجار الزيتون التى تنموهنا فى جبال الطائف (على ارتفاع لايقل عن ٦٠٠٠ قدم) جرى إحضارهاإلى الطائف من سوريا . هذه النباتات تزدهر فى ظل هذا المناخ المدارى ويزداد مجموعها الخضرى ولكنها لاتحمل ثمارا؛والناس هنا يطلقون على أشجارالزيتون هذه اسم العتيم el-etim -. ولغة العرب الحية تنتشر خلال مناطق شاسعة، لاتعرف الحدود، ولا يمكن تعلمها كلها؛ والناس هنا يطلقون على مّر الصحارى اسم الحادوج el-Hadduj وهو نوع من القرع، يطلق الناس عليه سكان المنطقة الغربية اسم حمظل(*) hamthal، ووسط نجد يطلقون على ذلك النبات اسم شيرى Sherry.

(*) حمظل : hamthal الصحيح هو" حنظل" وهو مايسمى "مر الصحارى" ولعل اللبس ناتج عن صعوبة نطق اللفظ العربى على المؤلف الإنجليزى.(المترجم)

ـ" قال حسن: ياخليل شعبك من بلدنا! والسبب فى ذلك أن لدينا كتابا مكتوب فيه أن الإنجليز مضوا قدما (فى الزمن القديم) من هذه الديرة:" قال لى ، ونحن نمضى فى طريقنا قدما: إن ذلك حدث منذ الهجرة! هناك قوم أخرجوا الألبان من هذه البلاد۔ هناك بعض الإثنيات السامية القديمة التى تحتوى على مادة من هذا القبيل . انتهت فترة الشفق؛ وعلى الفور بدأنا نسير فى الظلام. ـ" قال حسن: ياخليل، إخ! هل تنام أيها الرجل؟ لكن قل لى: ما الأفضل الترحال على ظهور الإبل أم الترحال على ظهر سفنكم ؟ العرب هم بحارة الصحراء ، والإنجليز هم جمّالة البحار." التقينا جماعات طويلة من الإبل المحملة المتجهة صوب الطائف: وشاهدنا جماعات أخرى من الإبل تتجه إلى المدينة المقدسة. كانت غالبية تلك الإبل محملة بالجوالات ـ أوه! يالحلاوة هواء الليل النقى۔ وعبيق الورود؛ التى يقوم الهنود بتقطير عطرها الفواح فى مكة. وعطر الورد، هو العطر الذى ينتشر بين السواد الأعظم من الحجاج فى كل أنحاء العالم الإسلامى. كان الجمالة جالسين ممددين لكى يناموا نوما غير مريح فوق ظهور الإبل وهى مستمرة فى السير فى طريقها : ـ أحد هؤلاء الجمالة الذى كان مستيقظا مرعلينا وهو يغمغم قائلا:" معكم واحد لايصلى !" وعندما سمع الشريف نصير ذلك الصوت ، لعن والده بأقذع لعان العرب۔ "قال : هذا شىء لايطاق! أن يتكلم هذا الرفيق مسيئا بهذا الشكل إلى واحد من الراكبين ضمن صحبتهم " خفف البيشيون أحمال بعض أولئك النائمين ، بأن أخذوا مايشاءون من الحطب الذى كان الجمالة يحملونه معهم لاستعماله فى الوقود، كى يشعلوا نارا لتصليح شىء من القهوة: ثم سارعوا بعد ذلك إلى شب تلك النار. وبعد حوالى نصف ساعة وجدنا هؤلاء البيشيين فى مجرى من السيل يبعد مسافة قصيرة عن الطريق العام، وهم جلوس حول النار، وكان الماء اللازم لتصليح القهوة جاهزا. نزلنا فى ذلك المكان ،أوإن شئت فقل : الشِّعب، لتناول العشاء وتمضية الليل: هذه المحطة الصحراوية كانت فى منتصف الطريق، حسبما قالوا لى: بين الطائف والسيل.

كانت طرقعة نار الحراسة ونارها الحلوة قد صاغت من حولنا ضوءًا جميلا، وكنا نجلس على الرمل النقى ، ونستنشق هواء الصحراء والجبال، ونحن بين الكتل الصخرية

المعتمة وأشجار السنط؛ كان لون السماء أزرقا غامقا، وكانت النجوم متناثرة فى كل أنحاء السماء، تلك النجوم،التى ابتسمت لرؤية الحفاوة الكبيرة المحيطة بفقرنا:

كنا ضيوفا على الليل، وعلى الصحراء الشاسعة. أخرجنا طعاما ، وتمرا، وجبنا وخبزا ، وملأنا سطلا من ماء الطائف الرائق الصافى: الوحيد الذى لم يأكل كان هو الشريف نصير. يا أسفاه! فقد غامرت بالمجىء إلى الطائف ؛ كما أن الشريف ، كان قد أصدر أمرا بأن، يقوم الشريف نصير بمرافقتى إلى جدة- وأن تلك الليلة التى رحلت فيها كان مفترضا أن تكون ليلة عرسه! هذا الشريف البدوى المترحل اللطيف أحب فتاة من فتيات عتيبة، ابنة واحد من الشيوخ ، أحبها حبا جما. كان الرجل قد مشط شعره وهذبه فى الفترة الأخيرة: وكانت أصابع تلك الفتاة هى التى صففت شعره الطويل الذى يدخل ضمن جمال الرجال، على شكل مائة خصلة من الخصلات الصغيرة، وهذه الفتاة هى التى جمعت تلك الخصلات فى منتصف رأس هذا الرجل، الذى كان ينتظر الحب والزواج كان يبلغ من العمر حوالى خمسة وثلاثين عاما، جلس صامتا وغارقا فى التفكير؛ وأثناء هذه الفنتازيا (الإغراق فى الخيال) كان يبتسم فيما بينه وبين نفسه؛ ولكن الرفاق البيشيين كانوا يتندرون بشوقه وحنينه . أعطيت هذا المسكين المريض شايا فيه كثيرمن السكر؛ وبالرغم من أنه كان بدويا إلاأنه اعتاد على شرب شاى من هذا القبيل فى بيوت مكة- وبعد تناول العشاء ، ركب حسن ناقته العمانية وذهب لزيارة أسرته فى هجرة تبعد أميالا قليلة على جانب الطريق: والجيران العتبان يطلقون على نياقهم اسم الهدوج Haduj، وهى كلمة من الكلمات الساحرة؛ وهذه الكلمة معناها "الكديش الطرماء العجوز"؛ وهم ويقولون للنياق أيضا "حُرة" hurra - قال البيشيون:" احذر ياخليل! فكل الطريق ملىء باللصوص " وبعدها بدأ أولئك البيشيون يعدلون من أوضاعهم ليناموا من حولى ؛ وجعلوا من أذرعهم وبقجهم مخدات لهم:" لأن لصوص الطريق، على حد قول البيشيين، بوسعهم أن يسرقوا أى شىء من تحت رأس النائم."

ركبنا نياقنا قبل طلوع الفجر: وعندما بدأ نهار الصيف فى الطلوع شاهدنا بدويا نحيفا راكبا ناقة، ويمشى فى اتجاهنا - كان ذلك الرجل هو مذّكر ! الذى ترك القافلة

بالأمس فى حرِّ مكة؛ وصعد إلى الطائف لتحية الشريف الجديد: هذا المذكر رحب بى ووقف يتكلم معنا. ونزلنا من جديد إلى ذلك المسار المرصوف الذى فيه نوع من الدَّرج، ثم نزلنا بعد ذلك إلى ممرات ضيقة. التقتنا عائلة بدوية مترحلة (من الهزيل أوالقريش) كانت تنتقل نحو الأعلى : كانت أجسام أفراد هذه العائلة نحيفة وبشرتهم تميل إلى الاسمرار ، أى أنهم كانوا نوعا من الأعراب المداريين؛ وحسب رؤيتى هم يشبهون الهنود: كانت ربة البيت تحمل طفلا يركب ممدداً على عظمة الإلية؛ وهذا منظر غير مألوف أوغير معروف فى شمال الجزيرة العربية. أكوام الحجارة التى تنتشر هنا وهناك هى التـى تحدد مسار الطريق: بعض هذه الأحجار ـ كما هو الحال في كل رمال العرب – يلعنها الناس، وتوحى بالنحس وسوء الطالع [راجع يوشع Joshua وصامويل] التى يلقى عليها المسافر حجرا آخرا[– على الجن أو شياطين الأرض؟]: وفى بعض الأماكن الأخرى هناك مظهر من مظاهر البناء.

عندما اقتربنا من السيل، اقتادونى نحو الأسفل، إلى جانب الطريق، داخل ممر برى قصير، وهم يطلقون على ذلك الممر البرى القصير اسم ريع Ria الزلالة ez-Zelala لكى يمكنونى، حسب أوامر الشريف ، من رؤية أو مشاهدة النقش الشهير . توقفوا فى المنتصف أمام صخرة رمادية اللون؛ استطعت أن أميز على وجهها الذى يشبه الحائط شكلا بشريا ضخما ـ إلى المنتصف (انظر الصورة رقم ١٠) ونقشا كتابيا . نزلت من فوق الناقة، وتجولت خلال الأشجار الشائكة (التى تنمو فى هذه الجبال المدارية) إلى أن وصلت إلى الصورة ـ التى لم تكن سوى حفر بحجر فوق الجرانيت الصلد؛ ويمكن تمييزها منذ الوهلة الأولى مع طلوع الشمس، وذلك على العكس من ضوء القمر. هذا الرجل القديم، وهو رجل عظيم من قبل ومن بعد، يبدو كما لوكان جالسا ويمسك فى يده مشعاب (جمل)؛ ومعه سطرين من الكتابة الحميرية: الكتابة عمودية ـ قرأنا ، أنه فى أزمان الوثنيين فى الجزيرة العربية، عبد الرجال صخرة فى هذا المكان .[راجع كتاب داى Die التى Alte جغرافية الجزيرة العربية] وإذا ماكانت الصورة صنما، شأنها

شأن صخرة أبى زيد التى فى أرض البشر فى نجد؛[انظر الجزء الأول] فالمؤكد أن تلك الصور التى على صخور الصحراء كانت أشياء شهيرة بين الأعراب.

أرانى رفاقى أيضا أربعة أوخمسة نقوش أخرى فى ذلك الممر. كانت تلك النقوش كوفية؛ ومضيت قدما لأنى أعفيت من آلام نقلها أو شفها - لأن الإنسان هنا لايطيق تحمل حتى مجرد وزن ملابس على جسده. فهمت أيضا أن الشريف نصير لم يكن يعرف القراءة أوالكتابة، شأنه شأن البدو تماما ! ولكنه حفاظا على مكانته كواحد من الأشراف لم يكن يعترف بذلك أمام أى أحد من الناس . ومن هذه المنطقة يتبقى أمامنا قبل الوصول إلى السيل مسافة ميلين فقط: وبالفعل وصلنا السيل فى ساعة مبكرة، ونزلنا فيه لقضاء وتمضية ساعات الحرارة.

ومحطة السيل هذه، هى بلا أدنى شك، واحدة من المحطات المرموقة والشهيرة فى شبه الجزيرة العربية؛ وهذه المحطة هى المكان الذى يتوقف عنده الحجاج القادمون من نجد؛ كما يتوقف فيها أيضا التجارالقادمين من الأجزاء الشمالية الذين يتجرون مع بُكة Bocca أو إن شئت فقل: مكة Mecca- ونحن نسمع عن مأثورات فى الجزيرة العربية عن أماكن أخرى للحج طبقا للأديان القديمة ، والتى منها على سبيل المثال قارة Garat أوشيفية Owsheyfia أو الطيرى el-Teyry (وهى فيما بين ثرمدة Thermedda والأوشيفى Owsheyfy، فى منطقة الوشم)، التى يظن العرب أنهم يرون فيها أماكن للصلاة، متجهة فى كل ناحية؛ وفى سدوس Siddus أيضا.

نمنا طوال ساعات الحر فى ظل الصخور: وبدأنا مسيرنا من جديد فى فترة العصر- هذه المرة الثالثة، التى يتعين علّى فيها قياس الوادى الطويل الممتد إلى عين الزيمة: هذا الوادى ليس كئيبا اليوم، والسبب فى ذلك أنى كنت أنتقل راكبا فى شمس كرم الأمير وحظوته. وأرانى الشريف نصير شيئا فشيئا فى الجهه اليسرى جبل البنت الذى يقولون له: طلاع Thulla البنت el-Bint؛ ورفع الرفاق الثلاثة أيديهم اليمنى ليشيروا بها إلى قمة مستدقة يراها الناظر إليها كما لوكانت عموداً من خلال الهواء (الصورة رقم١١). وصاح الثلاثة مفسرين وهم يقولون :" العمود الموجود هناك كان

راعية من راعيات الماعز من بين الأعرب ؛ وتحولت هذه الراعية إلى حجر عندما لعن محمد(ﷺ) أهل هذا الوادى ،لأنهم لم يستمعوا إلى وعظه. والبنت تقف مثلما كانت تغزل عندما كانت على قيد الحياة، بعد أن نزل عليها قضاء الله: إى ، ولو أمكنك الذهاب إلى هناك فسوف ترى المغزل في يدها، وترى بعض الماعز راقدة حولها، وبعض آخر كما لوكان يرعى، وبعض ثالث واقف على أرجله الخلفية كما لوكان يقطف الأغصان البرية!ـ كل ذلك الآن عبارة عن أحجار سوداء ، تستطيع أن تتبين فيها بوضوح شكل الفتاه بالكامل، وشكل الماشية أيضا ـ القرون وكل شيء! "أخبرنا رشيد "أنه تسلق ذات مرة ووصل إلى ذلك المكان ، ليرى تلك الأعجوبة؛ وأنه رأى كل ذلك ، والله." ـ وهذه حكاية من حكايات الجهلة (هذه الحكايه كافية لأن تحيرهم وتحير الآخرين) ألبسوها للأحجار؛ وهاهم يأخذون الأحجار دليلا وبرهانا على المعجزة المزعومة!

فى منطقة منخفضة من الوادى أرانى الشريف نصير مزيدا من الزلط المكوم على جانب الطريق: فقدأصدر الشريف أمرا بحفر بئر فى تلك المنطقةـ لتكون تلك البئر سبيلا لعابرى الطريق المسافرين: قال :إن البئر جرى تصميمها لتكون كبيرة العمق، وبالرغم من ذلك لم يعثروا على الماء فى ذلك المكان؛ ولكن الماء بدأ يظهر مؤخراً ـ وعند الشفق وصلنا مرة ثانية إلى عين الزيمة ؛ ونزلنا عن راحلاتنا بين الأحجار فى وسط الوادىـ وأكد نصير لى، "أن تهامة هنا فى هذا المكان؛ وأن شعاره، على حد قوله ، فى نجد: هذا يعنى أن الأراضى الواقعة فوق مجرى السبيل، هى وشواطئ الملح فى كل من الكثبان والحرات إنما تنحدر ناحية المدينة (المنورة) ، بمعنى أنها تتجه إلى الأسفل نحو وادى الحمض. ولما كنت قد استعدت جهاز البارومتر من أيدى كل من سالم وفهيد العنيفة، وكنت قد فقدت الأمل فى استعادة هذا الجهاز: بالرغم من كل ذلك وجدت أن الارتفاع هنا هو نفس الارتفاع الذى قسته قبل سبعة أيام . وأنا أرجح أن يكون ارتفاع الطائف عن مستوى سطح البحر حوالى ٦٠٠٠ قدم. هذا الجهاز الدقيق البسيط لم يطاله الأذى ـ وقام رجل من رجال هجرة (كفر) قريبة من البحر بإحضار بشائر التمر الناضج ، أوإن شئت فقل : بشائر البلح bellah الرُّطب Rattub، وذلك مقابل ثمن دفعناه : كان اليوم يصادف اليوم التاسع من شهر أغسطس . وشاهدنا من

حولنا حشدا كبيرًا من النمل؛ وكان صوت نقيق الضفادع ينبعث قادما إلينا من قاع الوادى: وأنا لم أسمع صوت نقيق الضفادع منذ أن كنت فى خيبر- كان النقيق على النحو التالى أورك _كيو urk-kiow كور–كور–كور kur-kur-kur- كيروك! Kreurk

ركبنا راحلاتنا مرة ثانية مع طلوع الزهرة Zohra، نجم الصباح لنصل إلى مقيل الظهيرة قبل اشتداد حر (تهامة). التزمنا مجرى الوادى ؛ وبعد حوالى نصف ساعة مررنا بمكان عامر بالبساتين ، يطلقون عليه اسم الصوله Sola- والذى ينطقه البدو الرحل على أنه 'صاله' Sala. فى هذا المكان يوجد نبع كبير ومسورات فيها أشجار الليمون والتوت، وهى من ممتلكات الشريف حسين؛ الفلاحون العاملون فى هذه البساتين هم من عبيد الشريف حسين الذين يخدمونه. وبعد ذلك بأقل من ثلاثة أميال ، شاهدت مع طلوع النهار على الجانب الأيمن ، مصب وادى المثيك el-mothich الذى يعد مخرجا لوادى الليمون الذى ينحدر نازلا من السيل إلى وادى فاطمة، ذلك الوادى واصلنا السير فيه منذ أن غادرنا عيون الزيمة . وفى وادى الليمون توجد قرى الحرّاث ، وهم من الأشراف: والأمير الشريف له ممتلكات وسط قرى الحرّاث Hurrath؛ وأعراب هذه الجبال من الحطيل Hatheyl وعين الليمون، تقع فى هذا الوادى: والوادى من فوق عين الليمون قاحل فى اتجاه السيل Seyl. درب derb الشركى es-Sherky يمر خلال وادى الموثيك Mothik؛ والاسم الآخر لدرب الشركى ، هو طريق شرقى الحج القادم من المدينة المنورة، وهناك أيضا درب der السلطانى es -Sultany القادم من القصيم ومن شرقى نجد. ومحطات هذا الطريق من مكة هى البارُود Barrud، حيث توجد ظلال أشجار التين، وآبار الماء البارد؛ ثم بعد ذلك محطتى البرذة el-Bertha وبير (بئر) bir الحطيل Hatheyl، وهما عبارة عن بئر فى وسط وادى الليمون؛ ثم بعد ذلك محطة الزريبى eth-Therriby،[التى يقولون لها أيضا ذات That العرقIrk]، وفيها أنقاض قرية من القرى؛ ثم بعد ذلك محطة بركت Birket فى Fi الرُكابة Rukkaba، وفيها هى الأخرى بعض الأنقاض؛ ثم بعد ذلك محطة المصلاح el-Muslah حيث يوجد خزان للماء وبعض الأنقاض؛ وعلى يسار الطريق توجد قرية الفرية el-Fereya؛ ثم بعد ذلك محطة هاثة Hatha حيث توجد فيها حقول القمح وبعض الأنقاض؛ ثم تجىء بعد ذلك محطة العين

el-Ayn ابن ibn غروبن Ghrobn التى يزرع فيها النخيل وفيها أيضا بعض الأنقاض؛ وبعد ذلك تجىء محطة السفينة ess-sfeynaah والسويرجية Swergieh- إلى آخر كل هذه المحطات. رأيت قرية اسمها الجديدة Jedida، عند مصب الوادى فيها نخيل وحقول القمح، وهى تروى من آبار وينابيع وفيها عيدان السرغم (الذرة العويجة) الخضراء الطويلة، والناس هنا يزعوون السرغم ويزرعونه بعد حصاد (القمح والشعير المبكرين): وهم يحصدون هذه الذرة العويجة فى فصل الخريف- قال لى الشريف نصير:إن حقول القمح فيما بين الطائف واليمن (التى يصل ارتفاعها إلى حوالى ٦٠٠٠ قدم عن مستوى سطح البحر) تروى من مياه الأمطار فقط!

وادى فاطمة الذى يقع خلف هذه المنطقة عبارة عن مجرى سيل واسع خال من السكان! مررنا على بعض الضفاف العالية المسورة بكتل غشيمة (من البازلت)- ، ونحن فى أوروبا نطلق على هذه الأعمال القديمة اسم المبانى الأثرية القديمة الضخمة: وهنا رد علّى الشريف نصير قائلا: 'هذه الضفاف تنتمى إلى بنى هلال.' ضفاف السيل هذه تنمو عليها أشجار برية يطلقون عليها اسم الثنثوب Thanthub، وهذه الأشجار عبارة عن سيقان خضراء، الأشواك فيها هى التى تمثل الأوراق، وهذه الأشجار مرة الطعم؛ والشريف نصير يقول: إن هذه الأشجار علاج للأسنان. وقد شاهدت هنا، فى تهامة، المدارية أشواك أشجار الصمغ التى يحاصرها نبات طفيلى (يطلقون عليه اسم الجشع el-gusha) الذى يتدلى على شكل عناقيد من السيقان المتشابكة؛ والماعز فقط هى التى تأكل هذا النبات الطفيلى.

وإلى الأسفل قليلا من هذا المكان نرى الجهود الإنسانية التى دخلت لتوجيه وإخضاع هذه الطبيعة الصحراوية - شاهدنا كيف يستعمل الناس سيقان الأشجار والأدغال، عندما يفيض الوادى بالسيول ، فى توجيه الماء إلى الجانب الأيمن من الوادى ؛ ثم يجرى سحبها إلى قطعة من الأرض جرى تنظيفها من الأحجار حتى يمكن زراعتها . ويجرى أيضا سحب هذا الماء من مياه الأمطار ، عن طريق قناة إلى حقل فى منطقة أكثر انخفاضا فى الوادى ؛ وهذه المنطقة عبارة عن حقل كبيرله سور من

اللّبن؛ وأسفل هذا الحقل توجد حقول أخرى مماثلة. والوادى عندما يفيض نتيجة للسيول تفيض تلك المسوَّرات أيضا وتغمرها كميات ضحلة من الماء، تستمر طيلة سبع أو ثمانية أيام. وهنا يتحتم بعد ذلك مباشرة بذر البذور فى التربة الزلطية ؛ وعلى حد قولهم فإن القمح الذى ينمو بعد ذلك يستمر بدون رى إلى يوم الحصاد. كل وسيلة من هذه الوسائل والابتكارات العربية بسيطة وعلى درجة عالية من الكفاية؛ وبذلك يتمكنون من أكل الخبز من ذلك الوادى الحجرى المهجور- خلف الوادى شاهدت تنفيذ كثير من هذه الأعمال الضفافية، أوإن شئت فقل : السدودية، وبالطريقة نفسها التى يَجرى اتباعها فى مصر. وهم يحفرون التربة ويحرثون باستعمال الثيران- والمحراث عندما يسير فى الأرض يقلبهاً على الجانبين ؛ وسرعان مايرى المرء أكواما من التراب: واسم المكان الذى نحن فيه هو الزّبارة ez-Zibbara شاهدت هنا بعض العلامات الدالة على زراعة قديمة من نوع أفضل: والسبب فى ذلك، أننا عندما كنا راكبين راحلاتنا ، عبر الأرض المرتفعة ، استعدادا لعبور الوادى ، عثرنا على قنوات مشقوقة فى الصخر كى تستعمل فى رى الحدائق والبساتين.

من هذه المنطقة تبدّى لنا اسوداد ضخم - هضبة جبلية أمامنا ، فيها جرف يصل انحداره إلى مايقرب من ألف قدم. يقع على جانب من جانبى الوادى : من الواضح أن تلك الهضبة عبارة عن حرة أخرى! ورد علّى الشريف نصير قائلا: " هذه حرّة Harrat عجيفة Ajeyfa". ومن خلف هذه الحرة شاهدت أثر الفيضان البركانى مترسبا فوق الجبال البللورية : وتلك أعجوبة من الأعاجيب - وبالرغم مما سبق ذكره فإن بعض الحقول البركانية تتكون على مراحل - التى يندى لها الجبين ! قال الشريف نصير:" الحليان عالية وبعيدة" وأنا لم أر أية واحدة من تلك الحليان عند هذا الأفق . حرة عجيفة عبارة عن واحدة ضمن سلسلة كبيرة من الحّرات ، ويقال إنها قارة هى وحرة العشيرى Ashiry". ونقلا عن كل من مذّكر ونصير فإن هذه الحرّات تنتشر على شكل حزام، فى المنطقة مابين الحرمين [وهذا هو مارأيناه على شكل حرة خيبر وحرة العويرضى].

سألت نصيرا عن الوديان الموجودة جنوبي الطائف في اتجاه وادي بيشة ـ قال: وادي ودج widj يقع على بعد مسير 'ساعتين' من الطائف؛ ثم بعد ذلك مسير 'ساعتين' أخريين إلى وادي النخيب en-Nkhib ؛ ثم مسير يوم واحد إلى وادي الليح Lieh؛ ثم مسير يوم واحد إلى وادي بسّيل Bissel .[هذه الوديان يبلغ طولها مسير حوالى خمس رحْلات، كما أن مسارات تلك الوديان تتجه شمالا، إلى أن تضيع أخيرا في الرمال: وكل هذه الوديان عامرة بالقرى]. والمسافة إلى وادي ترابة Turraba تقدر بمسير أربعة أيام ؛ وهذا الوادي يعيش فيه أعراب البجوم، كما أن فيه أيضا بعض القرى. ووادي التُّرابة هذا يتصل بوادي العرق el-Erk [الذي لايبعد كثيرا عن شكيرة Shukera في الوشم]؛ وفي هذه المنطقة تتجمع مياه الأمطار لتكوّن مستنقعا راكدا ، يفد إليه البدو لكي يخيموا حوله: ووادي السبيع Sbeya أوإن شئت فقل: وادي رونّيه Runnya؛ الذي يقول عنه بعض الناس إنه واديان ، وقريتا الخورمة Khorma والقنصولية Konasolieh موجودتان في وادي السبيع ـ أما الوادي الثاني، أي وادي الرونية ففيه قرية كبيرة من قرى النخيل. ووادي بيشة فيه قرى كثيره تنتشر في كل أنحائه، ولكن هذه القرى في عداء مستمر فيما بينها . وبني Beny أوكليب uklib هم وبني شرعان Sharan هم الأعراب الذين يسكنون هذا الوادي. وبداية هذا الوادي تقع في عسير : وطول هذا الوادي يقدر بمسير رحْلات كثيرة؛ ومياه السيل تنتهي إلى رمال الصحراء.

وادي فاطمة في هذه المنطقة أرض شديدة القحولة: ويندر أن يمر فيه أحد من البشر . ونصير لم يحضر إلى هذا الجزء من الوادي سوى مرة واحده فقط، وكان في مهمة خاصة بالشريف حسين. وأرض هذا الجزء من و ادي فاطمة المكونة من الزلط والحصى لا ينبت فيها أي شيء، والشيء الوحيد الذي ينمو في هذه التربة عبارة عن نباتات تصدر عنها في ضوء الشمس رائحة غريبة. وعندما نظر البيشي الصغير إلى الرمل السائب ووجد عليه أثارا كثيرة (السواد الأعظم منها متخلف عن سحالي رمادية اللون صغيرة الحجم يطلق الناس عليها هنا اسم الخوسي el-Khossi) ، صاح قائلا:

" والله، لايوجد فى هذا الوادى سوى الثعابين!" تجاوزنا رأس هذا النبع ، ونزلنا إلى الأسفل عن طريق ممر (من الحجر) لنصل بعد ذلك إلى قرية إمبارك Imbarak، وهذه أول قرية من القرى الواحية فى وادى فاطمة- وهذه القرية تبعد مسافة مسير ساعة واحدة عن المكان الذى كنا فيه.

عندما مررنا على قرية إمبارك شاهدت سباطات البلح وهى تتدلى ناضجة من أشجار النخيل؛ كما شاهدت أيضا على الضفاف الطينية على جانبى الوادى الكثير من نباتات الذرة الخضراء. كما شاهدت هنا وللمرة الأولى أكواخا مصنوعة من القش وجريد النخل تشبه خلية النحل (هذه الأكواخ مبنيه على الطريقة الحبشية)، ويشيع بناؤها فى هذه المنطقة؛" قال نصير: هذه الأكواخ خاصة بخدم الأشراف." - وابتداء بهذه المنطقة التربة هنا عبارة عن زلط ورمل حتى مدينة جدة. والقرية التالية لقرية إمبارك هى قرية الريان er-Rayyan التى يزرع فيها النخيل أيضا وتبعد ثلاثة أميال عن قرية إمبارك - هذه الواحات التى فى وادى فاطمة عبارة عن مستوطنات حول بعض العيون أو إن شئت فقل : الينابيع. وسكان هذه الواحات من الأشراف، ومن المزارعين ، وكلهم تقريبا أصحاب بشرة سمراء؛ وعمال الزراعة هنا خليط من العبيد والأحرار- امتدحت الحياة البدوية:" قال نصير: نعم، لبن الناقة فريد." وحكى نصير لى،" كيف تربص بهم بعض بدو هذه المنطقة ، ذات مرة ، عندما كان ذاهبا بزفقة جماعة صغيرة إلى الجنوب، قادما من الطائف، لقضاء أمر من أمور الشريف حسين؛وكيف راح يجرى على قدميه بجوار النياق إلى أن دخل عليه وقت العصر، وكان مايزال يجرى ويفتح النار على أولئك المتربصين ؛ كل ذلك وهو صائم- ورد علىّ: أن أولئك الأعراب لو علموا أنه شريف لما حاولوا قتله؛- ولكن كيف يمكن أن يصدقوه حتى لو قال لهم ذلك؟"

تجاوزنا الحرارة شديدة الرطوبة فى الأرض المدارية المنخفضة؛ وبعد أن شرب رفاقى كل ما فى القربة من ماء؛ بدءوا يستشعرون الضيق والقلق من حرارة الشمس. وهذا حامد، ذلك الشاب الزنجى بدأ يضيق ذرعا بحياته :مما جعله ينزل عن ناقته ويتخلى عن رفيقه وعنا ويمضى ماشيا على قدميه!- اقتربنا من ريان Rayyan ووجدنا

أنه لاذ بالنخيل على بعد مسافة ميل تقريبا. سألته: " ماذا جرى! ألن يعود معنا؟" ورد علّي رفيقه، " فليعد، إذا ما أراد ذلك، وإلافليذهب إلى الجحيم؛" وهنا لعن الشريف نصير والده هو الآخر.ولكن هذا الرفيق الساذج، الذى مشى على قدميه أملا فى تخفيف العطش، انضم إلينا بعد ذلك بساعة، فى المكان الذى كنا ننال فيه قسطا من الراحة [ربما وقع الاختيار على ذلك الزنجي، نظرا لأنه سبق له التعامل والتواصل مع الإفرنج : والسبب فى ذلك أن حامداً، تطلعا منه إلى كسب شيء من المال كى يشترى به سلاحا ويدخل السرور إلى نفسه، كان قد سبق له العمل بضعة أشهر مع الوقادين على ظهر سفينة تجارية فرنسية كانت تمر خلال البحر الأحمر]. وقرية الريان تقع حاليا وسط الوادى الكبير الواسع . واصلنا مسيرنا راكبين على ظهور راحلاتنا واتجهنا شرقا إلى خليج صغير؛ ثم نزلنا أمام كوخ جديد مبنى بطريقة جيدة من الحجر: أصبحنا الآن فى جزء متمدن من البلاد كما هو الحال فى سوريا ـ الجزء المكى من الجزيرة العربية. يسكن فى هذا المكان رجل كان غنيا فى العالمين! يوزع من ثروته على الجيران الفقراء وكرمه يعم الجميع ـ والناس هنا يرون أن من اللائق النزول أمام بيت شريف من الأشراف! وهنا توقفنا بعد أن قطعنا مسافة نصف فيرلنج(*) Furlong، ثم بدأنا نقتاد نياقنا نحو الأمام؛ ثم توقفنا بالقرب من باب منزل الشريف. وبعد ذلك بلحظة، جاء المضيف لاستقبالنا؛ هذا المضيف كان شيخا للمكان ، وكان لونه ، أوسمرته تشبه سمرة الأحباش؛ وأدخلنا ذلك المضيف إلى قاعته، التى كانت وسيعة ومبنية من الحجر، وكانت مفروشة بالحصير النظيف وتشبه الكنيس الصغير؛ وكانت هناك سجادة فارسية مفروشة للضيوف فى الجانب الأيسر من القاعة ـ سبق لنا أن شاهدنا هجرة (كفر) جديدة من الأكواخ منبسطة الأسطح ومبنية من الحجر من حول منزل هذا الشريف، وكانت هناك بئر أيضا ؛ وكل ذلك كان من عمل ذلك الرجل الطيب وعلى حسابه؛ كما شاهدنا أيضا بعض أكواخ مبنية من القش لإقامة الخدم كبار السن: هذا الرجل يمد يد خيرة أيضا إلى البدو الرحل المساكين ، الذين ضربوا

(*) فيرلنج: بكسر الفاء وضم اللام: مقياس طولى يساوى ٢٢٠ ياردة. (المترجم)

خيامهم بالقرب من بيته ـ كنا فى ذلك المكان قبل دخول وقت الظهر بساعتين ، ولم يكن النهار راكد الهواء: ومع ذلك وجدت أن درجة الحرارة كانت ٩٩° فهرنهيت .

قدم لنا الإفطار على وجه السرعة: قدموا لنا صوانى عرض الواحدة منها ياردة واحدة ومن فوقها الخبز المخمور والسمن وأفضل أنواع التمور وأسطال مليئة باللبن. وبعد أن تناولنا الإفطار وسمعوا حكاية مغامرتى فى عين الزيمة، قال الشيخ الطيب، وهو ينظر إلّى نظرة ود وحنان : "إننى لو كنت قد ذهبت إليه فى ذلك الوقت لأرسلنى مباشرة إلى جدة ـ ولكن لماذا لاأتحول إلى الإسلام وأسكن وأقيم هنا فى الأراضى المقدسة، فى رعاية الشريف ؟ قرأ الرجل فى عيناى أننى كنت قريبا جدًا من المسلمين." ونبح الرجل لنا خروفا؛ وقدمت لنا وجبة الغداء قبيل دخول وقت العصر . هذا البيت المتمدن وهذا الكرم الحاتمى لم يسبق لى أن وجدت له مثيلا فى سائر أنحاء الجزيرة العربية .

وبعد أن استأذنا من ذلك الرجل الطيب مشت نياقنا مسافة مائة خطوة، مثلما فعلنا عندما وصلنا ، ثم ركبنا راحلاتنا من جديد واستأنفنا مسيرنا. وبعد أن تركنا الوادى، الذى يتجه ناحية الغرب، صعدنا إلى الساحل الصحراوى ، ومن فوق ذلك الساحل الصحراوى شاهدت ذلك المنحدر المفاجئ الذى كان عبارة عن هضبة ضمن حرة ضخمة ـ مر علينا بعض المساكين الذين كانوا يركبون حميرا، وقد حمّلوها بحطب الوقود كى يبيعونه فى السوق: قال الشريف نصير: إن هؤلاء الناس من القوراش Korash ـ وعند غروب الشمس نزلت جماعتى عن راحلاتها بالقرب من بئر من الآبار يقولون له: بير Bir الغرنّم el-Ghrannem، لكى يؤدوا الصلاه؛ وعرفت من وجوههم أن مكة تقع على بعد مسافة قصيرة فى اتجاه الشرق. مرت علينا طوابير كثيرة من الإبل ، من الناحية اليسرى، وكانت محملة بالتمر الجديد الذى جاءت به من وادى فاطمة لكى يباع فى مكة. مضينا قدما فى طريقنا، وعند مجرى من مجارى السيل بدأنا نسير فى طريق الحج السورى الذى يطلقون عليه اسم (درب derb الحج el-Haj الشامى es-Shamy)؛ والمسافة من هذه النقطة إلى مكة تقدر بحوالى اثنين وعشرين ميلا. وحل

الليل علينا بهواء دافئ محمل بالرطوبة؛ وفهمنا من نباح الكلاب، أن هذا الجزء من البلاد كان مليئا بالبدو الرحل. وبعد ثلاث ساعات من غروب الشمس عدنا مرة ثانية إلى وادى فاطمة؛ وفيه نزلنا عن راحلاتنا فى منطقة رملية، ورقدنا على الأرض كى ننال قسطا من النوم.

استيقظنا قبل طلوع النهار، وكانت تلك الرِّحلة الرابعة من رحلتنا الطويلة، وشاهدت أمامى قرية، هى فى الأصل واحة، والناس هنا يسمون هذا القرية أبو Abu شعب Sheab ، كما شاهدت أيضا كثيرا من خيام البدو الرحَّل المصنوعة من الشعر: قال الشريف نصير: إن هؤلاء الأعراب كانوا من اللحيان Laheyan، الذين هم من الحطيل Hatheyl. تلك القرية تشبه تلك المنازل التى تشبه خلية النحل وسبق الإشارة إليها. والناس هنا يطلقون على هذا النوع من المنازل اسم عوشة usha ـ وهى تصنع من الحطب والقش، وأمام كل كوخ، أوإن شئت فقل : كل عوشة من تلك العوشات، فناء مسوَّر: بعض هذه العوشات كانت متهالكة بسبب القدم؛ والبعض الآخر تخلى عنه ساكنوه بسبب القذارة والتعفن- يقال إن تلك العوشات ،أوإن شئت فقل: تلك الأكواخ التى تبنى من الحطب والقش يقدر عمرها بحوالى خمسين عاما؛ وأن تلك الأكواخ صحية وتصلح للعيش فيها. وهنا شاهدنا أيضا قلعة عالية من الحجر الغشيم، وقد تحولت إلى أنقاض، وذلك بفعل عمل قدامى الوهابيين هذا هو الطريق الذى نسير فيه يعود ثانية إلى الوادى: ركبنا أميالا عدة؛ وعبرنا غديرا أو نهرا صغيرا، لايزيد عرضه على ياردتين، وماؤه شديد الجريان. هذا الجزء المنخفض من تهامة عامر بالماء؛ ومع ذلك لاينساب أى شىء من ذلك الماء إلى البحر، التقينا هنا بعضا من أعراب Aarab دايد Daed، وهم من الحطيل ، وكانوا ينتقلون إلى مكان آخر غير المكان الذى كانوا فيه: كانت النساء يلبسن تنورات قصيرة تصل إلى رُكبهن، ومن تحت التنورة سروال طويل! كانت بشرة هؤلاء النسوة سوداء ولامعة؛ كما أن قسمات أولئك النسوة (فى هذا الجزء المدارى من الجزيرة العربية) لم تكن غائرة، بل كانت مستديرة وبضة: وكان هناك

كلب يتبعهن. وإلى جانب كل من الحطيلان والبدو الآخرين، هناك أيضا بعض من الحطيم فى هذا الجزء من تهامة، وذلك فى أعالى جدة وفى المناطق المنخفضة منها. كنا نشاهد فى كثير من الأحيان خياما بائسة لبعض البدو الرحل فى هذا الجزء من البلاد، الذين صنعوا تلك الخيام، فى بعض أجزائها ، من الحصير المصنوع من سعف النخيل. والفقراء المعدمون من بين هؤلاء البدو سوف ينسحبون إلى الواحات ، لكى يستأجرهم الغير فى عملية حصاد التمر- فى تلك الفترة يكون ملاًك النخيل طيبين وعطوفين على سكان تلك الخيام الضعفاء الذين لايملكون شيئا ولاحول لهم ولاقوة؛ هؤلاء الملاك هم أيضا الذين يتوجب عليهم أن يأكلوا حلى المستوطنات، وهم يرددون الكلام الجارح القاسى على مسامع أولئك البدو المساكين المعدمين: الذين يوضعون موضع الكلاب إذا ما ارتكبوا أى خطأ مهما صغر شأنه.

عند الساعة التاسعة تقريبا وصلنا إلى قرية الدويح ed-Doeh الواحية؛ ونزلنا عن راحلاتنا على بعد مسافة قصيرة من ذلك المكان،أوإن شئت فقل : عند العوشة usha الجديدة؛ هذه العوشة بناها أحد الأثرياء للتسرية عن المسافرين- ومن باب اهتمام الشريف الطيب بأحوالى الصحية، كلف الشريف نصير بأن يقدمنى لبيوت الأشخاص الأثرياء والميسورين ؛ وكان الشريف الطيب قد أمرهم أيضا بالسير ببطئ بصورة دائمة، وأنهم إذا ما أحسوا بأنى أصبت بالإعياء الشديد وأنا فوق الناقة، فإنهم يتعين عليهم النزول عن الراحلات عند بيوت أولئك الأثرياء والميسورين. كان ذلك الدويح (أوإن شئت فقل: الكابينة) مبنية من الصخر، وسمك الجدار يصل إلى قدم واحدة على وجه التقريب، وكانت تلك الصخور مربوطة إلى بعضها بطريقة محكمة؛ أما الجدران، التى كانت على شكل مربع، فكانت تنتهى نحو الأعلى بتجويف . وكان من رأى المرافقين لى أن تلك العوشة، التى كانت دفاعا أكيدا ضد الشمس، ولم تكن صغيرة أيضا، لابد أن تكون قد كلفت مالكها عشرة كراونات (أى مايقل عن ثلاثةجنيهات إنجليزيه). بالقرب من القرية يوجد نبع، تأتى إليه النساء المقنعات (الصورة رقم١٢) اللاتى يحملن جرارا أثرية الشكل، يحملنها مائلات على رءوسهن، لكى يجلبن الماء من ذالكم النبع .

كـان الارتفـا ع فى هذه المنطقـة حـوالى ١١٠٠ قـدم. أحـسـسنا بـالبـرودة ونـحن جالسين لانرتدى سوى قمصاننا، داخل تلك العوشة التى لاباب لها، وكانت تهب علينا نسمة خفيفة، وكانت درجة الحرارة ١٠٢ْ فهرنهيتية. هذا العامل الزراعى التابع للأسرة - وهو رجل متين البنية، كث اللحيـة ومن أهل الطائف - هـو الذى سبق أن أحـضـر لنا الحصير والمخاد؛ هذا الرجل راح يجفف العرق من فوق جبهته بين الحين والآخر وهو يتعجب قائلا:"آه! من حرارة تهامة هذه!" الوادى فى هذه المنطقة تسده ثلاث كتل من الصخر البازلتى (المقصَّر Mokesser والزعاف Thaf، وسدرSidr) وتحول بين الوادى وريح الشمال ، ثم أردف الضيف الذى دخل علينا:" الحرارة هنا فى وادى فاطمة بلغت من الشدة حداً يجعل الناس لايرغبون فى تناول الطعام: ووالله، الناس لايسافرون هنا بعد طلوع الشـمس." سـألتـه، مـاذا كـانت درجـة الحـرارة فى جـدة؟" أجـابنى ،أف !الاتطاق." نصير:" ياخليل ،ألم تسمع ذلك الذى قاله سعود بن سعود- بعد احتلال مكة - لقد حاصر جدة [فى العام ١٨٠٣]؛ ولم يستطع الاستيلاء عليها:' سوف أتخلى عنها، وأنا لا أستطيع مقاتلة مدينة حارة بهذا الشكل: والأكيد أن هؤلاء الناس إذا لم يكونوا شياطين ، فإنهم لابد أن يكونوا جيرانا قريبين للشيطان.'"

- دخل علينا صـبى بدوى فى تلك اللحظة ونظر إلينا من النافـذة! وهنا تعـالت الأصـوالت كلهـا، "أنكشح وأغـرب عن هنـا!" أنا ana من min ديرة dirat بيت beyt الله ullah." أنا من دائرة بيت الله' أى إننى من أحباب الله! وبالرغم من كل ذلك لم يسمحوا له بالدخول. قـام مضيفنا، الشاب الصغير بتعنيف ذلك الصبى تعنيفا شديدا؛" قم، أقصد العوشة التالية - بمعنى لاتجلس هنا! أنكشح وأذهب إلى النخيل ؛فيه fi خير kheyr واجـد wajid، بمعنى [ستـجـد فـيـه مـا تأكله] وهذا يكفى: أنكشح عن هنا حالا!"ولكن هذا الصبى المسكين لم يتحرك قيد أنملة بالرغم مما قالوه من كلام موجع ومؤلم- لايمكن لأحد أن يؤذى ضيفا من ضيوف الله! بعد أن قدمولنا (صوانى كبيرة من الطعام) فى وجبة الإفطار ، جرى استدعاء ذلك الصبى هو وبعض الأشخاص البؤساء الآخرين لكى يأكلوا من فضلات الطعام المتبقى من مائدة كرم ذلك الرجل الثرى." لكن أيها المضيف! هل ستكون جوالاتنا فى مأمن ؟ يصيح الشريف (البدوى

المترحل) متسائلا: هل دخل الصبى (البدوى)؟" - " إى، منذ أن تناول الخبز معك." وهنا نهض ذلك الشاب البدوى، الذى عرّف نفسه بأنه من الحطيل ، وانتهى من تناول الطعام وهو يبتسم ؛ وراح يغسل يديه برقة من إناء الغسيل: ثم ذهب لحال سبيله دون أن يقول كلمة واحدة - بعد ذلك وبينما كنا نائمين دخل علينا بدوى آخر:" قال: أنا عطشان : ولكنهم جعلوه يشرب من أعلى الدورق، ثم راحت كل الأصوات تطارده كى يرحل لحال سبيله!- بقينا فى تلك العوشة إلى حين تناول العشاء، الذى جهزوه لعابرى السبيل قبيل صلاة العصر. قام المضيف بذبح خروف سمين، قدموه لنا مطهيا على ثلاثة صوانى كبيرة مع الأرز؛ وكانت هناك صينية كبيرة أخرى عامرة بالتمر الجديد الجميل: ولم ينسوا إكرام راحلاتنا أيضا.

ركبنا نياقنا ، واستأنفنا مسيرنا، ومررنا على خيام أعراب Aarab المياتان meyatan؛ والمياتان هؤلاء ، على حد قول الشريف نصير، هم بحد ذاتهم يشكلون قبيلة كنت أعجب وأنا أرى هذا العدد الضخم من البدو الرحل فى هذا القسم من الصحراء: كانت بشرة هؤلاء البدو بلون القهوة - عندما أوشكت الشمس على إرغام المرافقين على النزول من على راحلاتهم، نزلوا وراحوا يصلون مستقبلين الاتجاه الشمالى الشرقى. هنا فى قاع هذا الوادى القاحل، المكون من الزلط والرمل، ينمو الكثير من الحمض humth ؛والناس هنا يطلقون على ذلك الحمض اسم حمض humth الإصلاح el-asiah؛ والبدو يصنعون من الرماد المتخلف عن حرق ذلك الحمض شيئا يطلقون عليه اسم شب Shub الإبل el-bil وهم يستخدمونه علاجاً للماشية الكبيرة - كان بوسع الشريف نصير أن يواصل السير أثناء الليل كى يصل جدة فى صباح اليوم التالى: ولكن حب الشريف للعزائم تغلب عليه قبل أن يصل إلى الهدا Hadda، التى هى آخر قرى وادى فاطمة. وعندما وصلنا أثناء الظلام إلى مكان مأهول،" قال الشريف: حسن، هيا بنا ننام هنا؛ هذه هى ممتلكات الشريف حسين، وكل الناس هنا من رعاياه وخدم له." نزلنا فى عوشة، تقع على تل صغير ؛ حيث تقيم أسرة زنجية صغيرة. هذا الزنجى المسكين الذى كان من معارف البيشيين، شب نارا وصلّح لنا قهوة، وقدم علفا [يسمونه هنا برسيم Bersim كما هو الحال فى سوريا] لنياقنا . ولكن هذا المكان لم يكن طيبا ، واستنشقنا

هواء غير نظيف. وبينما كنت أنام فى العراء، فرض الشريف نصير كرما جديدا على هؤلاء الناس المساكين ، وبخاصة ذلك الرجل الذى كان يشعر بمنتهى الحرج والخجل عندما جلس معنا لتناول القهوة. ونصير باعتباره من الأشراف ، وباعتباره أيضا من ضباط الشريف حسين، يود الحصول على ذلك الكرم فى هذه الدنيا؛ وجاءت مائدة ذلك الكرم مليئة بما لذ وطاب، وذلك على العكس من المائدة البدوية المتقشفة ـ أيقظونى عند منتصف الليل على ذلك الكرم الكبير! وسمعنا اعتذار ذلك الزنجى المسكين أمامنا، لأنه لم يضع أمامنا سوى العنزة التى كانت لديه، ومعها وجبة كبيرة من الثريد.

مع طلوع نجمة الصباح ركبنا راحلاتنا واستأنفنا مسيرنا؛ قطعنا مسافة نصف ساعة فى السهل : ثم بدأنا نسلك طريق الدرب السلطانى es-Sultany، أوإن شئت فقل : الطريق السريع فيما بين مكة وميناء جدة ـ مرت علينا طوابير طويلة من الإبل، وهى تسير ببطئ صاعدة نحو الأعلى ؛ ومن فوق ظهور تلك الإبل شاهدنا الحجاج شبه العارين ، إذ لم يكونوا مرتدين شيئا غير ملابس الإحرام ihram. هؤلاء الحجاج كانوا من الحجاج الهنود، ومن اليمنيين ، وكانوا قد وصلوا يوم أمس إلى جدة: وقد بكروا بالقدوم إلى الأراضى المقدسة لكى يصوموا شهر رمضان ، ضمن تعبدهم فى المدينة المقدسة ـ شاهدت فى ضوء الغسق ،أن جبال وادى فاطمة أصبحت إلى الخلف منا [هذه الجبال يمكن مشاهدتها من مدينة جدة]، وشاهدت أمامنا أرضا جرداء شاسعة،(الناس هنا يطلقون عليها اسم خبت khobt)؛ هذا الخبت عبارة عن أرض من الزلط والرمل ـ وتستمر إلى أن تصل البحر الأحمر. فى هذه المنطقة كان مجرى السيل القادم من وادى فاطمة، يقع على الجانب الأيسر ؛ أما نهر الطريق فكان محفورا بفعل اندفاعات المياه النازلة من الجبال ـ والتى تتجه ناحية الشمال فى هذه المنطقة. بعد أن انقضت علينا ساعتان اعتبارا من مغادرتنا الهدا، مررنا على بعض الحظائر المصنوعة من القش، وبئر من آبار المياه؛ كان ذلك المكان محطة لفصيل من الخيالة الخفيفة ومعه بعض من ركاب النياق المسلحين بأسلحة خفيفة، وكانت مهمة هذه القوة حراسة الطريق

المقدس. وعلى مقربة من تلك المحطة شاهدت واحدة من المقاهى؛ هذا الطريق القصير من طرق الحج تنتشر عليه المقاهى، إذ يرى السائر فيه المقهى على بعد أميال قليلة من المقهى السابق عليها.

كان الحمام يشيل ويحط على الطريق من أمامنا . قال لى الرفاق:"إن صيد هذا الحمام أو اليمام أمر لايجوز شرعا، وبخاصة داخل حدود منطقة الحرم! والسبب فى ذلك أن هذا هو حمام ويمام الحرم؛ وأن ذلك الحمام يجرى تغذيته فى مكة من مخصصات (تصل إلى حوالى عشرين إردبا ardubs كل شهر) من حبوب القمح. وحبوب القمح عندما تنثر أمام الحمام ،فإنه يهبط عليها بأعداد هائلة، بالرغم من أنه لايمكن مشاهدة سوى القليل جداً من ذلك الحمام، فيما قبل نثر حبوب القمح: هذا الحمام يتعرض لإمساك الناس به". على جانبى هذا الطريق، وكما هو الحال فى الطرق السريعة كلها فى البلدان المحيطة، توجد هياكل عظمية كثيرة لكثير من الإبل ؛ والسبب فى ذلك أن الناس هنا يتركون جثث تلك الحيونات ، فى العراء دون أن يدفنوها .[وقد جرت العادة هنا أن يجرى سحب أى حيوان أوأى كلب عندما ينفق ،إلى خارج بوابات البلدة]. مررنا بولى wely من الأولياء ،أو إن شئت فقل : بقبر قديس من القديسين ـ وهذا القبر، جرى العرف أن يكون مكانا للصلاة، فى البلدان غير الوهابية ـ هذا القبر معلق عليه خرق من ملابس الحجاج.

شاهدت بعد ذلك ، على جانب الطريق السريع، ضفة كبيرة من الأحجار ؛ هذه الضفة كانت تطبق على الطريق فى هذه المنطقة ." قال الرفاق:إن الحاج الذى يلقى حجرا على تلك الضفة إنما يكون قد ترك شاهداً على نفسه [راجع العهد القديم]؛ لأن حجره هذا سوف يشهد له يوم البعث، أنه أدى الحج."ـ الصحراء على جانبى هذا الطريق تنمو فيها بعض الأدغال؛ والناس هنا يقولون لتلك الأدغال : ريم reym؛ قال الشريف نصير:"إن قرون أشجار السنط بما فى داخلها من حبوب تعد طعاما للقردة والنسانيس التى تعيش فى الجبل الواقع خلف ذلك الطريق!" شاهدنا سحلية مثل تلك

التى يطلقون عليها اسم الورور wurrur، [بمعنى 'مبتلع أو ملتهم الثعابين فى نجد]؛ هذه السحلية يصل طولها إلى حوالى ياردة، ويكون ذيلها مرفوعا إلى الأعلى ، كما لوكان عنق طائر من الطيور . الطريق فى هذه المنطقة يرتفع فوق مستوى أرض الوادى ، ثم نزلنا بعد ذلك إلى مقهى من المقاهى، وعندها نزلنا عن راحلاتنا ؛ ثم قيدنا نياقنا من أرجلها الأمامية، وتركناها وقصدنا المظلة العامة لتمضية ساعات الظهيرة تحتها ـ وبينما كان صاحب المقهى يحاول خدمتنا، وهو أصلا رجل لطيف، سحبت غترتى (غطاء رأسى) إلى الخلف . ولكن هذا الرجل الطيب ، عندما شاهد شعر الفرنجى من ناحية الجنب، صاح متعجبا ،أننى لابد أن أكون قد جئت على هذا الحال من مكة . وابتسم ذلك الرجل لى، ثم قال:فى ود وحنان "لاتخش شيئا !لأن وصولك إلى هنا ينهى كل الأخطار. "ـ عثرت بالقرب من هذه المحطة على نوع معين من الأعراب، الذين يطلقون عليهم هنا اسم العبايده Abida، حيث كانوا يسقون قطعانهم (ذات الأصواف بيضاء اللون) من بئر جرى حفرها فى مجرى السيل: وعندما أدخلوا إبلهم كى تشرب ،أقنعت واحداً من أولئك البدو الرحل أن يعطينى قليلا من الحليب (والسبب فى ذلك أن المكان هنا عبارة عن طريق وعليه مرور كثير). وعلى المنطقة المرتفعة التى تقع أمامى شاهدت محطة من محطات شرطة الجمّالة.

ـ عندما مالت شمس العصر إلى الغروب، مضينا قدما فى طريقنا: وانضم الينا أثناء رحيلنا عن تلك المحطة رجل مكّى لطيف، خال من التشدد، ومعه ولده." قال رفاقى: افرح ، ياخليل، سوف نريك جدة اعتبارا من المرتفع القادم."ـ وهنا بدأت أرى البحر أبيض اللون، وهو يلمع فى ضوء الشمس،كما شاهدت أيضا السفن الطويلة وهى فوق سطح الماء، كما تراءت لى أيضا منارات أو إن شئت فقل: مآذن مساجد المدينة." كان من رأى رفاقى أنى يتعين على أن أجعل من ذلك الحدث مناسبة مفرحة لنفسى. ـ فى ذلك السهل شاهدت آخر خيام المسلمين المصنوعة من الشعر؛ هؤلاء الناس الذين يسكنون هذه الخيام ،أوإن شئت فقل : بيوت الشّعر، يطلق الناس عليهم هنا أيضا البشر (نسبة إلى قبيله بشر).

الأرض الرملية المنخفضة الواقعة أمام مدينة جدة فيها الكثير من حقول القرع العسلي، أحمر اللون، وحقول البطيخ الذى تجود زراعته فى هذه الأرض - بدون ري- بفضل الرطوبة المدارية! نادى بعض الرفاق المصاحبين لى على بستانى زنجى، وطلبوا منه أن يحضر لنا شيئا من ذلك القرع العسلى ومن البطيخ ،كى نسرى به عن أنفسنا ؛ ووعدوا الرجل بإعطائه شيئا من النقود كي يشترى بها لنفسه شيئا من التبغ - وقد امتدحت ذلك العبد عندما رفض أن يعطينا بضاعة سيده؛ ولكنهم لعنوا أباه، وعيَّروه بزنوجته ، كما وسموه بأنه حيوان ووغد. وعندما وجدت أن رفاقى بدءوا يتوانون بعض الشيء ، طلبت منهم إسراع الخطى فى اتجاه المدينة ، نظرا لأن الشمس كانت قد أوشكت على الغروب . ولكن العبيد ردوا علَّى قائلين :"نحن لانستطيع دخول المدينة وعلينا غبار السفر وترابه! سنقوم بتبديل ملابسنا فى بداية الأمر."- وبالإضافه إلى ذلك أرغمونى، وزينونى كى أكون" أمير الأعراب،" على حد قولهم ،بأن ألبسونى الملابس الطيبة التى أعطانى الشريف الطيب إياها.

واصلنا مسيرنا؛ وقالوا لى بلغة أهل الجزيرة العربية من الحضر:" عندما نصل ، يجب أن تتكلم على النحو الفلانى والعلاّنى(كما لوكنت بدويا، وأن يكون الصوت صادرا من قصبتك الهوائية الجافة)، جُّواك Gowak يا ya المحافظ el-Mohafuthl كيف keyf عندكم endakom" الإبل el-bil ؟ الثــمن eth-themn الغنم el-ghrannem إيش eysh؛ و wa إيش eysh أجيب ijib السٌّمن es-Samn ؟ هذه العبارات تعنى: "قوَّاك الله، يأيها المحافظ! كم أسعار الإبل هنا؟- وماهى أسعار الأغنام ؟ وماهى أسعار السمن أيضا ؟" وهنا بدأت أشاهد صحراء ساحل البحر أمام ناظرى! - شاهدت أيضا أعمال المحاريث ، التى كانت على شكل قنوات فى اتجاه المدينة، وكانت كل قناة من تلك القنوات تنتهى بخزان له غطاء. تجار الماء الأثرياء هم الذين يمتلكون هذه البرك Birkets: مياه الآبار فى كل أنحاء جدة مالغة المذاق ، وكل فرد من أهل المدينة يتعين عليه شرب ذلك الماء المالغ نظير ثمن يدفعه . أرى عن يمينى هنا" قبر حواء Howwa التى تعد حسب الموروث الإبراهيمى الأم التعيسة للجنس البشرى : لقد وضعوا "قبر حواء"، يصل عرض ذلك

القبر إلى ياردة واحدة أما طوله فيقرب من نصف فيرلونج furlong . تجاوزنا بوابات المدينة وسرنا خلال الشارع "إلى قصر الشريف": ولكن هذا القصر أصبح ملكا لواحد من التجار(واحد من أتباع الشريف وعملائه) ، وهو الذى بنى هذا القصر الفخم مؤخرا فى هذه المنطقة - وهذا القصر هو أعلى مبانى جدة قاطبة. وفى صباح اليوم التالى دعيت إلى كرم القنصلية البريطانية الوفير.

ملحق الجزء الثانى

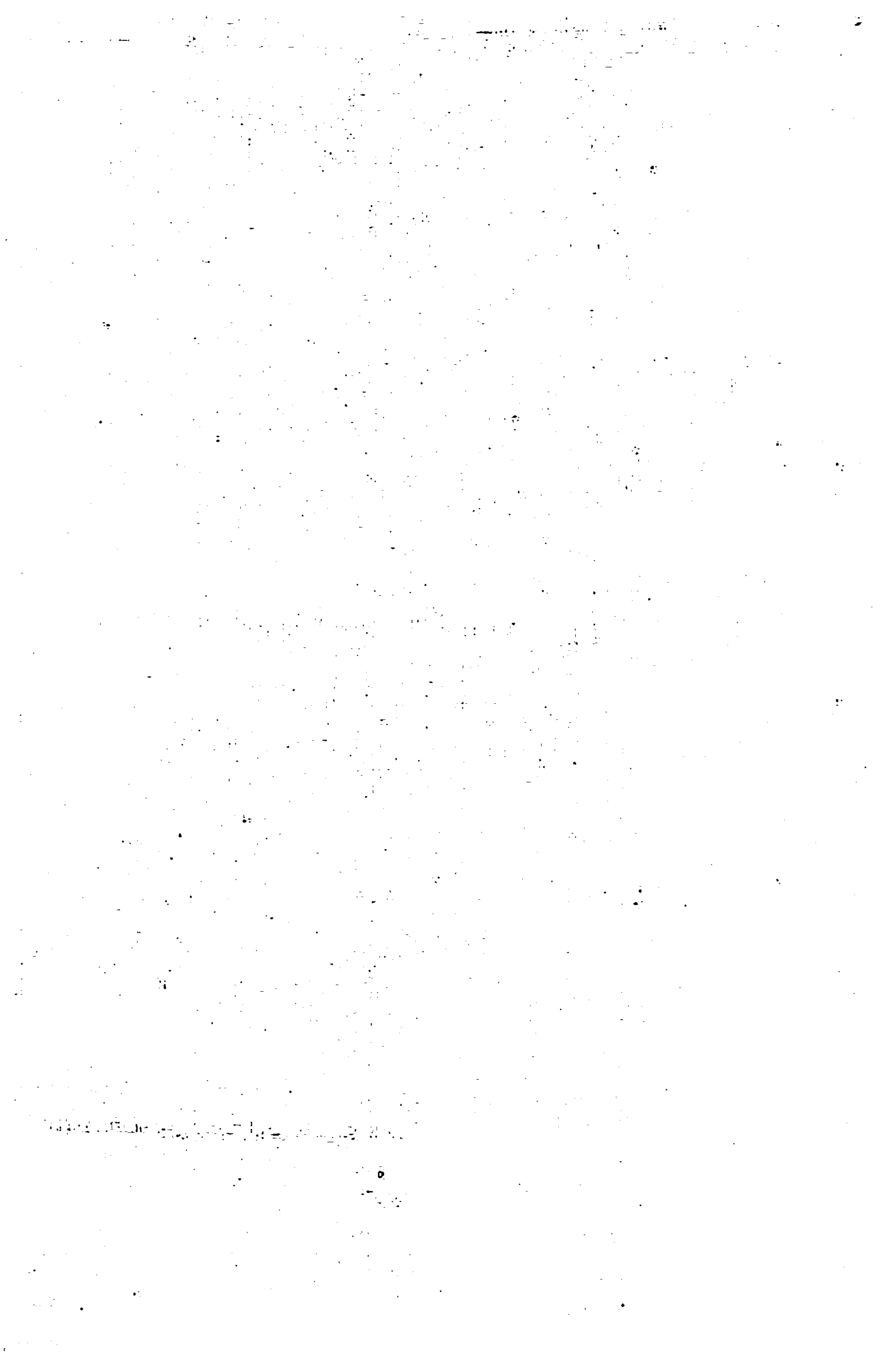
جيولوجيا شبه الجزيرة العربية هى من النوع العربى البسيط: فهى عبارة عن رف صخرى، من فوقه أحجار رملية، ومن فوق هذا الحجر الرملى توجد صخور رملية، ثم طبقة من الحجر الجيرى (الصورة رقم ١٣). هناك أيضا اتساعات أرضية شاسعة (كما هو الحال فى مرتفعات الحوران فى سوريا) من الصخور البركانية والبراكين الخامدة. والصخور النارية هنا عبارة عن جرانيت رمادى اللون وأحمر اللون، فضلا عن البازلت بأنواعه المختلفة؛ لقد عثرت على هذه الصخور فى الجزء الأوسط من الأرض المرتفعة من الجزيرة العربية [وهى تمتد من جبل الشمر إلى مدينة جدة أى حوالى ٥٠٠ ميل] والصخر الرملى يشكل المنطقة المحفور فيها آثار كل من بترا Petra ومدائن صالح؛ وقد تتبعت ذلك الصخر الرملى من هذه المنطقة التى تمتد جنوبا لتصل إلى منطقة قريبة من المدينة (المنورة) [حوالى ٥٠٠ ميل] إلى صحراء النفود، أوإن شئت فقل:إن الصحراء الجرداء فى الجزيرة العربية تنتمى إلى هذا التكوين الصخرى الرملى. وطريق الحج الذى يبدأ من دمشق يمتد خلال منحدر مرتفع من الحجر الجيرى [لمسافة تزيد على ٢٠٠ ميل]، ويمر خلال عمون Ammon، وموآب وآثار سعير Seir إلى أن يصل إلى معان (فى إيدوم Edom). هذا الحجر الجيرى موجود أيضا فى جبال سعيرSeir ، ومعه عروق من الصوان الذى نشاهده أسفل بيت لحم، خلف البحر الميت . لم أعثر إلاعلى قليل جداً من الأصداف فى الحجر الجيرى فى منطقة معان . كما عثرت أيضا على بعض النقوش التى تشبه المحار فى الحجر الجيرى (خارج منطقة الصوان) فى صحراء موآب.

الباحث يشاهد فى الصخر الرملى واسع الانتشار فى الجزيرة العربية ، وجود أحزمة وطبقات من الفقاقيع البللورية الزجاجية؛ ولكن مع كل ذلك لم أعثر على أى شكل

من أشكال النباتات أوالحيونات ـ يضاف إلى ذلك أن منظر الصخور الرملية والصخور الجيرية، وكذلك المناطق البركانية، أوإن شئت فقل: الحَّرات يراه الرائى فى طول شبه الجزيرة العربية وعرضها . وتقدرالمنطقة غير المعروفة لى، فيما بين دمشق ومكة، بحوالى ٢٠٠٠٠ ميل مربع. الحرات ، على الحدود الغربية لشمال الجزيرة العربية ، والتى تبدأ من تبوك ـ تستمر إلى مسافة حوالى ٦٥٠ ميل إلى أن تصل إلى مكة . [الحرات الأخرى، التى ليست موقعة على الخارطة، والمعروفة لى أنا شخصيا هى: حرة الحمراء – بالقرب من وادى الدواسر ، وحرة السودة ـ فى جبل طويق Tueyk.

الكلمات العربية عند دوتي(*)

(*) هذه الكلمات جرى استعمالها وشرحها فى متن الكتاب .



'Aad	عاد: قبيلة قديمة فى جنوب الجزيرة العربية
A'addi'aley-na	عدى علينا
'Aarab	أعراب
'Aarab Zamil	أعراب الزامل
Araron , Harûn	هارون
El-Âb	الآب: قرية من قرى مدينة حرب
Ab el-Ghrennem	أب الغرنم: عميد أعراب بلقاء
Aba Rasheyd	حرة أبا رشيد
El-'Abàdella	العبادلة: قبيلة من الأشراف
J. Abàn	جبل أبان: جبل أبنات
Abànàt	أبنات: جبال أبنات
'Abâra	عبارة: طريقة
'Abbas	العباس: عم محمد (ص)
Abbasîeh	عباسية: ساحل حجرى بالقرب من مسمة
'Abd	عبد
'Abd-el'Azîz, le-Bessàm	عبد العزيز البسام
'Abd-el'Azîz	عبد العزيز: أمير بريدة الأسبق
'Abd el-Azîz, el- Metaals, Ibn Rashid	عبد العزيز المتعب بن الرشيد
'Abd-el-'Azîz, er-Román	عبد العزيز الرومان: شيخ تيماء
'Abd el-'Azîz	عبد العزيز

'Abd-el-Hâdy	عبد الهادى
'Abd-el-Kâder	عبد القادر: الشريف الجزائرى
'Abd-el-Kâder	عبد القادر: حارس القلعة الشاب
'Abd-er-Rahmàn	عبد الرحمن: ولد عبد الله البسام
'Abd-el-W?hâb	عبد الوهاب
Abda, Shammar	عبدة شمَّر
B. Abdillah, Harra	حرة بنى عبد الله
'Abdillah Pasha	عبد الله باشا
'Abdullah ibn Abbas	عبد الله بن عباس
'Abdullah, el-Bessàm	عبد الله البسام
"Abdullah el-'Aly	عبد الله العلى
'Abdullah el-;Azîz	عبد الله العزيز المحمد: أمير بريدة الراحل
'Abdullah	عبد الله: أمير سابق من أمراء بريدة
'Abdullah	عبد الله: مسيحى غريب زار حائل
'Abdullah	عبد الله: أصغر أبناء حمود العبيدى
'Abdullah el-Kennèyny	عبد الله الكنينى
'Abdullah weled Mahanna	عبد الله: ولد مهنا
'Abdullah el-Moslemanny	عبد الله المُسلمنى
'Abdullah ibn Rashîd	عبد الله بن الرشيد
'Abdullah ibn S'aûd	عبد الله بن سعود

'Abdullah ibn Sellàm	عبد الله بن سلام
'Abdullah	عبد الله شريف مكة
'Abdullah, es-Siruân	عبد الله السروان (أبو على)
'Abdullah	عبد الله: ولد طلق
'Abdullah el-Yahŷa	عبد الله اليحيى
'Abdullah ibn Yahŷa ibn Selèym	عبد الله بن يحيى بن سليم
'Abdullah	عبد الله: ولد الزامل أمير عنيزة
'Abeyd ibn Rashîd	عبيد بن الرشيد
'Abdeydillah	عبيد الله السحيمى
J. el-Abiath	الجبل الأبيض: البيضة
'Abîda	عبيدة: فرع من القحطان
'Abuida	عبايدة: أعراب بالقرب من جدة
Abu, abûy	أبو: أبوى: أب
Abu 'Aly	أبو على
Abu Bâkkar	أبو بكر
Abu Bàtn	أبو بطن
Abu Daûd	أبو داود
Abu Fâris	أبو فارس
"Abu Fâris	أبو فارس: سليمان
Abu Feyd	أبو فيض: موقع قريب من بريدة

Abu Khalîl	أبو خليل
Abu Krûn	أبو قرون
Abu Middeyn	أبو مدّين: قروى من خيبر
Abu Moghrair	أبو مغرير
Abu ['Bû] Ras	أبو راس
Abu Rashîd	أبو رشيد: سائق فى موسم الحج
Abu Rashîd	أبو رشيد: تاجر فى قرية العلا
Abu Robai	أبو روبى: أسم قرية
Abu Sammakh	أبو سماخ
Abu shamah	أبو شامة
Abu Selim	أبو سليم
Abu Sháhr	بو شهر: مدينة فارسية
Abu Shauk	أبو شوك: قنفذ
Abu She'ab	أبو شعب: واحة فى وادى فاطمة
Abu Sinnán	أبو سنان
Abu Sinûn	أبو سنون
J. Abu Tâka	جبل أبو طاقة
Abu Towfish	أبو توفيش: مرض الكوليرا
Abu Thain	أبو طين: بحيرة فى العويرض
Abu Zeyd	أبو زيد

Abûd	عبود: خبز غير مخمور مخبوز على الحجر
'Ad	عاد
Beny Adam	بني أدم
Adamy	آدمى
'Adan	عدن
Adilla	عديلة: اسم كلب
W. Adîra	وادى الديرة: وادى الحسى
'Adu	عدو
Adu ed-dîn	عدو الدين
Aduàn	عدوان: فرع من المعازى
Aduàn	عدوان: سم كلب
W. Adzîz	وادى عدزيز
Aed, Ad	عايد (عد): مسقى
El-'Aerîn	العرين
Afâra	عفارة: من أقارب أهل خيبر
Afarît	عفاريت: فرع من العَمَّر
'Afarît	عفاريت: جمع عفريت
Affârim!	عفارم (كلمة تركية)
El-'Âffery	العفرى: غزال لا يشرب الماء
'Affinîn	عفنين: فاسدين

'Affn	عفن
'Affûn	عفون: جمع عفن
'Afia	عافية: صحة
'Afîf	عفيف: بئر قديمة بين مكة والقصيم
El-Aflâj	الأفلاج
'Afrît	عفريت: جن
El-'Afu	العفو
'Afuah	عفوه: عفواً
Afûn	عفون: فاسد
'Âfy aleyk	عافية عليك
El-'Agab	العقاب: نوع من النسور
El-'Agab	العقاب: جمع عقبة
El-'Agaba	أعراب العقابة
'Agâl	عقال
El-'Agal	العقال
El-'Agal Ullah	العاقل الله
El-Âgel	العقيل: محطة صحراوية
El- É thelly	الإثيلي: موقع خرب من بالقرب من حرادة أو حردة
Éthla	أثلة: شجرة طرفاء
J. Éthlib	جبل إثلب

J. Ethmâd	جبل إثماد
J. Ethnân	جبل إثنان
Ethn'asher kelb	اثنى عشر كلب
El-'Etîm	العتم: شجرة الزيتون التى جُلبت من سوريا
Étrush	اطرش: تقدم نحو الأمام
Ey kh?bar	إيه الخبر: ما هى الأخبار
Eyâd	إياد
Eyâd	إياد: شخص من البشر
Eyâda	عياده بن عجوين: شيخ الحطيم
El-Eyàlla	العيال: فرع من عتيبة
Eyàr	عيار: مؤسس العيارية
El-Eyarîeh	العيارية
Eysh b'hu	أيش بو: مالذى يؤله
'Eyyâl 'amm	عيال عم: أبناء عم
'Eyyâl es-sheukh	عيال الشيوخ: أبناء الشيوخ
Faddaghra	الفداغرة: فرع من الشمر
El-Faera	الفايرة: قرية من قرى بنى سالم
Fáhd	فهد: حيوان
Fáhd	فهد: أكبر أبناء عبيد بن الرشيد
Beny Fàhm	بنى فهم

Fâiz	فيز: رجل ماهوبى
Fakir	فقير
Fálaj	فلج جمعه أفلاج
Far'aoun	فرعون
Fáras	فرس
Fardûs	فردوس: فهجى
Fâsid	فاسد
El-Fasîha	الفصيحة: اسم أنثى بدوية .
El-Fâtha	الفاتحة: فاتحة القرآن
Fâtima	فاطمة
W. Fâtima	وادى فاطمة
Fâtir	فاتر: رجل كبير السن: عجوز
Fattish	فتش: أبحث
Fatya	فتيّة: سلّة
El-Faur	الفور: قبيلة من الأشراف
Fedd'an	الفدان: فخذ من البشر
Fehját.	زبائن فطراء الحطيم للفكارة
Féhjy	فهجى، مفرد فهجات
El-Fejîr	الفقير، مفرد الفقارة
Fejjuân	فحوان: اسم كلب

Féjr	فجر: قروى من تيماء
El- Féjr	الفجر
w. Fellah	وادى الفلاح/ وادى الحسى
Felûs	فلوس/ نقود
Fen el-ma'aziba	فين المعزبة
Fen Rubbuk	فين ربك
Fend	فخذ من قبيلة
Fenjèyl	فنجال
Fenjèyn	فنجين: فنجال القهوة الصغير
Ferâ	فرعة
El-Fer'a	الفراع
El-Duffîr	الظفير
Dúksa	دكسة
Dulàb	دولاب
Dullû	دلو
Ed-Dumm thekîl	الدم ثقيل
Dungola	دنقلة
Durf ed-Drawish	ظرف الدراويش
Dazt (That)	ذات: قلعة من قلاع الحج
'Ebbeden Effendy	أفندى الفايز: شيخ بنى صخر فى موآب

Eflah	إفلا
J. Éhad	جبل أحد
Eherrij	هرج
Éherris	أحرز
Ejja	جبل أجا
'Ekîm	إكيم
Eljy	إلجى: قرية قريبة من بيترا
El-'Elk	علك
Ellathi th?bah	الذى ذبحه
El-'Elûm	العلوم
Elyâs	إلياس، شقيق قيس
Emir	أمير
Emir el-Hâj	أمير الحج
Emir el-kâfily	أمير القفيلى
Ems,	أمس
El-Engéil	الإنجيل
El-Engleys	الإنجليز
El-Engleysy	الإنجليزى
Enhaj	إنهاج

Ensheyfa	النشيفة: أنقاض فى موآب
Enshèynish	أنشينش: أنقاض فى موآب
Entha	أنثى
Ent kelb	إنت كلب
Enzân	إنزان: ساحل جبلى فى تيماء
Ephraim	أفرايم : قبيلة
Erb'a	إربعة: فرع من عتيبة
Erbah	إرباح: إنقاض قرية بالقرب من تيماء
Erbeylát	أربيلات: فرع من ولاد على
El-'Erk	العرق: فى الوشم
Erka	عرقة: جبيل
'Er'n	عرن: بنات
El-'Erudda	الروضة: مسقى من مساقى الفكارة
El-Esha	عشة: نوع العشب
Eskîny	أسقنى
Éslam	السلام: فرع من الشمر
Ésm'a	اسمع
El-Ésmar	الأسمر: جبل من الجبال
El-Esomma	الأسومة: فرع من عتيبة
El-Éswad	الأسود: الجبل الشمالى من الأبنات

El-Éswad	الأسود: سائق من السائقين فى الحج
Ethbah-hu!	أذبحه
El-Âgella	العقيلة
Âgerra	عجيرة: المياه القريبة من سطح التربة
'Ageyl	عقيل: أحد راكبى الجمال من نجد
'ageylát	عقيلات/ عقيل
El-Ageylát	العقيلات: من أقارب بنى عطية
Aghrûty	أغروطى
'Agîd	عقيد: جارى القافلة
W. 'Agîg	وادى عقيق، بالقرب من شعارة
El-'Âgorra	الأجورة/ شوك العجوز
Ahl el-aard	أهل الأرض/ الجان
Ahl Athab	أهل عذاب
Ahl byût	أهل بيوت
Ahl Gibly	أهل قبلى
Ahl Hàjjur	أهل حجور
Ahl hàwâ	أهل هوى
Ahl kellimy	أهل كلام
Ahl es-Shemâl	أهل الشمال
Ahl Theyma	أهل تيماء

Ahl tîn	أهل طين: ساكنو بيوت من الطين
El-Ahmar	الأحمر، الجبل الجنوبي من أبنات
Ahmed	أحمد (شقيق محمد النجومى)
Ahmed	أحمد (محمد ص)
Ahrâr	أحرار
Aida	عيدة: اسم كلب
Ainàt	العينات: أقارب الفكارة
Aiûn	عيون: فراشة
'Ajâj	عجاج
'Ajamy	أعجمى
'Ajeyfa	حرة عجيفة
'Ajilân	عجيلان: اسم كلب
J. Ajja	جبل أجأ
'Ajjâj	عجاج: الريح المحملة بالرمل
Âjjidát	عقدات (كلمة قصيمية)
Âjjilla	أجيلة: جبل بين القصيم ومكة
'Ajjr	عاقر
Aj(k)eyl	عقيل: قروى من تيماء
Ajlâb	أجلاب: تقال للحيوانات سواء كانت إبل أم خيول
El-'Ajmàn	العجمان

Ajûj	يأجوج
El-Ak(Ach)	الآك: ممر فى جبال الطويق
'Akaba	عقّب: فسّر
'Akaba Alya	عقبة عالية
'Akaba es-Shemîya	عقبة الشامية
'Akaerît	عكاريت: كلمة مصرية وسورية
Akhbâra-'d-Dûal	أخبار الدول: اسم كتاب
Akhdar	أخضر
El-Akhma	الأخمة: الصخور التحتية فى حرة سهل مدين
Akhu	أخو: شقيق
Akhu Noora	أخو نورة
Akh?ey	أخي: تصغير أخ
Akilla	عقيلة: موقع صحراوى الماء فيه قريب من سطح الأرض
'Akkâm	عكام
El-'Alem	العَلِم: اسم جبل
'Alemny	علمنى
'Aleyî	عليّ: قرية فى العروض
'Aleyk 'áhad Ullah wa amán Ullah, in mâ akhûnak	عليك عهد الله وأمان الله أن ما أخونك
Aleykom es-salaam	عليكم السلام
Aleynak sâdik	عليناك صادق

'Alîa	عالية: زوجة أبو زيد
'Alîy	عليٌ: قرية من قرى بنى سالم
Allah	الله
Allàyda	العلايدة: شيوخ فرع ولاد على
'Allowîy	العلوىّ: شيخ شيوخ ولاد على
El-Ally	العلا: اسم قرية
'Alowna	العلاونة
'Alowwy	العلاونة
'Aly	عَلوّى
'Aly 'aklu	على عقله
'Aly	على: الأمير التنفيذى فى عنيزة
'Aly	على: رقيب زنجى مع أمير عنيزة
'Aly	على: قصّاد فقير من بنى عطية
'Aly el-A?ld	على العيد: جار فى حائل
El-'Aly	العلى: فرع من البشر
El-'Aly	العلى: حرب بنى على
B. 'Aly	بنى على: فرع من حرب مصروح
'Aly	على: حربى مسكين من بنى على
Ibn 'Aly	ابن على: أسرة من أسر حائل
'Aly houn-ak	على هونك

'Aly	علي: شيخ متدين من خيبر
'Alylahŷaty	علي لحيتي
'Aly	علي: أحد أتباع مجيد الحمود
'Aly	علي: الإمام علي كرم الله وجهه
'Aly el-Rasheyd	علي الرشيد: من عنيزة
'Aly es-Sweysy	علي السويسي
Aly	علي: الابن الصغير من أبناء الزامل
Amân	أمان: عبد حبشي معتوق
Amân	عَمان:
El-'Amâra	العمارة: حقل من حقول القمح في البصرة
'Ambar	عنبر: ضابط من الجلا في حائل
'Am'dàn	عمدان: جمع عمود
Ameah	أمياه حكران
'Amed	أعْمد: أذهب مباشرة إلى
'Amik	عميق
'Amm	عم
'Ammàn	عمان: عمون
'Ammar	حلة عمار
'Ammarát	العمارات: فرع من البشر
'Ammatak	عمتك

Ammera	أميرة: اسم كلب
Beny 'Amr	بنى عمر: فرع من حرب مصروح
Beny 'Amr	بنى عمر: من حرب بنى سالم
'Amr Ullah	أمر الله
'Amûd	عمود
'Amûd	عمود: فرع من الشمر
W. Amud?n	وادى عمودان فى تهامة
Ana abûk	أنا أبوك
Ana ajizt	أنا عجزت
Ana akhtak	أنا أختك
Ana akhu chokty	أنا أخو شوكتى
Ana bi wéjhak yâ sheikh	أنا بوجهك يا شيخ
Ana efla yowwella	أنا أفلح إى والله
Ana meyet	أنا ميت
Ana min dîrat beyt Ullah	أنا من ديرة بيت الله
Ana nusîk	أنا أُنسِك
Ana sabáktahum	أنا سبقتهم
Ana ummak	أنا أمك
Ana ússhud!	أنا أشهد
Ana weled abûy	أنا ولد أبوى

Ana werrîk	أنا أوري؛
El-Anâbis	حرة العنابس بالقرب من المدينة المنورة
Anâg	عناق: ربعية صغيرة من الماعز
Anatoly	أناضولي
'Anàz	عناز: عميد العنزى
'Anàz	عناز: تل في حرة العويرض
Andalûs	الأندلس
'Aneybar	عنيبر
'Aneyza	عنيزة
'Anezy, kellâ	قلعة العنزى
Anfàd	أنفار: جمع نفر
Anmâr	عمار: عميد من عمداء العرب
El-Ânnezy	العنزى
'Antara	عنتره
El-'Antarîeh	العنترية
El-'Anûz	العنوز
Aorfy	عرفي
El-'Arab 'akl-hum nâkis	العرب عقلهم ناقص
'Araba	وادى العرابة
L'Arabie avant	العرب قبل

'Araby	عربى: اللغة العربية
Aradát	العرادات: فرع من البلوى
'Arafát	عرفات
El-Aránta	الأرنطة: قبيلة من الأشراف
El-'Arár	العرار: نوع من الأشجار
El-'Arbân	العربان
Ard ba'al	أرض بعل
Ard Jiddàr	أرض جدّار
Ard el-Kelby	أرض الكلبى
Ard (es) Suwwan	أرض الصوّان
Ardub	أردب
Areyj	أريج: محطة صحراوية بالقرب من تيماء
Areymîsh	عريميش: اسم جمل
'Aridàn	عريضان: جبل صحراوى بين مكة والقصيم
El-Arîsh	نفود العريش
Aroa	الأروة: فرع من جهينة
Arrobûn	عربون
El-'Arrafej	العرفج
Arrak'i	العراكى: موقع صحراوى بين حائل والكويت
El-'Aruth	العروض

'As'	عسى
'As' Ullah	عسى الله
Ashâb en-Néby	أصحاب النبى
Asheyfát	عصيفات: أقارب أهل خيبر
Ashîrat	عشيرة
'Ashîry Harra	حرة العشيرى
El-Ashrâf	الأشراف
Asîly	أصيل
El-Asîr	عسير
'Askar	عسكر
Askar	عسكر: ولد مشهل العواجى
Asl	أصل
El-Asmîeh	العازمية: قرية الفجير
Asnâm	أصنام
b. Assad	بنى أسد
Beny Ass'm	بنى أسوم: فرع من حرب مصروح
El-Assr	العصر
Aswâk	أسواق
'Asyîn	عاصين
Âtàfa	عطافة

'Ateja	عتيقة: اسم أنثى بدوية
Atèwy	عطيوى: شيخ فى خيبر
El-Ateyàt	العطيات: فرع من عتيبة
'Ateyba	عتيبة
Atèyfa	عطيفة
El-Atreyfàt	العطيفات: أقارب أهل خيبر
El-'Athab	العذب: مصل جدرى البقر
Athan 'lak 'oweyish	أطحن لك عويش: أعد لك طعامك
Atheba	عذبة: اسم أنثى بدوية
El-'Atheyb	العذيب: آبار بين مدائن صالح والعلى
Athubba	الذّبة: النحل البرى
Beny 'Atîeh	بنى عطية
El-Atóylî	العطيلى: مسقى من عدة آبار فى ديرة ولاد سليمان
'Atr, 'Attar	عطر، عطار
Atsha	أتشه: اسم جمل
'Attar	عطر الورد
El-Atthar	العطار: قرية فى وسط نجد
Atûla	عطولة: جبل بين القصيم ومكة
Âtullah	عطا الله: قروى ثرى فى تيماء
J. Atwa	جبل عطوة بجوار خيبر

'Auâfy — عوافى

'Auàjy — عواجى فرع شيوخ البشر فى نجد

Auâzim — العوازم

'Aud — عود: بخور

Auda — عودة: اسم كلب

El-Auellîn — الأولين: أهل الأزمان القديمة

'Aueynat Masallat — عونيات مسلات الأمان

'Aueyrid Harra — حرة العويرض

El-'Aueyrid — العويرض

El-'Auf — العوف

'Aufy — عوفى

'Auhellàn — عويهلان: مكان تجمع بالقرب من عنيزة

'Aul — العول: مكان للتجمع فى جبل شمر

'Aunâkl — عونك

W. 'Aûrush — وادى عروش، فى الحرة

'Authèm — عثيم: هجرة فى بلاد بن الرشيد

Auwàd — عواد: قاضى فى حائل

Auwàd — عواد: قاضى فى خيبر

El-Auwâli Harra — حرة العوالى بالقرب من المدينة المنورة

Auweytha — عويذة: اسم أنثى بدوية

'Awaj	عواج
El-Ayathat	العياذات: قرية فى وادى الدواسر
'Aŷb	عيب
'Aŷb	عيد: شخص ماهوبى
'Aŷb eth-thahîa	عيد الضحية
'Aŷb-ak mubârak	عيدك مبارك
Aydân	عيدان: جمع عود
Ayeyna	العيينة، فى وادى حنيفة
'Aŷid ibn Mertaad	عايد بن مرتاد
'Ayîna	عينة: عيون وأنقاض: محطة صيفية
Ibn 'Ayith	ابن عايض: شيخ زنجى مُتدين فى عنيزة
Ayla	عيلة: قرية على رأس خليج العقبة
El-Âyn	العين: عين الحسود
'Ayn 'Aly	عين على: ينبع فى خيبر
'Ayn ibn Ghróbon	عين بن غربون: محطة شرقى طريق الحج
'Ayn er-Reyih	عين الريح: نبع بالقرب من خيبر
'Ayn Seleîm	عين سليم: بالقرب من خيبر
'Ayn es-Sweyna	عين السوينة: قرية فى غرب السد
'Any ez-Zeyma	عين الزيمة
'Aysa-bin-Marim	عيسى بن مريم

'Aysa	عيسى
'Aysh	عيش
'Aysht	عشت: شكراً
El-'Ayûn	العيون
'Ayûn bilâ simûm	عيون بلا سموم
'Azîz	عزيز
Azzuâl	أزوال، جمع زول: رجل
Bab	باب
Bab el-'Aarab	باب الأعراب
Bab el-'Aly	الباب العالى
Bab Tooma	باب القديس طوماس فى دمشق
Bab es-Seyl	باب السيل
Bâch (&) ir	بكير: غداً
El-Bâdia	البادية
Baedi	بئيدى: موقع للتخييم فى حرة خيبر
Bagdad	بغداد
Baggl	بكل: لبن مجفف
Bàghrila	بغلة
Bahâim	بهائم
Bahhir!	بحر

Bahr eth-Thellam	بحر الظلام
Bairàm	بيرم: عيد
Baith Naam	بيض نعام
El-baitha	البيضة
Baitha Nethîl	بيضاء النثل
Bak'a	بقعة: بين حائل والكويت
Bakhil	بخيل
Bakhorra	باكورة
El-Bakht	البخت
Bakhûr	بخور
J. Bákr	جبل بكر
Bakr el-Wahashy	البقر الوحشى
Bakshîsh	بقشيش
Bâmiya	بامية
Banna	بنّة: اسم امرأة بدوية
Barâd	براد: هواء معتدل الحرارة منعش
W. Bárada	وادى بردى بالقرب من دمشق
Barâhimma	براهيما، من بنى إبراهيم
Bàrak	بيرق: علم
Barakát	بركات: فرع من البلوى

Baris	باريس
El-Barràcheda	البراشدة: قبيلة من الأشراف
Barraga	برّاج/ برّاجة
Ibn Barrák	ابن براك: فرع من الحطيم
Ibn Barrák	ابن برّاك: عميد بنى رشيد من الحطيم
Barrûd	برود: قرية فى وسط نجد
Bashy Bazûk	باشى بزوك
Bâtin el-Ghrôl	بطن الغول
El-Bat'neyn	الباطنين: فرع من عتيبة
Battâl	بطّال
Bawl Iblîs	بول إبليس
Bayâdiyyeh	الإباضية
Bayir	باير: مكان فى الصحراء السورية
B'dûr	بدور:صنف من العنزى
Bébàn	بيبان: جمع باب
Béda	بدا: قرية مدمرة فى تهامة
Bédan	بدان: ماعز برى
Beddaûwy	بدوّى
Beddur	بدور: قرية من قرى بنى سالم
El-Bedbwna	البداونة: فرع فقير من الحطيم

Bedr Honeyn	بدور حنين
Bédr ibn Jôhr	بدر بن جوهر
Bédr ibn Telâl	بدر بن طلال
Bedûn	بدون جمع بدنة: بقرة برية
El-Beduw	البدو
Beduwîa	بدوية
Beduwiyát	بدويات
Bedûwy	بدوّى
Begeya	بجاية (قرية من أربعين منزلاً)
Bejaida	البجايدة: فرع من البشر
Bejaija	البجاجة: فرع من البشر
Bélah	بلح
Belais	البليس: أقارب العنزى
Béled	بلاد
Béled el-Aarab	بلاد الأعراب
Béled amân	بلاد عُمان
Béled el-'Asîr	بلاد عسير
Béled mât	بلد مات
Béled er-Rûm	بلاد الروم
Belka	بلقاء

Belka, Kellât el	قلعة البقاء
Bellah	بلح
Bellezzîeh	بلزّية: مستوطنة لزراعة القمح فى بلاد الرشيد
El-Bellush	البلوشى: مرض الكوليرا
Banana	بنانة: مسقى فى جبل شمر
Benàt	بنات
Benàt et-Tî	بنات التيه: أعظم نياق الحطيم
Beneyyi	بنيي: شخص من الماهوبى
Bény el-Bint	بنى البنت: أنقاص سد بالقرب من خيبر
Berber	بربر
Berdàn	بردان: بشوت من الصوف الخشن
Berkû'a	برقع
Bernéta	برنيطة
Bérni	البرنى: نوع من التمر فى قرية العلا
El-Berrarîj	البراريج: بطن من بطون عتيبة
Bersîm	برسيم
El-Bertha	البرثة: بير الحطيل بالقرب من مكة
Bess	بس: كفى
Bessàm	بسام: عائلة ثرية فى عنيزة
Bessàm	عبد الله البسام

El-Bessàm	بسام أخر رحّال
Bessàm	البسام: أسرة أخرى غير بسام عنيزة
Bessàm	بسام: اسم قرية
Bethra	بذرة: بذرة التمر
B'ethrak	بتراك: بإذنك
El-Bettera	البتيرة: أنقاض بلدة فى جبل سعير
Beylàn	بيلان: قرية تركمانية فى أعالى سوريا
El-Beyrih	البيريح: أمس
Beyrût	بيروتى: بستانى من بيروت يعيش مع العرب فى الجزيرة العربية
Beyt	بيت
Beyt Akhreymát	بيت أخريمات: أثر جميل فى مدائن صالح
Beyt el-mâl	بيت المال
Beyt	بيت
Beyt es-shaar	بيت شعر
Beyt es-Sherèyfa	بيت الشريفة
Beyt es-Sheykh	بيت الشيخ
Bezîr	بزير: قصر الشبيب
B'goom Aarab	أعراب البجوم
Bî wéjhy	بوجهى
Bîa'a el-má	بيّاع الماء

Bîát	بيات: لعبة من لعب خيبر
Biddîa	بدّية: هجرة من هجر جبل شمر
El-'bil	البل: الإبل
B'il kheyer insh' Ullah	بالخير إن شاء الله
Billah	بالله
Billî	بليّ: جد البلوى
Billî	البلى: قبيله قديمة فى تهامة
Billy	بلى: اللفظ البدوى للكلمة السابقة
Bîm-bashy	بمباشي: لقب عسكرى تركى
Bint	بنت: ابنة
Bintu	بنته: ابنته
Bîr	بير: بئر
Bîr el-Ghrannem	بير الغنم بالقرب من وادى فاطمة
Bîr en-Nâga	بير الناقة
Birket	بركة: خزان ماء
Birket el-Engleysy	بركة الإنجليزى
Birket Mo'addam	بركة معضم
Birkets	برك تجار الماء فى جدة
J. (Thul'a)	جبل طلاع أو الطور
Bîsan	بيزان: الكلمة الحبشية الدالة على الماء

W. (el) Bîsha	وادى بيشة
Bishr	بشر: قبيلة فرعية من العنزى
Bisher	بشر: بطن من حرب مصروح
Bisher Aarab	أعراب البشر
Bishrîa	بشرية: امرأة من البشر
El-Bishy	البيشى: جماعة مُسلحة من الجنود لخدمة شريف مكة
Bismillah	بسم الله
J. Biss	جبل بس
W. Bissl	وادى بسل
Bîurúldi	بيورولدى: جواز سفر تركى
Bizr et-támr	بذر التمر
Blat, Kellâ	قلعة بلات
Bludàn	بلودان
Boabat	بوابة
Bocca	بَكة: مكة
Boghrâz	بوغراز (بوغاز) : ممر بين الصخور
Bokhâra	بخارى
Bokhŷta	بخيته: اسم لامرأة بدوية
Boreyda	بريدة
Borghrol	برغل (وجبة سورية من القمح)

Borj	برج دفاعى
Borj Selmàn	برج سلمان (أرض صحراوية فى ديرة الفقير)
Borma	بورما (بلدة مهدمة فى جبل سعير)
Borrûd	بورّد (قرية غربى شقراء)
Borusia	بروسيا
Bosra	بُصرى: (أنقاض مدينة فى الحوران)
Bosra	البصرة (مدينة على نهر دجلة)
Bosra	بصرة فى إيدوم
Bothra	بثرة: مجموعة جبال
Bottîn	بطين
Bou	بو: اللفظة المغربية لـ "أبو"
Braitshàn	برتشان: شيخ بدوى من الشمر
Brik	إبريق
Brim	بريم
Brûssia	بروسيا
W. el-Bûg	وادى البق (فى الجزء الشرقى من حرة العويرض)
Buggân	بوجان: اسم كلب
Buggila	بكلة (شرائح لبن مجفف)
El-Bukkerîeh	البكيرية
Bukkra	بقرة

Bulbul	بلبل
Bullah	بالله !
El-Bûma	البومة: اسم فرس
Búnder el-Telâl ibn Rashîd	بندر طلال بن الرشيد
Búnder's	بندر: طفل يتيم
Búndur	بندر
Búndur 'Aul?nshy	بندر عولانشى: اسم قرية العلا القديم
El-Bunn	البن
Búrghrol	برغل
Burjésba	برجسبة: مكان صحراوى
Búrjess	برجس: شيخ علايدى شاب
Brnûs	برنس: رداء أبيض يلبسه البربر من المغاربة
Burr	بر
Burr el-'Ajam	بر العجم
Busatîn	بساتين
Busîyeh	بشية: اسم أنثى
Bystân	بِستان
Bystâny	البستانى: طبّاع فى بيروت
El-Búthenah	البوزنة: هجرة من جهينة
J. Búthra	جبل بثرة

Bútm	بطم: نوع من خشب الأرو
Câbul	مدينة كابول
Caesarea Philippi	قيصر فيلبٌى
Ch	ك
Chai	شاى
Châsim	قصيم: القصيم
J. Chhebàd	جبل شيباد
Beny	بنى
Ch(k)essab	كسب
Cheyf-ent	شيف (شوف) أنت
Cheyf Nasrâny	شيف (شوف) النصرانى؟
Chôl	شول
Circass	شركسى
Dab	داب: ثعبان
Daed	دايد: أعراب الهذيل
Ed-D'aika	الدعيكة
Dafîna	دفينة: حفر مياه بين القصيم ومكة
El-Dâha	الداحة: محطة صحراوية شمال تيماء
Dâhir	ضاهر: شيخ قرية العلا
Ed-Dâhy	الضاحى: النفود التى بين تيماء والجوف وحائل

Ed-Dajîn	الداجين:بطن من عتيبة
Dakhálakom	دخيلكم
El-Dakhîl	الدخيل
Dakhîl	دخيل
Dakhîlak	دخيلك
Dakhîlullah	دخيل الله
Dalèyel	دليل: اسم أنثى بدوية
Dalîl	دليل الحج
El-Dâm	الدام : قرية في وادي الدواسر
Ibn Dammùk	ابن داموك: شيخ من شيوخ الحطيم
Dánna	دنّة: اسم جمل
Dàr el-'Aarab	دار الأعراب
Dàr el-Hamra	الدار الحمرة
Dàr el-M?ghr	دار المغر: محطة من محطات الحج
Dareyem	داريم: شيخ تيماء
Darraga	درقة: هدف
Drŷesh	داريش: شيخ من الماهوبى
Dat Ras	ذات راس: أنقاض في أعالي كيراك
Dathyna	دفينة
Aarab Dauâsir	أعراب الدواسر

W. Dauâsir	وادى الدواسر
Daûd	داود
Dawwa	دواء
J. Debby	جبل ديبى: جبل قريب من سليمى
Debîbat	دبيبة الشام
Deffafîat	الدفافيات
Deghrèyma	دغريمة: اسم أنثى بدوية
Dehgreyrát	دغريرات: بطن من الشمر
Deh !	ده: صوت طلقة البندقية
Ed-Deheysa	الدهيسة: اسم فرس
Ed-Dehússa	الدهوسة: بطن من عتيبة
Ed-Deir	الدير
Dellàl	دلال: أوانى القهوة
Dellâl	دلّال: سمسار
Ed-Dellam	الدلم: بين الحريق والحوطة
Ed-Dellamîeh	الدلامية: مسقى فى القصيم
Deraan	الدرعان: أقارب العنزى
derâhim	دراهم
Derb el-bukkra	درب البكرة: طريق بين تبوك والدار الحمرة
Derb el-Hâj	درب الحج

Derb es-Sherky	الدرب الشرقى
Derb es Sultâny	الدرب السلطانى
Derb Zillâj	درب زلاج
Derrúby	دروبى: من أقارب الصلوبة
Derwîsh	درويش
Deybàn	ديبان: ثعبان
W. Deydibbàn	وادى الديدبان
Deyik es-sudr	ضيق الصدر
Diànat el-Mohammedia	الديانة المحمدية
Dîbàn	الديبان: قرية مدمرة فى موآب
Dibba	دبّاء: نوع من القرع
Ed-Dillum	الديلم: مكان فى وسط نجد
Ed-Dîmn	الزمن
Dims	دمص: كتل البازلت
Dîn el-'Aarab	دين الأعراب
Dîn néjis	دين نجس
Dînya	دنيا
Dîra	ديرة
Dîrat er-Rasûl	ديرة الرسول
El-Diwán	الديوان

Doàdamy	الدوادمى
Ed-Dôeh	الدوحة: قرية واحية فى وادى فاطمة
Ferâdessa	الفرداسة: من أقارب الحطيم
Feraij	فريج (فريق)
Feràya	قبلى من الفجير
El-Feréya	الفراية: قرية من قُرى المطير
Ferij	فريج (فريق)
Ferjàn	فرقان (هجر بدوية)
Ferjèyn	الفرجين (قمة صحراوية جنوب القصيم)
Fernèyny	فرنينى
El-Ferra	الفراد (الفراع): قاع وادى جزل
El-Ferrâ	الفراع (على طريق الحج الأوسط)
Wady Ferr'a	وادى الفراع
El-Ferr'a	الفراع: قرية فى القصيم
Ferrah	فراح: بدوى من الشمر
Ferth	جيرة: ما يجتره الحيوان
El-Ferùdda	الفرودة: فرع من حرب مصروح
El-Fesas	الفصاص: محطة بين حائل والكويت
Feyd	فيض: قرية فى مُمتلكات ابن الرشيد

Feyd	فائد: غنيمة
Fèysal	فيصل
Fèysal ibn s'aûd	فيصل بن سعود
Feythàh	فيضة (قرية)
Fez	فزان: واحدة من مناطق البربرى
El-figgera	الفجارة: حرف الحرة
El-Fîl	الفيل
Firmàn	فرمان
J. Fittij	جبل فتيج
Flamingies	فلمنكيين
F'lûs	فلوس
Fòdil	فُضيل: شيخ من البلوى
El-Fosiha	الفصيحة: اسم أنثى
Frankistàn	أرض الفرنجة
Fransa	فرنسا
Frenjy	فرنجى
Fuàra	الفوارة (مسقى مائى)
Fuddân	فدّان
Fuggar	فجار
Fueyhy	النويهى

Fuèylik	فويليق
El-Fúggera	الفقارة
Fúk er-rîg	فك الريق
El-Fúkàra	الفكارة:
El-Fúlsifa	الفلسفة
Fulûs	فلوس
Fumm es-seyf	فم السيف: أعراف جنائزية
Fúrja	فرجة: اسم بدوى لأنثى
Furkân	الفرقان: القرآن
Furrk	فرقع
El-Fushîla	الفشيلة: اسم أنثى بدوية
Fustân	فستان (معطف)
Futîs	فطيس
Future	فطور: إفطار
Fuzzna	فُزنا: انتصرنا
Gá'	قاع
Gaaja	الجاجة: فرع من العنوز
El-gá	القاع: مكان مفتوح فى عنيزة
El-Gabîd	القابيد: الجابيد: فرع من الحطيم

Gabbily	جبيلى: جبل فى جنوب القصيم
El-Gâbily	جبيلى: غداً
Gadyta	جديته: جبل الشيخ
Gahwa	قهوة
El-Gaila	القائلة: حرارة الظهيرة
Galla Land	أرض الجالا : أرض الحبشة
Galliûn	غليون
gamel	جمل
gamerèyn	جمألة
Ganna	جنا: عكاز
Gâra	قرية: أرض الواحة
Gârat el-Hajâj	قرية الحجاج
Gârat Owsheyfîa	قرية عويشيف
W. Gârib	وادى قريب
Garra	جرّة: برج مُراقبة
Garr'a	جرّة: وعاء لحمل الماء
Garrôra	قارورة
Gassa	قشّه: قرية فى القصيم
Gathowra	قثورة: فريج من البشر
Gatta	القطا

G'atûny	جاطونى
G'aud	قعود
El-Gâyth	القيظ
G'dah	القعدة (فرع من جهينة)
Gell'a	قلعة
Genna	جنة: اسم جبل
Gennas	قناص
Gerabis	القرابين (الجرابين)
El-Gerèyeh	القريٌ فى خيبر
Gèreyih	القرية فى تبوك
El-Géria	القرية
Gériat Abu Robai	قرية أبو ربيع
Gerîsh	جرش بالقرب من تيماء
Gerýa	قرية: هجرات من الخيام
El-Gerýen	القرين: قرية في الوشم
Gey'atin	قياطين
Gh-r	صوت الغين
Ghradir et-Teyr	غدران الطير
Ghradir	غدير
Ghradràn	غدران

Ghrallah	غراله: اسم جمل
Ghramîk	عميق
Ghrânim	غانم: حداد فى حائل
Ghrannem	غنم
Ghranèym	غرانيم شيخ العنوز
El-Ghrárb	الغرب
Ghrarîb	الغريب
Ghrashîm	غشيم
Ghrátta	غطه: أحجبه عن الرؤية
Ghraymàr	مسقى فى نجد
Ghrazzu	غزو
El-Ghrenèym	الغنيم: جبل فى تيماء
El-Ghrerb	الواحة الغربية فى تيماء
Ghrerra	غرّه
Ghreyth	غريث: فرع من الشمر
Ghrobny	غروبنى
Ghroceyb	غروسيب
Ghrûg	غروق (اسم حصان)
Ghrôl	غول
El-Ghrôl	الغرول: مسقى فى جنوب القصيم

Ghrólfa	الغرلفة
Ghrór	الغرور: أرض جرداء عالية
Ghrormûl	أرض تخييم
Ghrótb	غصبا
Ghróttha	غروطة: نبات الغاضة
Ghroweysh	غواش: ضوضاء
El-Ghrullathî	الغلثى: صُبيَّر
El-Ghrúnemy	الغرونمى: صليبى
Ghrunèym	غروينم: اسم شخص
Ghrûta	غوطة (دمشق)
Ghrurrub	غُروَّب: مكان صحراوى
Ginniyát	جنية
Griby	قربة (للماء)
El-girmella	جرملة: اسم فرس
El-Girt	القُرْط
Girtha	جرثة: اسم أنثى
El-Girthîeh	جرثية: اسم فرس
Gitthera	جثرة:اسم أنثى بدوية
Gluck	قوق: قرْق
Gô	قو: قوم: اذهب

Goâra	قوارة
Goayîeh	قويعية
Gôba	قوبا (جوبا)
Gôfar	قفار (جوفار)
Golbân	جلبان (آبار)
Gôm	قوم
Gomâny	قوماني: عدو
Goom	قم
Wâdy el-Gôras	وادى الجوارس
Gorèytha Harra	حرّة الغريثة
Gorma	قورمة: اسم أنثى بدوية
Gors	قرص خبز
gòrta	أورطة (تركية)
Gòtar	قوطر
Gottha	قطة: جطة: اسم أنثى
Goukh	جوخ
Gowwak	قوّاك
Gowak yâ Mohâfuth	غواك الله أيها المحافظ
Gowwich	قويك
Graaf	جراف

grashimîn	غشيم (جاهل)
Grâuty	قروطى (فرع من البلوى)
Graya	الجراية (فرع من البلوى)
Greyth	قريث (اسم شخص)
Grûn	قرون (فرع من جهينة)
guâd	قُوّاد
Gubba	جُبّة
El-Gùeyîn	القوين: فرع من البلوى
Gueyrîa	جويرية
Gûm	قم
G. Gurs	جبل قورس
Él-Gúsh	القش
El-Gúsh	قشعة
El-Gush'a	القشّعة
El-Gussa	القصّة
Gussha	قشة
Gutîa	قطعية
Guwiyîn	قويين

Habalîs	حباليص
Habâra	حبارى
e-Hábash	الحبش
Hábashy	حبشى
Habîb	حبيب
HabîbUllah	حبيب الله
Yâ Habîby	يا حبيبى
Hablûs	حبلوص
Habûsh	حبوش
Hâchim	حكيم
Hadàd	حداد
Hadâj	حداج
El-Hadda	الهدا
Hadda	هدا: قرية فى وادى فاطمة.
El-Haddàj	الحدّاج
El-Háddefa	الهديفة
El-Hádduj	الحدوج
Haderûn	حاضرون
el-Hadèyd	الحديد
Hadû	حدو

Haddùj	حدُّوج
Hadùj	هدوج
Hâdy	حادى
Had?d	حديد
Hàf	حاف
El-Hâfera	الحفيرة (اسم كلب)
Hâfrat Zeylul	حفرة زيلول
El-Hafr	الحفر
Hàg eth thúba	حق الذيابة
Hàg Ullah	حق الله
Haggu	حقو (حزام)
hágub	حاجوب
El-Hahlih	الحالية
Hail	حائل
Hâj	حج
El-Hâj	الحج: اسم قلعة
Hâj el-Kasîm	حج القصيم
Hajellán	حجيلان
El-Hajîa	الحاجية
Hajîn	هجين

B. Haajir	بنى حجير
Hajjâj	حجاج
Hàjjar	حجّار
hajjilân	حجيلان
Hajjir	حجّير
Ahl Hàjjur	الحجور
El-hajnowwy	الحجنوى
Hajŷa	أعراب حاجية
Hâkim	حكيم
Hakîm	عاقل
El- Hakîm	الحكيم (من أسماء الله)
J. Hakràn	جبل حكران
Hâ' l hazza	ها الحزّة
Hâ' l hôf	ها الحوف
halàl	حلال
Haleyfa	حليفة
halàyma	حليمة
El-H?lhal	الحلال
Halîb	حليب
W. Halîb	وادى حليب

Halla	حلّة
Hallat 'Ammàr	حلّة عمار
Halleyfàt	حليفات
Hàllughra	حالغرة: خزام الأنف
haltîta	حلطيطة
Ham	حام (ولد نوح)
hamâta	حماطة
Hamd	حمْد
El-hamda	الحمد
Hamda	حمده: اسم أنثى
hamdán	حمدان
El-hamdu	الحمدُ
Hamdy	حمدي: اسم أنثى
Hámed	حامد
B. Hamèdy	بني حميدى
Hameydy	حميدى
El-hamèdy	الحميدى
Hamìn	حميم
Hámmám	حمام: بركة ماء
Hamman	حمان (كيس نقود)

El-Hammam	الحمام (اسم قرية)
Hammazàn	حمازان
Hámmr	حمر
Hamô	حامو
El-Hamra	الحمرة
El-Hamthal	حنظل
Hamûd	حمود
Hamzy	حمزى
Hánash	حنش
Háni	هنى
B. Hanîfa	بنى حنيفة
Hánnas ibn Nômus	هناس بن نومس
El-Háram	الحرم
El-Harameyn	الحرمين
Harâmy	حرامى
Harrârs	حرار
Hârrat	حرة
El-Harb	الحرب
Harb el-awwel	الحرب الأولى
Harb eth-thâny	الحرب الثانية

Harreem	حريم
El-Harèyry	الحريرى
Harik	الحريق
Harra	حرّة
Harratharûn	حرة هارون
El-Hása	الحسا (الإحساء)
Hásan	الحسن
Hâj Hásan	الحاج حسن
Hashîah	حشيّة
Hâshy	حاشى
El-Hassanîeh	الحسانية
Beny Hassèyn	بنى حسين
Hasseyn	حسين
El-Hassîd	الحصيد
Wady el-Hassîd	وادى الحصيد
El-Hâsy	الحسى
Hât-hât-hât	هات – هات
Hátab	حطب
Hátha	هذا
Hathariyát	حضريات

Hatheyl	هذيل (حطيل)
Hâthi	حاطى (اسم قرية)
Hâthir	حضير (حضر)
Hâthîre	حظيرة
F. Hatthon	جبل حطون
Hauràn	هارون
Hauta	حوطة
El-Hauta	الحوطة
Hâwas	حواس
Hawd	حوض (غدير)
Hawwa	حواء
Hawwâma	حوّامة
El-Hâyat	الحايط
hayâtak	حياتك
Hàyer	حاير (حائر)
Hayfa	هيفاء
Hâyil	حائل
Hayzàn	حيزان
Házam	حزام
Házim	حزيم (فرع من حرب)

Hazkiyal	حزقيال
Házm	حزم
El-Házzam	الحزّام
Hazzel	مسقى الحذيل
Hazzeym	حزيم (بيارة شجر سنط)
J. el-Hébeshy	جبل الحبشي
Hebrân	حبران
Heddajor	حدجار
Hedîeh khellâ	حيدية خلاً
Héj	حق
Hejâz	حجاز
El-Hejella	الحجيلة (اسم جبل)
Jebâl Hejjûr	جبل حجور
El-Héjr	الحجر
Héjra	حجرة
Hejûr	حجور (أقارب الفكارة)
Helaima	حليمة (جبل قريب من تيماء)
El-Helalát	الهلالات
El-Helàlîeh	الهلالية
Helbon	حلبون

El-Hélissa	الحليسة (فرع من عتيبة)
Hellayey	حلية (تل صغير)
Hellowát	حلاوات (تلال)
Hellowîa	حلوية (تل)
Helly	حلاء
Helw	حلو
El-Helwa	الحلوة
Helwàn	جبل حلوان
Thull'a	طُلاَّع
Helwîat en-Nâga	حلوات الناقة
Hemorrhoids	مرض
Henàba	هنابة (إناء لبن)
Henakîeh	الحنكية
Henna	حنا
El-Hennaba	الحنابة (اسم فرس)
Hennânia	الحنانية
El-Henneytát	الحنيات
Ḥenshûly	حنشولى (لص الصحراء)
El-Herreyik	الحريق
Hesban	حشبون

Hess ez-zillamy	حس الزلمة (صوت الرجل)
El-Hessánna	الحصامة (فرع من عتيبة)
El-Heteym	الحطيم
Sueyder	السويدير
Hetheylân	الحطيلان
Hetigy	هتيجى
El-Heyàderra	الحيادرة
Heyennîeh	الحنية
Hèykal	هيكل
Ibn Hezyán	ابن حيزان
Hezyán	حيزان (فرع من الحطيم)
El-Hîara	الحيارة
Hijâbs	أحجبة
El-Hijr	الحجر
El-Hilâl	الهلال
Hilla or hilly	تل
Hilliân	حليان
Himmarît	حميرية
Himyâry	حميرى
El-Hind	الهند

Hindy	هندى
Hinûd	هنود
Hirfa	حرفة
El-Hisma or Hessma	الحسمة
H'má	حمى
Hollanda	هولندا
Horèymla	حريملاء
Horeysh	حوريش
Hórma	حُرمة
El-Hoseniêh	الحسونية
Hosennat	حُصنات (ذيل الجربوع)
El-Hósenny	الحصينى (فرع من الروالة)
Hósn	حُصن (هجرة)
Hosseny	حصينى
Hóth	حظ
Hòwama	هوامة (اسم كلب)
El-Howayrîa	الخوارية (تل رملى)
Howèytat	الحويطات
Howeych(k)im	هويشم
Howeytát	حويطات

Saidîn	سايدين (لصوص حول العلا)
W. el-Howga	وادى الهوجا
Howihi	هويهية
Howsa	هوسة (اسم موقع)
Howsha	هوشه (اسم أنثى)
Howwàr	حوار
El-Howwâr	الهوار
El-H'roof	الحروف
Hu sâdik	هو صادق
El-Huâzim	الهوازم (فرع من حرب)
Hub	حب
Húb et-támr	مرض جلدى
Húbbal	هُبل (صنم)
Hubbàra	الحبارة (اسم فرس)
Hubt	حبط
Hud	هود
Huddebân	هوديان (اسم كلب)
Hulk	حلق
Yâ Hullah	يا حلّة

El-Humeydàt	الحميدات
El-Hummu	الحُمّ
El-Humràn	الحمران (فرع من حرب)
Hums	حمص
Humsîs	حمصيص
Humth	حمض
Wady el-Hum?h	وادى الحميض
El-Húrda	الحوردة
Hurr	حر
Hurra	حرة
El-Hurrath	الحراث (قبيلة من الأشراف)
Hurrî	حرّى (نوع من البازلت)
El-Husn	الحصن
Hût	حط (توبيخ للإبل)
Hutch	حُطُك (توبيخ للإبل)
Humth	حمض
El-Hûtheba	الحطيبة
Hyak	حياك
Hyâtak	حياتك
Hyha	هيها (اسم فرس)

El-Hyza	الحيزة (بئر فى النفود)
Iblis	إبليس
Ibn	ابن
Ibn akhy	ابن أخى
Ibn juâd	ابن جواد
Ibn Náhl	ابن ناحال
Beny Ibrahîm	بنى إبراهيم
Ibrahîm	إبراهيم
Ibrahîm el-Kâdy	إبراهيم القاضى
Ibrahîm Pasha	إبراهيم باشا
J. Ibrân	جبل إبران
El-Iddimy	الإدمى
Iftah 'ayûnak	افتح عيونك
Ighrte big	أغتيبق (الجهل)
El-Jahalîat	الجاهليات
Ihràm	إحرام
Fijrî	فجرى
Ikh-kh-kh	أخ
Filuk-heylo	فلوك حيلو
Imâm	إمام

Imbârak	إمبارك (اسم هجرة من هجرات الحرب)
Imbârak!	إمبارك (مبارك)
Fmshy hâl-ak	مشى حالك
Inhaddem beytich	انهدم بيتك
Inny mâ adeshurak	إني ماعاد شورك
Insha 'llah	إن شاء الله
Insh' Ullah ma teshûf es-shurr	إن شاء الله ماتشوف الشر
El-Irâk	العراق
Irem	إرم
Irkud	اركض
J. Irnàn	جبل إرنان
Irtugh	إرتغى
Irzûm	إرزوم (تل رملي يحدث صوتاً)
Iskander	إسكندر
I?hin Ullah	إذن الله
Jaafar	جعفر
Jab-hum	جابهم
Jabâbara	جبابرة
Jábbar	جبار (عظام)

Jabbâr	جبار (ظالم)
El-Jabbâr	الجبار (شيخ متوفى فى حائل)
Ibn Jahd	ابن جاد
Jaddar	جدًار
Jáhash	جحش
Jàhil	جاهل
El-jàhm	الجهم (فرع من حرب مصروح)
El-jahrâ	الجهرة
Jam(n)bîeh	جنبية
Ej-Jammera	الجميرة (اسم فرس)
Jân	جان
Janâbak	جنابك
Jannah	جنة
Jar	جار
Jâr Ullah	جار الله
Jâra	جارة (ربه بيت)
Jarâd	جراد
Járada	جرادة
Jarda	جرادة
Jardanîa	الجردانية: أنقاض بلدة فى جبل شرات

JarJa	جرفة: بالقرب من كيراك
Jâsim	قاسم
Ibn Jâsy	ابن جيسى
El-Jau	الفاو
Jau	جوّ (مسقى)
Jauf (el-Amir)	جوف (الأمير)
Béled Jawwa	بلاد جاوة
Jaysh	جيش
Jâzy	واحد من الفجير
El-Jebâl	الجبال
Jebbâra	الجبارة: فخذ من ولاد على
Jebel Tar	جبل طار: جبل طارق
Jebel Tarik	جبل طارق
Jebèyly	الجبيلى
El-Jedèyda	الجديدة: قرية من قرى حرب
Jedîd	جديد: قرية من قرى بنى سالم
Jedîda	الجديدة: قرية عند بداية وادى الليمون
Jedûm	قدوم
Jefèyfa	جفيفة: اسم قرية
Jehād	جهاد

Jéhemma	جهيمة: عشق الفجر
Jehendem	جهندم باشا: حاكم مكة
Jehennem	جهنم (عبرية)
Jeheyna	جهينة
Gehèyna	جهينة
Jelàmy	جلامي: سحلية صحراوية
Jeljul	جلجول: أنقاض بلد في مؤاب
Jella	جلة: روث الإبل
Ibn gelladàn	فرع من فروع حطيم الوسط
Ibn gelladàn	فرع من فروع حطيم الوسط
El-gellâs	الجلاس: أقارب العنوز
Wady Jellâs	وادى جلاس فى خيبر
J(k)ellâb	جلاب: بئر الماء
Jellowwy ibn S'aûd	جلوى بن سعود
Jèllowwy	جلوى: قبلى ماهوبى منفى
Jemân	الجيمان: فرع من بلوى
Jémel	جمل
El-Jémeila	فرع من حرب بنى سالم
Jemla	جملة: تل بالقرب من المدينة المنورة
Jemmâl	جمّال: صاحب إبل

Jemmamîl	جمع جمّال
Jenèynat el-Kâdy	جنينة القاضى
Jenèyny	جنينة (حديقة)
Jèrad	كثبان رملية فى النفود
Jeraida	جريدة: موقع فى صحراء تيماء
El-Jeràjera	الجراجرة: فرع من حرب مصروح
Jerash	جراش
Jerbo'a	جربوع
J. Jerbûa	جبل جربوع
Jerèyda	جريدة: موقع فى صحراء تيماء
Ek-Jereyfa	الجريفع: قرية فى القصيم
Jériat	القريات (القرى)
Jériat Bisher	قرية البشر فى خيبر
Jériat el-Fejîr	قرية الفجير
Jériat W. Aly	قرية ولاد على
Jerîd	جريد: رمح خفيف
Jerm	جرم: جلد عنزة أو تيس
El-Jerrèr	الجرار: أقارب قروبى خيبر
Wady Jerrîr	وادى جرير
Jerrîsh	جريش: ثريد

Jérula	جرولة: غربلة
Jerûm	جروم: جمع جُرم
Aarab Jessàs	أعراب جساس
Jet	قت: نوع من علف إبل جلب الماء
El-Jethémma	الجثمّة: بطن من عتيبة
Jèyber	جابر: رجل من القحطان
El-Jèyn	الجين (القين): محطة صحراوية شمال تيماء
Ibn Jèysey	ابن جيسى (قيسى)
Jezîrat el-'Arab	جزيرة العرب
Jezzîn	جزين: الإبل الصائمة عن الطعام
Jiâfera	الجيافرة: أقارب البشر
Jid	جد: عميد القبيلة
Jidda	مدينة جدة
Jidda (jidra)	جدة: جدرة: قدر: وعاء
Jiddàr	جدار
Jiddàr (jiddrâ)	جدار: الجمع جدران
Jidd?ha	قديحة: وعاء للحليب
Jidery	الجدرى
Jiffar	جيفار: قرية من قُرى بنى تميم
Jildîyyah	جلدية:جبل قريب من حائل

El-Jimerîeh	القمرية: اسم فرس
Jin	جن
Jindal	جندل
Jinnat ed-dinnea	جنة الدنيا (دمشق)
El-Jinny	جنيّ
Jips	جبس
Jîr-ak	جراك (تبغ)
Jisan	جيسان (قيسان) سهل قريب من حائل
Jiss	جص: جبس
Jîth'a	جذع
Jizak	جزاك: أعطاك
Jizzat	جيزة: زيجة (للنصارى)
W. el-Jizzl	وادى الجزل
Job	جوب: وحيد القرن
Jorda	الجوردة: حى من أحياء القصيم
Jowla	الجولة: جبل فى تهامة
Jowwár	جوّار: زوجات
Ju'a	جوع
El-Juâberra	الجوابرة: فرع من حرب مصروح
Jubba	جبة

Juhâl	جهال (جهلة)
jumma'a	جماعة
Jummàr	جمّار (قلب ساق النخلة من الداخل)
Júrda	جردة: كثب رملى
Jurdy	جردة: (أورطة) عسكرية
Jurn	جرن: (غدران من الحجر فى مدائن صالح)
Jurraba	جرّابة: (جرباء)

El-Ka (el-Ká'a)	القاع
El-ka'aba	الكعبة
Ka'abeny 'Arab	عرب كعبانى
ka'ak	كعك
Kabâil	قبايل: قبائل
Kabâila	قبيلة
Kábr ed-dunnia	قبر الدنيا
Kábres-sâny	قبر الصانى
Kabshàn	كبشان: جبل ومسقى جنوب القصيم
Kâdy	قاضى
El-Kâdy Músr	القاضى مسور
Káfer	كافر: قرية قريبة من بريدة

Kâfir	كافر: الجمع كفار وكافرون
Kafûr	كافور: مادة عطرية
Káhatîn	قحطان
Kahl	كحل للعيون
El Kahtân	القحطان
Káhwa	قهوة
Káhwa	قهوة
Káhwajy	قهوجى
Kahwat Abeyd	قهوة عبيد
Kaif	كيف: قرية من قُرى بنى سالم
Kaimakàm	قائمقام
El-Kalandâry	الكلندرى
El-Kàmîm	القميم
El-Kamûs	القاموس
Kanakîna	الكناكينا (الكنين)
K'ar	قعر (قاع)
Káramak	أكرمك
Karîm	كريم
Karra	قرّة: تل
Kasaîsd	قصاصيد: شعراء

El-Kasîm	القصيم
Kâsim	قصيم
Kasr	قصر
Kasr Arbŷiyyah	قصر إربياح: فى حائل
El-Kasr	القصر
Kasr el-Bint	قصر البنت
Kasr	قلعة حائل
Kasra	كسرى
Kassab	كسًاب (قصيبا): قرية فى القصيم
Kassâd	قصاد: شاعر
Kasîda	قصيدة
Kassûr B'thèyny	قصور البيتنى
Kasyîn	قاسيين: قُساة
kat'a `l-kalb	قطع القلب: مُحزن
Kathâfa	قحطفة: اسم امرأة
Káthir Ullah lebànakom	كثّر الله لبنكم
El-Kâthy	القاضى
Katràn kellâ	قلعة قطران
Kawàs	قواس: رامى رماح
Kef	كف: راحة اليد

Keffy	كفيّ: كافٍ
B. Kelàb (chelb)	بنى كلاب
Kelàm Ullah	كلام الله
Beny Kelb	بنى كلب
Kellâ	كلا: قلعة
El-Kellâ	القلعة
Kellâjy	راعى القلعة
El-Kennèyny	الكنينى وتقرأ الخنينى
El-Khàrram (Khúrram)	الخرّام/ الخُرّام
Kharûf	خروف
El-Khasir	الخضيرة
Khathrâ	خضيرة
El-Khátm	الختم
Khawâja	خواجة
Khayin	خائن
Khedéwy	خديوى
El-Kherèyby	الخريبى (الخريبة)
El-Kherèysy	الجريسى
Kherèyta	خريطة
El-Kherj	الخرج

Kheyâbara	الخبيرة (الخبراء)
El-Khéyba	الخيبة: اسم فرس أو حمار
Khybar	خيبر
Kheyr	خير
Kheyer-elbarr	خير البر
Khey-beyt	حيث بيت
El-Khiarát	الخيرات
Khibel	خبل: مجنون
Khidàd	خداد: أنقاض قرية
El-Khithr	الخضر
El-Khlûa	الخلوة: الصلوية
Kh'lûy	الخليوى
Khûaf	خوف
Khóbra	خبرة
Khóbt	خبت: أرض مُنبسطة
Khorbêb'ha	الخرببية
Khórma	خرمة
El-Khorma	الخرمة
Khormán	خرمان
El-Khosâba	الخصابة: اسم بغلة

Khósh	خوش
Khossî	خوسى
Khóthra	خُضرة: اسم امرأة
Khótr	قوطر: ينزل
Khóweylid	الخويليد
El-Khrèyby	الخريبى
El-Khrèmy	الخريمى
El-Kh'tâm	الخطام: جبل فى حرة خيبر
Khûa	خوة : ضريبة تدفع للبدو
Khûak	خوك : رفيق فى الطريق - زميل
Khubbat	قبة
Khubbera	الخبيرة (الخبراء): واحة فى القصيم
El-Khubbu	الخبو: مقبره تيماء قديما
Khubithîn	خبيثين : مرض خبيث (جمع)
El-Khuèyra	الخويرة : ناقة تعرق كثيراً
Khùiân	خويان : رفاق فى الطريق
Khumsha	خمشة: فرع من البشر
Khurbet	خربت: حطام
Khurrfa	الخرفة
Khúrussy	الخروسى: فرع من الشمر

Khûsa	سكين
Khussherkîsh	خوصر كيش
Khusshm	خشم
Khusshm es Sefsàfa	خشم الصفصافة
El-Khúthar	الخضار
El-Khuthéra	الخضيرة
Khúthera	خضيرة
Khútherân	خضيران
Khúthery	خضيرى
Khúthery Harra	حرة الخضيرى
El-Khúthr	الخضر
Khuzèyn	خزين: اسم كلب
Khuzna	خزنة
Kh'zâm	خزام: من أبناء البلوى
El-Kibd	الكبد
Kiddamîyyah	قدّامية
Khánjar	خنجر
Kilâb	كلاب
Kilâb el-kh?la	كلاب الخلا
Kiniy	معبد: كنيسة

El-Kîr	الكير
Kirra	الكرا
El-Kirrân	الكرًان
El-Kirrèya	القرينة
Kirwa or kerwa or kirra	كروة-كيرا: يستأجر
El-Kissa	القصة: قرية من قرى حرب
Kisshub	كشوب
Kitâb	كتاب
El-Kleb	الكلب
El-Kleyb 'Arab	أعراب الكليب
El-Kleybát	الكليبات
Kleyfát	الخليفات
Kleys	كليس
El-Klîb	الكليب: قبيلة من القبائل
Koátcheba	كوتشيبا
Koba	قوبة
Koleyb	كليب
Kôm	كوم
Konsolîeh	قرية
Konsul	قنصل

Konsulato	قنصلية
W. Koora	وادى القرى
Koowy	كوع
Kōr	كور: غبى (تركية)
W. Kara	وادى القرى
W. Kôra	وادى قورة
W. Kora	وادى قورة فى حرة خيبر
G. Kora	جبل قورة
El-Kôrân	القرآن
Koreysh	قريش
Korh	قورح
Koronát	كورونات: دول أوربا
Kosyer	القصير
Kottîb	كُتيب
El-kowwâ	الكوّاح: السوّاح
Kreybîsh	خربيش: صبى ماهوبى
Krîm	قرم
Krun	قرون
K'seyberra	كسبيرة
Kubbak	كبّك: أغرب عنى

El-Kuds	القدس
Kudsh	كدش: مجموعة من الخيول
Kûfa	كوفة: أنقاض
El-kuffâr	الكفار
Kufic	كوفي
Kùfl	قفل
Kul wàhed	كل واحد
Kum(n)bâz	كومباز
Kúmr	كمر: حزام
Kúnfid	قنفد
Kúnfuth	قنفذ
Kurbân	قربان: عبرية
Kurd	كورد: قلعة من قلاع الحج
Kurnel-el-Menâzil	قرن المنازل
W. el-Kurra	وادى القرى
Kurra	قرة: قورة
Kúrsy	كرسى
Kuruniyah	قرونية: قرويون من أقارب الشمر
El-Kurzân	القريزان: فرع من عتيبة
Kuseyby	القصيبى: اسم قرية

Kusmân	القصمان
Kut'aat ghránem	قطعة غنم: قطيع
Kuweyt	الكويت
Lal'ameymy	لا، يا عمى
La ilâh ill' Ullah	لا إله إلا الله
La túnshud	لا تنشد
La'ab	لعّاب
Lâba	لابة: حمة بركانية (لاڤا)
Lâbat el-Agûl	لابات العجول
Labbeyk	لبيك
El-Lahd	اسم فرس
Ladabba	اللحابة
Laheyân Aarab	أعراب اللحيان
Lahyat-hu taîba	لحيته طيبة
El-Lâta	اللات
Latákia	اللاذقية
La tanshud	لا تنشد: لا تطلب
W. Laymûn	وادى الليمون

El-Lazzáry	بنادق اللازارى الفتيلية
Léban	لبن: اللبن الحامضى
Lebeid	لبيد: مؤلف إحدى المُعلقات
Léja	ليجة: أرض اللابا فى الحوران
El-Lejîma	الحيمة: اسم أنثى بدوية
Lejûn	ليجون: أنقاض بلدة قديمة
Ley	لى: تخوم
Lèyla	ليلى
Leyta	ليطة
Libbun	ليبون
Gebel Libnàn	جبل لبنان
Libeny	لبنى: جمل فى عامه الثانى
W. Lîea	وادى لية: بالقرب من الطائف
Lira fransâwy	ليرة فرنسية
W. Lithm	وادى لضم
El-Liwàn	الليوان
Loghra(t)	لهجة: لغة
El-Loghrfy	اللغراف: اسم قرية
Londra	لندن

Lubbekyk	لبيك
Lullul- lullul- lullul-la	زغاريد
Mâ'aleyk	ما عليك
Mâ b'ak kheyr	ما بك خير
M? el-' enab	ماء العنب
Mâ fî árzal minhum	ما فى أرذل منهم
Mâ láhu kalb	ما له قلب
Mâ lihu lahya	ما له لحية
Mâ li-hum asl	ما لهم أصل
Mâ ly ghreyr	ما لى غير
Mâ n' âsh	ما معنا شئ نأكله
Mâ sâb-hu	ما صابه
Má es-Sáma	ماء السماء
Mâ yarúdd	ما يرد
Má yet'aabûn	ما يردون
Má yunf 'a	ما ينفع
Maa salâmy	مع السلامة
Maa samawwy	مع السمّاوى
Ma' abûb	معبوب
Ma'an	معان

Mâana lôn	معنا لون
Ma'araka	معرقة
Ma'ausb	معصوب: قال
Maatuk	معتوق
Ma'aun	ماعون
Ma'az	معاز: عميد المعازى
Ma'aazib	معزب
Ma'aziba	معزبة
El- Ma'azy	المعازى
Màfrak	مفرق: قلعة
Mágdala	المجدلة: فى الحبشة
Mághrib	المغرب
Máhal	محال
Mahâl	محل
Mahál el-Mejlis	محل المجلس
Mahál el-W?I	محل الوعى
Máhallīb	محاليب
Mahanna	مهنا
Mahanna	مهنا: شيخ السحامة
Mahjil	مهجيل

Mah'leb nâkat neby Sâlih	محلب ناقة النبى صالح
Máhmal	محمل
mahmûd	محمود
Mahmûd Ag(hr) a	محمود أغا
Mahmûd	محمود
Mahûby	ماهوبى
Maibi	مائيبى
El-májar	المجار: بندقية فتيلية
Mâjid	مجيد
Majûj	مأجوج
Makam	مقام
Makám er-râs	مقام الرأس
Mákbara	مقبرة
Makh'aul	مخول
Mákhzan el-Gindy	مخزن الجندى
Mákhzans	مخازن
Mákrûha	مكروهة
El-Malakîeh	الملائكة
El-Hejâz	الحجاز
Mambûl	إسطمبول (تقال للسخرية "مامبول")

Mandîl	منديل
Manèm	منيم
Manôkh	منوخ
Mantar	منظر
Marâkish	مراكش
Marbût el-hosàn	مربط الحصان
Mâreb	مأرب
Márhab	مرحاب
Márhabá	مرحباً
Mârid	مارد
Marra	مرة: امرأة
Marràn	مرُان: مسقى
Marrat	مرُات
El-Màs	الماس: اسم جمل
Mas(k)at	مسقط
Mashàrîf es-Shem	مشارف الشام
M'ashush	معشش
Masîr	معاصير : إعصار
Máskhara	مسخرة
Másr	ماصر: موقع فى خبير

Mâsul es-Sudda	ماسول السودة
Masully	مُصَلّى
Mátar	مطار: صلوبى فى تيماء
Matàra	مطارة: زمزمية
Mâtha tarîd	ماذا تريد
M'athûd	معضد: معضاد
Matîn	متين
Màtîyah	مطية
Mâ úkdar	ما أقدر
Maweyrid	مواريد
Mecca	مكة
Medáin	مدائن
Medáin Lût	مدائن لوط
Medáin Sâlih	مدائن صالح
El-Medân	الميدان
Meddiân	مدين
Medega	مديقة: مكيال فى خيبر
Medeybîa	مدييبة
Med'hunna	مدهونة
Medina	المدينة (المنورة)

Meddowwara, Kellâ	قلعة المدورة
Med'hunna	مدهونة: قرية الزبد
Medsûs	مدسوس: اسم قرية
Mehàditha	المُحادثة
Methai	ميهاى: قرية قديمة فى موآب
Mehaineh	محينة: موقع قديم فى جبل كيراك
Mehján	محجن: عصا لقيادة الجمال
El-Mehmel	المحمل
Mehnûwara	المنورة
Mehrûd	مهرود
Mehsan	محِسن: رجل أعمى
Mehsan	محِسن: شيخ الفقيرى
Mejanîn	مجنون
Mejarîd	مجاريد
Mejdûr	مجدور
Mejellád	مجلد: مكيال للتمر
Mejîdy	مجيدى
Mejlis	مجلس
Mejlis	مجلس: مكان الجلوس
Mejmaâ	مُجمعة

Mejnûn	مجنون
Mekky	مكة
Meláika	ملائكة
Mel'aun el-weyladèyn	ملعون الوالدين
Mel'aunát ej-jins	ملعونات الجنس
Mel'aunnîn	ملعونين
Melh	ملح
Melons	شمام
Melûk	ملوك قوة الريح
Melûn Tâlibu	ملون طاليبو
Memlahát Teyma	مملاحات تيماء
Menâbaha	المنابهة
Menâhil	المناهيل
El-Menajîm	المناجيم
El-Men'ama	المناعمة
Menhél	منهل
Ménzil	منزل
Menzil' Eyár	منزل عيّار
Menzil el-Hâj	منزل الحج

Menzil B. Helâl	منزل بنى هلال
Menzil es-sheukh	منزل الشيوخ
Mer'ai	مراعى
Mêrbrak	مبرك
Merdàha	مرادهة: مقلاع
Mérdumma	مردومة
Meressy	مريسى
Mergab er-Ràfa	مرقاب الرفا ع
Mergab	مرقاب
Mérguba	مرقبة
Merimsát	مرسمات
Merján	مرجان
Merkez	مركز
El-meroeîn	المروين: فرع من جهينة
Mèrshaha	مرشحة
Ibn Mertaad	ابن مرتاد
J. Merzûm	جبل مرزوم
Mes'âed	المساعيد
Mesakîn	مساكين
Mesgeda	مسجدة: آرامية

El-Méshab	المسحاب
J. Meshàf	جبل مسحاب
El-Meshâhada	المشاهدة
Méshed 'Aly	مشهد على
Meshetta	مشتّة: أنقاض
Meshetta	مشتة: فرع من ولاد على
Mesihyûn	مسيحيون
Mesîhy	مسيحى
Mesjid	مسجد
Meskîn	مسكين
Messîahi	مسيحى
El-Messîh	المسيح
El-Mestewwy	المستوى
Met'aab ib Rashîd	متعب بن الرشيد
Metaad	ماهوبى
Metteyr	مطير
Methàlitha	مثالثة: تلال على طريق القصيم مكة
Metówali	المتاولة: الشيعة فى سوريا
El-Meyatân	أعراب الميطان فى وادى فاطمة

Meyhsub	معصوب: عقال
El-Mèzham	المزحام: مبرك الناقة عند السوريين
Mez'ûna	مزيونه: إمرأة جميلة
M'hai	ماحاى: موقع صحراوى قرب تيماء
Miblis	مبلس: إمرأة ماهوبية
Midd	مد: مكيال
Midda	مدة: دية
Middiân	مدين
Mijwel	مجول
Mîl	ميل
Min	من؟
Min	من: حرف جر
Min'ashîraty	من عشيرتى
Min ha'l shottût	من هنا الشطوط
Min hâtha?	من هذا؟
Minkhilk Ullah	من خلق الله
Min y'ámir-ly	من يُعَمِّر لى
Minkala	منقلة: لعبة عربية
Minnîeh	مينية: جبال فى جنوب الرس
Minsilla	منسيلة: اسم فرس وحمار

Miriam	مريم
Miriam	مريام
Mîry	ميرى: جزية
Mish'aab	مشعاب
Mishlah	مشلح
Mishmish	مشمش
Mishûr	مسحور
Mishwat	مشوات: رجل ماهوبى
Miskeh	مسكة
G. Misma	جبل مسمة
Misshel el-Auájy	مشهل العواجى
Mithil el-jerâd	مثل الجراد
Mithil el-mawat	مثل الموات
Mithil en-nimml	مثل النمل
Mîthil es-seyd	مثل الصيد
Mithil tájir	مثل التاجر
El-Mithinb	المذنب
Mizamîr	مزامير
Mizàn el-Hak	ميزان الحق
Mizmàr	مزمار

M'khâlid	مخاليد: صبى من البلوى
Melyîeh	مليلية: مكان على طريق الحج
El-M'nîf	المنيف: جزء من جبل أجأ
Mo'addam	معضم
Moahîb, Abu Shâmah	المواهيب، أبو شامة
Mo'allak el-Hamèydy	معلق الحميدى: جزء من الحرة بالقرب من قرية العلا
Moallakát	المُعلقات
El-Moârae	المُعارة: فخذ بنى سالم من قبيلة حرب
Moâtidal	المُعتدل: جبل بالقرب من قرية العلا
Mogeyra	المجيرة: آبار أسفل الحجر فى ديرة ولاد على
Moghraîr	مغير: كهف
Moghraâreba	مغاربة: جمع مغربى
El-Moghrássîb	المغراسيب: فرع من أقارب الفكارة
Móghreby	مغربى: رجل من المغرب
Môgug	مجوج: قرية فى جبل شمر
Mogŷil	مقيل: مكان الراحة أثناء الظهيرة
Mohâfuz	محافظ: راعى
Mohamîd	المحاميد: بطن من حرب بنى سالم
Mohammed	محمد (ص)
Mohammed ibn Abd-el-Wáhâb	محمد بن عبد الوهاب

Mohammed Ag(hr)	محمد أغا
Mohammed 'Ali	محمد على
Mohammed 'Ali el-Mahjûb	محمد على المحجوب
Sheykh Mohammed	الشيخ محمد
Mohammed	محمد: تاجر القماش فى عنيزة
Mohammed ed-Deybis	محمد الدييس
Mohammed Kheiry	محمد خيرى
Mohammed	محمد ولد عبد الله الكنينى
Mohammed el-Kurdy	محمد الكردى
Mohammed	محمد: جندى بدوى فى مدائن صالح
Mohammed Mejelly	محمد مجلى
Mohammed en-Nefîs	محمد النفيسى
Mohammed en-Nejûmy	محمد النجومى
Mohammed ibn Rashîd	محمد بن الرشيد
Mohammed Sa'îd	محمد سعيد
Mohammed Sa'ûd	محمد سعود
Mohamed es-Sherâry	محمد الشرارى
Mohammed abu Sinûn	محمد أبو سنون
Mohammed Tâhir	محمد طاهر
W. Mójeb	وادى مُجيب: غدير عرنون

Mokesser	مقصر: جبل بازلت فى وادى فاطمة
Mokka	مكة
Môna	منى
El-Monasîr	المناصير: فرع من عتيبة
Móngora	منقورة: فرع من أعراب البلوى
El-Moristàn	الموريستان: مستشفى
Beny Morr	بنى مر
Morra	مرة:أعراب مرة
Mortrâb	مرتراب قرية محطمة
Moseilima	مسيلمة
Moslem	مسلم
Moslemanny	مسلمانى
El-Moslemîn	المسلمين
Mosque	مسجد
Mosrûh	مصروح:فخذ من حرب
El-Motàl'ha	المطالعة
Mothâbara	المضابرة: فرع من الحطيم
Motheyîf	مضيف
El-Mothîch	المضيق
Laymûn	ليمون

Mothîf	مضيف
Motlog Allayda	مطلق العلايدة
Motlog	مطلق
Mottehma	متيمة: حطام قرية فى جبل سعير
El-Móttî	المطى:نوع من العشب
Moutullij	مطلج: من أقارب الصلوية
El-Mowla	المولى: الله
El-Moy	الموى
Mozàyna	مزينة: فرع من حرب
'Mraikhàn	مريكهان: فرع من ولاد على
Mu'afîn	معافين
Mu' allakát	معلقات
Mu' allem	معلم
Muâmir	معامير: اسم علم
Muâra	موارة: مكيال تمر فى خيبر
Mu' atterîn	معترين
Mubârak	مبارك
El-Mubârak	المبارك
El-Mubbiát	المبيات

Mûbrak en-Nâga	مبرك الناقة
Múbt?y	مبطئ
Mudérris	مدرس
Mudîr el-Màl	مدير المال
Mudowwy	مداوى
Muéthin	مؤذن
Mueylih	مويليح
Mufârish	مفارش
El-Mufarrij	المفرج
El-Mufeyrij	المفريج
Mùfter	مفطر
Mughraz	مغراز: برج فى صحراء المواعب
El-Mugótta	المجوطة: فرع من عتيبة
Muhâfiz	محافظ
Muhafûth	محافظ
Muhâkimîn	محكمين
Muhállif	محلف
Muharram	محرم
Muházimîn	محزمين

Ibn Mujálled	ابن مجلد
Mujeddir	مجدر
Mujellad	مجلد: مكيال عرفي قرية العلا
El-Mujjir	المجرة: طريق اللبانة
Mujúbbub	مجبب: عريش
Múk'aad	مقعد
Mukâry	موكارى
Wady Mukhèyat	وادى مخياط
El-Mukhtelif	المختلف
Mukkarî	مكارى
B. Muklib	بنى مكلب
Mukowwems	مقومون: أصحاب إبل
Muksir	مقصٍّر: صناديق حمل زوجات الشيوخ
Mumbir	منبر: اسم جبل
Mûna	منى
Munâkh	مناخ
Munbir	منبر
Mundel	مندل
Múngola	منقولة

Munókh	منوخ
Muntar	منطار
Múntefik	منتفق
Murabb'a	مربعة
Murâd	مراد
Murra or Marra	مُرّة/ مرّة
B. murra or morr	بنى مر
El-Murràshedda	المراشدة
Mûsa	موسى
Ayn Mûsa	عين موسى
Mûsa the kâdy	موسى القاضى
Wady Mûsa	وادى موسى
Musâfir	مسافر
El-Musellîkh	المسلخ
Musherif	مشرف
Musheyikh	مشايخ
Mushîr	مشير
Mushowwam	مشوّم
Múshrak	مشرك
Mushrakîn	مشركين

Mushy	موشى
El_muskôv	المسكوف
Musky	مسكى
El_muslah	المصلى
Musslim	مسلم
El_mustajidda	المستجدة
musubba	موسبة/أم سبة
musullies	مصلون/واحده مصلى
mutasállim	متأسلم
Mùthir	مذير: فقير من البشر فى خيبر
Mùthir	مضير/مريسى
Mùthkir	مذكر:شيخ من شيوخ عتيبة
Muttoww'a	مطوع
Muwalladîn	مولدين
Muzayyin	مُزين
Muzeyrîb	مزيريب
El-Muzzeh 'ma	المزاحمة
Ibn Múzzeyed	ابن مزيد
Nablus	نابلس

Nabût	نابوت
Nâdem	نادم
Nâga	ناقة
Nagûs	ناقوس
J. Nagûs	جبل ناقوس
Nâgûs	ناقوس
Naha	ناها:اسم أنثى بين البدو
Náhab	نهاب:لص
Najàn	ناجان: بلد فى وسط نجد
En-Najjeyl	النجيل: قرية من حرب بنى سالم
Náksh	نقش
Nâmûs	ناموس
Ibn Nâmus	ابن ناموس
Namûs	ناموس
Naós	ناعوس
Nargîly	نرجيلة
El-Nasâra	النصارى
Sherîf Nâsir	الشريف نصير
Nasr	نصر
Nàsr	نصر (رجل من العواجى)

Nasr	نصر (من قبيلة حرب)
Nasr	نصر (سكرتير بن الرشيد)
Nasr	نصر (شمرى من العراق)
Nasrâny	نصرانى
Nasrâwy	نصراوى (بمعنى نصرانى)
Naoûṣ	ناعوس: جبّانة (مقابر)
Nabâ	نبع
Nebhanîeh	نبهانية
Nêby	بنى
Nef'd	نفد (جمعه أنفاد)
Nèfer	نفر (جندى)
Neffera	نافرة (خجلة) .
Nefûd	نفود
Nèfur el-Tarik	نفور الطريق: جبل على الطريق إلى مكة قادم من وسط نجد
Negâba	نجابة (اسم جبل فى تهامة)
Negro	زنجى
Hâyat	حيات
Nejd	نجد
W. Nejid	وادى نجد
Néjis	نجس

Néjis ed-dinya	نجس الدنيا
Nejjàb	نجاب (ساعى بريد)
Néjar	نجر (غدير من الحجر فى مدائن صالح)
Nejjel	نجل (أنقاض قرية فى جبل سعير)
Wady Néjl	وادى النجيل
Nejm	نجم
Nejm:Hâj	الحاج نجم
Nejowwazak	نزوجك
Nejràn	نجران
Nejûmy	نجومى
Nelnokh	نلنوخ (أنقاض قرية فى مؤاب)
El-Nemsa	النمسا
Nenhash	نهاش
Neskhi	نسخى
Nesma	نسمة
Nessellem 'aleyk	نسلم عليك
Nibs (nibz)	نبذ (إهانة باللفظ)
Niggera	نقرة
Nikkel	نكل (موقع مخرب فى مؤاب)
Nimmr	نمر

Nimrân	اسم كلب (نمران)
Thul. 'a 'an en-Nîr	طلائع النير (بين القصيم ومكة)
Nîs	نيص: حيوان الشيهم
W. en-N'kîb	وادى النقب (بالقرب من الطائف)
En-N'kussha	النقوشة (فرع من عتيبة)
Noâba	النوابة (فرع من قروى خيبر)
Nôakh	نوخ (مكان تبريك الإبل)
Noâmsy	نعموسى
Noàsera	النواصرة
Nôkh	تبريك الجمل
Ibn Nômus	ابن نعومس
Noora	نورة
Noweyr	نوير
Nuhéj	نهيج
Nûn	نون (حرف النون العربى)
En-Nuseyrîeh	النصيرية
Nûshud el-Jemâl	ناشد الجمال
El-Nussîr	النصير: من أقارب العنوز
Nussy	نوسى (نوع من الحشائش)
Nuzzân	نوزان: اسم كلب

'Okâtz	عكاظ
Okilla	عكيلة: اسم عبد
'Omân	عمان
'Omanîa	ناقة عمانية
'Omar	عمر
Oreymát	عريمات: فرع من حرب فى نجد
Orghra	رغوة الحليب
Oshèyjir	أشيقر: اسم واحة فى الوشم
Osmully	عثمانلى
'Otheym	عثيم: قرية فى حائل
Otheythia	عزيزية: واحة فى الوشم
'Othŷ'hi	وضيحى
Ouadam	أوادم: جمع آدمى
Oweyish	عويش: اسم كلب
Owèynat el-Béden	عوينات البدن
Owlàd el-wátan	أولاد الوطن
Owshâz	عوشاز
El-Owshazîeh	العواشيزية
Owshyfy	عوشيفى
Ozmát	بقسماط

Pilaw	بلاو: أكلة تركية
Port Sa'id	بورسعيد
Pahppah	صوت الأبكم العربى
Rabba	ربا (فى مؤاب)
Rabèyby	ربيبى
Rabî 'a	ربيع
Sheykh Rabî 'a	الشيخ ربيع
Rabugh	رابغ
Radîf	رديف
Ráduffa	رديفة
Rafik	رفيق
Râfuthy	رفوضى
Rafŷa	رافية: واحة فى الرس
Ràgel	راجل
Er-Ràna	الرانا: منطقة فى الحرة
Ráhal	راحال
Rahala	رحالة: فرع من حرب بنى سالم
Rahmna	رحمنا
er-Raheydân	الرحيدان: اسم فرس
Er-Rahîfa	الرحيفة: اسم جمل

Rahîl	رحيل
Rihla	رحلة
Rahma	رحمة
Rahn	رهن
Rahôl	رحول: اسم جمل
Rahŷel	رحيل: اسم شخص
Râ 'iyat	راعية
Rajajîl	رجاجيل
Rájjal	رجّال
Rájil	راجل
Rákham	رخام: اسم نسر
Rakhŷeh	راخية
Rakŷyeh	راقية: اسم فتاة
Ramathán	رمضان
Ramta	رماطا: مكان للتخييم
Râs	رأس
Râs el-'Aŷn	رأس العين
Rashèyd	رشيد
Beny Rashîd	بني رشيد
Ibn Rashīd	ابن الرشيد

Rashîd es-Shûbramy	رشيد الشبرامى
Rashîdy	راشيدى
Rasûl	رسول
Dîrat er-Rasûl	ديرة الرسول
Rautha	روضة
Er-Rautha	الروضة
Rayis	ريس
Rayyàn	ريان: اسم واحة فى وادى فاطمة
Rayyan	ريان: اسم شخص من النعومسى
Real	ريال
Beny Rechab	بنى رشاب
Reem	ريم
Reym	رم: اسم عشب فى تهامة
Rî 'a	ريعة:ممر بين الجبال
Er- Rî 'a	الريع
Rî 'a Agda	ريع عقدة: بالقرب من حائل
Rî 'a es-Self	ريع السلف
Rî 'a ez-Zelâla	ريع الزلالة
Er-Riâth	الرياض
Ribshàn	ربشان

Er-Rîhh	الريح
Rîj	ريق
Rijjûm	رجوم
Rikàb	ركاب
Rikb el-Héjr	ركاب الحجر
Er-Rimth	الرمض (عشب)
Rîsh	ريش
Risshán	الرشان: مدينة قديمة فى مؤاب
Rizelleyn	رذيلين
J. Roaf	جبل روف
Róbb 'a el-Khâly	الربع الخالى
Róbb 'a	الربع: اسم قرية صغيرة
J. Rodwa	جبل روضة
Rodwa Harra	روضة الحرة
Roghrwa	رغوة الحليب
Rohòl	رحول: اسم جمل
Rókhal	رخال: نعجة صغيرة
Er-Romàn	الرومان: اسم شيخ فى تيماء
Romhk	رمح
Er-Romla	الرملة: اسم أنثى بدوية

Rótb	رطب
Róthm	رضم: بازلت
Er-Rotham	الرضام: مجرى سيل في تيماء
Rótn	رطن
Rowsa	الروسة: في النفود
Er-Ruâge	الرواقة: من الأشراف
Rubb	رب (الله)
Rubba	ربًا: اسم راعي
Rubbâ	رُبَّه: رفيقة الحياة
Ya Rubby	يا ربي
Rubîa	ربيعة
Ruèyht	رويت: أطفأت الظمأ
Rueytha	رويضة: إحدى واحات الرس
Rúfaka	الرُّفاقة: جمع رفيق
Rûh-hu	روحه
Ruhh	روح: أنصرف أو أغرب عن هذا المكان
Er-Rúkhsa	الرخصة: اسم فرس
Er-Rukka	الرُّكة: حفر ماء في الصحراء جنوب الرس
Er-Rukkaba	الرُّكبة: جزء من الصحراء العالية بين القصيم ومكة
Rûm	الروم

J. Rumm	جبل الروم: بالقرب من قرية العلا
W. er-Rummah	وادى الرماح
Rúmmaky	رمكة: اسم فرس
W. Rumûtha	وادى رموضة
Runnya	رونية
Rúnya	رونية: قرية من قرى السبيع فى وادى السبيع
Rupî	روبية: عُملة هندية
Rushdân	رشدان: اسم كلب
Russ	رس:رى الأرض من بئر ضحلة
Er-Russ	الرس: مكان به حفرماء للرى
Er-Ruthán	الروثان: فخذ من عتيبة
Ruwàlla	الرولة: قبيله فرعية من قبائل العنزى
Sa'adi	سعادى:فخذ من مصروح من قبيلة حرب
Saadîn	سعادين: صيغة الجمع
Sa'ady	سعدى: حيوان مائى
Saafa	سعافة: اسم فرس
sa'at	ساعة
Sâbera	صابرة
Sabigát	سبيحات: اسم فرس

Sabra	سابرة: اسم موقع
Sábry	صبری
Sàbt	سبت: يوم السبت
Sabûny	صابونی: صابون
Sacrifice	ساكريفايس: ذبيحة
Es-s'ada	السعادة: قبيلة من الأشراف
Sádaka	صدقة
Sadûk	صدوق
Saera	سايرة: اسم فرس
Sáfr	شهر صفر
Es-Safy, Hàmed	حامد الصافی
Sàg	ساق
Sah	صاع
Sàhah	صحاح
Sàhar	سحار: ساحر
Sàhara	صحراء الجزائر
Es-Saheyn	الصحن
Sahîby	صاحبی
Sâhilat el-Khamasshîeh	سهيلات الخماشية
Sa'îd	سعيد: اسم علم

Beny S'îd	بنى سعيد
Sâlehh	سايح: سائح
Salyeh	السيح: فرع من الشجر
Sajjèydy	سجيدى:سجادة الصلاة
Sàk	ساق
Es-sakhf	السخف: مسقى من مساقى الثمر
Sâla	صلاة
Salaam	سلام
Salâmîn	سلامين: اسم قرية
Salâmy	سلامى: ماهوبى
Salâmy	سلامى: شيخ من شيوخ تيماء
Es-salat wa es-salaâm	الصلاة والسلام
Beny Sâlem	بنى سالم
Sâlem	سالم: بدوى من خُبير
Sâlem	سالم: شيخ من شيوخ حرب
Sâlem	سالم: واحد من الأشراف
Sâlema	سالمة: امرأة ماهوبية
Salewwa	سلِوَّه: جن: عفريت
Saleyta	سليطة: قماش بفتة
Sâlih	سيدنا صالح (نبى)

Sâlih	صالح: قريب شيخ الفكارة
Sâlih	صالح: أحد رجال القوافل فى عنيزة
Sâlih	الشقيق الأصغر للشيخ مطلق
Sâlih	صالح: شخص فى حائل
Sâlih	صالح: رفيق من الحطيم
Sâlih	صالح الكنينى
Sâlih	صالح: شيخ من خيبر
Sâlih	اسم أطلق على أجنبى دخل فى الإسلام
Sâlih el-Rashèyd	صالح الرشيد من عنيزة
Sâlih Zeyd	صالح زيد
Sâlim Ib ez-Zîr	سالم بن الزير
Es-Salt	السلط: اسم قرية
Asâk	عساك
Sammara (Sam'ra)	سمّارة (سمرة): شجرة سنط
Sammat or summat	سمّات (غير مملح)
Sammh	سمح
Sàmn	سمن
Sàmn	سمن: قافلة السمن
Samra	سمرة: شجرة سنط
Yâ Sàmy	ياسميّ: أى اسمى: بإسمى

Sàny	صانع
Wady es-Sàny	وادى الصانع
Sàra	سارة: ساحل من الحجر الرملى
Saràbta	سرابطة: فرع من البلوى
Sarah	سارة
Sàrhah	سرحة:.منهل
Sarsar	صرصر: ريح شديدة
Sarûk	ساروق: لص
Sa'ud ibn 'Abd-el'Aziz	سعود بن عبد العزيز
Sa'ud ib sa'ud	سعود بن سعود (الكبير)
Sa'ud ib sa'ud	سعود بن سعود العرافة
Ibn Sa'ud, el-Wah?by	ابن سعود الوهابى
Sawra	سورة: قلعة على طريق الحج
Sayàl	سيال: نوع من الشرطة المُرافقة للحج
Sayer	ساير: موضع سخرية واستهزاء
Sbà	سباع: فرع من البشر
Es-Sb'aa	السباعة: قبيلة من العنوز
Sbeya	سبيع: قبيلة من أعراب نجد (من قيس)
W. es-sbeya	وادى السبيع
Derb Wâdy Sbeye	درب وادى السبيع

Sbeydy	زبادى: نبات برى صحراوى
Sbeyîeh	صبيح: قرية فى القصيم
Sbût	السبوت: فرع من بنى عطية
Sebbâ	سبّه: اسم أنثى
Sebba'an	سبعان: قرية فى جبل شمر
Es-Sebbàha	السباحة: فرع من عتيبة
Sebil	سبيل
Sedeyr	سديز
Seffer	سفّر: شروق الشمس
Seffua	سفوة: جبل بين القصيم ومكة
Séfn	سفن
El-Sefsáfa	الصفصافة
Sehamma	السحامة: فرع من البلوى
Sehely	سحيلى
Seherân	سهران: اسم كلب
Seleyma	سليمة: قرية من قُرى الشمر
Beny Selèyta	بنى سليطة
Selim	سليم العلاوى
Selim	سليم: ماهوبى
Selim	سليم ولد زيد الشيكان

Selim	السلطان سليم
Sélla	سلا
Ibn Sellem	ابن سلّم
Sellimt	سلمت
Selma	سليمة: اسم امرأة
G. Selma	جبل سلمى
Sem	سام: بن نوح
Sema	سماء
Semîly	سميلى
Semîra	سميراء: اسم قرية
Senna	سنا: اسم نبات
Serahîn	السراحين: فرع من المواهيب
Serai	سراى: قصر
Seràserra	السراسرة: فرع من جهينة
Serifat	سريفات: زريبة
Es-Serìàha	السراحة: فرع من حرب
Settàm	سطام
Settatásher kelb	ستة عشر كلب
Seyàd	صياد
Seyadîn	صيادين

Es-Seyd	الصيد
Seyd	جبل سيد
Seydàn	سيدان: شيخ ماهوبى
Seydàn	سيدان: صانع فى تيماء
Seydein	سيادين: عشيرة من الحويطات
Es-Seyeh	السيح: قرية فى وسط نجد
Seyf	سيف
Seyfîeh	سيفية: مجرى سيل
Sèyid	سيد
Seyl	سيل
Es-Seyl	السيل
Bab es- Seyl	باب السيل
Seyl el-Arem	سيل العرم
Seyl , of Hâyil	سيل حائل
Wady es-Seyl	وادى السيل
Seyyid	سيد
Seyyid Mahmûd	سيد محمد
Safá	الصفا
'Safán	صفان
Es-Sferry	السفرى: فصل الخريف

Sfeynah	سفينة: قرية من قُرى المُطير
S'goor	صقور: فرع من البشر
Sgoora	صقورا: فرع من الفكارة
Shaab en-Naam	شعاب النام
Shaaba	شعبة: منطقة صحراوية
Sha'abân	شعبان (شهر)
sh'aara	شعارة: مسقى فى الصحراء
Sh'aara	شعارة: اسم فرس أو جحش
Shâba	جبل شابا
sh'aeb	شعب
Shaeh	شيح
Shâer	شاعر
Shâfy	شافى
G. Shâfy	جبل شافى
Shâgg en-nâba	شق النابة
Shahûd	شاهود: شهيد
Shàjr	شجر
Ibn Shalân	ابن شالان
Shalân	شالان: فرع من الجلاس
Shalân	شالان: اسم كلب

Es-Sham	الشام
Es-Sham	الشام: منطقة دمشق
Shamir	شامير: قبيلة
Shammar	الشمر
Gebel Shammar	جبل شمر
Shammar Prince	أمير الشمر
Shammar-Toga	شمر توقا
Shâmy	شامى
Sharân	شاران: عرب وادى بيشة
Shatâra	شطارة
Shâtha	شاذا: بنى سالم
Esh-Shazlîeh	الشاذلية
Sh'brâmy	الشبرامى
Es-She'ab	الشعاب
G. She'aba	جبل شعابة
Es-She'abin	الشعابين
Es-She'adda	الشعادة: فرع من عقيبة
G. She'ar	جبل شيعار
Shebbaan	شيبّان
Shebîb ibn Tubbai	شعيب بن تُبأى

Shebrûm	شبروم
Sháfa	الشفا
Shehīeh	الشيحية: هجرة فى القصيم
Shelásh	شيلاش: اسم علم
Shelfa	شلفة
W. Shellál	وادى شلال
Shellalî	شلالى
Es-Shem	الشام
Shemân	شيمان
Shemlán	شملان: فرع من البشر
Shemmîa	شمية
Es-Shenàberra	الشنابرة
Shenna	شِنَّة
Sher'aan	شرعان
Es-Sherâfa	الشرافة
Sherarát	شرارات
Es-Sherg	الشرق
Sherîf	شريف (واحد من الأشراف)
A Sherîf	شريف (شحاذ فى المدينة المنورة)
Sherîf of Suâka	شريف سواكة

Es-Sherkiyîn	الشرقيين
Sherm	شرم: خليج
Sherōra	شرورة
J. Sherra	جبل شرات
Sherrâbs	مدخنو التبغ
Sherrân	أقارب الخيابرة
Sherràra	شرارة
Shérry	شرى: نوع من القرع
Sheukh	شيوخ
Sheyabîn Aarab	أعراب الشيابين
J. es-Sh'eyb	جبل الشعيب
Sheybàn	شيبان: اسم جبل
Sheykh	شيخ
Sheykh el-Aueyrid	شيخ العويرض
Sheykh el-mushèyik	شيخ المشايخ
Sheykha	شيخة
Sheytàn	شيطان
Es-Sh'hebba	الشحيبة
Shī 'as	شيعة
Es-Shibbebîeh	الشبيبة (أراضى زراعية)

Es- Shibbebîeh	الشبيبنية (حفر مياه)
Shibrîyyah	شبرية
Shidàd	شداد: عدة الجمل
Es-Shiffa	الشفا
Es-Shî-îl	الشيل
Shîl !	شيل
Shimbel	شمبل
Shimmer	شِمر (عميد الشمر)
Shinàny	شيناني (واحة في الرس)
Es-Shitá	الشتاء
Shittr	شتر: جمّال
sh'kâky	شعككي
Shôbek	الشوبك
Es-Shór	الشور: الشورى
Shórafat en-Nejid	شرفات النجيد
Es-Shotb	الشطب
J. Shotb	جبل شطب
Es-Shotibba	الشطيبة
Shottifa	شطيفة: اسم فرس
Es-Showŷg	الشويج: قرية

Shu bitekûn ent	شو بتكون أنت
Shubàramy	شبرامى: أهل سميراء نسبة إلى شيخهم راشد الشبرامى
Shubb ej-jemâl	شب الجمال
Shubb el-'bil	شب البل
Es-Shûberamy	الشبرامى: اسم عائلة
Shubúb	شبوب: شباب
Es-shûel	الشيول: اسم فرس
Shûf	شوف: انظر
Shûf f'il ghraib	شوف الغريب
Shuggéra	شقيراء
Es-Shuggera	اسم فرس
Shuggery	الشقيرى
Shujjer	شقير
Shuk el-'Ajûz	شوك العجوز
Shukkûk	شكوك العجوز
Shûkkra	شكوك
Es-Shukkra	شقرة: شقراء
Shûn	شوم
Shurma	شرماء
Shurrma	شرّما: مسقى صحراوى

shwâm	شوام
Shwóysh	شويش: ماهويى
Sîah	سياح: قرية فى الأفلاج
Siah	سياح
Siâla	سيالة: نوع من شجر السنط
Es-Sidd	السدّ
Siddes	السديس: جمل عمره سبع سنوات
Siddîr	سدير
Siddûs	سدوس
Sidényîn	سدنين: أقارب بنى عطية
Sidr	سدر: نوع من الشجر
Sidr	سدر: قمة بازلتية فى وادى فاطمة
Sieyda	سيدا: فرع من جهينة
Sihh	السيح: اسم قرية
The Sîk	السيق
W. es-Sillima	وادى السليمة
Sillima	مسلمة: من شجر السنط
Sillimát	السليمات: فرع من البشر
Simm	سُم
Simrân	سمران: اسم كلب

Ibn Sim'ry	ابن سمرى: فرع من الحطيم
Simûm	ريح السموم
Sinjâra	سنجارة: فرع من الشمر
Sîr Amîn	السير أمين: أمير حائل
W. Sirhân	وادى السرحان
Wady es-Sirr	وادى السر
Sirrûk	سرُّوق
Sîrûr	سرور: اسم علم
Sheirát	شيرات: اسم قرية
J. Sleih	جبل سليح
Es-S'lèyb	الصليب: الصلوبة
Seleymàn	سليمان
Sleymàn	سليمان: بائع التبغ
Sleymàn Abu Daûd	سليمان أبو داود
Sleymàn	سليمان: محصن سورى
Sleymàn	سليمان: ولد البسام
Sleymàn	سليمان: شقيق حامد العبيد
Sleymàn	سليمان: شخص من حائل
Sleymàn el-Khenneyny	سليمان الخنينى
Sleymàn	سليمان التيماوى

W. Sleymàn	ولاد سليمان
Slîm	سليم: من أشجار السنط
Es-Smîry	السميرى
Sobh	الصبح: قبيلة من بنى سالم
W. Sódr	وادى سدر
Beny S ókhr	بنى صخر
Sokr	صقر
Sôla	صولة
Es-Soleyil	السليل
Solubba	الصلوية
Solubbîa	صلوبية
Solubby	الصليبى
Soltan	سلطان
Sotwh	سطوح
Es-Sowwa	السوّة: اسم فرس
Sowwân	سوان: اسم كلب
Stambûl	إسطمبول
Es-Suâda	السوادة: اسم فرس
Sûah	صوع: جمع صاع
Suáka	صواكة: اسم هجرة

Suâki	سواكى: من أقارب الحويطات
Suâkim	سواكيم (سواكن)
Suâlif	سوالف: حكايات
Sualma	سوالمة
Suâny	سوانى
Subbâk	سبك الله
Súbbakha	سبخة
Subbîa	سبية: تل رملى
Subîa	سوبية: مشروب مُتخمر
Sudàn	السودان
Es-Suedda	السويدة: أهل شقيراء
Es-Suergîeh	السورجية :قرية حرب
Sueygy	السويجى
Suffa	صُفة: صخرة أرضية
Suffa	صفة: الغرفة العلوية من المنزل
W. es-Suffera	وادى الصفيرة
Es-Suffuk	الشقوق
Sufra	سفرة
Sújwa	سجوة: قلعة خلف الحجر
Sûk	سوق

Sûk	سوق: شارع
Sûk er-Ruwàlla	سوق الرولة
Sûk es-Sheukh	سوق الشيوخ
Es- Sulât	الصلاة
El-Sulèyl	السليل
Sull yâ, ta'all sull !	صلي يا
Sully 'alâ hâ'l ghràdâ	صلي على ها الغادة
Sully ' aly en-Neby	صلي على النبى
Sully Ullah'aley-hu	صلى الله عليه
Wady es-Sulsilla	وادى السلسلة
Súltàn	سلطان
Derb es-Sultny	الدرب السلطانى
Sum!	سُم
Summ	سُم
Súmmakha	سمخة
Summat	سامط: غير مُملح
Sumrâ	سمرا
Sûmt	سمط: مكان حجرى
Sunna	سُنة
Súnn' aa	صنعة

Sunnî	سنى
Sûr	سور
Surbût	شربوط: شربات
Surra	صرة نقود
Suryân	سريان
Sûs	سوس: فى المغرب
Es-Sûta	السوطة: فرع من عتيبة
Sûwahh	سواح
Swergîeh	سويرجية
W. Swergîeh	وادى سويرجية
Sweydia	سوادية
Swefly	سويفلى: منطقة فى حائل
Es- Swefly	السويفلى: أقارب الشرارات
Sweyga	سويحة
Sweylmát	السويلمات: فرع من البشر
Sweymly	السويلمى
Ta'al hennéyi	تعال هنا
Ta'al húbbiny	تعال حبينى (قبلينى)
Ta'al yâ mel'aun	تعال يا ملعون

Ta'am	طعام
Beny Taâmir	بنى تعمير
Tâga	طاقة
Táhal	طحال
Et-Tâif	الطيف
Taif?t	طيفات: فرع من ولادِ على
T?jir	تاجر
Takht	تخت
Tallâny	طلياني
Tambur	طمبور
Tammerra	تامرة: قرية في وادى الدواسر
Támr	تمر
Tamyîz	تمييز
Tannúr	تنور
Tarbûsh	طربوش
Târiba	تريبة: اسم علم
Tarkîy	طراقى
T ' âus	طاوس
Tâyib	طيب
El-Tâyif	الطائف

Techôi	تخوى: أستبس بغداد
Tebûk	تبوك
Teghrurriz el-ghrannem	تغرز الغنم
Tegúf	تقف
Tehâma	تهامة: الأرض المنخفضة
Tehâma	وادى تهامة
Tehâma	تهامة مكة
Tekhállinу-aném fi hothank	تخلينى أنام فى حضنك
Telâl ibn Rashîd	طلال بن الرشيد
Temathîl el-Helalát	تماثيل بنى هلال
Temîm	تميم
Bnenu Temîm	بنى تميم
Temmn	تمن: أرز هندى
Temút	تموت
Terabîn	ترابين: عشيرة من الحويطات
Terâgy	طراقى: عابرو سبيل
Terâny	ترانى
Terky	تركى: شيخ من القحطان
Terky	تركى: قبلى من قبيلة حرب
Térrai	تراى: مجرى سيل

Térras	ترس
Teslîm	تسليم
Teyâmena	تيامنة
Temya	تيمة
Teymâny	تيمانى
Et-Teyry	التيرى
W. Thá	وادى ظا (فى العويرض)
Thá el-melûk	داء الملوك
Thâbit	ثابت: فرع من الشمر
Th'af	ثعاف: صخرة مازالت فى وادى فاطمة
Thafŷa	ظافية: جبل من تيماء وتبوك
Tháhab el-asfr	الذهب الأصفر
Thâhir	ظاهر: قروى من تيماء
Thâhir	ظاهر: ماهويى
Thâhir's daughter	ابنة ظاهر
'ayd eth- thah	عيد الضحية
Eth- Thâhy	الضاهى
Thaif	ضيف
Thaif- Ullah	ضيف الله
Thaifullah	ضيف الله من ولاد على

Thaifullah	ضيف الله الحطيمى
Thail	ذيل
Thakîf	ثقيف
Esh-Th'al	الذعال: جبل بين القصيم ومكة
Eth- Thâleba	الذّالية: قبيلة من الأشراف
Thalûk	ذالوق: طيب المذاق ذميم
Thâmin	ذميم
Thmmad	ثمأد: جبال
Wady Thammud	وادى ثمود
Thamûd	ثمود
Than-ak	ولدانك
Thanthub	تنضب
Thanwa	ذانوة: امرأة ماهوبية
Thàr	ثار
Thàt el-Hâj	ذات الحج: اسم قلعة
Thàt 'Irk	ذات عرق
Ullah y'aŷna-kom	الله يعنيكم
Ullah yerham weyladeyk	الله يرحم والديك
Ullah yesellîmk	الله يسلمك

Ullah yethkirak	الله يذكرك
Ullah la yubârak fîk	الله لا يبارك فيك
Ullah yubèyith wejh	الله يبيض وجه
Ullah yul'aan abu ha"l hubûb	الله يلعن أبوها الهبوب
Ullah yul'aan Thegîf	الله يلعن ثقيف
Ullah yúnsur	الله ينصر
Ullah yusullat	الله يسلط
Ullah yutowil "umr hâl weled!	الله يطول عمر ها الوليد
Ullah yuwasselak b'il-kheyer	الله يوصلك بالخير
Ullema	علماء
Umgassur	أم قصور
Umjemmîn	مُقيمين
Umjeyd	أعراب أمجيد
Umm Arkab	أم أركاب
Umm Arthama	أم أرضمة
Umm Gemâl	أم جمال
Umm-Jenàyb	أم جنيب
Umm Kîda	أم كيدة
Umm Meshe'aib	أم مشاعيب
Umm Nejd	أم نجد

Umm Rosàs	أم رصاص
Umm R?kaba	أم ركبة
Umm Sâlema	أم سليمة
Umm ws-Sghrar	أم الصفار: أسم فرس
Umm es-ûf	أم السيوف
Umm Theyàn	أم ذيان: أسم قرية
Umm Tŷeh	أم تيه
J. Ummry	جبل أمرى
Ummshásh	أم شاش
Ummthail	أم ذيل: اسم كلب
Umseylmy	أم مسيلمي: مسيلمة
Umshetta	أم شتا: فرع من ولاد على
Umsubba	أم سبًّا
Umteyra	أم طيرة: اسم أنثى
Un'aam Ullah 'aleyk'	أنعم الله عليك
Unseir	أونسير: أقارب العنزى
Urhum	أرحم
Urraie	أتبعنى
El-'Urruk	العروق: الأجور
Usha	عُشَّة

Ustibbah	اصطبح
El-Usshb	العشب
G. Usshúb	جبل عشب
Usshud	أشهد
Utherah	عذيرة: بلدة مخربة فى جبل سعير
El-Úthub	الأثب: شجرة تين برية
El-'Uzza	العزى

Waar	وعر
Wa ent séllm	وأنت سليم
Wa fúkkny rubby	وفقنى ربى
Wa hu fîbant-ak	وهو فى بطنك
Wa hyât	وحياة
Wa hyât dûkny	وحياة ذقنى
Wa hyât ibny	وحياة ابنى
Wa hyât el-messîh hâtha	وحياة المشى هذا
Wa hyât rukbátak	وحياة ركبتك
Wa hyât rukbaty	وحياة ركبتى
Wa hyât Ullah	وحياة الله
Wa hyât weyladich	وحياة ولادك

Wa low	ولو
Wa shûghrol-hum bez en náhab	وشغلهم بالنهب
Wâba	وباء: طاعون
Wábar	وبر: اسم حيوان
Wabbar	وبر: اسم حيوان
Wâbissa	وبيسة: فرع من البلوى
wád' el-kebîr	الوادى الكبير
Wadda	ودًا: أسم كلب
Wadiàn	وديان
Wâdy	وادى
Wâdy	وادى: اسم علم
Wâdy Mûsa	وادى موسى
El- Wâdy	الوادى
Wâdy	وادى السر
Wafîyat	وفية: جمل عمره ٨ سنوات
Wâga	واقا: اسم كلب
El-Wàgilla	الوقيلة: اسم فرس
Beny Wáhab	بنى وهاب
El-Waháby	الوهابى
Waháby	وهابى

Wáhamy	وهمى
Wahîby	وهيبى
Wàil	وعيل
Wàilyin	وعيلين
Wâjed	واجد
Wajjâ	وجع
Wajjàj	وجاج: اسم بئر
Wajjid	وجيد: اسم أنثى بدوية
Wajjidàn	الوجدان: فرع من عتيبة
El-Wakbâ	الوكبة
Wák'm	وخم
Wakîd	وكيد: مؤكد
Wàly	والى
Warak	وراءك
Wareysîeh	وريسية
Wâsit	وسيط
El-Wàsita	الوسيطة
Wásm	وسم
Wa'ul	وعول
Wâyil	وعيل: اسم علم

Wâyil	**وعيل: شيخ ماهوبى**
Wedduk	**ودك**
Weeaho	**ويّه: نداء للإبل**
El-Wejh	**الوجه: بلدة**
Wélad'Aly	**ولاد على**
Wélad Selîm	**ولاد سليم**
Wéled	**ولد**
Wélad 'ammy	**ولد عمى**
Wélad Mahanna	**ولد مهنا**
Wellah	**والله**
Wellah Fulàn	**والله يا فلان**
Wèly	**ولى: وربى**
Wennys	**ونيس**
El-Wéshm	**الوشم**
Weyley	**ويلى**
Wèyrid	**وريد: مصدر ماء**
Wèyrid	**وريد: شخص من الفجيرى**
Weysh 'aad	**ويش عاد**
Weysh 'aleyk	**ويش عليك**
Weysh yúnsurhu	**ويش ينصره**

Widd el-ghrarîb ahlhu a 'an el-ájnaby	ود الغريب أهله عن الأجنبى
W. Widj	وادى ودج
Wilàyat Konia	ولاية قونية
El-Withanîn	الوزانين: فرع من عتيبة
Witr	وتر: اسم جبل
Wittr	وتر: عرّاقة للجمل
Wòh-ho !	وو–هو: نداء على الإبل
Wolloo-wolloo-woolloo	نداء على الإبل
Worma	ورماء: اسم بدوى لأنثى
Wothŷhî	الوضيحى
El-Wuffiàn	الوفيان: فرع من حرب
Wurrùr	ورور: ورن
Wúttid	وتيد: جبل فى تهامة

Yâ ahl el-karîm	يا أهل الكريم
Yâ ent râkabîn	يا أنت ركابين
Yâ fárkah	يا فركة
Yâ hulla	ياحول الله
Yâ latîf !	يا لطيف
Yâ mâl ej-ju'a	يامال الجوع

Yâ mâl et-teyr	يا مال الطير
Yâ mâl eth-thubbah	يا مال الضبعة
Yâ Rasûl Ullah	يا رسول الله
Yâ Rubby !	يا ربى
Yaarud'aley	يعرض عليّ
Yâfet	يافت: ولد نوح
Yagût	ياقوت
Yahûd	يهود
Yahûd Kheyber	يهود خيبر
Yahûdy	يهودى
Yahŷa es-Sâlih	يحيى الصليح
Yahŷa	يحيى
Yajiddûn	يجذّون (النخيل)
Yakt'a	يقطع
Yakubb-hu	يُكبّه
El-Yâm	اليام: سلالة عربية
Yânb 'a el-Bahr	ينبع البحر
Yanb 'a en-N?khl	ينبع النخل
Wady Yanb'a	وادى ينبع
Yáthrib	يثرب

Ybba	يابا
Ybba Moghrair	يابا مغرير
Yegôtarun	يقاطرون
Yéhia	يحيى
Yel'aan	يلعن
Yelduz	يلدز: اسم كوردى
Yellah yâ sitterak	الله يسترك
El-Yemâma	اليمامة
El-Yemâna	اليمانة
El-Yémén	اليمن
Yémeny	يمنى
Yémeny	يمنى (مادة من اليمن)
Yemmen	آبار اليمن
Yerhamak Ullah	يرحمك الله
Yeterôha	يتروها
Yeteyr	يطير
Ymgebâs	أم حبيبة: بومة الصحراء
Yoktân	يكتان
El-Yôm nejîm	اليوم نقيم
Yugaialûn	يقيلون

Yuháshimûm	يحشمون (يحترمون)
Yuhowwishûn	يهوشون
Yujassas	يُجسس: يتجسس
Ykdur Ullah	الله قادر
Yulubbûn	يلبون
Yun 'aam Ullah 'aleyk	ينعم الله عليك
Yunâny	يونانى
Yûntun	ينطون
Yurussun	يرشون (الماء)
Yûsef Khâlldy	يوسف الخالدى
Yusb 'ak ent !	يسبعك أنت
Yusuddirûn	يصدرون

Za 'al	زعل
Zabtîyah	ضبطية
Zâd	زاد
Zahlán	زعلان
Zâmil	زامل
Zanzibar	زنزبار
Ez-Zbèyd	الزبيد

Zbeyer	الزبير
Ez-Zelakát	الزلاقات
Zellûm	مجرى سيل
Zemmel	زمل (إبل الحمل)
Zemzemîeh	زمزمية
Zenaiba	زنيبة
Zerka	زرقة
Zêy êl-fil	زى الفيل
Beny Zeyd	بنى زيد
Zeyd	زيد الحربى
Zeyd	زيد راعى الماشية
Zeyd	زيد السبيكان
W. Zeydîeh	وادى زيدية
'Aŷn ez-Zeyma	عين الزيمة
Zîarra	زيارة: من أقارب أهل خبير
Ez-Zibbâra	الزبارة
Zibdâny	زبيدانى
Zighreybîeh	زغربية
Zika	زكاة
Zikma	زكمة

W. Zilèyly	وادى زليلى
Zilfa	زلفى
Ez-Zilfy	الزلفى
Zmèyem	زميم
Zmurrûd	زمرد
Zófr	زوفر (نوع من الأصداف)
Zóhra	زهرة
Zôl	زول
Zôra	زوره
Zuâmil	زواميل: رجال الزامل
Zuâra	زوارة: أقارب الفقارة
Zûba	زوبا: فرع من الشجر
Zubbàla	زبالة: فرع من البلوى
Zubbiàn	زبيان: فرع من جهينة
Zuggimân	زوجمان: اسم كلب
Ez-Zumèyl	الزميل: فرع من الشمر
Ez-Zurán	الزوران: فرع من عتيبة
Zymat	زيمات

الإشراف اللغوى: حسام عبد العزيز
الإشراف الفنـــى: حســن كامـــل